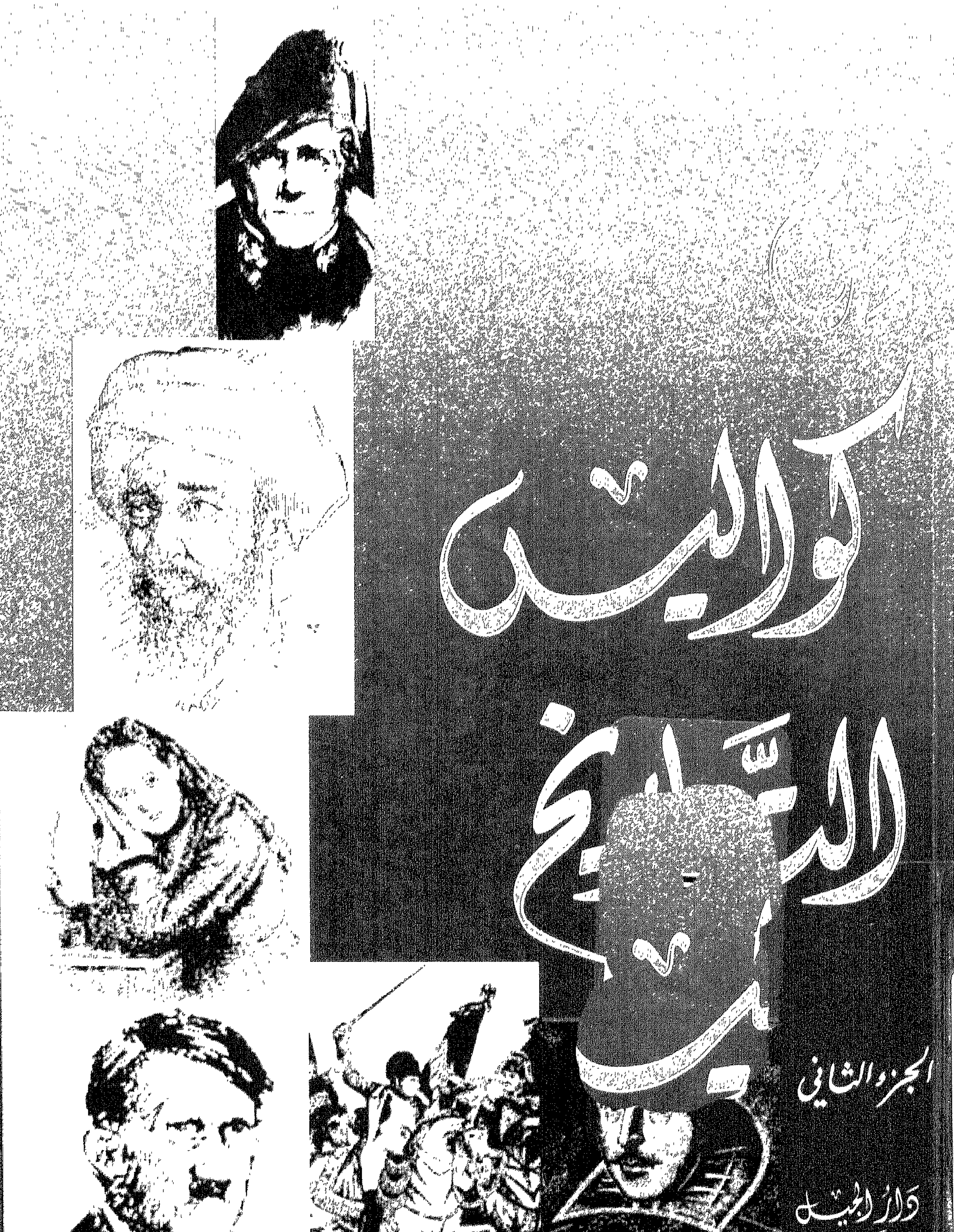
كوارث التاريخ

الجزء الثاني



دار الجيل
بيروت

من كواليس التاريخ

سمير شيخاني

من كواليس التاريخ

الجزء الثاني

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الجزء الثاني

١ - من التاريخ الالماني والنمساوي

٢ - من التاريخ الروسي

٣ - من التاريخ الايطالي

٤ - من التاريخ الشرقي

١ - من التاريخ الالماني والنمساوي

- ☐ مأساة مايرلنغ.
- ☐ لودفيغ الثاني البافاري، الملك المجنون.
- ☐ زواج حب، ونهاية مأساوية .
- ☐ جريمة اغتيال في سراييفو: رصاصتان كانتا نهاية السلام في اوروبا
- ☐ جاسوس اسمه شيشرون.
- ☐ الجنرال الذي تحدّى هتلر.
- ☐ لعبة مذابح حول هتلر.
- ☐ لماذا حرّر هملر ٣٥٠٠ يهودي؟!
- ☐ ماذا حلّ بمارتن بورمان، خليفة هتلر؟
- ■ ملحق مصوَّر.

ماساة مايرلنغ

حتى اليوم لم يَنجلِ تماماً السر الذي يكتنف مصرع العاشقين المفجع في مايرلنغ .

فمنذ أقلّ من مائة سَنة بقليل ، اقتُرحت تفسيرات لهذه المأساة ، معظمها قريب الى المعقول ، ومع ذلك يجعل السر أكثر غموضاً من ذي قبل . فالوثائق ، والرسائل ، والذكريات التي تُنشر على مرّ السنين ، تحمل على مراجعة ما كنا نعتقد أننا نعرفه عن ثقة .

إهو الإنهاك العصبي؟ أهو الحب؟ أهي السياسة؟ اهي المبارزة على الطريقة الاميركية؟

ان قدر رودولف قد دُوِّن في إطار هذه الافتراضات ، أم لعله فيها جميعاً في آن معاً؟ !

إن ما نعرفه اليوم عن هذه المأساة يلامس الحقيقة من قرب ، وتبدو هذه الحقيقة متعددة بشكل غريب ، لدى ملتقى المصادفات خارج التفاهات .

كل يوم ، ولدى آخر دقّات الساعة الثانية عشرة ، كان الحرس الامبراطوري يدخل الفناء الداخلي لقصر هوفبورغ النمساوي في فيينا ، على قرع الطبول . وخلال فترة استبدال الحرس التي تستغرق خمسين دقيقة ، كانت الموسيقى العسكرية تبهج المشاهدين . ويوم الأربعاء في ٣٠ كانون الثاني ١٨٨٩ ، وقبيل الثانية عشرة والنصف ، ولحظة كانت الفرقة الموسيقية على وشك عزف افتتاحية اوبرا «هوغونو» للموسيقي الألماني مايربير ، أصدر المرافق العسكري الى رئيس الفرقة الأمر بالتوقف عن العزف . وتوقفت الموسيقى فجأة في سيل من النغمات الناشزة .

منذ زمن طويل لا أحد يذكر ، في فيينا ، أنه أُعطي الأمر الى الفرقة الموسيقية

العسكرية للتوقف عن العزف أثناء تبديل الحرس . وسرعان ما انتشرت الشائعات ، إلا أن أحداً لم يدرِ حقاً وبالضبط اي حدث جرَّ الى اتخاذ هذا القرار المفاجىء حتى صدرت صحيفة «فينر تسايتونغ» معلنة وفاة ولي العهد رودولف ، في بلاغ رسمي خاص صيغ بهذه العبارات :

«الأربعاء في ٢٠ كانون الثاني ١٨٨٩ .

خلال هذه الصبيحة ، أعلن صاحب السعادة الكونت جوزف هويوز ، القادم من مايرلنغ ، أن صاحب السمو الامبراطوري ، ولي العهد الارشيدوق رودولف ، توفي فجأة من جرّاء نوبة قلبية .»

ومع ذلك ، في اليوم نفسه ، تجرأت صحيفة اخرى تصدر في فيينا ، اكثر اطلاعاً ، وأقلّ تشيعاً للسلطة ، على التحدث عن «انتحار بسبب العته» . فصودرت اعدادها . وفي اليوم التالي سرّب الكونت تافي ، رئيس الوزراء ، الى صحيفة «فينر تسايتونغ» شبه الرسمية نبأ مماثلاً ، يلمح الى الانتحار ، ولكن ما إن ظهرت الاعداد حتى صودرت بدورها بعد بضع ساعات . ومنذ تلك اللحظة ، لم يعترف الامبراطور فرانتس ـ جوزف او الناطقون بلسان حكومته ، رسمياً ، بغير النظرية القائلة بالوفاة بسبب الانسداد الدموي . حتى فيليب دو كوبورغ ، احد اصدقاء رودولف الحميمين ، وكان مع ذلك في مايرلنغ ، ليلة المأساة ، التزم بعناد الدفاع عن هذه النظرية السخيفة ، التي لاتقوم على اي أساس صحيح ، وكل ما يُرجى من ورائها حفظ ماء الوجه .

إن سرّ مأساة مايرلنغ لا يكمن في معرفة ما إذا كان الأرشيدوق رودولف قد انتحر ام لا ، حاملاً معه رفيقته ماري فتسيرا إلى العالم الآخر . ذلك بأن هذا الأمر مؤكد منذ زمن طويل . إن سرّ مايرلنغ ، هذا الذي يصطدم به المؤرخون ، هو معرفة ما هي الاسباب والدوافع لارتكاب رودولف هذا العمل الذي يتعذّر إصلاحه .

* * *

فمن كان ، اولاً ، رودولف ـ فرانتس ـ شارل ـ جوزف ، أرشيدوق النمسا ، ولي

العهد الامير الامبراطوري ، وارث تاج المملكة الثنائية النمساوية ـ المجرية؟

إن هذه المأساة ما فتئت تؤثر في حياتنا اليومية ، وكان لها أعمق الأثر في تاريخ العالم . فكيف كان ذلك؟ هوذا الشرح ، وهو جدّ بسيط :

يقدّر العارفون انه لو قُيِّض للارشيدوق رودولف الديمقراطي النزعة ، أن يبقى في قيد الحياة ، لما نشبت الحرب العالمية الاولى السنة ١٩١٤ ، لأنه كان يكره القيصر الالماني فلهلم الثاني كرهاً لا مزيد عليه ، ولم يكن ليقبل بضم قوات النمسا الى قوات ألمانيا العسكرية . وفضلاً عن ذلك كان يحب انكلترا ، ولم يكن يُستبعد ان يرفض محاربتها فيما لو مدّ اللّه في عمره . ومن هنا يقدّر المؤرخون انه كان بالامكان تجنيب العالم ويلات الحربين العالميتين الاولى والثانية .

تُرى هل صرع الأمير رودولف عشيقته البارونة ماري فتسيرا ، ثم انتحر؟ أم أن فريقاً ثالثاً صرع الاثنين معاً؟ هذا ما أغلق فهمه على الجميع ، وبقي سراً منذ ذلك الحين . وقد تطرّق الكثيرون الى هذه المأساة ، ووضعوا عشرات الكتب حولها في مختلف اللغات ، ولا سيما في الانكليزية ، والفرنسية ، والايطالية ، والألمانية . إلاّ أن أحداً منهم لم يستطيع اكتناه سر مأساة مايرلنغ الذي لن يُحلّ ! . . .

آمال خائبة

كان الامبراطور فرانتس ـ جوزف الثاني في الثامنة والعشرين ، عندما بدت له أن خلافته قد تأمّنت أخيراً ، بعد أن كان لا يتوقّع ذلك . فقد وُلد طفل في قصر هوفبورغ ، أيقظت صيحاته الأولى على الفور الآمال الكبار في اوساط الرعايا المخلصين لجلالته الرسولية . وكان ذلك صبيحة ٢١ آب ١٨٥٨ .

فوق سرير الامير الصغير الذي دُعي رودولف ، على اسم مؤسس السلالة الملكية ، لم تكن الجنّيات الطيبة هي التي انحنت وحدها . ومع أنه بدا صحيح البنية ، فان أموراً وراثية مؤسفة كانت تتهدده سواء من الذرية الاسبانية لآل هابسبورغ التي يتحّدر منها والده أو من ذرية فيتلسباخ التي تتحدّر منها أمه .

ولم يجد الطفل ، مع الأسف ، بالقرب من امه الامبراطورة اليزابيت الشهيرة

بلقب «سيسي» ، مشاعر الحب التي كان يمكن أن توازن الجو الجليدي ، الضاغط ، في قصر هوفبورغ . واليزابت شخصياً كانت تجد صعوبة في تحمُّل الجو الشديد الوطأة ، وتشكو من خشونة زوجها الذي رأى في هذا الصبي وارثاً ، اكثر منه ابناً . ومذ ذاك تخلّت هي نفسها عن رودولف الى اناس أغراب ، فلما شبَّ ، وبات يسعه التحادث مع هذه الأم التي كان معجباً بها ، كانت هي قد تاهت في عالم داخلي ملأته بالمشاهد الخارقة .

كان هذا الأمير في البدء ، محاطاً بالمرؤوسين ، ثم بالمعلّمين اللامبالين ، فشعر شيئاً فشيئاً أنه محروم تماماً المحبة والعطف اللذين هو بحاجة اليهما أكثر من أي شيء آخر .

بالنسبة الى فوانتس ـ جوزف ، كان ينبغي أن يصبح وارثه الوحيد جندياً ، كبيراً ، البطل العسكري الذي لم تسمح له الظروف بأن يكونه هو شخصياً .

كانت التعليمات المعطاة الى المربين فريدة في نوعها . كان أولهم كولونيلاً سادي النزعة . فكان يوقظه وسط الليل باطلاقِ رصاصة من مسدسه على مسافة اصبع من أذنه ، لكي يجعله يعتاد على الاسلحة النارية . وكان الصغير يهبّ مذعوراً في كل مرة ، وقد تشنّج من فرط الرعب . ولكن الامبراطور كان يردّ لدى كل احتجاج بالقول : «استمر ، ينبغي له أن يخشوشن ، مهما كان الثمن . أنا أكره ميوعته .»

وتكشفت هذه الاساليب عن أنها غير فعّالة . وفي الثانية عشرة ، وبدلاً من ان يكون قد بات يتمتع بصفات الرجل ، كان الامير يبدي ميولاً نسائية ، فيلهو ، مثلاً ، بخياطة أثواب للدمى .

وتشهد ابنة خالته ، الكونتيس لاريش فون فالرزي ، التي كانت تتردد عليه وتعاشره عندما بلغ الثامنة عشرة بأنه «كان لطيف المعشر ، وجذّاباً جداً عندما يروق له ذلك ، إلا أنه ، غالباً ما كان يبدي انانية وقحة ، غير طبيعية حقّاً .»

في الواقع ، كان يسأم كثيراً . ولتزجية الوقت ، راح يفرط في الشراب و«بخاصة البراندي ، مسكره المفضل» . وأدمن المورفين أيضاً ، الذي كان يمدّه به طبيب دجال .

وآن أوان تزويجه . ورغبة من أمّه في توفير بعض الحرية له ، وهي التي تألمت من

حرمانها منها ، عرفت كيف تطالب بأن يُسمح له باختيار شريكة حياته . ولكن في الحقيقة ، كان الاختيار محدوداً جداً .

ذهب رودولف ، في البدء ، الى مدينة دريزدن ، حيث كان يمكن ان تكون ماتيلد دو ساكس الزوجة الملائمة . ولكن ، من النظرة الاولى ، تبيّن للأرشيدوق انها لن تلبث أن تصاب بالسمنة . فسلك عندها طريق اسبانيا حيث بدت له ولية العهد جذابة ، ولكنها كانت دميمة الى حد بعيد . وكان يعتقد انه لن يُغرم إلاّ بامرأة تتمتع بكل الهبات الجسدية والفكرية الجميلة .

هيهات ! لم تكن محاولته الثالثة أفضل . فبروكسل حملت اليه من خيبات الامل بقدر ما عرف منها في العواصم الأخرى . ولكن ، لما كانت رحلته الزوجية قد أنجزت ، كان ينبغي له أن يوافق على طلب يد إحدى بنات الملك ليوبولد الثاني ، الأميرة ستيفاني .

واحتُفل بالزفاف في أبهة كبيرة . كانت ستيفاني ترتدي ثوباً حريرياً أبيض ، مرصعاً بالحجارة الكريمة . إلا أن هذه الزينة الاحتفالية جعلتها تبدو أكبر سناً ممّا هي عليه ، بدلاً من ان تزيد في جمالها ، فضلاً عن أنها نزعت عن وجهها الخالي من الحاجبين والرموش ، ما كان فيه من طبيعي ، على ضآلته ، وكانت ،أخيراً ، تمشي بتثاقل بحيث كان المرء يعتقد أنه «يسمع مثل صرير النوابض غير المزيّتة من تحت تنانيرها» ـ حسب تعبير الكونتيس لاريش .

رودولف يطمح إلى الحكم

لم يكن من بدّ أن تسوء حياة الاميرين الزوجية بسرعة ، وقد بدأت تحت طالع مؤسف حقاً . ولم يَمضِ على زواجهما غير ثمانية أيام حتى راحا يتبادلان الكره .ولم تفعل شيئاً في سبيل مصالحتهما ولادة ابنتهما الارشيدوقة اليزابت ، بعد سنتين من الزواج ، بل على العكس عمّقت شقة الخلاف . بالطبع ، كان رودولف يحبّ كثيراً هذه «الصغيرة المسكينة» ، وقد أوصى زوجته قبل وفاته بقوله : «اعتني بها ، فهي كل ما سيبقى مني !»

غير أن ستيفاني صنعت من الطفلة ذريعة جديدة للجدال . فهي ترى ان تُربّى بقسوة ، في حين كان هو يتذكّر تربيته الشخصية ، فيميل الى التسامح والتساهل . ومن هنا كانت النزاعات المتواصلة . ومن هنا كذلك فترات الغياب التي كانت تتكرر باستمرار من جانبه .

وتخلّى رودولف عن البحث عن السعادة في البيت ، وراح يسعى وراء المغامرات ، اينما كان ، ومع اي امرأة كانت .

وانهمك في المخادع ، وبقي لديه الوقت الكافي للقيام بأشياء أخر . وكان قد أنمى في وقت مبكر ميلاً الى السياسة ، او بالاحرى الى التآمر ، الذي هو رواية السياسة . فانضم الى محفل ماسوني حيث التقى الكونت باتياني الذي حكم الامبراطور على والده ، بطل الثورة المجرية ، فانتحر بالسم وهو في السجن ،وبالاتفاق مع بعض الوطنيين المجريين تآمر ، من أجل تتويجه ، ملكاً على المجر ، دونما ابطاء . وفي الحقيقة ، كان رودولف يغذّي مشاريع كبيرة ، ذلك بأنه كان ، في الوقت نفسه يودّ تحويل الدولة الثنائية الى اتحاد للشعوب الحرة والمتساوية في الحقوق . كان والده فرانتس ـ جوزف يقول له : «إنك تتردد على الديمقراطيين . اعمالك الطائشة ستؤدي الى تفكيك الامبراطورية .» فكان الإبن يجيب بالقول : «وإما الى تعزيزها ، لأن النمسا لن يعود بها حاجة الى تصويب مدافعها شطر البلدان التابعة لها .»

كان المهمّ بالنسبة اليه الخروج من الركود الذي يحسّ أنه يغوص فيه . وقد بات لا يحتمل الكسل الذي فُرض عليه .

وفي السنة ١٨٨٨ ، بلغ سخطه وعصبيته الذروة . فكان حوله يتحرك رجال مشبوهون بميولهم التحررية اكثر من أي وقت مضى . وكما لو كان يودّ نسيان الخطر الذي سيتعرض له بسبب علاقاته ، انغمس في الملذات بمزيد من الحمّيا .

عندها نما في قلبه الحب الكبير الذي كان يشتهيه منذ عهد المراهقة .

وقد بدأ ذلك مثل كل هوى عابر مرّ به وأتاح له أن يطيش حتى الآن .

تحدّد الشهادات العديدة والمحددة اول لقاء بين العاشقين المأساويين في ربيع السنة ١٨٨٨ . فقد جاء رودولف ليشهد سباقات الخيل في منتزه «براتر» الشهير في فيينا .

فلمح فجأة صبية ، قصيرة القامة ، ولكنها ذات أناقة مرهفة ، وذات شعر كستنائي وعينين زرقاوين ، فأسرته . وسأل مرافقه الذي كان بصحبته :

– من تكون؟

– انها تُدعى ماري . احدى السيدتين اللتين معها هي أمّها ، البارونة فتسيرا ، وأصلها مجري . . . والاخرى . . .

فقاطعه رودولف :

– الاخرى أعرفها . إنها ابنة خالتي الكونتيس لاريش . هذا أمر حسن . بفضلها سأتمكن من لقاء الحسناء المجهولة بيسر .

في ذلك اليوم ، في الواقع ، اكتفى رودولف وماري بتبادل النظرات الملحاحة أكثر فأكثر ، وغير المناسبة اطلاقاً ، على حد تعبير السيدة فتسيرا . ولكنهما عادا فالتقيا بعد شهر في سفارة ألمانيا . وفي هذه المرة لم يترددا في إظهار ميلهما ، احدهما الى الآخر ، بطريقة وقحة . فلم يهتم الأرشيدوق إلا بماري ، ولم يراقص إلاّ ماري .

أما في ما خصّ ماري ، فقد جرى في بداية السهرة حادث أظهر الى أي درجة بلغ بها الهيام . فلدى وصول الزوجين الاميرين ، رفضت ماري ان تقدّم الاحترام التقليدي لستيفاني ، واضطرت والدتها الى لوي معصمها لتجبرها على الانحناء . ولكنها لم تلبث أن انتصبت ، وعليها امارات التحدي ، دون أن تحاول إخفاء الغيرة التي كانت تتأكلها . كان قلقها أشد من قلق رودولف ـ مهما يكن متيماً بها ـ فهو لم يتخلَّ بعد عن اي من علاقاته «الجارية» . ولم تكن هذه مصدر طمأنينة له دوماً .

في مطلع صيف السنة ١٨٨٨ ، سرت شائعة قوية تفيد أن الامير آورزبرغ ، لم يتردد في تحدّي وارث العرش انتقاماً لاغواء الارشيدوق اخته . وكانت المبارزة ممنوعة رسمياً ، على الرغم من ممارستها كثيراً . ولكن كان سائداً في النمسا ، في ذلك الوقت ، نوع غريب حقاً من المبارزة يسمّى «المبارزة على الطريقة الاميركية» ، تتلخّص بالسحب بواسطة القرعة لمعرفة مَنْ من الخصمين ينبغي ان ينتحر بعد فترة معينة .

كان ذلك ، في الحقيقة نوعاً من التحدي الرومنطيقي للموت ، ما دام الموت

سيضرب بالضرورة أحد «المتبارزين» ، في حين أنه في المبارزة التقليدية يحتفظ الخصمان بحظهما . ويروي الأمير بار ، مرافق فرانتس ـ جوزف العسكري ، انه شخصياً مرّ بمثل هذه التجربة ، وكان حسن الطالع حليفه .

ويزعمون ان رودولف حاول جدياً التملّص من ذلك ، ولكن فرانتس ـ جوزف قال له :

– انت اول سيد في الامبراطورية ، وحسب منطوق قانون الشرف ، يتوجب عليك التعويض على آورز برغ .

فإذا كان الامبراطور قد تلفّظ فعلاً بهذه الكلمات ، فإن المبارزة لا يمكن أن تكون إلا تقليدية ، كلاسيكية ، وليس على الطريقة الاميركية . . .

مهما يكن من أمر ، فإن رودولف قد سحب الكرة السوداء ، الأمر الذي حكم عليه بالانتحار في ما بعد ، في ٣٠ كانون الثاني ١٨٨٩ .

إن هذا الافتراض الرومنطيقي لم يقم عليه الدليل قط ، على الرغم من أن الكونتيس لاريش ، نفسها ، ردّدت صدى ذلك في ما بعد .

أما ماري ، فانها ظلت تجهل نتيجة هذا اللقاء ، لأن الارشيدوق ـ حسب الشائعات ـ لم يردّ على اسئلتها إلا بالرجاء أن تكفّ عن التحدُّث اليه في هذه القضية العديمة الاهمية .

«عدني بألا تراها بعد الآن!»

بالنسبة إلى «البارونة الصبية» ، كانت السنة انتهت في غمرة الغم ، لو لم ينتصر حبها على كل العقبات ، وبطل على حين غرّة أن يكون افلاطونياً ، حتى أنها استطاعت أن تكتب إلى مربيتها ومعلمتها السابقة التي ظلت صديقتها ، تقول :

«عزيزتي إرمين ، ينبغي لي اليوم أن أسرًّ اليك باعتراف سيغضبك . ذهبت اليه أمس ، من الساعة السابعة الى التاسعة . فقد كلانا رأسه . الآن نحن احدنا للآخر جسداً وروحاً .»

وبعد فترة قصيرة ارسلت الى رودولف علبة سكاير ذهبية ، حفرت بداخلها هذا

التاريخ الذي لا يُنسى : «١٣ كانون الثاني . . . بفضل القدر !»

وانتشى الحبيبان بخمرة سعادتهما التي كانا يخشيان أن تكون قصيرة ، فلم يعودا يتخذان اي حيطة . وفي ٢٧ كانون الثاني ، وخلال الحفلة الراقصة في البلاط ، كانت الفضيحة على وشك الانفجار . كان رودولف وماري إما ينعزلان وراء فتحات النوافذ المطلة على الحدائق المتلألئة بالثلج البرّاق ، أو يرقصان معاً ، مغمضي العيون ، يتهاديان على ايقاع الفالسات الحالمة . وكانت الانظار تحدّق بهما ، والهمسات تدور حولهما ، بحيث ان الامبراطور وبّخ ابنه في اليوم التالي ، في حضرة زوجته ستيفاني ، بعنف أكثر من المعتاد . وقال له :

- أعرف أنك تأمل في إلغاء زواجك بواسطة الكرسي الرسولي . ولكن ذلك امر مستحيل استحالة مطلقة . لن تتمكن من الاقتران بهذه الفتاة . ستعدني بأنك لن تراها بعد اليوم .

وصمت رودولف ، ولكن عضلات وجهه تشنّجت من فرط عصبيته . وأخيراً ، ألحّ الامبراطور ، ورجا ، وهدد ، وتوعّد ، ثم وافق رودولف على قسم اليمين المطلوب منه . ولكنه طلب الى والده أن يسمح له بأن يحدّث ماري في الأمر . فوافق الامبراطور ، وقد تأثّر للانفعال الظاهر على ابنه .

بدا رودولف ، ظاهرياً ، راغباً في التقيد بالوعد الذي قطعه لوالده ، فاستدعى اليه ماري فتسيرا في ٢٩ كانون الثاني . فوصلت الى قصر هوفبورغ برفقة صديقتها التي لا تفارقها الكونتيس لاريش التي تمثل إزاءَها دور الحارس الأمين .

وقد تذرّعت الاثنتان ، تجاه البارونة الوالدة ، بأنهما تودّ ان التبّضع من مخزن في شارع كيرتز شتراسة . وفي الحقيقة اتمتا شراء ترهات الزينة التي برّرت خروجهما بسرعة ، وبلغتا البلاط الامبراطوري في مطلع فترة ما بعد الظهيرة .

على الفور حمل الارشيدوق الصبية الى جناحه الخاص . وطال انتظار الكونتيس لاريش في ردهة الانتظار ، فملّت ، واستدعت صديقتها بواسطة احد الخدم . غير أن رودولف بدا بدلاً منها : فسألته : أين ماري؟

فقال الامير بلهجة حاسمة :

– ستبقى معي الليلة . ستعودين وحدك . هذا كل ما هنالك !

– أنت لست جاداً . لا يمكنك أن تبقيها هنا .

فردّ رودولف الذي بدا ظاهرياً أنه مصمم تماماً ، بكل برودة :

– إهدائي ، يا ابنة الخالة ! عودي إلى منزلك ، ولرفع كل مسؤولية عن كاهلك ، قولي للبارونة ان ابنتها هربت منك وانتما تساومان على قطعة قماش .

ولم تقتنع الكونتيس ، وحاولت المناقشة ، فإذا به يرجوها ، قائلاً :

– يمكن أن يجري حدث هام في غضون هذين اليومين ، وأحرص على إبقاء ماري بالقرب مني . أنا على شفير الهاوية ، فهل تنازعينني قليلاً من السعادة؟ !

وتمتمت الكونتيس :

– ماري قالت لي القول نفسه ، ولكن على الرغم من القلق الذي تحسُّ به ، عدني بأنك لن تكشف شيئاً من هذه المحادثة .

في الحقيقة لم يكن رودولف ينوي الإقامة مع عشيقته في قصر هوفبورغ ، ولكن في جناح الصيد الخاص ، في مايرلنغ ، حيث شاء الانعزال : يذهب شخصياً الى بادن ليستقلّ القطار ، وهي مدينة صغيرة من مدن المياه المعدنية ، وتبعد ٢٧ كيلو متراً عن فيينا . وقد تدثر بمعطف فضفاض مصنوع من جلد الذئب لكي لا يتعرّف اليه أحد . أما ماري فتلحق به في ما بعد بفترة قصيرة .

كانت مايرلنغ قبل أن تصبح قصراً ريفياً ديراً ، ثم مزرعة . وكان القصر يُقسم قسمين ، مستقلين احدهما عن الآخر . كان الجناح الأيسر مخصصاً لصاحب السمو الامبراطوري ، في حين خُصِّص الجناح الأيمن للضيوف . وكانت ردهة فسيحة الأرجاء ذات ممرات طويلة ، جدرانها منجدّة ، تخنق الاصوات التي يمكن أن تزعج الارشيدوق .

وصل رودولف الى مايرلنغ الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . ومن فوره سأل لوسشيك ، خادمه المخلص :

– هل الآنسة هنا؟

– لا ، يا سيدي ، أنا لم أرَ إلا الكونت هويوز ، والامير فيليب دو كوبورغ . ولم

يعودا بعد من الصيد .

فقال الارشيدوق :

– حسناً . ما دمت أشكو بعض الانحراف ، فسأنتظرهما في حجرتي . احمل بعض الزهور ، ينبغي أن يبدو المكان كالحديقة !

وما كادت الساعة تقرع الخامسة في الكابيلا ، حتى سمع صرير عربة عتيقة ، نصف مخلّعة في فناء القصر ، فنزلت منها ماري وهي منهوكة القوى . فرحلة الساعات الاربع أضنتها كثيراً . ومع أنها اعتمرت طاقية وارتدت معطفاً من الفرو ، فقد عانت الامرّين من البرد القارس الذي لم يَنفع فيه الغطاء العتيق الذي أقرضها إياه الحوذي . ولكن سرعان ما نسيت كل هذه المتاعب لدى رؤيتها رودولف يُقبل اليها .

في حضرة لوسشيك يجمل بالعاشقين ، بالطبع ، كبت مشاعرهما . وبعد البوح بالعواطف التي تبيّن الخادم صداها ، من المكان الذي قبع فيه تحت السلّم ، فإن الحديث سرعان ما أصبح مأساوياً ، فإزاء نحيب العاشقة الصبية يتعالى صوت الارشيدوق الجائر :

– أنا مضطرب . . . مصالح الامبراطورية . . . لقد اقسمت اليمين . . .

وكانت ردود ماري أقلّ وضوحاً . ولكنها ، ولا ريب ، كانت تطلع عشيقها على ما سبق أن أعلنته للكونتيس لاريش ، قبل قليل : انها تحمل في احشائها طفلاً من الامير ! . . .

هنا تجدر الاشارة إلى أنّ ثمة شائعة ترويها الامبراطورة اوجيني ، زوجة نابوليون الثالث فتقول : «إن ثمة أمراً آخر يمكن أن يكون دفع الحبيبين الى اتخاذ القرار بالانتحار ـ او الموت معاً : ففي خلال آخر ليلة قضياها معاً ، اعلمت ماري فتسيرا الارشيدوق رودولف انها حامل . . .»

وجرى مشهد عاصف وعنيف ، انتهى بسرعة نوعاً ما ، ذلك بأن لوسشيك يدوّن في مذكراته انه يبدو ان رودولف خشي أن يُسمع كلامه . وقد اضفى العشاء بعض الاسترخاء . تعشى الصيادان وحدهما في قاعة الطعام الكبرى .

وقد أفرطا في الأكل والشراب لعدم وجود شيء يشغلهما . أما العاشقان ، فعلى

النقيض ، لم يكادا يلامسان الصحون التي قدّمها اليهما الخادم .

ثم استدعى الارشيدوق الامير فيليب دو كوبورغ الذي كان سيعود اضطراراً الى فيينا في تلك الليلة ، وكلّفه إبلاغ ذويه ان انحرافاً صحياً اضطره الى البقاء في مايرلنغ .

وقام فيليب بتنفيذ المهمة المولج بها ، وتمتم الامبراطور :

– زكام شديد . على اي حال ، هذا أمر ممكن . . .

ولم يبدُ عليه أنه قلق البتة !

كانت ماري ترقد وهي مغطّاة بالزهور

في مايرلنغ انقضى الليل بهدوء . وحوالى الساعة التاسعة صباحاً ، حمل لوسشيك «فطور» صاحب السمو (تظاهر بأنه يجهل وجود امرأة معه) ، وأزاح الستائر ، فاستيقظت ماري بين ذراعيّ رودولف . وكان فيليب دو كوبورغ قد عاد . وندم الامير ولي العهد على تخلّيه في العشية عن صديقيه ، فقرّر تناول طعام الغداء معهما ، في حين تبقى ماري فتسيرا في الغرفة حيث تتناول وجبة طعام خفيفة . وحثّ الصيادان مضيفهما على مرافقتهما : فالطرائد موفورة ، وحاشو الطرائد ومطاردوها مفعمون بالحماسة . إلا أن رودولف ، بعد ان بدا متردداً قليلاً ، صرّح بأن انحراف صحته لم يخفّ كثيراً ، وأنه ما يزال يشعر ببعض الحمّى . فذهب هويوز وكوبورغ وحدهما ، وكالعادة ، لم يعودا إلا لدى هبوط الليل .

وتعشى كل من الفريقين على حدة ، ولكن هذه المرّة تناول رودولف وماري أشهى المأكولات ، وأفخر انواع النبيذ ، لكأنهما يودّان اللهو مهما كلّف الأمر . وقد استولت عليهما غبطة مفتعلة .

حوالى الساعة الحادية عشرة ، قطع الارشيدوق الحديث ، وطلب الى عشيقته ان تكتب ثلاث رسائل .

فهتفت ماري :

– ثلاث رسائل ! أنا فعلت ذلك ! وقد ارسلتها قبل مغادرة فيينا . ولعلّها وصلت

الآن الى أصحابها .

وما ان انتهى رودولف من مهمة كتابة رسائله ، حتى عاد الى قرب الصبية التي أعربت اذ ذاك عن رغبتها في تناسي كل شيء أكثر فأكثر . واستدعي براتفيش ، وهو حوذي سابق ، قام فترة طويلة بنقل الامير الى مواعيد سرية ، قبل أن يلتحق بخدمته الشخصية . وكان ذا صوت جهير ، متبذل ، ولكنه رخيم جداً ، يقدّره خدم القصر .

لدى وصوله ، حسب براتفيش ماري ، ولم يكن يعرفها ، احدى المغنيات في العلب الليلية ، وتدعى مرتسل . وراح ، وقد تحمّس في حضرة فنانة ، ينشد الالحان الشعبية التي تحفل بها مجموعته الغنائية . وكادت الحفلة تمتد حتى الفجر فيما لو لم يفرط براتفيش في الشراب ، ويقرّر أن ينصح سيده بأن يذهب إلى النوم .

في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، بدا أن كل الموجودين في القصر يغطّون في النوم العميق : هويوز وكوبورغ في الجناح المخصص للضيوف ، ولوسشيك في حجرة ضيقة تؤدي الى الرواق .

وانقضى الليل ، وكالمعتاد اعطى الخادم الأمين اشارة النهوض . ففي السادسة صباحاً جاء يقرع باب حجرة سيده . فقال له هذا الاخير من الداخل :

– اذهب واطلب أن تكون العربة جاهزة الساعة السابعة . وحتى ذلك الوقت لا تزعجني مهما كان السبب .

وتظاهر الخادم بأنه يوفد البستاني الى الاسطبلات ، بدلاً منه ، فكرر رودولف الأمر اليه بالذهاب شخصياً .

ودقت الساعة السابعة تماماً . فتناول هويوز وكوبورغ الفطور وحدهما بعد أن انتظرا الامير قليلاً ، ثم خرجا الى الفناء . وكانت العربة التي ستقودهما الى ساحة الصيد تنتظر لدى السلّم . ولما تأخر رودولف في الظهور ، نادياه من خلال الباب . وقرعا على النافذه التي كانت ستائرها السيئة الاغلاق تسمح بدخول شعاع من النور . فلم يسمعا أيَّ جواب . فقلق فيليب ، واقترح الدخول فعارض لوسشيك في أول الامر . ثم لما امتدّ الصمت ، قرّر وضع يده على المزلاج . فكانت المحاولة بلا فائدة لأن الباب كان مقفلاً بالمغلاق .

وبواسطة مطرقة ، حطم الرجال الثلاثة المصراع . ودخل على الفور لوسشيك الى الغرفة التي كان يضيئها شمعدان ما تزال شموعه مضاءَة ، ثم هرول عائداً ، وهو يصيح :

- سيدي ميت ! الدم يسيل من فمه . إنه ولا شك مسمّم !

وهرع صديقا الامير المفضلان ، فألفيا الارشيدوق ممدداً على السرير ، ولكن ثقل رأسه الذي يتجاوز الحافة يكاد يجرّ معه الجسد . وكانت احدى يديه تكاد تلامس أرضية الحجرة . وبقربه ترقد ماري ، وقد غمرتها الزهور .

بعد ذهول قصير ، قرّر لوسشيك ان يرسل برقية الى الدكتور فندنهوفر ، طبيب الامبراطور الخاص . وأعلم الطبيب أن ولي العهد انحرفت صحته من البرد ، وهو بحاجة الى العناية الطبية . وانتقل من فوره الى مايرلنغ ، ولم يعرف الحقيقة إلا لما بلغها .

وقد أضاف فيليب دو كوبورغ قوله :

- إن ما نجهله ، هو سبب الوفاة !

ولكن سرعان ما اهتدى الطبيب الى السبب . فعند طرف السرير شاهد مسدساً أفلت ، ولا ريب ، من أصابع الارشيدوق المشنّجة الآن . وقد أطلقت منه رصاصتان ، وسرعان ما تبيّن للطبيب انهما كانتا ، في الحالتين ، في فم ضحيتي المأساة . وهكذا تم تثبيت انتحار ابن الامبراطور .

أما «البارونة الصبية» فمن الواضح أنها لم تستطع قتل نفسها ، وأن حبيبها قدَّم اليها هذه الخدمة الكئيبة التي لا بدّ أنها طلبتها منه . وبالطبع لم يُسمع صوت أي طلقة لأن جدران الغرفة الاميرية مبطنّة بالستائر المخملية السميكة . وقد اغتنم رودولف فرصة غياب لوسشيك الذي كان في الاسطبلات الباعدة زهاء مئة متر ، لكي يقوم بما قام به . وليس ثمة مجال للنفي : فلقد انتحر رودولف !

«إنها سدّة ، لا تنسَ ذلك!»

في هذه الأثناء ذهب هويوز الى فيينا . وفي البلاط الامبراطوري الذي قصده فور وصوله ، طلب الإذن بمقابلة الامبراطورة ، أولاً ، وكانت تتجاذب أطراف الحديث مع الكونتيس لاريش . فلم تندُ منها اي صيحة . لقد بدت بالحري ، مصعوقة . ولم تذرف عيناها اللتان بدتا تبرقان بغرابة اي دموع . فالمأساة هي مناخها الطبيعي . . . واخاف صمتها ابنة اختها الكونتيس ، فوضعت يدها على ذراعها ، قائلة :

- يتحتم عليك ابلاغ صاحب الجلالة بذلك!

- ليكن! هيا بنا!

ولما دخلت ديوان الامبراطور ، كان هذا الأخير قد نهض منذ فترة طويلة - وكانت الساعة الحادية عشرة - وهو يعمل مع احد مرافقيه العسكريين ، واقفاً أمام المقرأ الذي يؤثره ، مرتدياً بزته الرسمية ، والسيف يتدلى إلى جانبه . وكان إما مذهولاً جداً ، أو أن زوجته اليزابت لم تحسن التعبير عما تعلنه ، لأنه سأل الضابط :

- ماذا تقول الامبراطورة؟

ولكن ، لما فهم أخيراً ان ابنه الوحيد مات ، رفع رأسه جيداً ، بعد أن كان قد نكّسه بتأثير الصدمة غير المتوقّعة . ولما حاول هويوز توضيح كيف حدثت المأساة ، حسب رأيه ، قاطعه بإلحاح :

- إنها سدّة! ولي العهد ذهب ضحية سدّة ، لا تنسوا ذلك . . . سدّة!

وبعد ذلك ، كما تبيّن لنا ، لم يتراجع قط عن ذلك ، ولم يبدّل رأيه .

وظل محافظاً على هذه النظرية المرتجلة تجاه كل دليل آخر .

ولكن كان ثمة أمر صعب ، وهو تعليل وجود شخص ثانٍ في مايرلنغ ، بل جثة ثانية . فضلاً عن ان البارونة فتسيرا تعلم ، بلا ادنى شك ، منذ يومين ان ابنتها ذهبت برفقة الارشيدوق . فلما اعلمتها الكونتيس لاريش بهرب ماري ، ازداد قلقها كثيراً لما تسلّمت الرسالة التي شاءَت فيها العاشقة المدلّهة أن تتكهن بالنهاية المحتومة لمغامرتها المؤلمة . فقد كتبت تقول :

«أمي العزيزة ، سامحيني على ما أقوم به . لم استطع مقاومة الموت . نودّ أن نرقد

جنباً الى جنب في مدفن آلاند . سأكون في الموت أسعد مني في الحياة . . .»

وكتبت ماري الى شقيقتها تقول :

«نحن الأثنين سعيدان لذهابنا معاً الى المجهول في العالم الآخر . . . لا تتزوجي الا عن حب . لم استطع أنا ذلك ، ولما لم يكن بوسعي مقاومة الحب ، فإنني ذاهبة معه . . .»

أي أمّ لا تضطرب لمثل هذه التحذيرات التي لا تحتمل اي تأويل؟

فذعرت البارونة ، وهرعت لمقابلة رئيس الشرطة ، ورجته أن يأمر بالبحث عن الهاربة . وكانت الخطوة بلا جدوى ، فقد رفض البارون كراوس التدخّل ، لأن التعليمات الصادرة اليه تقضي وحسب بمراقبة ولي العهد ، وليس ازعاجه في حياته الخاصة . وفي ٣٠ كانون الثاني جاء موظف امبراطوري يبلغ البارونة فتسيرا بنبأ موت ابنتها المفاجئ ، وسارع الى القول ان الأمر ينبغي أن يحاط بالسرية التامة . إلا أن البارونة كانت قد علمت من بعض الاصدقاء بتفاصيل مأساة مايرلنغ . فقالت :

- ولكن ماري قضت بطلقة نارية؟ !

- لا شيء يثبت ذلك . وحتى لو كان ذلك صحيحاً ، فمن المستحسن إخفاؤه !

- ولكن ، ماذا لو اعترفتُ بأنها هي شخصياً طلبت الموت ، ومنحها إياه الأمير؟ . . .

- مهلاً ! الانتحار لا يحلّ المشكلة . وستمنع السلطات الدينية الدفن . وسيكبر حجم الفضيحة .

- في هذه الحالة ، أود حمل جثمان الصبية الى هنا .

- مستحيل . ينبغي أن تُدفن حيث هي ، وسراً .

- هل سيتاح لي ، على الاقل ، تقديم النعش؟

- سيُضرب صفح عن ذلك .

هكذا كان قرار البلاط النهائي ، ولم يبقَ سوى اطاعته .

ولكن مشهداً مرعباً ستدور وقائعه . فقد وصل الى مايرلنغ ، عم ماري الكونت ستوكاو ، برفقة مفوض الشرطة هابردا ، المكلف الاشراف على شؤون الدفن .

فقادهما هويوز الى الحجرة التي ترقد فيها البارونة الصبية تحت الزهور ، ذلك بأن جثمان الارشيدوق كان قد نُقل الى فيينا تحت إشراف بومبيل ، ، كبير حجّاب الامبراطور .

فألبسوها ملابسها باختصار ، ودثّروها بمعطف كبير واسع . ثم ، لدى هبوط الظلام ، تظاهرا بأنهما يسندانها من ذراعيها ، كما لو كانت مريضة ، وجرّاها الى العربة التي كانت تنتظر امام القصر .

ولكي يخدعا الحوذي ، راحا يشجعان الميتة بكلامهما ، ويؤاسيانها ، مؤكدين لها انها ستجتاز هذه المحنة التي ستكون قصيرة . ثم لما بلغا بيت كاهن رعية هايليغنكروتس ، حيث كان الكاهن قد اتخذ كل الاحتياطات ، راحوا ينتظرون بهدوء وصمت انتصاف الليل .

وعندها ، ووسط الهواء المثلج ، وتحت المطر المختلط بالثلج ، حملوا الجثمان المسجّى على نقّالة الى مقبرة القرية . وتُليت بعض الصلوات بسرعة ، ورشّ قليل من الماء المقدّس ، وووريت ماري التي كفّنت ببساطة ، في الحفرة التي حفرها الكاهن على ضوء المصباح .

ولم يتنفسّوا الصعداء إلا بعد أن أهيل التراب على الراحلة المسكينة . . .

ان حب رودولف دو هابسبورغ الكبير ، سيرقد ههنا الى الأبد . وعلى بلاطة الضريح نقشت هذه الكلمات ـ مجرد اسم :

ماري

مولودة في ٢٩ آذار ١٨٧١

متوفاة في ٣٠ كانون الثاني ١٨٨٩

وعلى الأثر ، تقريباً ، أصبح هذا الضريح محجة . ستُذرف الدموع على ضحية قدر كان قاسياً بقدر ما كان غريباً وغير عادي . وسيُنعى على الامبراطور قسوته التي لا مبرر لها ، تماماً كعناده في دعم نظرية عارية من كل حقيقة .

ومع كل ما حاوله فرانتس ـ جوزف ، فإنه لم يستطع ، في الواقع ، ان يمنع الحقيقة من الظهور . فقد ناشد ، عبثاً ، الدكتور فيدنهوفر أن يشهد بحدوث السدّة . وقد

رفض الطبيب ، ووعد بألا يعطي اي رأي ما .

ولكن ، كان من الصعب إخراس أمّ ماري . فلما واصلت الاحتجاج ، نفوها من النمسا ، بعد أن خصّصوا لها تعويضاً قدره ٨٠٠ ألف غولدن : قيمة الاعتراف !

غير أن رحيلها اسهم في تضخيم الشائعة ، التي تغذّت ، شيئاً فشيئاً ، بوقائع محددة ، ووثائق لا تدحض . ففي السنة ١٩٢٢ ، ظهر مقال في جريدة «نو فراي بريسه» في فيينا ، إثر ما كشفت عنه الكونتيس لاريش ، منذ السنة ١٩١٦ ، في كتاب ممنوع تدواله في مختلف ارجاء الامبراطورية الثنائية (النمسا / المجر) ألقى ضوءاً يكاد يكون كافياً على تلك المأساة .

إن مخطوطة شلوميكي ، نائب رئيس مجلس النواب النمساوي ، وأوراق البارون كراوس ، رئيس شرطة فيينا ، التي نشرت أخيراً لا تدع أي مجال للشك : إن وارث السلالة الامبراطورية ، انتحر ، بعد أن قضى على ماري فتسيرا . وكل الروايات المختلفة للمأساة التي دعمها ، أحياناً ، شهود تلك الليلة المشؤومة ـ من مثل فيليب دو كوبورغ الذي اجتهد في تعزيز رواية النوبة القلبية ـ تبدو اليوم مختلفة وملفّقة .

البعض ادعّى ان الأمير قتله خفير من خفراء الغابات لأنه كان يتودد الى زوجته . والبعض الآخر زعم انه اغتيل على يد الارشيدوق شارل ـ لويس ، لكي يحبط ثورة كان الامبراطور العتيد يرعاها ويموّلها .

في الحقيقة ، لم يعر الامبراطور فرانتس ـ جوزف نفسه هذه الروايات اي اهتمام ، وكان رأيه المسجل في يومياته بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٨٨٩ ، بهذا النصّ : «كلاهما اراد أن يموت ، ولكن فقط ، لأنهما لم يستطيعا أن يرجوا الحياة معاً .»

واذا كان بعد ، ممكناً النقاش في مأساة مايرلنغ ، فإن النقاش لا يمكن ان يتناول إلا الموضوع التالي : هل قرر رودولف الانتحار فقط لاستحالة زواجه بماري ، لأن مصلحة الدولة تتعارض مع ذلك؟ ما هو الدور الذي مثّلته ، بالنسبة الى قراره هذا ، خيباته السياسية؟ إلى أي مدى ، ساء النزاع الداخلي الذي سلّح ذراعه ، بسبب وراثته وتربيته؟ ربما أن كل هذه الأسباب لعبت معاً دورها لكي تؤدي الى القدر المأساوي الذي جرّ اليه ماري فتسيرا .

بالنسبة الى ذوي النفوس الرقيقة ، أُزيح النقاب عن هذه المأساة منذ زمن بعيد جداً . فعندما يهبط المرء الى مدفن كنيسة الكبوشيين حيث يرقد ١٨٣ من أفراد سلالة هابسورغ العريقة ، يُشاهد ، غير بعيد من نُصب الامبراطورة ماريا ـ تيريزا الفخم ، وقد وُضع على مستوى الأرض ضريح فرانتس ـ جوزف ، وعلى يساره ضريح فرانتس ـ فرديناند الذي اغتيل في سراييفو السنة ١٩١٤ ، والى يمينه ضريح رودولف . غير أن هذا الضريح هو الوحيد الذي لا تنسى الايدي التقية الورعة ان تضع فوقه دوماً باقات البنفسج .

إنه لدليل على انه ، بالنسبة إلى فيينا ، قضى حبيب ماري فتسيرا بسبب الحب وحده !

* * *

سرّ مايرلنغ الذي سيبقى غامضاً . . .

إن ما ولّد سر مايرلنغ هو الصمت ، والروايات المختلفة التي قدّمها الامبراطور . وكثيرون هم الذين قدّروا أن ميول رودولف المرضية والإعذار من جانب الامبراطور الذي فرض على ابنه قطع علاقته بعشيقته ماري فتسيرا ، ليست تفسيراً مرضياً . ومنذ حوالى اكثر من ثلاثة أرباع القرن ، والفرضيات تتجابه . ويزعمون أن ابن فيليب دو كوبورغ تلقّى مسارّات من ابيه سمحت له بالتأكيد أنه عُثر في حجرة الجريمة على «بندقية وموسى حلاقة» .

وقد كتب البارون لافوري يقول عقب حديثه مع فيليب دو كوبورغ : «بالوسع إعادة تمثيل الجريمة . فماري ، غير المسلحة ، تناولت الموسى وشوّهت بها عشيقها أثناء رقاده . أما الكلمات التي استخدمها كوبورغ ، وهو يروي لي المشهد ، وقد دوّنتها إثر وجودي وحيداً في غرفتي ، فهي التالية حرفياً : «شوّهته ، وانتزعت منه كل شيء» . وإذ استيقظ رودولف وسط هذا الرعب ، كانت له القوة على إدراك ماري وخنقها . ثم إنه تناول بندقية الصيد ، وأطلق منها عياراً نارياً في فمه .»

فرضية تهريجية غاية في التفخيم ، لا تصدَّق البتة ، وتتعارض مع الرسائل التي خلّفها العاشقان . لماذا لجأت ماري الى هذه الطعنة المرعبة؟ ألا نتمهّل أكثر بصحبة الجنرال مارغيني ، مرافق الامبراطور الخاص ، الذي يعقّد المأساة بوضع عشيقة ثانية للأمير في مايرلنغ . وقد فاجأ الزوج زوجته بين ذراعيّ رودولف ، فقضى على الارشيدوق بضربات من الفأس؟ !

وأكّدوا كذلك ان في الأمر جريمة سياسية ، فقد تورّط رودولف بمؤامرة سياسية دُبّرت لاغتيال والده ، بهدف فصل المجر عن باقي الامبراطورية النمساوية ـ المجرية .

* * *

في الستينات من هذا القرن قُدّم تفسير مخيف لأسباب المأساة ، وكان مقدّمه الناقد والمؤرخ التاريخي النمساوي بيتر بوتشنر ، خبير المتاحف في فيينا . فحسب زعمه ، انتحر عاشقا مايرلنغ لأنهما اكتشفا انهما أخوان غير شقيقين . فبواسطة مقارنة رسوم رودولف وماري ، ذهل بيتر بوتشنر للشبه الأكيد والمقلق بين عاشقي مايرلنغ . الأنفان ، والآذان ، والذقنان متشابهة جميعاً . عندها عكف الخبير ـ وطوال سنوات عدة ـ على الانكباب على حياة هيلين فتسيرا ، وحياة ألبان فتسيرا ، زوجها وسرعان ما وفّق الى إثبات انه انقضت عشرة أشهر واثنا عشر يوماً قبل مولد ماري ، لم يرَ فيها هذا الدبلوماسي زوجته . فقد كان يقطن سان ـ بطرسبرج ، في روسيا ، وفضلاً عن ذلك ، فالزوجان كانا منفصلين ، احدهما عن الآخر ، منذ سنة ١٨٦٨ . ولم يكن ثمة أسرة حقاً . إذاً ، فعشيقة رودولف ، المولودة سنة ١٨٧١ ، كانت ابنة زنا . ولكن هل هي ، بسبب ذلك ابنة الامبراطور فرانتس ـ جوزف؟ هنا ، لا نملك أي دليل إلا الحظوة المذهلة التي تمتّع بها الترجمان السابق (ألبان فتسيرا) ، الذي اصبح ، في غضون بضع سنوات ، سفيراً تزيّن صدره الاوسمة . ويقول بوتشنر : «ان هذه المهنة من الخدمات الاستثنائية ، كان ينبغي أن تُسدى الى الامبراطور نفسه» ـ وتُسدى ، اولاً ، بإغماض العينين عن خيانة زوجته ، ثم في الاقامة بعيداً عنها . وكانت

الامبراطورة سيسي (إليزابت زوجة الامبراطور) في تلك الحقبة تتغيّب غالباً جداً ، بحيث أن خيانة فرانتس ـ جوزف لم تكن ترتدي أي طابع غير عادي . فالزوجان الامبراطوريان ، مع ما كان يكنّ احدهما للآخر من محبة كبيرة ، كانا يعيشان ، إذاً ، منفصلين . ونعلم ، من جهة اخرى ، أن الامبراطور كانت له علاقة مع الكونتيس إليزابت أوغارد ، ثم مع كونتيس بولونية عُرفت بسوء السمعة .

وحصل بوتشنر ، كذلك ، على الدليل بأنه خلال السنة الاولى التي سبقت مولد ماري ، استأجرت هيلين فتسيرا منزلاً صغيراً منعزلاً ، يقع بالقرب من البراتر ، حيث كان بالوسع استقبال فرانتس ـ جوزف .

وخلال ذلك المشهد الشهير يوم ٢٨ كانون الثاني ١٨٨٩ ، كشف الامبراطور لابنه السر الرهيب . فاذا نحن أخذنا بعين الاعتبار فرضية بوتشنر هذه ، فإن الإغماء الذي أُصيب به فرانتس ـ جوزف ، يصبح قابلاً للتفسير . وتصبح كذلك الرسالتان اللتان تركهما العاشقان : «لم يعد لي الحق بالحياة . . . إني أقضي بملء ارادتي . . . الموت وحده يمكن أن يصون سمعتي .»

ولكن ، قبل المضي في عرض ما توصّل اليه بوتشنر ، ماذا حدث في المقابلة العاصفة بين الامبراطور وابنه الارشيدوق يوم ٢٨ كانون الثاني ١٨٨٩ .

كان الامبراطور فرانتس ـ جوزف قد استقبل في صبيحة يوم ٢٨ كانون الثاني ، كنّته الأميرة ستيفاني ، وكانت دامعة العينين ، وقد جاءَت تشكو زوجها الأرشيدوق . انها تقبل بالخيانات منذ حوالى ثماني سنوات ، ولكن ما جرى في الحفلة الراقصة التي اقيمت في اليوم السابق ، الأحد في ٢٧ كانون ، في سفارة المانيا في فيينا ، لمناسبة ذكرى ميلاد الامبراطور فلهلم الثاني ، تجاوز كل حدّ ، وجميع من في البلاط الامبراطوري لا يتحدّثون إلا عن فضيحة العشية . أما تفاصيل هذه «الفضيحة» فتتلخّص بما يلي . فقد دعت البارونة فتسيرا ، أرملة الدبلوماسي ، وابنتها الى الحفلة . ومرّت الارشيدوقة ستيفاني التي كانت تمثّل الامبراطورة اليزابت (حماتها) أمام المدعوين . فانحنى الرجال لها ، وكعاب أحذيتهم ملتصقة بعضها ببعض . وكذلك فعلت النساء الغارقات في أثوابهن الحريرية . وبغتة ، توقّفت زوجة رودولف مصعوقة

أمامها ، وانتصبت البارونة فتسيرا الشابة . ورفضت ماري ، علناً ، الانحناء أمام زوجة عشيقها ، إلا إذا كانت لم ترَ سوى رودولف ، وهي شاردة في حلمها ، بلباس الحفلات الرسمية ، وكان موجوداً ، هو أيضاً ، ولكنه لم يلحظ شيئاً . ولم يستغرق المشهد سوى بضع ثوان : فأخذت السيدة فتسيرا ابنتها بذراعها ، وأجبرتها على الانحناء ، في حين مرّت الأرشيدوقة بعد أن صعقت بنظرتها منافستها .

هذا ما حدث في العشية ، وتذمّرت منه الكنّة . . .

والآن هل كانت تلك أول مرة يعلم فيها الامبراطور بنبأ علاقة ابنه الحديثة؟ مهما يكن من أمر ، فقد استدعى رودولف ، وطلب منه بقسوة قطع علاقته بعشيقته ، وبعدم مقابلتها بعد ذلك مطلقاً . فثار رودولف ، ورفض ، معلناً لأبيه أنه ، لكي يستطيع الاقتران بماري ، ينوي فسخ الزواج بواسطة الفاتيكان ـ ألم يُعقد زواجه تحت الضغط والإكراه؟ عندها انتابت فرانتس ـ جوزف سورة غضب عنيفة ، جعلت رودولف يستسلم الى ارادة أبيه . فأية حجج قدَّم؟ لا أحد يدري ، ولكن الأمير وارث العرش وعد بقطع العلاقة ، قائلاً :

– حسناً ، سأصرفها ، ولكنني أطلب اليك ، يا والدي ، الإذن لي باستقبالها للمرة الاخيرة لتوديعها .

ورضي فرانتس ـ جوزف بعد التوسلات ، قائلاً :

– ليكن ذلك غداً ، ولكن في ما بعد ، لن تراها مطلقاً . لا تنسَ أنني حصلت منك على وعد شرف ، ووعد امرئ نبيل .

هل حقاً لفُظت هاتان العبارتان؟ إنهم يؤكدون ذلك . إلا ان ثمة ، مع ذلك ، واقعة مؤكدة : عندما غادر رودولف الديوان الامبراطوري ، وَجد الجنرال مارغوتي ، مرافق الامبراطور الخاص ، سيّده فاقداً الرشد . . .

وبدا رودولف ، وهو خارج من المقابلة الرهيبة ، كما لو كان قد اتخذ القرار بالانتحار . فكتب الى والدته : «لم يعد لي الحق بالحياة .» وكتب الى أخته فاليري : «إني أقضي رغماً عني . . .» وأخيراً كتب الى زوجته ستيفاني : «ها أنت ذي قد تحررت من وجودي ومن الهموم التي تسبّبت بها لك . كوني سعيدة . أنا ذاهب بسلام

الى الموت الذي وحده يمكن أن يصون سمعتي .»

ثم استقبل صديقه الصحفي جبس الذي صارحه بقوله : «ابتداءً من الآن تختفي كل القيود ، وكل الواجبات ، وكل الترددات .»

وهكذا ، لدى معرفتهما أنهما كانا أخوين غير شقيقين ـ وفوق ذلك ، لدى اكتشافهما ان ماري تنتظر طفلاً من رودولف ـ بحث عاشق مايرلنغ ، عن الحل لمأساتهما في الموت ، هذه المأساة المتعلقة بارتكاب المحارم ، الجديرة بأن تكون تراجيديا قديمة .

عندما قرأت هيلين فتسيرا في الصحف نبأ موت رودولف ، هرعت من فورها إلى قصر هوفبورغ لمقابلة اليزابت . فلم تشأ وصيفة الشرف السماح لها بالدخول على سيدتها ، ولكن الباب فُتح ، وظهرت منه سيسي ، متمتمة بصوت لا رنّة فيه :

– لقد فات الأوان ، مات الاثنان !

كان حزن هيلين كبيراً ، ولكنها استخدمت عبارات تدهش ، للتحدُّث عن المأساة . لم تكن معقلاً للفضيلة ـ الأمر يحتاج الى الكثير ـ وعلاقة ابنتها بالارشيدوق كان ينبغي ألا تبدو لها فاضحة جداً . ومع ذلك ، فقد كتبت في ما بعد تقول إن العلاقات السرية بين رودولف وماري «ما كانت لتنشأ لو لم ترتكب الكونتيس لاريش الفعل المنكر بتعريف ابنتها الى وارث العرش الامبراطوري»

بيد أن ثمة ما يزعج في فرضية بيتر بوتشنر : الأوامر التي أصدرها فرانتس ـ جوزف لـ «تصفية المأساة» . فالبارونة هيلين لم تستطع الذهاب لرؤية جثمان ابنتها ، ربما لأن الموظفين المتحمسين أكثر من الضرورة ، أساؤوا تفسير نيّات امبراطورهم . فقد كانت مراقبة من قبل الشرطة ، وقد حُظر عليها مغادرة مسكنها . وقد وجدت اليزابت نفسها هذه المعاملة في غاية الظلم والطغيان ، وردَّدت :

– إن ما يُعمل لهو خطيئة بحق الإنسانية !

«خطيئة» أكثر فظاعة فيما لو كان فرانتس ـ جوزف هو والد ماري !

* * *

وحدها البارونة الصبية ذات العينين بزرقة الليل ، رقدت في مقبرة هايليغنكروتس الصغيرة . وكان فرانتس ـ جوزف أمر بأخفاء الجثمان ، وكانت مراسم جنازة ماري مرعبة .

في ٣١ كانون الثاني ١٨٨٩ ، وصل خالا ماري ، الكونت ستوكاو وألكسندر بالتازي الى مايرلنغ . فألبسا الجثمان المتيّبس ، الملابس «للحصول على وضع مقبول» ، ووضعا عصا في الظهر ، شدّاها بحبل الى الرقبة وما تحت النهدين . ووضع الرجلان هذا «المثال المثير للشفقة» جالساً بينهما في العربة التي سلكت طريق الدير .

ويروي مفوض الشرطة الذي سبق العربة الى هايليغنكروتس ، ما حدث بقوله :

«اخيراً ، لحنا الموكب وسط الظلمة . فالكونت ستوكاو وألكسندر بالتازي ، كانا يحتلان العربة الأولى . وكان بينهما جثمان البارونة الصبية ، وهما يُمسكانه من الذراعين . . . وأمرت بمواصلة المسيرة حتى المقبرة دون التوقف في الدير . وبسبب هبوب الريح العنيفة كالعاصفة ، وهطول المطر كالسيل ، كانت العربات تتقدّم ببطء . واضطر حوذي الكونت ستاكاو الى تركيب أظافير على نعال الجياد منعاً للانزلاق فوق هذه الطريق الوعرة غير المتساوية ، المكسوة بالثلج . وهكذا بلغنا مدخل المقبرة ، وكانت ساعة الكنيسة تقرع منتصف الليل . وسحبنا الجثمان اربعتنا ، الكونت ستوكاو ، وألكسندر بالتازي ، والمفوض غوروب ، وأنا ، من مؤخرة العربة ، وحملناه الى الكنيسة الصغيرة حيث كان النعش البسيط المصنوع من أربعة ألواح ، وأرقدنا فيه الراحلة .»

غير أن جدران الحفرة تنهار بفعل سيول المياه . فيتمتم حفارو القبر وهم يضعون جانباً أدوات عملهم :

– إنه لطالع مشؤوم !

لم يكن القبر جاهزاً إلا في صبيحة اليوم التالي . ووسط عاصفة رهيبة ، حمل الشرطيان والخالان النعش الخشن الذي يضم جثمان ماري على طريق مجلدة منزلقة ، الى الحفرة ، ووضعوه في الوحل . . .

* * *

بعد بضع سنوات ، سُمح للأسرة بوضع صليب على ضريحها ، حيث يمكننا أن نقرأ دوماً هذه العبارات :

«هنا ترقد ماري ، البارونة دو فتسيرا ،

مولودة في ١٩ آذار ١٨٧١ ،

متوفاة في ٣٠ كانون الثاني ١٨٨٩

مثل الزهرة ، الانسان يتفتّح ويموت . . .»

إن رودولف الذي طالما أراد الرقاد بالقرب منها ، يستريح جثمانه في مدفنه الموحش الكئيب في قبو كنيسة الآباء الكبوّشيين . . . هل هي حقّاً اخته تلك التي دُفنت بمثل تلك الطريقة الفظيعة في دير هايليغنكروتس؟ إن الناظر الى رسوم العاشقين ، لا يسعه ان يمنع نفسه من الإحساس بشعور من الانزعاج مرعب . . . أهو ارتكاب المحارم سرّ عشيقي مايرلنغ المأساويين؟ لكم نودّ لو كان بوسعنا هزّ الكتفين والإنكار ! . . .

لودفيغ الثاني البافاري ، الملك المجنون

الحياة الغريبة التي عاشها من كان صديق رتشارد فاغنر الحميم

آذار ١٨٦٤ . في يوم الجمعة العظيمة هذا ، كانت شوارع ميونيخ تعجّ بالجماهير الحزينة التي هرعت صوب الكنائس والكابيلات . ولعلّ تلك السنة بالذات ، كان الحزن العام اكثر بروزاً وشمولاً ، ذلك بأنه قبل اسبوعين اثنين ، وحسب ، فقدت بافاريا ملكها ماكسيميليان الثاني . ووسط هذا الحشد الكئيب ، كان امرؤ غريب يتسكّع ، يائساً هو الآخر . كان ذاك الموسيقي رتشارد فاغنر الهارب من ضراة دائنيه يجتاز ميونيخ في طريقه الى سويسرا حيث سيقيم . وفجأة لمح في احدى الواجهات رسماً : رسم شاب في بزة عسكرية ، وجهه هادئ تحيط به خصل شعر كستنائية ، عيناه واسعتان حالمتان تلتمع فيهما شعلة غريبة . هذا الشاب ، هو الملك لودفيغ الثاني البافاري الذي سيمثّل عما قريب دوراً في حياة فاغنر مهماً جداً .

لودفيغ في الثامنة عشرة ، وقد أصعده على العرش موت أبيه ماكسيميليان الثاني . وهو ليس متأهباً بعد للمهمة التي تنتظره ، الإ أن الملك الشاب يتمتع بإرادة طيبة مذهلة . وتروى آلاف النوادر والحكايات عن سذاجته : فهو على ما يقال ، يجهل ما تعني عبارة «طفل غير شرعي» ولكنه ليس كالبنات مطلقاً فهو يركب الجياد ، ويتقن السباحة ، ويعشق تسلّق الجبال . ومنذ الطفولة يحتفظ بنظرة صبيانية نوعاً ما عن قوّته : يأمر بتحضير مغلي البنفسج لاستهلاكه الشخصي . الإ أنه لا يفكر في سوى خدمة شعبه ، والبافاريون يثقون بسيدهم الجديد .

لم يكد لودفيغ يصبح ملكاً حتى كلّف احد مستشاريه ، بفيستر مايستر ، مهمة جد غريبة ، اذا ما علمنا ان بروسيا في هذه السنة ١٨٦٤ ، كانت تشنّ حرباً على الدانمرك ، ستخرج منها قوية جداً ، بحيث لا يسع بافاريا في ما بعد أن تقاوم ارادة بسمارك ، «المستشار الحديدي» ، كما يلقّب . أوفد الملك مستشاره هذا للبحث عن رتشارد فاغنر . فمنذ وقت طويل ، والامير الشاب يكنّ لمؤلف اوبرا لوهنغرين إعجاباً متّقداً . إنه يجد في اعمال المعلّم الموسيقية هذا العالم من الاحلام ، هذا العالم العامر بالفرسان المقدامين . وبالأعمال البطولية الرائعةحيث كانت تجرّه أوهام طفولته . ويقوم المستشار المسكين بالمطاردة ، فاذا هي مغامرة قاسية لأن فاغنر مطارد باستمرار وبلا هوادة ، ومن كل الجهات ، من دائنيه الكثر .

أخيراً ، في فندق شتوتغارت حيث وجد ملاذاً مؤقتاً ، يعلم رتشارد فاغنر من موظف الاستقبال والاستعلامات ان رجلاً يدّعي أنه سكرتير صاحب الجلالة ملك بافاريا ، طلب مقابلته . ويحسب فاغنر الذي كان في ذلك الوقت يخشى أن يكتشف في اي زائر كاتب محكمة او دائناً ، أن الامر مجرد مزاح ، ويرفض مقابلة هذا الزائر المجهول . ويضطر بفيستر مايستر الى اقتحام حجرة الموسيقي ، تقريباً ، ليسلّمه عصا القيادة الموسقية والرسالة اللتين عهد الملك بهما اليه . وما هما الا يومان حتى كان فاغنر ، للمرة الأولى ، وجهاً لوجه أمام الملك لودفيغ الثاني .

إنه مشهد غير واقعي : في قاعة الاستقبال الكبيرة في القصر الملكي ، ذات الجدران المكسوة بستائر الحرير الازرق ، يلتقي الملك الشاب الذي ينفتح أمامه المستقبل كله ، رجلاً لم يعرف حتى ذلك الحين سوى الاخفاق ، تقريباً . ويضم لودفيغ الموسيقي الى صدره ، ويطلب اليه أن يبقى في بلاطه لكي ينهي فيه على مهل عمله الاوبرالي «نيبيلونغن» ، وليعمل في سلام .

العصر الفاغنري

وسرعان ما تنعقد صداقة مشبوبة العاطفة حقاً بين المعلّم وحاميه الملكي ، اللذين يتبادلان الرسائل الملتهبة لدى أدنى فراق . ولكن على الرغم مما زُعم أحياناً ، فإن

العلاقات بين لودفيغ وفاغنر ظلّت طبيعية تماماً . غير أن سحباً لا تلبث أن تعكّر هذه الصداقة الجميلة : بروز كوزيما فون بولوف ، في حياة الموسيقي ـ وهي ابنة الموسيقي ليست نصف الفرنسية ، وزوجة موسيقي عُيِّن عازف بيانو لدى الملك ، وستقلب هذه المرأة مرة اخرى حياة فاغنر ، وستفاجىء القضية حتى الملك عندما ستنفجر .

كان لودفيغ ينكبّ بجدّية كلّية على مهنته كملك ، ويعمل يومياً بدقة الموظف الاداري . ومن جهته كان فاغنر يحضّر لتقديم اوبراه «الهولندي الطائر» . ويشاء الملك أن يجعل لعمل المعلم الفني هذا إطاراً يليق به ، وأن يشيّد على ضفاف نهر إيزار مسرحاً ضخماً . وكان البناء سيتكلف حوالى ستة ملايين غولدن ، الامر الذي أرعب الوزراء ، فموازنة الملك السنوية لم تكن ، في الواقع ، سوى مليون غولدن ، لا يستطيع ان يتصرّف منها بسوى ثلاثمائة ألف غولدن !

بانتظار ذلك ، قدّمت دار الاوبرا في ميونيخ اوبرا «تريستان وايزولت» ، التي تخلّت عن انتاجها دار الاوبرا في فيينا عقب ٧٧ بروفة ، معلنة ان هذا العمل لا يمكن تمثيله ! وكان انتصاراً لأنصار فاغنر المتحمسين . وفي القطار الذي أقلّه عقب حفلة العرض الاولى صوب قصر برغ حيث كان يقيم ، سحب لودفيغ الثاني جسر الانذار ليوقف القطار ، ونزل الى خط السكة الحديدية : كان بحاجة بعد سهرة مماثلة ، الى القيام ببضع خطى سيراً على قدميه لتهدئة اعصابه .

في حاشية لودفيغ ، مع ذلك ، كانت المؤامرات تتضاعف ضد فاغنر . كانوا يزعمون ان الملك يتذرع بنوبة روماتزم لكي لا يشهد المناورات العسكرية الكبرى ، ولكنه يجد دوماً القوة لحضور التدريبات التي لا نهاية لها في دار الاوبرا . ويروون ان الوزير الاول الذي كان الملك يرفض مقابلته طوال أسابيع ، اقتحم ، في نهاية المطاف الباب ، ليرى سيده وأحد مغنّي الاوبرا ، وكلاهما يرتدي ملابس لوهنغرين وباربيروسا (في اوبرا «لوهنغرين» لفاغنر) ، وهما يتبختران تحت ضوء القمر المسرحي !

فاغنر تخونه السياسة

ولكن هذا لم يكن سوى أحد وجوه العداوة التي كانت تغذّيها هيئة الاركان

السياسية لدى لودفيغ تجاه الموسيقي العظيم . في الحديقة ، كان فاغنر يمارس على الملك تأثيراً سياسياً هاماً يجهله التاريخ عموماً .

وجد مؤلف «لوهنغرين» وهو السكسوني الأصل ، في بافاريا موطنه بالتبنّي . وقد غدا بافاريّاً اكثر من حاميه الملكي نفسه . كان معادياً للغاية لبروسيا التي كان يتبيّن فيها الميل الى السيطرة عبر سياسة بسمارك ، وكان يودّ لو تكون بافاريا من القوة الكافية لمقاومة التوسع البروسي .

ومن دون سائر مستشاري لودفيغ ، كان فاغنر ، ربما ، الوحيد الذي يتبين الخطر الذي يتهدد ألمانيا ، ويقترح حلولاً كانت ، ربما ، وفرت على أوروبا ثلاث حروب أوهتها في أقل من قرن من الزمن . ولكن لسوء الحظ ، فإن وضوح رؤيته لم يكن دوماً يتجلّى بطريقة ذكية ، وألّب عليه عنف ردود فعله أغلبية الحاشية السياسية لدى لودفيغ ، حتى اولئك الذين كانوا أقرب ما يكونون الى مشاطرته وجهات نظره . وهكذا استقبح بفيستر مايستر ، رئيس السكرتاريا الخاصة ، الوطني بعمق ، ولكن الغيور كثيراً على صلاحياته ، ان يُحلّ فاغنر نفسه مستشاراً للملك بدلاً منه .

أما الكونت ماكس هولنشتاين ، وهو عضو آخر في حاشية لودفيغ ، فإن الأسباب التي دفعته الى معاداة فاغنر كانت من نوع آخر . ففي الواقع ، هناك مجال كبير للاعتقاد بأن هولنشتاين ، الذي سيمثّل ، بالتالي ، دوراً حاسماً في استعباد بروسيا لبافاريا ، كان امرأً يعمل لحساب بسمارك الذي كان له هكذا في قلب القصر رجل مخلص لأوامره . والأمر الاكثر خطورة ، هو أن بسمارك الذي يعرف كيف يفيد من خصم محتمل ، علم حتماً من طريق هولنشتاين ان بافاريا مدينة بمبالغ طائلة ، فسدّد هذه الديون الباهظة ، جاعلاً من لودفيغ أسير فضله . وقد سحب المال الضروري لهذه الصفقة السرية من فلفنشاتس ، خزينة الأسرة المالكة في هانوفر ، التي صادرها البروسيون عندما أُكره ملك هذه البلاد الصغيرة على الفرار السنة ١٨٦٦ . وكانت هذه الثروة تحت تصرّف المستشار ، يستخدمها كصندوق للطوارئ . وسواء عرف فاغنر ذلك أم لم يعرفه ، فقد كان يمقت بفيستر مايستر الوطني ، وهولنشتاين الرجل الذي يلعب على الحبلين .

وتجاوز فاغنر الحد بنشره ، في صحيفة ميونيخية ، وغفلاً من التوقيع ،بالطبع - ولكن هذا التنكر كان واضحاً بما فيه الكفاية - مقالاً يدين فيه العداوة التي تبرز باتجاه المؤلف الموسيقي . وقد جاء في المقال : «لا ينبغي أن يُفهم من ذلك إلا أنه من عمل طغمة ، في مصلحة الملك التخلص منها .» كان لودفيغ يكنّ لفاغنر عاطفة كبيرة ، ولكنه كان يعرف تماماً أيضاً مبلغ سلطته ؛ واذا كان يتساهل في سماع النصائح ، فإنه لم يكن ليسمح بأن تقدّم اليه علناً . فأمر فاغنر بمغادرة بافاريا . وفي ١٠ كانون الأول ١٨٦٥ ، عند الفجر ، حملت عربة فاغنر يرافقه خادمه وكلب صيد عجوز .

في الوقت نفسه الذي اضطر فيه الملك الشاب ان يتخذ هذا القرار المؤلم ، اضطر الى مواجهة وضع خارجي حرج للغاية : بروسيا تهدد النمسا التي تشدّها الى بافاريا معاهدة تحالف . فكان من المحتم خوض غمار الحرب ، ولم يكن ثمة شخص أقل حباً للحرب والعسكرية من هذا الملك المولع بالموسيقى . ألم يأمر في ذات يوم أن تُحمل أريكة لأحد الحراس الموجلين خفر قصره في ميونيخ ، وقد بدت عليه امارات التعب؟ !

إن احتمال نشوب حرب كان قابضاً للنفس الى حد كبير بالنسبة الى الملك الذي لم يسعه مقاومة الرغبة في أعادة الصلة بينه وبين فاغنر ، حتى بواسطة تبادل الرسائل . وفي ١٠ ايار ١٨٦٦ ، وقّع لودفيغ مرسوم التعبئة العامة ، ثم كاد يتنازل عن العرش لفرط ذعره ، لولا وصول برقية من فاغنر لثنيه عن عزمه . وبعد ثمانية أيام ، صادفت ذكرى ميلاد فاغنر ، فلم يسع الملك الصبر ، بل قفز الى قطار حديدي وانطلق لزيارة فاغنر وكوزيما في معتزلهما لدى سفح جبال الألب ، في تريبشن . وقد أمضى هناك يومين تناقشا خلالهما في الموسيقى والسياسة ، ذلك بأن فاغنر اغتنم الفرصة لكي يعرض له وجهات نظره حول الوضع الدولي .

ولكن ، في ميونيخ استُقبح هذا العمل الطائش ، ولما ذهب الملك لحضور الجلسة الرسمية للبرلمان ، حيّت صيحات السخرية الموكب الرسمي في بعض الأماكن . وبعد بضعة أيام ، اندلعت نيران الحرب ، وهاجم بسمارك النمسا ، ووجدت بافاريا نفسها مجرورة في الحملة المدمرة التي انتهت في غضون شهر بالانتصار البروسي في سادوفا وتحطيم بافاريا والنمسا . وكانت تلك المرحلة الاولى من توحيد ألمانيا الذي سيتم في

ظل بروسيا . وخرجت بافاريا من هذه الحرب أضعف مما كانت . وعلى الرغم من بقائها سالمة من حيث رقعتها الارضية ، فانها باتت أعجز من ان تقاوم بفعالية المدّ البروسي .

الملك بلا ملكة

كانت السنة التالية بالنسبة الى لودفيغ سنة محيّرة : بدا كأن فيضاناً قد قلب رأساً على عقب المشاهد المؤلمة في حياته ؛ واجتهد في التكيّف مع هذا الوضع الجديد .

في مناسبات ثلاث ، حاول الفرار ، وتحاشي القدر ، ولكن هذه المحاولات الثلاث باءَت جميعاً بالاخفاق .

قام أولاً برحلة في فرانكونيا ، في المناطق التي شهدت الغزو البروسي ، وعلى الرغم من الحماسة التي لا تصدّق التي استُقبل بها من جانب السكان ، اضطر الملك الى إكراه نفسه على الاختلاط بالجماهير على هذا النحو ، ولم يتكرر ذلك الاختبار في ما بعد .

بعد ذلك ،استبدل رئيس الوزراء معتقداً انه وجد أخيراً في الامير هوهنلوهه الرّجل الذي يحتاج اليه . غير أن هذا الدبلوماسي السابق لم ينجح ، مع ذلك ، في المهمة التي حسب لودفيغ الثاني أنه وُجد لها : تقريب الملك من شعبه ، واعادة المقام التاريخي الجديرة به بافاريا اليها .

سوى أن الإخفاق الأشد قسوة الذي عرفه لودفيغ ، كان في قضية خطبته . ففي كانون الثاني ١٨٦٧ ، أعلنت رسمياً خطبة الملك وصوفي ، أصغر بنات الدوق ماكس ، عم لودفيغ ، وشقيقة الامبراطورة اليزابت النمساوية .

واستقبلت بافاريا بفرح هذا النبأ . فبالنسبة إلى هذا الشعب ، واكثريته من الفلاحين ، كانت فكرة ملك بلا ملكة غير لائقة وشبيهة بفكرة مزارع بلا زوجة . وفضلاً عن ذلك ، راجت شائعات مقلقة حول موقف لودفيغ من النساء . فرجال الحاشية السليمو القصد الذين ودّوا جرّه الى التسليات التي كانت تعتبر طبيعية بالنسبة إلى الشبان من الأسر الراقية ، اصطدموا بطبيعة الامير الشاب الخجولة والمنطوية على

نفسها . ومع ذلك ، كان معروفاً منذ أيار ١٨٦٦ ، ان لودفيغ كان يقيم نوعاً من العلاقة مع المغنية الاولى في الاوبرا هي ليلا فون بوليوفسكي .

لفتت ليلا فون بوليوفسكي المجرية الفائقة الحسن ، الممتلئة حيوية اهتمام لودفيغ عندما كانت تؤدي دور ميري ستيوارت في مسرحية الشاعر شيللر الغنائية . وقد أثّر هذا المشهد أيما تأثير في نفس الملك ، بحيث أنه هرع ، فور انتهاء العرض ، الى الكابيلا الخاصة لكي يصلّي من اجل روح الملكة الاسكتلندية البائسة ، التي اعدمتها ملكة انكلترا اليزابث الأولى . وفي لقاءاته مع المغنية ، كان يصرّ على تسميتها ميري ستيوارت ، ويوقّع رسائله اليها باسم «مورتيمر» (وهو حبيب ميري الرومنطيقي في مسرحية شيللر) .

إن مغامرة تبدأ في طالع غريب كهذا لا يمكن ان تدوم طويلاً : فقد اعترف الملك لليلا بأنه لم يحتضن قط امرأة من قبل ، ولكنه الآن ، وهو يفكّر فيها ، فهو يغمر غالباً وسادته بالقبلات ! هذه العلاقة الغريبة التي لا نعدو الحقيقة إذا حسبنا أنها كانت أفلاطونية ، تواصلت ، مع ذلك ، نحواً من ست سنوات ! وحتى خلال الفترة التي عقدت فيها خطبته وصوفي ، استمر لودفيغ في مقابلة المغنية . وتدخّلت أم الملك وفرضت مغادرتها ميونيخ في السنة ١٨٧٢ .

إن ما قرّب بين لودفيغ والاميرة الصبية صوفي حبهما المشترك لموسيقى فاغنر . فخلال حفلة راقصة اقيمت في البلاط في ٢١ كانون الثاني ، رقص لودفيغ طويلاً مع الصبية ، وكانت بارعة الحسن في تلك الامسية . وفي صبيحة اليوم التالي ، وعند الفجر ، ايقظ أمه المفتونة متوسلاً اليها أن تطلب يد صوفي للزواج . وخلال العشاء أعلن خطبته أمام رجال حاشيته المذهولين .

كانت ميونيخ تتأهب لعقد زفاف أراده الجميع أن يتمّ في أفخم مظهر ، وراح المختصون يسكّون أنواطاً تحمل رسم الخطيبة الشابة . غير ان رجال الحاشية ما لبثوا أن لاحظوا بعض الضغط في العلاقات بين الخطيبين . فقد كانت لقاءاتهما يعوزها هذا الجو من المرح الذي كان ينبغي أن يسود . بالطبع ، كان الملك رفيع التهذيب بحيث لا يرعى الحديث عندما يوجد مع صوفي التي ، لم تكن من جهتها على شيء من ذلك ،

وينبغي قول ذلك .

واحياناً كذلك ، كان يمثّل دور العاشق المتيّم ، فيمتطي صهوة جواد وسط الليل ، ليذهب ويقرع باب قصر بوسنهوفن حيث تقيم الأميرة الصبية . ولما لم يكن وارداً ترك الخطيبين وحدهما ، كان يتم ايقاظ كل أهل البيت ، فترتدي امرأة من حاشية صوفي ملابسها على عجل لمصاحبة الحبيبين . ولم يكن ذلك لحثّ لودفيغ على إطالة تمثيل دوره ، وكان بالوسع مشاهدة الملك جالساً على بعد بضعة أمتار من صوفي الشديدة الارتباك ، التي كان يردد على مسمعها بلا انقطاع : «إن لك عينين جميلتان !»

ومع ذلك ، وبحجة أو بأخرى ، كان يتم تأجيل موعد الزفاف باستمرار . ولم يكن السبب في ذلك ان لودفيغ لا يحبّ صوفي : كان يخاف النساء ! ما كادت تُعقد خطبته حتى كاد يجنّ لمجرد التفكير في أن عليه أن يتزوج . وأخيراً نفد صبر حميّه العتيد ، وفي تشرين الأول ، ارسل الى لودفيغ إنذاراً حقيقياً : «إما أن يتم الزواج في تشرين الثاني ، وإما ألا يتمّ مطلقاً .»

وانتهز لودفيغ المناسبة : كيف يجرؤ احد «رعاياه» أن يفرض على الملك تصرُّفه؟ وتحت أنظار حرس القصر المذعورين ، رمى من فوق السلّم بالتمثال النصفي لصوفي الذي كان يزيّن مكتبه . ثم كتب على عجل بطاقة الى خطيبته يقول فيها انه ما دام «والدها القاسي يفرّق بينهما» ، فينبغي الرضوخ للأمر . ولم يكتم لودفيغ المحيطين به فرحته . أما صوفي ، فقد اقترنت في ما بعد بدوق دالونسون ، ولكنها لم تتوقف قط عن حب لودفيغ . وقد لاقت مصرعها في حريق البازار الخيري ، في باريس .

عبودية بافاريا

عاش لودفيغ طوال السنوات التي تلت عيشة بوهيمية حقيقية : كان يقيم في اغلب الأحيان في قصر برغ ، وهو مسكن قديم غير مريح ، بالكاد فيه رياش . ومن معتزله هذا الذي لم يكن يغادره الإ لماماً ، وللقيام بنزهات في بحيرة ستارنبرغ نهاراً ، وليلاً للقيام بجولات على صهوة جواده ـ كان يصرّف شؤون الحكم كيفما اتفق في دولة تسير ، على اي حال ، مع التيار .

في هذه الأثناء ، وعلى أثر مصالحات عاصفة تتلوها مشاحنات لا تقلّ دويّاً ، انتهى لودفيغ الى قطع كل صلة له مع فاغنر ، على ما يبدو . فقد عرف بعد الجميع بطبيعة العلاقات الحقيقية بين فاغنر وكوزيما ، فجعله رعبه من الزنا يقطع صلته بالموسيقي الذي لم يره قط خلال ثماني سنوات . أما كوزيما فلم يغفر لها مطلقاً ، وقد رفض حتى أن يأذن لها بمقابلته لما طلبت اليه ذلك في ما بعد لدى وفاة فاغنر .

واستسلمت بافاريا للضغط البروسيّ ـ ونعلم أنه كان لدى بسمارك تجاه لودفيغ الثاني براهين لا يمكن إنكار قيمتها ـ فاشترك في حرب السنة ١٨٧٠ ضد فرنسا ، ولكن الملك لم يكن ليبالي مطلقاً بتطور العمليات ، وقد عانى وزراؤه الكثير لانتزاعه من الشاليه الجبلية التي لجأ اليها لكي يجعلوه يوقّع الأمر بالتعبئة العامة . وعندما احتُفل في ميونيخ بالنصر الذي تمّ في سيدان ، غادر الملك الذي لم يعد الى عاصمته إلا لاستقبال دوقة كبيرة روسية مرّت ببافاريا ، على عجل وعلى الفور متذرعاً بأن الاحتفالات الصاخبة تصيبه بصداع نصف الرأس (الشقيقة) . وعند ذاك ، في السنة ١٨٧١ ، وفي نشوة النصر والفتح ، رأى بسمارك أن الأوان آن لكي يحقق أخيراً تحقيق الوحدة في المانيا تحت الجزمة البروسية . وكان ينبغي من أجل هذا أن يعرض تاج الامبراطور على فلهلم الاول البروسي ، بواسطة الملك نفسه الذي كان يعتبر دوماً الحليف التقليدي لفرنسا والعدو الوراثي لبروسيا : لودفيغ الثاني البافاري .

وتولّى هولنشتاين ، العميل السري لبسمارك في البلاط ، مهمة إجراء المفاوضات الدقيقة . وقد هبط فرساي للتحضير لزيارة سيده ـ على ما زعم ـ وكان له لقاء مطول خاصّ مع بسمارك .

لم يكن هولنشتاين قد عمل وسيطاً لدى المستشار من أجل الاستخدام الذكي لكنز غيلف ، بل كان كذلك خبيراً ماهراً بالخطط الحربية الاستراتيجية ، عرف كيف يستميل الملك ويكسب ثقته . وهو من خطرت له فكرة تلك الرسالة الشهيرة التي كتبها بسمارك شخصياً باسم لودفيغ ، ولم يبقَ سوى توقيعها من هذا الأخير . في هذه الرسالة ، يُعلم ملك بافاريا فلهلم البروسي أنه نصح للأمراء الألمان بتقديم تاج امبراطور ألمانيا الى ملك بروسيا نفسه .

حمل هولنشتاين هذه الرسالة الى قصر هوهنشفانغاو حيث يقيم لودفيغ ، وقد شوَّه وجهه ألم الاسنان ، وتشويش ذهني لفرط ما ابتلع من المسكّنات . وكان الملك وحده في هذا المسكن الكئيب وليس هناك من ينصحه . ومما لا ريب فيه أن هولنشتاين ذكّر سيّده بالموجبات المتعاقد عليها مع بسمارك ، واستخدم نفوذه الشخصي لاقناع سيّده . وأخيراً ، ودونما نقاش ، تقريباً ، تناول لودفيغ ، وهو في سريره ريشة ووقّع . لقد انتصر بسمارك . بروسيا ، سيدة ألمانيا ، سيغدو بمقدورها ان تجرّه في الدم ، والحديد ، والنار .

أما بالنسبة الى لودفيغ ، اللامبالي من الآن فصاعداً ، بكل حقيقة سياسية ، فقد دخل المرحلة الثانية من قدره الحزين ، مسوَّراً أكثر فأكثر كل يوم بحلم ضبابي سينغلق عليه .

وكان مولعاً ، بصورة خاصة ، بالهندسة المعمارية . وقد جعله هوسه بالبناء الذي لم يلبث أن تحوّل الى وسواس ، ينتهي الى إصابته بمسّ . فقبل حرب السنة ١٨٧٠ ، أمر ببناء قصر لندرهوف ، وهو مبنى صغير على الطراز الباروكي . ولكنه لم يباشر ببناء قصر نوشفانشتاين ، إلا بعد الحرب ، وهو قصر يعكس أفضل من كل مغامراته الاخرى ، مزاج لودفيغ الثاني البافاري الحقيقي .

عالم من الأشباح

لقد نقل الى هناك عالم الحلم الذي انقضت فيه طفولته : إنه قصر من قصور القرون الوسطى رآه فاغنر بجدرانه الرمادية ، وأبراجه التي تنتصب مهددة متوعدة ، فوق صخرة منعزلة عن بقية العالم بواسطة سيل جارف ، ولم يكن الداخل أقلّ غرابة من الخارج : كان هناك مسرح فسيح بالوسع ان تمثّل فيه مسرحية من مسرحيات القرون الوسطى المتعددة الشخصيات ، وبجانب قاعة العرش الفسيحة كالكاتدرائية البيزنطية ، كان هناك مغارة اصطناعية في سقفها هوابط ينيرها قمر يُشغّل بآلية تسمح باظهار مختلف مراحله .

في هذا الإطار الخيالي كان يلذّ له أن يحيا ، في عزلة تزداد وحشة . وقلما كان

يذهب الى ميونيخ ، وإذا ما فعل ، فلكي يشهد أحد العروض الخاصة التي كان يطلب تقديمها إليه شخصياً في المسرح الملكي في ميونيخ ، لفرط ما كانت ترعبه الجماهير .

ان كرهه المجتمع وبغضه البشر لم يكونا يمنعانه ، مع ذلك ، من السعي أحياناً بحماسة وحرارة يائسين إلى اتخاذ أصدقاء أمينين . ولم يكن يسعى اليهم في ما بين أفراد أسرته التي كان يحاذرها : كان يرى في كل أنسبائه وذويه ساعين جشعين من أجل الإرث واقتناص تاج ملك عازب . وغالباً ما كانت سيكولوجيته المعذّبة تضفي على هذه العلاقات طابعاً غريباً . فافتتن هكذا ببعض الشبان والنبلاء الوسيمين في البلاط ، ولكن هذا الملك لم يكن يرتاح إلا بالقرب من فلّاحي بافاريا : فهؤلاء دون أن يفكروا في النمّ والثرثرة حول الحياة التي يحياها مليكهم ، كانوا يشعرون بنوع من الاعتزاز من شذوذه او غرابته اللذين كانا يبدوان لهم معقولين لدى الملك . وهذا الرجل الغريب ، الذي كان من جهات كثيرة ملكاً سيئاً ، كان من الملوك الذين عرفتهم بافاريا ونعموا بحب شعبهم اكثر من سواهم ! . . .

في السنوات العشر الاخيرة من حياته ، عاش لودفيغ في واقعية مسكونة بالظلال الهاربة .

في البداية كان يحيا بالعكس أو مقلوباً . كان يستيقظ حوالى السادسة مساء ، فيستحّم في مغطس كبير مستدير ، حيث كان يُنضح بالماء الفاتر ، ثم بالماء البارد . ومن ثم كان يتناول فطوره . وكان يتغدّى حوالى الثانية صباحاً ، ويتعشى في السادسة او السابعة ، ثم يأوي الى السرير . وكان ستة طهاة يعملون طوال الليل تحت اشراف رئيس طهاة ، ذلك بأن كل وجبة من وجبات لودفيغ كانت تتألف من ثمانية ألوان من الطعام أو تسعة ، لا فرق اينما وجد وحتى لو كان مسافراً بالقطارالحديدي . وكانت هذه الحياة الغريبة تنقضي بدقة متناهية جداً ، وكان أحياناً يقضي الساعات الطوال يحلم أمام الآلية الدقيقة في الساعة الدقّاقة !

ولم يكن يهتم بشؤون الدولة الآمرة في الاسبوع ، ولكنه لم يكن يغادر مكتبه قبل أن يدرس ويوقّع كل الوثائق المقدمة اليه للتوقيع !

وغدا حبه الشديد للعمارة ظاهرة تعويض يكفّر بها عن عجزه عن الحكم . وحتى

النهاية ، وحتى عندما أصبحت أحاديثه أحياناً مشوشة ، كان يستعيد كل وضوحه وصفائه عندما يدور الموضوع حول العمارة .

وفي السنة ١٨٧٨ ، شيّد في هيرنفورت قصراً هو نسخة طبق الأصل عن القسم الاوسط من قصر فرساي . ذلك بأن لودفيغ المسكين كان يكنّ ، منذ البداية ، اعجاباً عميقاً للملك الشمس ـ لويس الرابع عشر الفرنسي ، فعبَّر هكذا عن احلامه الخائبة كملك فاشل . وفي قاعة المرايا المنقولة تماماً عن قاعة المرايا في قصر فرساي ، كان الملك الشبح يتنزه ، وحيداً على ضوء ٢٥٠٠ شمعة مشتعلة .

حوالى السنة ١٨٨٠ ، اتخذ عادة غريبة : فعلى الرغم من أنه كان يتناول عشاءَه وحده ، فإنه كان يأمر بتحضير مائدة لعدة أشخاص ، وكان من مدعويه أشخاص توفوا منذ زمن بعيد ، وفي أغلب الاحيان من أسرة بوربون ، وماري ـ انطوانيت ، وأشباح آخرون من فرساي ، فكان يتحدّث معهم طوال ساعات تحت بصر الخدم المذعورين .

في هذه الأثناء كان شقيقه أوتو ، وهو الانسان الوحيد الذي عاش معه سنوات سعيدة ، يغرق في لجّة الجنون ، بعد ان أُصيب بالعته المبكر ، وسبق بفترة بضع سنوات لودفيغ في ظلمات الجنون . وتأثر الملك كثيراً ، فكان في أحيان يتردد على قصر فورستنريد حيث كان اوتو محتجزاً . وكان يجهد في تهدئته إبّان نوبات رهيبة تنتابه . ولكنه سرعان ما ألفى نفسه غير قادرعلى تحمّل هذا المشهد المؤلم ، فكان يقضي الساعات الطوال ، يقرأ بشغف ملاحظات أطباء أوتو .

«جثمان فاغنر ملك لي!»

وبرز شبح آخر أيضاً من الماضي ، ولكنه حيّ هذا : رتشارد فاغنر ، الذي كان ينظّم مهرجاناته الموسيقية الأولى في مدينة بايروت ، وقد خصّص لها لودفيغ الثاني عوناً مادياً هاماً . وفي السنة ١٨٧٦ ، أقبل الملك ، نزولاً على إلحاح الموسيقي المتواصل ليشهد العروض الموسيقية ، حيث اضطر الى تلقّي هجمات جمهور متحمس ، الأمر الذي لم يرق له قط .

ولدى عودته ، كتب الى فاغنر يقول إنه لن يذهب بعد ذلك الى بايروت . والواقع ان تلك كانت آخر مرة يظهر فيها امام الملأ . ومع ذلك ظل لودفيغ يقيم مراسلة مع فاغنر الذي كان يطلعه على الصعوبات التي يصادفها في بايروت . وكان لا بدّ من نجاح اوبراه «بارسيفال» لكي يصبح عمله في النهاية مربحاً ، في السنة ١٨٨٢ . الإ إنه مع ذلك ، ولمناسبة بروفة على افتتاحية «بارسيفال» قدمّت بصورة خاصة أمام الملك ، انتهت هذه الصداقة الغريبة !

وصل الملك المشهور بدقة مواعيده ، متأخراً ، الأمر الذي أزعج فاغنر . وما إن انتهت الافتتاحية ، حتى رجاه لودفيغ أن يعيد عزف المقطوعة . فقبل فاغنر على الرغم من تعبه ، ولكن لما طلب لودفيغ في ما بعد أن تُعزف له افتتاحية «لوهنغرين» «لكي يتمكن من اجراء مقارنة بين الافتتاحيتين» ، ألقى الموسيقي العجوز المتقرح من شدة الالحاح وكثرته عصا القيادة على مسنده ، وغادر القاعة دون ان يتلفظ بكلمة واحدة .

ولم يلتق الرجلان بعد ذلك البتة . وفي مساء احد أيام شباط ، أُعلم الملك بواسطة برقية من مدينة البندقية في ايطاليا بوفاة المعلم العجوز . فاضطرب لودفيغ الثاني كثيراً ، وهتف : «ان جثمان فاغنر ملك لي !» وأصدر الأمر بتغطية كل الآت البيانو في قصوره بقماش الكريب الاسود حداداً عليه . ولما توقّف ناقلو جثمان فاغنر في ميونيخ وهم في طريقهم الى بايروت لاجراء احتفال قصير في محطة السكة الحديدية في جو فاغنري كلياً ، على ضوء المشاعل ، اكتفى الملك بانتداب مرافق خاص حاملاً اكليلاً من الزهور . فقد كان مسوّراً آنذاك في عزلته الى درجة ان حتى موت فاغنر لم يستطع انتزاعها منه .

كان لودفيغ يعيش وسط رفقة غريبة : مقاولون تحيط بهم حاشيتهم من الحِرفيين والفنانين ، وموظفون كان وجودهم لا يُحتمل بالنسبة اليه ، وقلما كان يراهم ؛ ذلك بأنه كان يقضي معظم وقته مع الخدم وسائسي الخيل الذين غدوا اصدقاءَه الحميمين . وكان عدد من خدمه يمثّلون احياناً أدوار ذوي الحظوة لديه : يتنكرون بملابس شرقية ، وبعضهم يدخنون النارجيلة في أكشاك مغربية ، او وهم يرتدون الملابس المصنوعة من جلود الحيوانات عندما يشتركون معه في الصيد . ولكن مما لاريب فيه أن هذه

الاحداث مبالغ فيها كثيراً ، وليس ثمة دلائل او براهين لا تُدحض حول علاقات الملك غير الطبيعية بخدمه .

ذلك بأن لودفيغ الثاني البافاري الذي كان يُشبَّه بهامليت دوماً ، كان يشبه بخاصة ، في الواقع ، بطلاً مأساوياً أخر من ابطال شكسبير هو الملك رتشارد الثاني ، العاهل المتعالي الذي ظل محتفظاً دوماً ، وسط أسوأ أنواع الانحراف والخلل العقلي ، وحتى ذلّ الأسر ، بالايمان بنبالة وضعه كملك !

نهاية مُلك

صباح يوم ٨ حزيران ١٨٨٦ ، انهى الدكتور برنارت فون غودن ، مدير ملجأ المجانين في بافاريا العليا ، تقريراً عمل فيه طوال الليل . وبعد ساعة عقد اجتماعاً مع ثلاثة اختصاصيين آخرين في الطب العقلي والنفسي ، وعند الظهر وقّع الأطباء الاربعة تقرير الدكتور غودن الذي خلص الى القول ان الملك مصاب بالبارانويا – او الذُهان الهذياني ، وهو ذهان مزمن من أعراضه الرئيسية الهذاء الثابت المنظم مع نزعة للشك والارتياب ـ وأنه غير قابل للشفاء ، وأنه عليه لا التنازل عن العرش ، وحسب ، بل دخول مصحة للامراض العقلية .

كيف وصل لودفيغ الى هذا الحدّ؟ بالطبع ، لم يكن قط يوماً حقاً ما يُصطلح على تسميته «طبيعياً» لقد تاه دوماً على تخوم الغرابة والجنون . وكان يتفق ان يتخطى أحياناً هذا الخط الرفيع الفاصل بين غير المتكيّفين والمعتوهين .

وفي حياته ، اكثر فأكثر ، محاطاً ، وحسب ، بالخدم ، والفلاحين ، تحرر لودفيغ شيئاً فشيئاً من الواجبات التي ينبغي أن يفرضها على نفسه المتحضر الطبيعي . في البدء ، كان يُعتقد أنه يقوم بمجرد دعابات عندما كان يقرر ، مثلاً ، ان الخادم الفلاني «سيُنفى الى اميركا» او «يُلقى في زنزانة تحت الأرض» ، ما دام لم يكن يهتم مطلقاً بمعرفة ما اذا كانت هذه الاحكام السخيفة تُنفَّذ ـ علماً بأن لا زنزانة واحدة في كل القصور التي كان يحتلها . ولكن سرعان ما بات صعباً التمييز بين الدعابات الصغيرة من جانب مبغض للبشر شاذّ التصرّفات ، ونوبات الهيجان الحقيقية .

كان يُشاهد ، أكثر فأكثر أحياناً يتحدَّث الى نفسه طوال ساعات ، وكان يزعم أنه لا يبالي مطلقاً بالبرد ، وقد رؤي يتناول عشاءه في الخارج وسط عاصفة ثلجية . غير أن الأعراض الفاضحة الأشد خطورة التي لا يمكن تبريرها في حالته ، كانت مشاريع البنّاء او المشيِّد الجنونية . فأحد القصور الغريبة التي أمر ببنائها لم يكن قد أنجز لما فكّر في تشييد قصر آخر ، اكثر استشباحية من القصور السابقة !

وكانت هذه الاعمال تكلّف النفقات الباهظة ، وتفسد التوازن المتقلقل في الموازنة البافارية . وقد انتهى الملك الى حلول وهمية مثل التفكير في الاقتراض ، بصورة شخصية ، من إمبراطور النمسا ، وملك السويد ، وشاه ايران ، والبارون دو روتشيلد ، وحتى من مرابين في ميونيخ !

وقدَّم اليه وزراؤه ، على ذلك ، مذكرة تصورّ الحالة المالية في المملكة بألوان داكنة اكثر مما هي في الحقيقة . واستاء لودفيغ من الوضع ، فلما وصل وفد من ميونيخ الى ابواب قصر نوشفنشتاين ، حيث كان يقيم ، ليعلمه أن عمه ليوبولد تولى الوصاية على العرش ، رفض الحرس المسلحون السماح لهم بدخول القصر ، وعمدوا الى القبض على عدد من أعضاء الوفد . وجنّ جنون الملك ، وفي غمرة غضبه الجنونية تحدّث عن قلع عيون أسراه ، وسلخ جلودهم وهم أحياء . واحتشد الفلاحون المجاورون حواليّ القصر ، ولم يخفوا رأيهم في هؤلاء «الخونة من ميونيخ» ! غير ان سورة غضب لودفيغ كانت قصيرة الأمد ، وما هي الا ساعات حتى أطلق سراح أسراه الذين انسحبوا على جناح السرعة .

في هذا الحين ، وصل صديق للملك هو الكونت دوركهايم . فتوسل الى الملك ان يتصرّف ، ويتصرَّف بسرعة . فقد كان ينبغي ارسال برقيتين الى كل من بسمارك وامبراطور النمسا لوضعهما في مجرى الاحداث ومحاولة الاغتصاب ، وتعيين وزير أول جديد ، واستقدام فوج من المشاة على عجل لحماية لودفيغ . ونصّ الكونت هاتين البرقيتين شخصياً ، ولا ندري ما اذا كان الامبراطور تلقّى البرقية او لا . ولم يطّلع قط قائد فوج المشاة على برقيته . أما الوزير الأول المعيّن ، فرانكنشتاين ، فقد هرع من فوره الى ميونيخ حيث لم يُسمح له أن يتصل بالملك .

أما بسمارك ، فقد نصح للودفيغ بالعودة الى ميونيخ دونما إبطاء ، والظهور أمام رعاياه . سوى أن لودفيغ كان ـ كما يقولون اليوم ـ شديد الحساسية بالنسبة الى ميونيخ . فاحتجّ بألف حجة وذريعة لتأخير هذه الرحلة . ليس هناك قطار حديدي ، إنه منهوك القوى ولا يسعه الظهور أمام الجماهير . لم يكن الملك إلا امرأً مريضاً عاجزاً عن اتخاذ اي قرار . فلما طلب دوركهايم ، وكان ضابطاً ، ورسائل وزير الحربية اليه تستدعي وجوده أكثر فأكثر وبإلحاح في ميونيخ ، الى الملك أن يدعمه في هذه القضية التي يكاد يُتّهم فيها بالخيانة العظمى ، كلّفه لودفيغ أن يطلب الى عمه السماح له بالبقاء في القصر ! لقد استسلم !

مأساة قصر برغ

كان يعلم ، مع ذلك ، ان الملك لا ينبغي أن يسلّم بالتنحي على هذه الصورة : وحده الموت سيقدّم اليه مخرجاً يليق به . فطلب الى دوركهايم أن يعطيه سمّاً ، وكذلك الى آخرين ، ولا ريب . ولما لم يرضَ احد بتلبية رغبته ، قد يكون قرّر ان يلقي بنفسه من أعلى حواجز القصر . كان يهيم الساعات الطوال في الحجرات الفارغة ، كما لو كان يوُدّع كل ركن من اركان هذا المسكن الذي أمر بتشييده ، متوقفاً أحياناً ليطالع بضع صفحات من كتاب . ونجح أخيراً في خداع رقابة خدمه ، فتسلّل الى برج الرصد ، ولكن ما إن بلغ المنصة حتى احاط به ممرضون يرتدون السواد . فصعقهم بنظره ، وللمرة الاخيرة سمّرهم في أماكنهم نظره الحادّ النفاذ بكيفية غريبة . ولم يجرؤ أحد على مدّ يده الى الملك . وأخيراً اخذه رجلان منهم بذراعه ، وبينما كان يتخبط بين ايديهم ، حملوه الى حجرته حيث حُبس تحت حراسة مشدّدة .

في الساعة الرابعة صباحاً نقلت ثلاث سيارات لودفيغ في آخر رحلة له الى قصر برغ . فلما وصل الى هناك ، بدا أكثر هدوءاً ، فخدع الاطباء بهذا الهدوء الظاهر . وتأمل الملك دون أن يرفّ له جفن الطريقة التي جُهِّز بها القصر لكي يتحوّل بسرعة الى مصحة عقلية حقيقية .

واستطاع لودفيغ أن يحصل من الدكتور غودن الذي كان مكلفاً الاشراف عليه ،

أن يرافقه هو شخصياً في نزهاته في الحديقة ، وأن يُنحّي الممرضَين المعيّنين لمواكبته في النزهة ويتابعانه كظله . وقام الطبيب ومريضه بنزهة قصيرة قبل موعد الغداء . وحدث ذلك يوم الاحد في ١٣ حزيران ١٨٨٦ . وبعد ظهر اليوم نفسه أبرق الدكتور غودن الى ميونيخ يقول : «الآن كل شيء يسير على خير ما يرام .»

في الصباح كان لودفيغ قابل في الحديقة رئيس طهاته السابق ، فتبادل معه الحديث بودّ . وقد ناقش ، بكل هدوء حالته ، واستفسر عن التعليمات التي تلقّاها رجال الدرك المنتشرون في ارجاء الحديقة . وقد اقنعه هذا الحديث ، بلا شك ، بأنه لا ينبغي له أن يحسب حساب الفرار ، أو إطلاق سراحه في يوم من الأيام ، حتى لو انه استعاد توازنه العقلي . ونجح في حمل الجميع على الاعتقاد بأنه لا يفكّر مطلقاً في وضع حدّ لحياته .وتناول طعام الصباح بشهية ، وحوالى السادسة مساءً ، طلب الى الدكتور غودن ان يرافقه في نزهته الثانية التي يحق له القيام بها . وغادر الطبيب ولودفيغ القصر قبيل الساعة السابعة . وتظاهر ممرض بأنه يتبعهما ، ولكن الطبيب تمتم : « لا ممرض !» وقد كلفته هاتان الكلمتان حياته !

اختفى الرجلان وسط الضباب ، وهكذا يخرج الملك لودفيغ الثاني من التاريخ !

بالوسع ، مع ذلك ، التكهّن بما حدث بعد ذلك . سار لودفيغ والطبيب قرابة عشرين دقيقة حتى بلغا موضعاً يتصل به حاجز الحديقة المشبّك بحاجز البحيرة . في تلك اللحظة قد يكون غودن أراد العودة الى القصر ، واستدار لودفيغ فجأة للعودة ، فسقط وسط القصب نحو الماء . وتساءل غودن بينه وبين نفسه عما اذا كان الملك شاء الهرب ام الانتحار ، وأستغاث فلم يلقَ أي ردّ ، واندفع خلفه لأنه لم يجرؤ على العودة وحده حياً من دون الملك .

اندفع البروفسور العجوز البالغ اثنتين وستين سنة خلف هذا العملاق الذي لم يتجاوز سنه الثانية والاربعين ، وقد بلغ الماء . ويبدو ان الصراع كان حامياً ، ذلك بأنه لمّا اكتشفت جثة الطبيب المسكين ، كان نصف ظفر من أظافره انتُزع ، وقد ألقي جثمانه على الشاطئ الموحل بقوة هائلة . فبعد أن قتل لودفيغ حارسه ، قد يكون اندفع مجدداً بعيداً عن الضفة . وعُثر على آثار خطاه حتى الموضع الذي يبلغ فيه عمق المياه

متراً ونصف المتر . وهناك غرق .

بمعنى أخر ، غرق لودفيغ السبّاح الماهر على عمق متر ونصف من المياه . لعلّ سوء الهضم شلّ حركته قبل أن يشرع في السباحة . ولعلّه كذلك ، بجهد إرادي أخير يفوق الطبيعة ، نجح في أن يشلّ حركته بنفسه ، ويدع نفسه يغرق .

لن يعرف أحد شيئاً ، وسيظل السرّ يحوّم دائماً حول ما كانت عليه اللحظات الأخيرة ، والأفكار الاخيرة لدى هذا الملك الرومنطيقي غير قابل الشفاء الذي قضى لأنه لم يجد في الحياة كل ما كانت تؤمله إياه احلامه الفاغنرية !

زواج حب، ونهاية مأساوية

كان الارشيدوق مكسيميليان النمساوي ، الأخ الأصغر للامبراطور فرانتس ـ جوزف ، في الخامسة والعشرين عندما اقترن ، في السنة ١٨٥٧ ، بالاميرة الصبية البلجيكية شارلوت ، وكانت في السابعة عشرة ، ابنة ليوبولد الاول ، وحفيدة ملك فرنسا لوي ـ فيليب .

وكانت الهمسات تدور في كل بلاطات اوروبا ، أن مكسيميليان كان ثمرة الغراميات السرية بين الارشيدوقة صوفي ودوق رايشتات . وكان الأرشيدوق شاباً وسيماً ، مثقفاً ثقافة عالية ، سخياً ، وطيباً ، ويُحبّ أن يحاط بالفنانين ، والكتّاب ، والعلماء .

كانت شارلوت شديدة الهيام بهذا الشاب الأنيق ، ذي النظرة الزرقاء الحالمة ، واللحية الشقراء المبسوطة كالمروحة ، الذي تزداد هيبته عندما يرتدي بزة أميرال . ومثله كانت هي ايضاً فنانة ، ومثقّفة ، وتتكلم عدة لغات . وقد عاشا طوال سبع سنوات شهر عسل طويلاً ، في قصر ميرامار الذي أمر مكسيميليان ببنائه ، على بعد ستة كيلومترات من تريستا ، وقد رسم بنفسه خرائطه ، واختار الاشجار والأزهار التي ستُزرع في حدائقه ليجعل منه ملجأ ساحراً .

في هذا القصر ، وبحثٍّ من نابوليون الثالث الفرنسي ، عُرض على مكسيميليان في خريف السنة ١٨٦٣ ، تاج المكسيك . وكانت هذه البلاد ممزقة بين حزبين اثنين : حزب الجمهوريين ، وحزب الامبراطوريين . وكان الجمهوريون قد انتخبوا رئيساً هو بنيتو خواريز ، الذي يتمتع بفضل أصله المزدوج بذكاء الرجل الابيض ، وصبر الهندي الاحمر .

وكان الامبراطوريون ينعمون بدعم كل من فرنسا ، وانكلترا ، واسبانيا ، التي بصفتها دولاً دائنة للمكسيك ، لها مصلحة في تأمين حكومة تضمن لها مصالحها .

وتردد مكسيميليان في قبول هذا التاج . ذلك بأن هذا الأمير ذا الميول الفكرية ، ليس له القلب الجاف الضروري للسياسيين ، ولا الطاقة على المطامح . فالمغامرة ترعبه قليلاً .

رغبة المرأة

بالمقابل ألهب ذلك مخيلة شارلوت . فالارشيدوقة ذات طموح ، وهي تحلم بعرش . وقد ألحّت بحيث لم يرَ مكسيميليان بداً ، في نهاية المطاف ، من التسليم بالأمر ، والرحيل الى المكسيك . وانزلته الفرقاطة النمساوية نوفارا في فيرا كروز ، في ٢٨ أيار ١٨٦٤ ، برفقة شارلوت .

وكانت مطالبات مكسيميليان بالتاج الامبراطوري المكسيكي تحظى بدعم حملة عسكرية فرنسية قوامها ٢٠ ألف رجل بقيادة بازين . وقد دخلت القوات الفرنسية المكسيك في السنة ١٨٦٣ للتحضير لوصول الامبراطور .

واستُقبل الزوجان الاميران في مكسيكو بمهرجانات دامت ١٥ يوماً . ثم أُقيم احتفال التتويج برئاسة كبير الاساقفة ، وأعقبت ذلك زيارة الامبراطورية ، أو على الأقل الجزء الذي لم يكن بين يديّ خواريز . وأحسَّ مكلسيميليان ، على الرغم من ارادته الطيبة ، وطبعه السمح ، بعدم ثبات وضعه في هذه البلاد التي تغلي بالثورة . وفضلاً عن ذلك ، فهو ضعيف ، ومريض ، ولم يتأقلم كما يجب مع بلاده الجديدة .

وحثّته شارلوت على الصلابة والأمل . وانقضت حوالى سنتين دون أن تحملا السلام الى البلاد المضطربة دوماً من جانب بنيتو خواريز . ولولا وجود الحملة العسكرية الفرنسية لما كانت الحال تطاق . ولكن ، عقب لعبة مؤامرات سياسية ، قرّر نابوليون الثالث استدعاء قواته من المكسيك إلى فرنسا .

واقترحت شارلوت التي ساندت منذ البدء زوجها بقوة غير مألوفة ، على مكسيميليان أن تذهب شخصياً لمقابلة نابوليون الثالث ، بغية ان تحصل منه على الأمر

بتأخير سحب جنوده .

وأبحرت المسافرة سرآً .

الأزمة الاولى

كانت الاميرة ، خلال الرحلة ، كئيبة ، صموتاً . فلما وصلت الى باريس في ٩ آب ، لم تجد أحداً في استقبالها في المحطة ، واضطرت للنزول في «الفندق الكبير» ، مثلها مثل أي سائحة . . . وفي اليوم التالي ، وعندما أقبلت الى سان ـ كلو لمقابلة الامبراطور ، تذرّع نابوليون الثالث بوعكة صحية لكي يتفادى استقبالها . وعاندت المسكينة ، بحيث حصلت على موعد للقاء في ١١ آب .

وأخيراً تمّ اللقاء ، بحضور الامبراطورة أوجيني . ولم تُجدِ الحجج ، ولا التوسلات ، ولا مختلف أنواع الرجاء فتيلاً في التأثير في إرادة نابوليون الثالث ، على الرغم من أن ثمن ذلك هو تخلّيه عن اللعبة . غير أن الحملة العسكرية المكسيكية لا تحظى بأي شعبية ، وقد ارتبط الامبراطور بوعده لمجلس الوزراء بأن يستدعي بازين ورجاله إلى فرنسا . وعبثاً حاولت اوجيني التي أخذتها الشفقة على الامبراطورة الملحة ، والزوجة المخلصة الوفية ، التوسل من أجلها ، فقد تهرّب نابوليون الثالث .

عندها ، وعلى حين غرّة ، ألقت شارلوت كل حذر دبلوماسي جانباً ، وانفجرت ، بفظاظة ، فصبّت احتقارها على هذين الزوجين اللذين تعتبرهما مسؤولين عن تعاستها ، قائلة :

- كيف أمكنني أن أنسى من أنا ومن أنت؟ . . . كان ينبغي لي أن أتذكّر ان الدم الذي يجري في عروقي هو دم آل البوبورن ، وألا أُضيع اعتباري وعنصري وشخصي بالتذلل أمام احد البونابرتيين . . . والتعامل مع مغامر ! . . إنك تحكم بالموت على امبراطور المكسيك؟ ! ليكن ! . . سيموت ماكس العزيز . . .

وهكذا فقدت هذه المرأة الحائرة كل سيطرة على نفسها . وراحت تجهش بالبكاء والضحك في آن ، بطريقة مخيفة . وتكهّنت ، وعينها تطلق شرارات الحقد ، وقد فقدت أعصابها :

- بسبب غلطتك ، سيجري دم ودمع كثير ! فليسقط هذا الدم والدموع

عليك ! . .

ثم كانت ثورة الأعصاب . وذعرت اوجيني ، وشاءَت أن تُسعف بنفسها الزائرة ، بانتظار وصول الطبيب الذي أمرت باستدعائه . وأرادت أن تسقيها ماءً محلّى بالسكّر ، فدفعت المرأة البائسة القدح عنها ، صائحة :

- ايها السفّاحان ! اتركاني وشأني ! إنكما تودّان تسميمي !

ومع ذلك ، تغلبت شارلوت على هذه الأزمة العصبية بقدر الإمكان . وبعد يومين اثنين ، عادت تتوسل ، من صميم قلبها ، وبكل ما أوتيت من طموح أيضاً ، من اجل مكسيميليان . وفي نهاية هذه المقابلة الثانية ، كانت الامبراطورة اوجيني من أُغمي عليها بعد أن هدّ قواها الألم ، والقلق ، وتوتّر الاعصاب بسبب الوضع المأساوي الذي شهدته .

في ١٨ آب ، جاء نابوليون الثالث لزيارة شارلوت في «الفندق الكبير» لكي يؤكد لها رفضه تمديد إقامة جنوده في المكسيك . ونتيجة احساسها بالمهانة ، لم تكتمه ، للمرة الاخيرة ، مبلغ حقدها عليه .

وقررت ، بعد ذلك ، مقابلة البابا ، صاحب السلطة الأدبية العليا ، والملاذ الشامي . فاستقبلها البابا بيوس التاسع في ٢٧ آب ، فكان محرجاً جداً لأن الدعم الوحيد الذي يسعه تقديمه كان روحياً . . . ومرة أخيرة ، عادت شارلوت إلى مقابلة الحبر الأعظم في ٣٠ آب . وكان اليأس قد بلغ الذروة في نفسها بسبب عدم جدوى جهودها ، جميعاً ، فعاودتها ثورة الاعصاب ، وصاحت من جديد ان هناك من يود أن يسقيها السم ، وأنها لا تستطيع مغادرة الفاتيكان ، الملاذ الوحيد الذي تحسّ بأنها آمنة فيه .

ولم يكن البروتوكول البابوي قد لحظ قط إقامة امرأة في الفاتيكان ، حتى ولو كانت امبراطورة ! ولكن ، تجاه عدم الاتزان البادي على شخص الزائرة الكريمة ، أنزلها بيوس التاسع في حجرة منعزلة .

لقد جعل الحزن هذه الامبراطورة التي لم تتجاوز السابعة والعشرين ربيعاً ، مجنونة . ومذ ذاك راحت تعيش في ظل الخوف المستمر من القتل بالسم . فلم تكن

تشرب إلا من المياه التي تحملها بنفسها من الينابيع على الطرقات . وكانت تراقب شخصياً تحضير طعامها . ووسط أزمات الرعب كان ثمة فترات وضوح وجلاء . ولكن كان ينبغي أن تُلبس قميص المجانين عقب ثورة جنون ألقتها أرضاً خلال زيارتها أحد الأديار . وقد أعادها والدها ملك بلجيكا ، الى قصر بوشو ، بالقرب من بروكسل ، الذي لم تغادره قط . وكانت وفاتها فيه في ١٩ كانون الثاني ١٩٢٧ ، بعد ستين سنة .

الفصل الأخير

في هذه الأثناء ، كافح مكسيميليان قدر المستطاع ضد أعدائه . وقد أحس بأنه وحيد ، تحيط به المؤامرات ، والأنانية ، والفساد . وفي آذار ، وعقب رحيل آخر القوات الفرنسية من المكسيك ، قام خواريز بالهجوم . وفي ١٥ أيار ١٨٦٧ ، أسقطت خيانة المقر العام للامبراطور بين ايدي خصومه بعد ٧٠ يوماً من الحصار .

ورفض مكسيميليان الهرب . فقُبض عليه ، وحكم بالموت أمام محكمة عسكرية . وتدخّلت بروسيا ، والولايات المتحدة لمصلحته ، فرفض خواريز العفو عنه . وقد أُعدم رمياً بالرصاص في ١٩ حزيران ١٨٦٧ ، وهو يجهل حتى اللحظة الاخيرة مصير زوجته الحزن .

بعد بضعة أيام من موت الامبراطور ، أنزلت في فيرا كروز أقفاص فيها ألف عندليب كان الامبراطور قد ابتاعها من سوريا ولبنان لكي يوزعها في أرجاء وطنه الجديد .

وفي ١٤ كانون الثاني ١٨٦٨ ، قام كبير أساقفة مالين ، بزيارة قصر بوشو ليطلع شارلوت على المصير المأساوي الذي آل اليه زوجها العزيز مكسيميليان . فتلقّت النبأ ، وكانت شديدة الهدوء !

وعاشت غير مبالية بشيء ، تعذّبها ، وحسب ، مخاوفها المستمرة ، في حين كانت الامبراطوريات تنهار حولها . ما كان يهمّ هذه المرأة التي عاندت الحياة في البقاء فيها ، ولكن الروح فيها ماتت في الوقت نفسه الذي مات فيها الرجاء !

جريمة اغتيال في سراييفو
رصاصتان كانتا نهاية السلام في أوروبا!.. لماذا أُطلقتا؟

في حزيران ١٩١٤ ، وقع فرانز فرديناند ، ذو الحق الذي لا ينازع في العرش النمساوي ـ المجري ، صريع رصاصة اطلقها أحد القتلة . قُتل من أجل أن يتحرر البلقان ، ولكن النتيجة كانت حرباً عالمية ، ومذ ذاك لم نعرف قط السلام الحقيقي !

في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الأحد الموافق يوم ٢٨ حزيران ١٩١٤ ، أطلق شاب نحيل ، ضيّق الصدر ، أسود الشعر ، رصاصتين باتجاه سيارة مكشوفة كانت قد تمهّلت في السير لدى ركن رصيف آبيل وشارع فرانتس ـ جوزف في سراييفو ، عاصمة البوسنه . الرصاصة الاولى مزّقت الوريد الوداجي في جسم فرانتس فرديناند ، والثانية أصابت زوجته ، الاميرة هوشنبرغ ، في بطنها . وأسرعت السيارة في سيرها . وألقي القبض فوراً على الطالب الصربي ، ويدعى غافريلو برنسيب ، الذي لم يُبدِ اي مقاومة ، الناس الذين كانوا يحيطون به .

في غضون نصف ساعة كان فرانتس فرديناند وزوجته قد فارقا الحياة . وتردد صدى العيارين الناريين في كل أرجاء العالم . فلقد كانا الطلقين الأوّلين اللذين يُطلقان في حرب الخمس والسبعين سنة التي بدأت في عاصمة البوسنه ، واستعرت نيرانها منذ ذلك الحين ـ يوم الأحد ذلك من حزيران ١٩١٤ ـ مع هدنات تتخللها كانت تقصر حيناً ، وتطول حيناً آخر .

ان الطريق الملطّخ بالدم ، الرهيب هذا أدّى الى سراييفو ، ومنها ، رُسم في مئات الكتب ، وآلاف المقالات . ولكن ما تزال هناك طائفة كبيرة من التفاصيل ، المجهولة في معظمها ، وغير الموضّحة أو المفسَّرة . فسلسلة الاحداث التي أدّت الى اغتيال فرانتس

فرديناند بدأت قبل زمن طويل من رصاصتَي برنسيب .

ولعلّها بدأت السنة ١٨٧٨ ، عندما سُلّمت ، بموجب معاهدة برلين ، كل من البوسنه والهرسك (هرسيغوفينا) ، وكانتا سابقاً ولايتين تركيتين ، الى الاحتلال النمساوي . وحسبت حكومة فيينا ان امتلاك هذه البلاد الجبلية الحرون ستكون «عرضاً عسكرياً» ، ترافقه جوقة موسيقية تتقدم الجنود . ولكن عوضاً عن ذلك ، اقتضى الأمر صراعاً دام سنتين اثنتين مع الكرواتيين والصربيين ، والاتراك الاشداء غير الهيّابين ، قبل أن يتمّ إخضاعهم . وكان سكان البوسنه والهرسك يكرهون الحكم التركي الفاسد ، ولكنهم كانوا يكرهون اكثر «الزفابا» ـ وهو الاسم العِرْقي الذي كانوا يطلقونه على جميع النمساويين والالمان .

ما كانوا يريدونه هو الانضمام الى ابناء جنسهم في مملكة صربيا الفتية . وعلى الرغم من أن إدارة كالاي ، الاقتصادي والسياسي المجري ، قد حسّنت كثيراً حياة الشعب ، فإن الامتعاض المرير انفجر مجدداً عندما حوّلت النمسا في السنة ١٩٠٨ الاحتلال الى ضمّ ، وأدخلت الولايتين (البوسنه والهرسك) في المملكة الثنائية (النمسا / المجر) . وقد أهاج هذا الامتعاض والاستياء الشديدان الأفكار الرامية الى اتحاد كل الشعوب السلافية ، التي كانت روسيا تزرعها وتموّلها في البلقان .

والمعلمة الاخرى الهامة في الطريق إلى سراييفو كانت الصبيحة الشديدة البرودة من أحد أيام كانون الثاني ١٨٨٩ ، عندما وُجد ولي العهد رودولف ميتاً في كوخ الصيد في مايرلنغ . وليس هنا مجال تحليل مئات النظريات التي نُشرت حول هذه المأساة ـ مأساة مايرلنغ ! إن ما يهم هو أن رودولف كان الابن الوحيد للامبراطور فرانتس ـ جوزف ، أتى بعده مباشرة في تسلسل الخلافة الارشيدوق شارل لويس ، أكبر أشقاء فرانتس ـ جوزف ، وقد توفي الارشيدوق السنة ١٨٩٦ ، فأصبح ابنه فرانتس فرديناند البالغ من العمر ٣٣ سنة ولي عهد مملكة النمسا / المجر الثنائية .

كان امرأً غريباً ومعقداً ، امرأً قليل الاصدقاء ، كثير الأعداء . كان طويل القامة ، ضخم الجسم ، وقد عانى طوال سنوات من داء السل الذي جعله سريع الغضب ، نزقاً . وكان يحبّ الصيد ، ولكنه لم يكن يهتم بمطاردة الطرائد او الاستمتاع بالاثارة

التي تسببّها هذه الرياضة . كل ما كان يثيره الجعبة ، فبقدر ما تنتفخ ، تزداد متعته . وقد صرّح احد رؤساء حرّاس الطرائد السابقين بقوله : «إنه ليس صيَّاداً ، إنه جزَّار !» عندما صوّر الارشيدوق نفسه مع عدة مئات من طيور التدرّج (وهو طير ذيّال شبيه بالحجل) ، وكان صيد يوم واحد . وكان يحب لعب التنس ، فضلاً عن كونه جندياً فعَّالاً الى درجة بعيدة .

من بين شقيقيه ، كان أوتو الوسيم ، المتهتك ، السيّىء الطالع ، المفضّل لديه . وكم من مرّة عاد فرانتس فرديناند من احدى حفلات الاستقبال أو من المسرح ليلاً ، ووجد قصره الصغير في شارع بياتريكس ، في فيينا ، وقد غزته جماعة صاخبة من فتيات مسرح الباليه والضباط السكارى الذين حملهم أوتو الى القصر «لأنه سئم حتى الموت جو منزله الخاص الصارم .»

لم يشترك فرانتس فرديناند قط في هذا القصف واللهو المعربد ؛ ولكنه كان غالباً ما يسدّد فواتير أُوتو الذي لم تكن تكفيه مخصّصاته الضخمة . ومع ذلك كان الشقيقان يتخاصمان خصاماً عميقاً بشأن زواج ولي العهد . وقد رفض فرانتس فرديناند أن يشاهد أخاه . كان أُوتو هذا يلفظ أنفاسه الأخيرة في كوخ في ضاحية فاهرنغ . فلقد كان امرأً ، متحجر القلب ، قاسياً .

تزوج اخوه الأصغر ، الارشيدوق فرديناند شارل ، ابنة أحد الاساتذة في فيينا . ولم يغفر فرانتس فرديناند لأخيه قط هذا الاتحاد غير الملائم ، وقاطعه ، وتوقّف عن التحدُّث او الكتابة الى «الارشيدوق الضالّ» ، الذي اضطر ، بالطبع ، الى التخلي عن ألقابه ومقامه .

ولعل سخرية القدر (التي مثَّلت دوراً متواتراً في حياته) هي التي جعلت فرانتس فرديناند يرتكب الجريمة نفسها بحق القوانين ذات العلاقة بسلالة آل هابسبورغ الحاكمة . صحيح أنه لم يقترن بابنة أستاذ جامعي ، ولكن بكونتيس ـ إلا أنه تزوج من امرأة أدنى منه نسباً ، وقد اضطر الى دفع ثمن رهيب لقاء ذلك .

كانت الكونتيس صوفيا تشوتيك وصيفة في قصر الارشيدوقة إيزابيلا . وكان للارشيدوقة عدد من البنات ، وقد رحّبت بزيارات فرانتس فرديناند في قصر

بريسبورغ ـ على مسافة قصيرة من فيينا ، وعلى نهر الدانوب ـ عندما كانت تسمح له بذلك مشاغله وواجباته . وكانت الارشيدوقة تخطط لزواج احدى بناتها (علماً بأنها لم تكن تدري من ستكون منهن) ، عندما نسي فرانتس فرديناند ، ذات مرة ، عقب مباراة في لعبة التنس ، ساعة جيبه في حجرة اللبس .

وحملها أحد الخدم الى الارشيدوقة . وبينما هي على وشك وضعها في علبة صغيرة لإعادتها الى صاحبها ، لفتت انتباهها على سلسلة ساعة الجيب هذه ، مدالية صغيرة . ففتحتها ، وأبصرت فيها صورة مصغّرة للكونتيس تشوتيك . وعلى الفور صُرفت صوفيا الحسناء ، واستُدعي فرانتس فرديناند لمقابلة عمه الامبراطور .

كان في السابعة والثلاثين ، وقد وقع في الحب للمرة الأولى في حياته . وكافح من اجل عروسه المختارة بكل ما أوتي من عناد نكد ، وتصميم غاضب . وفي النهاية استسلم الامبراطور . ولكن الشروط كانت قاسية . فالزواج سيكون مرغنطياً ـ اي زواجاً غير متكافئ ـ اي ان أي ابن من ابنائه لن يرث العرش .

ورُفع مقام صوفيا الى مرتبة الاميرة هوشنبرغ ، ولم يُسمح لها بحضور أي حفلات تقام في البلاط ، ولا أن يكون لها مقعد خاص في المقصورات الامبراطورية سواء في دار الاوبرا أو في المسارح . واذا ما اقيمت حفلة راقصة في بودابست ، العاصمة المجرية ، لم يكن بوسعها البقاء مع الحاشية التي كانت تنتظر ولي العهد .

وعندما كان فرانتس فرديناند يقوم برحلة ما ، كان يلازم قطاره الخاص تفادياً لإذلال زوجته . وكان مونتينووفو الموظف الكبير في البلاط الامبراطوري ، وهو امرؤ واقعي ، متحجّر من بقايا القرن الثامن عشر ، يلجأ الى كل حيلة من حيل آداب السلوك لجعل الارشيدوق يندم على زواجه المرغنطي . ومع مرور السنين تجمعت كل أنواع الازدراء او اللامبالاة التي عانت منها زوجته ، والمرارة من جراء الاهانات المكبوتة أو المكتومة في نفس فرانتس فرديناند والتحمت لكي تصنع رغبة جامحة في الثأر . وكان الامبراطور عجوزاً ؛ وسرعان ما سيأتي يومه !

عندها سيعرف كيف يتعامل مع أعدائه ، ويهينهم ، ويحتقرهم ، ويسدّد الدين بفائدة مركّبة . ولم يكتم أحداً هذه المخططات التي وضعها بمفرده ، بعناد ، خلال

السنوات الاربع عشرة المنقضية بين زواجه وموته . وليس من المبالغة في شيء القول ، إذاً ، ان كثيرين من الناس في البلاط الامبراطوري وحوله ، قد تنفسُّوا الصعداء عندما أنهت رصاصة غافريلو برنسيب حياة ولي العهد .

إن موت فرانتس فرديناند يعود الى رصاصة برنسيب مثلما يعود الى استهتار السلطات النمساوية وإهمالها الشديدين . فقد عرضت شرطة بودابست اربعين تحرّياً على حكومة فيينا ليكونوا حرس الارشيدوق الخاص . فسأل النمساويون :

– كم سيكلّف ذلك؟

فكان الجواب :

– حوالى ٨ آلاف كروان أو عشرة آلاف (٤٠٠ – ٥٠٠ ليرة استرلينية) .

– إن ذلك مكلف للغاية . ارسلوا تحرّيَين !

ووصل فرانتس فرديناند الى فيينا من معتزله الريفي في كونوبيست . وفي سودبانهوف ، أعلن ناظر المحطة ان الاسلاك في العربة الخاصة معطلة . وقد تمت مرحلة من الرحلة الى ترييستا ، في الطريق الى البوسنه ـ الهرسك على ضوء الشموع . وحدّق فرانتس فرديناند بالأضواء الخافتة المتقطعة الاشتعال ، وقال لكسرتيره :

– إضاءَة رائعة ، أليس كذلك؟ مثل الضريح تماماً !

* * *

ولعل اغرب الحكايات ، الموثوق بصحتها والمتعلقة بمأساة سراييفو ، هي الحكاية التي يرويها الدكتور جوزف لانيي ، اسقف ناغيفاراد ،وهي مدينة كبيرة في ترانسلفانيا . وكان الدكتور لانيي هذا معلم فرانتس فرديناند .

في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم الاحد في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٤ ، استيقظ الاسقف بعد ان رأى كابوساً فظيعاً . فقد حلم انه تلقّى ورقة سوداء الاطراف ، وعليها خاتم اسود ، يحمل شعار النبالة الخاص بولي العهد فرانتس

فرديناند ، وموجهة اليه ، وهي بخط تليمذه السابق .
ففضها ، وكان في رأس الورقة صورة ملونة تُظهر الارشيدوق وزوجته في سيارة مكشوفة ، وقد جلس قبالتهما قائد برتبة جنرال ، وجلس الى جانب السائق ضابط آخر . واندفع من بين الجمهور المحتشد شابان يرتديان ملابس رثة ، وهما يطلقان النار على الارشيدوق وزوجته . وتحت الصورة كتبت الاسطر التالية : «عزيزي الاسقف لانيي ، ارسل اليك هذا الكتاب لأعلمك انني ، في هذا الصباح ، سأقع ضحية اغتيال سياسي في سراييفو ، وكذلك ستكون زوجتي ضحية مثلي .
اننا نوصيك بأن تصلّي من اجلنا ، ونتوسل اليك ان تقيم قداساً تذكارياً عن راحة نفسينا . ونرجوك ان تبدي نحو اولادنا المساكين المحبة والاخلاص اللذين ابديتهما نحونا جميعاً ، في ما مضى .
مع التحيات الحارة ، فرانتس فردیناند ـ سراييفو ، ٢٨ حزيران ١٩١٤ ، الساعة ٣،٣٠ بعد الظهر . »
وعمد الاسقف من فوره الى تدوين حلمه والنص حبراً على ورق ، واستدعى مدبر منزله وخادمه ، وجعلهما يوقّعان عل هذه الوثيقة الغريبة !

* * *

من تريستا ، سافر فرانتس فرديناند وزوجته الى البوسنه حيث شهد ولي العهد المناورات العسكرية التي جرت على نطاق واسع . وقضيا ليلة ٢٧/ ٢٨ حزيران في ايليجي ، وهي مدينة مياه معدنية صغيرة تقع على مسافة سبعة أميال من سراييفو . في الصباح الباكر انتقلا الى العاصمة البوسنية في سيارة تخصّ الكونت هاراش . وكانا في طريقهما الى دار البلدية لحضور حفلة الاستقبال الرسمية . وكانت تسبق سيارة الأرشيدوق ، سيارة تقلّ محافظ سراييفو ، وتتبعها سيارتان تقلّان أفراد حاشيته .
وبالقرب من شارع كوموريا حيث يتخطى جسر النهر ، ألقى شاب قنبلة على

السيارات . فسقطت القنبلة على السقف القابل للطيّ في سيارة الارشيدوق ، وكان مطوياً . فأتى الارشيدوق ، بحركة ما من يده ، فانزلقت القنبلة على بلاط الشارع حيث انفجرت ، مصيبة ركاب السيارة الثالثة بجراح .

كانت الساعة العاشرة وثلاث دقائق . وقفز القاتل المزعوم الى النهر ، وألقى عدد من الاشخاص أنفسهم في المياه ، وتمكنوا من القبض عليه بسرعة . وكان اسمه نيدلكو كابرينوفتش .

وواصلت السيارات تقدّمها نحو دار البلدية . وهناك ، وبينما كان المحافظ على وشك الشروع في ألقاء خطابه الترحيبي ، قاطعه فرانتس فرديناند بحدَّة :

– إنه لأمر رائع ، أيها المحافظ . أدعى الى مدينتكم وأستقبل بالقنابل ! إن ذلك لمخجل حقاً !

وكان صمت مؤلم .

وواصل ولي العهد كلامه ، بقوله :

– حسناً ، هيا ، إلق خطابك !

وأصغى الى الخطابَ المقيت الباعث على الغثيان بوجه مجلّد ، وقرأ ردّه بنبرة جافة ومقتضبة على نحو فظ . وتلا ذلك نقاش حام نوعاً ما في دار البلدية . أراد فرانتس فرديناند زيارة المرافق العسكري الجريح في المستشفى . وقد توسلت اليه زوجته أن يذهب تواً الى قصر الحاكم ويعرف باسم كوناك . وأكّد لهما الجنرال بوتيوريك أنه لن تجري بعد أي محاولات على حياة الزائرين الملكيين . فكان جواب فرانتس فرديناند : «أنا لا أصدّق ذلك؟ بالوسع أن تصيبنا بضع رصاصات أخرى بكل سهولة !»

وكان مصيباً . فبرنسيب ، في اعترافه ، ذكر أنه كان هناك لا أقلّ من ١٤ شخصاً ينتظرون حاملين القنابل والبنادق في سراييفو في ذلك اليوم . ولكن يبدو كما لو ان ولي العهد كان راغباً في الموت . والتنازل الوحيد الذي سمح به هو ألا تسلك السيارة في الشارع الرئيسي ، جادّة فرانتس ـ جوزف ، بل تمر في رصيف آبيل .

حتى هذا الأمر كان خاطئاً . انطلقت ثلاث سيارات ، وفجأة قال الجنرال بوتيوريك للسائق ان يتحوّل الى رصيف آبيل ـ ذلك بأنهم وسط الفوضى

والاضطراب نسوا أن يبلغوا الرجل تعليمات مسبقة . وكرّر هذه التعليمات الكونت هاراش الذي كان يقف على الجانب الأيسر من السيارة . فاضطرب السائق ، وخفّف سيره ـ تماماً قبالة المكان الذي كان يقف فيه برنسيب . فأطلق هذا النار دونما تردّد .

وصاحت صوفيا ، وألقت بنفسها عبر زوجها بقصد حمايته .

– رباه ! فرانتس العزيز !

وهكذا أصابتها الرصاصة الثانية . ولم يفقد فرانتس فرديناند وعيه . وتمتم :

– صوفيا ، لا ينبغي ان تموتي ـ أولادنا . . .

وسارت السيارة نحو قصر الحاكم . وما إن وصلت حتى كان الزوجان الملكيان الجريحان قد فقدا الوعي ، وبعد خمس عشرة دقيقة توفيا .

كان بالوسع تجنُّب الاغتيال . فالمتآمرون كانوا من الهواة ، وسبق للقتلة ان ثرثروا كثيراً من قبل . وقد أرسل القنصلان الايطالي والالماني ، ورئيس البنك البوسني جميعاً تحذيرات الى السلطات العسكرية .

ولفتت فتاة صبية أحد رجال الشرطة الى برنسيب الذي كان يضع يديه في جيبه ، ويبدو عليه القلق وعدم الارتياح . ورفض الشرطي القيام بأي تحرُّك . فهو لا يستطيع ترك مكانه ، حسب قوله . كان عليه تحية الارشيدوق . حوكم برنسيب ورفاقه في المؤامرة في سراييفو بعد ذلك بأربعة أشهر . بدأت المحاكمة في ١٣ تشرين الاول ١٩١٤ ، وانتهت بعد ١٥ يوماً . وكان هناك ٢٥ متهماً وقد حُكم على خمسة منهم بالشنق ، وعلى واحد بالسجن مدى الحياة ، وعلى ثلاثة بالسجن عشرين سنة ، وسُجن سبعة أشخاص مدداً تراوح بين ١٦ سنة وسنتين اثنتين . وبُرِّئت ساحة تسعة متهمين . أما برنسيب وكابرينوفتش فقد حُكم عليهما معاً بالسجن مدة عشرين سنة ، ذلك بأنه لم يكن بالوسع الحكم عليهما بالموت نظراً لأنهما قاصران . وما إن بدأت المحاكمة حتى كانت الحرب قد بدأت ، وباتت التقارير عنها تُنشر في الصفحات الخامسة او السادسة من الصحف .

لم يُنكر برنسيب التخطيط المتعمد والمقصود للاغتيال ، وأعلن ان نارودنا أوبرانا ، المنظمة الصربية القومية المتطرفة هي التي أمدته ورفاقه بالمال والسلاح . وفي حين تقع

مسؤولية هذه الجريمة السياسية ، إلى حدّ كبير ، على عاتق صربيا ، فإن المطالب المُذلّة والمتطرفة التي تقدّمت بها النمسا الى حكومة بلغراد ، أسهمت بمقدار مساوٍ في اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى . وكان فرانتس فرديناند مجرد حجة لهذه المطالب .

لقد قتل برنسيب ، من ناحية ، الشخص غير المقصود ! فبين الأوراق التي تركها فرانتس فرديناند عُثر على مذكرة مفصّلة تتعلّق بإعادة تنظيم المملكة النمساوية ـ المجرية . فلو انه عاش لكان حوّل الدولة الثنائية ـ التي كان الجنسان النمساوي والمجري الجنسين المسيطرين فيها ـ الى اتحاد فدرالي يتألف من ١٥ ولاية مستقلة ، ومتمتعة بالحكم الذاتي .

ولكان البوسنيون اتّحدوا مع الكرواتيين والدلماسيين ، وعلى الأقل ، حسب مخططات الارشيدوق التمهيدية ، تمتّعوا باستقلال سياسي ، واقتصادي ، وديني بقدر اكبر مما سبق أن عرفوه في تاريخهم .

بعد عشرين سنة من سراييفو ، اغتيل الملك ألكسندر اليوغوسلافي في مرسيليا . وقد استقبل ، وهو بعد ولي عهد يوغوسلافيا ، عدداً من قتلة سراييفو في لقاءات خاصة . ولكنه قُتل الآن على يد إرهابي مقدوني أطلق عليه النار وهو برفقة وزير خارجية فرنسا لويس بارتو ، فأردى الاثنين معاً .

لعلّ الملك ألكسندر ، في ساعاته الأخيرة ، تذكّر أن موت الأرشيدوق المأساوي الذي نُسي فترة من الزمن طويلة ، قد فتح أحد اكثر الفصول الدموية في تاريخ البشرية !

جاسوس إسمه شيشرون

رجل لا شأن له البتة مثل سائر الناس الذين نصادفهم لدى كل خطوة على الطرقات بين صوفيا وأنقرة . خجل ، كذر ، متواضع ـ على الرغم من نظر قاس نوعاً ما أحياناً ـ يصعب على المرء أن يتصوَّر أنه أمام رجل باعَ في أنقرة في السنة ١٩٤٣ – ١٩٤٤ ، الالمان أهم الاسرار الحليفة ـ حتى مكان الانزال البحري ـ وهي أسرار لم يستخدمها قط الحلفاء . وصحيح أيضاً أنهم سدَّدوا بكدسة من الليرات الاسترلينية الزائفة ثمن المعلومات الهائلة التي حملها الجاسوس الاكثر غرابة ، ربما ، الذي عمّده فون بابن هكذا :

– ما دامت هذه الوثائق شديدة البلاغة ، فلندعُهُ شيشرون !

إن هذا التفصيل يقدمّه الينا كتاب مويزتش «قضية شيشرون» المثيرة .في مذكّراته «التوقيع شيشرون» يصوّر إلييزا بازنا نفسه وطنياً ، مقدِّراً شخصياً أنه في سنة ١٩٤٣ ، سيكون أمراً سيئاً انجرار بلاده الى الحرب .

«اذا أنا كشفت للألمان نيّات بريطانيا العظمى ، فسيكون بوسع هؤلاء التصدّي لها دون اضطرارها الى استعمال القوة . . . ولدى رؤية مشاريع البريطانيين تنهار بفعل الالمان ، ستفكّر تركيا مرتين قبل أن تنحاز الى المعسكر الحليف . إذاً ، اعتقدت أن عملي سيقدّم خدمة لاتقدَّر الى حياد بلادي .»

منطق غريب !

مع ذلك ، ان بازنا ، بتصويره سروره وحالته التحمسية الشديدة ، ورغبته في امتلاك مبالغ أضخم بعد ، عندما وضع الدبلوماسي الالماني أمامه للمرة الأولى كدسة من الليرات الإسترلينية ، يثبت لنا أن حبه لبلاده يأتي بعد الحب الذي يكنّه للمال . . .

ويقتنع المرء عندما يحادث الييزا بازنا مطولاً ، أن حب الكسب وحده دفع الجاسوس الى العمل . فالوطنية جاءت في ما بعد . . . على أي حال ، كيف أمكن هذا الشعور أن يجد له مكاناً في القضية؟ فاذا كان القوَّاص أراد أن يقدّم خدمة الى بلاده ، فلماذا لم يحمل الصور والوثائق الى الحكومة التركية . لماذا لم يحاول أن يتجسس على الألمان لحساب الإنكليز ، ما دام يزعم أنه كان متأكداً منذ بداية أعماله ، من الهزيمة الالمانية؟

أخيراً ، ما دام شيشرون يعترف تلقائياً بأنه لم يكن يجد المتسع الكافي من الوقت لقراءَة الوثائق التي كان يصوّرها ـ وأنه كان يجهل ، بالتالي ، محتواها ـ كيف أمكنه أن يعتقد أنه بسرقته الإنكليز ومساعدته الالمان ، إنما يقدّم خدمة إلى تركيا والحلفاء؟ !

* * *

إذا كان لنا أن نصدّق صاحب كتاب «التوقيع شيشرون» ، فقد كان القوّاص إلييزا بازنا ، جالساً ذات يوم من سنة ١٩٤٣ ، في الصالة الفخمة في فندق «أنقرة بالاس» ، يتذوّق القهوة ، وكأس شراب روحي . وهو الذي لم يكن سوى خادم «قَوَّاص او امرئ يصلح للقيام بكل شيء ، امرئ لا أهمية له» ـ على ما يذكر هو شخصياً ـ كان يجد لذّة في هذه الساعات القليلة التي يُخدم فيها ، ويستمتع بالجاه الذي يتجاوز وضعه . في ذلك اليوم ، كان يرجو العثور على عمل ، وكان يقرأ الاعلانات الصغيرة في إحدى صحف أنقرة . عمَّ كان يبحث؟ عن عمل كخادم . لماذا؟

– لأنني كنت جاهلاً ، ولم أتعلّم شيئاً ، باستثناء قيادة السيارة .

كان أبوه ـ حافظ ياسر ـ مع ذلك ، استاذاً للدين الاسلامي ، وجدّه كان باشا على عهد العثمانيين . وقد أبصر إلييزا النور في ٢٨ تموز ١٩٠٤ ، في بريستينا ، التي تقع على مسافة ٣٦٠ كيلومتراً جنوب بلغراد . ولدى انهيار الامبراطورية العثمانية ، أصبحت بريستينا يوغوسلافية ، فانتقلت الأسرة جميعاً الى الإقامة في القسطنطينية . وخدم الييزا في القوات الحليفة التي كانت تحتلّ تركيا آنذاك ، ولكن السلطات

الفرنسية اعتقلته لسوء تصرّفه ! وقد كتب يقول :

-« ان لائحة إساءاتي استطالت . سرقة ، تحطيم معدّات عسكرية ، هرب مسلّح ، حمل سلاح دون ترخيص . . . وقد دوّنوا في سجّلي : «حذار ، بازنا مجرم شاب خطر ومخادع . . .» وزجّوني في زنزانة ، مقيّد اليدين والقدمين . وقد شعرت بالفخر . حكمت عليّ المحكمة العسكرية الفرنسية بالسجن مدة ثلاث سنوات . ونُقلت إلى مرسيليا ، ووُضعت في إحدى إصلاحيات الاحداث ، للقيام بالأشغال الشاقة . وهناك اكتسبت معرفتي اللغة الفرنسية .»

لدى عودته الى تركيا ، عمل شيشرون العتيد قوّاصاً لدى السفير اليوغوسلافي يانكوفتش ؛ ثم إنه أراد أن يحترف الغناء ، ولكن نجاحه كان من التفاهة بحيث اضطر للرجوع الى منصبه . وقد تزوّج ، ورُزق أربعة أولاد ، ثم دخل في خدمة الملحق العسكري في سفارة الولايات المتحدة الأميركية الذي ـ على ما يؤكد بازنا ، كان يدمن الشراب . وكان آخر منصب تولّاه بين سنة ١٩٤٢ و ١٩٤٣ ، منصب قوّاص لدى مستشار السفارة الالمانية ينكه ، الذي كان برتبة وزير ، وكان صهر ريبنتروب .

- «لم اكن أزعج نفسي بقراءَة رسائل أسيادي ، سواء مراسلاتهم الشخصية أو الاوراق الرسمية . كل القوّاصين يفعلون الشيء نفسه . فعندما يشرع المرء بحشر أنفه في شؤون الآخرين ، فإنه لا يعود قادراً على التوقف . حتى أنني كنت أُصوّر بعض الرسائل على سبيل التلهّي ، وعلى سبيل الظهور أمام زوجتي بمظهر من يتمتع بحرية العمل والتصرّف في منزل ينكه ، على الرغم من الحرب ووسواس التجسس .»

ولاحظ ينكه عدم أمانة وصيفه الشخصي ـ عدم الأمانة هذه التي تصبح اكثر خطورة زمن الحرب ، فطرده . . . ومذ ذاك ، وإلييزا بازنا يبحث عن عمل . وفجأة ، انتفض . لقد قرأ هذين السطرين : «السفارة البريطانية تبحث عن سائق سيارة للسكرتير الأول فيها .»

ويروي في هذا الصدد :

- «لقد طردت فكرة خطرت لي ، هذه الأفكار الكئيبة ، كما لو كانت صاعقة . ألم تسنح لي إمكانية تحقيق كل الرغبات التي كانت تراودني؟ لماذا ارتاب بي الالمان؟

لأن مدينة أنقرة كانت ميداناً محايداً يعيش فيه الخصوم في حرب طاحنة في دائرة ضيقة ، يتجسس بعضهم على البعض الآخر ، وحيث العملاء السرّيون من الطرفين يقومون بمعركة مستمرة لا هوادة فيها . وجذبتني الفكرة في مسارها بافتتان غريب . أردت أن أكون الجاسوس الذي يتقاضى من المال أكثر من أي جاسوس آخر حتى هذا اليوم ، كما أردت أن أكون أعظم الجواسيس طرّاً . واستشعرت انني اتمتع بكل الوسائل والمزايا . كنت هادئاً ، وأسير دون لفت النظر ، وكنت صبوراً ـ لأنني كنت قوّاصاً . لقد فُتحت أمامي طريق جديدة ، وفُتح أمامي مصير تقبّلت سلفاً كل مخاطره .»

في اليوم نفسه ، انخرط سائقاً ووصيفاً لدى السكرتير الأول في السفارة البريطانية السيد باسك . ثم إنه ، بعد فترة من الوقت ، أصبح الوصيف الخاص للسر هيو ناتشبول - هيوغيسن ، سفير صاحب الجلالة البريطانية في أنقرة ـ وبدأ حياة التجسس . . . فكان جاسوساً تجاوز في مغامراته مغامرات كل زملائه .

وبعد بضعة أشهر ، سلك إلييزا بازنا طريق السفارة الالمانية . . .

* * *

بقلبٍ ينبض ـ كل الروايات تتفق على هذه النقطة ـ قال بازنا :

- أُريد ٢٠ ألف ليرة ، ليرات استرلينية انكليزية . . .

أصيب الملحق التجاري الالماني مويزتش ، النمساوي الأصل الذي كان رجاه ينكه في ذلك اليوم ٢٦ تشرين الاول ١٩٤٣ ، أن يستقبل بازنا ،برجّة تجاه ضخامة الرقم . فقال :

- إنه لجنون . الأمر غير معقول . ليس لدينا هنا مثل هذه المبالغ . بالطبع ، ليس بالليرات الاسترلينية . ينبغي أن يكون الامر شيئاً مهمّاً خارجاً عن المألوف ليبلغ هذا الثمن . فضلاً عن أنه ينبغي لي ، قبل كل شيء ،أن أُعاين هذه الوثائق التي تمتلكها . هل هي معك؟

- أنا لست غبياً .

في الحقيقة ، كان إليزا يقبض بيده على الفيلمين اللذين كانا في جيبه . كيف توصّل الى الحصول على هذه الوثائق التي يحاول بيعها لقاء هذا المبلغ الضخم ؟ لقد لاحظ وصيف صاحب السعادة بسرعة ان موظفي السفارة كانوا يحملون إلى السر هيو ، في علبة حمراء ، الوثائق والبرقيات التي يجب أن يطّلع عليها شخصياً . وكانت الأوراق التي يرغب السفير في دراستها بصورة خاصة ، أو إعادة رؤيتها ، توضع في علبة سوداء .

-« وتوصلت الى استنتاج غريب : كانت الوثائق التي لا أهمية كبيرة لها ، تُحفظ في مبنى السفارة ، تحت حراسة رجال أكفاء من الشرطة ، في حين كانت الوثائق السرّية وذات الطابع السري تبقى طوال اليوم في منزل السفير ، في العلب الحمراء الموضوعة فوق طاولة عمله ، وتقضي الليل في صندوق حديدي من أبسط طراز .»

كانت الاوراق الهامة جداً تبقى غالباً في علبها الموضوعة على طاولة الليل في حجرة السفير . وكان السر هيو يتناول كل ليلة أقراصاً منوّمة . وكان شيشرون ، يستغل نومه الثقيل ، فيدخل حجرة سيّده ، ويتناول الاوراق التي في العلبة ، ويصعد الى حجرته حيث أنشأ محترفاً فوتوغرافياً صغيراً ، فيصوّرها ، ثم يعيدها الى مكانها .

كيف استطاع الحصول على مفاتيح العلب؟

في الصباح ، وبينما كان السفير يستحمّ ، كان بازنا يلازم الحجرة ، ويجهّز الملابس التي سيرتديها سيده . وفي ذات يوم ، شاهد المفاتيح التي تركها السر هيو على الطاولة . وكان شيشرون يحمل قطعة شمع في جيبه . وفي ثوانٍ قليلة توصّل إلى طبع المفاتيح .

- «وبقي شيء من الشمع عالقاً بأحد المفاتيح ، فتناولت منديلاً من خزانة السر هيو ، ونظّفت المفاتيح ، وأعدته إلى حزمة المفاتيح على طاولة الليل . ودخل في هذه اللحظة الحجرة ، وكان متدثراً ببرنس الحمَّام . وصل على حين غرّة بحيث لم يتح لي الوقت لأذعر . وتفحّصت المنديل ببرطمة ، والتفتّ الى سعادته ، وقلت له :

- هذا المنديل ليس نظيفاً ، سأضعه مع الملابس الوسخة .

- «ووافق بهزة من رأسه ، ولكنني واثق من أنه لم يصغِ اليّ . كان ينظر حوله ،

وفجأة ، رأى المفاتيح ، فتناولها متنفساً الصعداء ، ووضعها في جيب برنسه ، ومشى دون أن ينبس ببنت شفة .»

كان الملحق التجاري مويزتش ، في الحقيقة ، عضواً في الدوائر السرّية التي يديرها كالتنبرونر ، ويحتلّ منصباً رفيعاً في الحرس الخاص التابع لهتلر ، ولم يكن مبتدئاً في هذا الميدان . وقد دهش كثيراً من ثقة الجاسوس الذي قدَّم اليه سيكارة . من هو هذا الرجل؟ هذا الرجل الذي يزعم أنه يحمل الى ألمانيا لقاء ٢٠ ألف استرلينية وثائق سرّية؟ !

واصل الزائر الغريب كلامه :

– إنك تودّ معرفة من أكون ، أليس كذلك؟ إن اسمي لا اهمية له البتة ، وليس له اي علاقة بالقضية . ربما أُطلعك عل ما أقوم به ، ولكن إصغِ اليَّ قبلاً . سأمنحك ثلاثة أيام لكي تدرس عرضي . ينبغي لك مراجعة رئيسك ، وربما اضطررت الى الاتصال ببرلين . في ٣٠ تشرين الأول ، في الثالثة من بعد الظهر ، سأتصل بك تليفونياً في مكتبك ، وأسألك عما إذا كنت تسلّمت رسالة باسمي . وسأدعو نفسي بيير . فإذا قلت لا ، فلن تراني أبداً . واذا قلت اجل ، فإن معنى ذلك أنك قبلت عرضي . في هذه الحالة ، سأعود الى مقابلتك الساعة العاشرة ليلاً ، في اليوم نفسه . ليس هنا ، على اي حال ، سنتفق على تعيين مكان للقاء . عندها تتسلّم بكرتين فوتوغرافيتين ، تتضمّنان صور وثائق سرية بريطانية . فتدفع لي مبلغ ٢٠ ألف ليرة استرلينية بأوراق نقدية . ستغامر بعشرين ألف ليرة استرلينية ، ولكنني سأغامر بحياتي ! فاذا كنت راضياً عن تسليمي الأول ، امكنك الحصول على تسليمات اخرى . لقاء كل بكرة لاحقة سأطلب منك ١٥ ألف ليرة استرلينية . أموافق أنت؟

ووافق مويزتش ، ظناً منه أن برلين سترفض . وتم الاتفاق على أنه اذا ما قُبل العرض ، فسيلتقي الرجلان يوم ٣٠ تشرين الاول ، مساءً في حديقة السفارة .

نزولاً عند طلب زائره ، أطفأ مويزتش كل الأنوار . وانزل بازنا قبعته حتى عينيه ، وتمتم وهو يمرّ من أمام الدبلوماسي :

– أتودّ أن تعرف من أنا؟ أنا وصيف سفير انكلترا !

في اليوم التالي ، أبرق فون بابن ، سفير ألمانيا في أنقرة : «الى وزارة خارجية الرايش . شخصي . سريّ جداً . لدينا عرض من موظف في سفارة انكلترا يزعم أنه وصيف السفير ، يقضي بتزويدنا بصور وثائق أصلية سرية جداً . لقاء التسليم الأول في ٣٠ تشرين الأول مطلوب مبلغ ٢٠ ألف ليرة استرلينية بأوراق نقدية . ومبلغ ١٥ ألف استرلينية لقاء كل بكرة مصورة إضافية . الرجاء إعلامنا عما إذا كان يمكن قبول العرض . إذا كان الجواب بالايجاب ، فإن المبلغ المطلوب ينبغي أن يرسل بالبريد الخاص ، ويصل الينا قبل ٣٠ تشرين الأول . الوصيف المشار إليه كان موظفاً منذ بضع سنوات لدى السكرتير الأول . ليس لدينا هنا أي معلومات اخرى . بابن .»

في ٢٩ تشرين الأول ردّ وزير الخارجية ريبنتروب بالتالي :

«الى السفير فون بابن . شخصي . سرّي للغاية . نقبل بعرض الوصيف البريطاني مع اتخاذ كل الاحتياطات . بريد خاص سيصل إلى أنقرة في ٣٠ تشرين الاول ، قبل الظهر . ننتظر تقريراً فور تسلّم الوثائق . ريبنتروب .»

في الساعة الثالثة من بعد الظهر ، يوم ٣٠ تشرين الأول ، رنّ جرس التلفون في مكتب مويزتش :

– بيير يخاطبك . مرحبًا يا سيدي . هل تسلّمت رسائلي؟

– سأراك الليلة . الى اللقاء .

في الساعة العاشرة ليلاً ، يوم ٣٠ تشرين الأول هذا ، التقى مويزتش بازنا في الحديقة ، وسبقه الى مكتبه . وعلى حدّ قول الجاسوس ، كان الدبلوماسي من قال :

– أرني الفيلمين !

مهما يكن من أمر ، وبينما كان مويزتش يخرج من الصندوق الحديدي العشرين ألف ليرة استرلينية ويُريها لبازنا ، ناوله الجاسوس البكرتين . وببطء عدّ الملحق الالماني الأوراق النقدية . وعدّها القوّاص معه ، ولكن بصوت خافت . . . ثم انتقل الفيلمان من يد بازنا الى يد مويزتش ، الذي قال :

– ستحصل على المال عندما أعلم ما في هذين الفيلمين . ستنتظر ههنا زهاء ربع ساعة ريثما أُظهرّها . كل شيء جاهز ؛ المال هنا ؛ لقد رأيته بعينيك ، وعددته بنفسك .

إذا رفضت ،أُعيد اليك فيلميك على الفور . أموافق أنت؟

فهل اطاع إلييزا أم أنه ـ كما يعلن اليوم ـ رافق مويزتش الى محترف التصوير؟ ما همّ ، ما دام مويزتش عرض عليه لدى عودته الى القاعة تناول كأس شراب ، فطلب المال أولاً .

وناوله الدبلوماسي الرزمة ، وتجرّأ على مطالبته بإيصال ، فانفجر بازنا ضاحكاً :

– أنت لست غبياً !

بعد بضع ثوانٍ ، غادر التركي القاعة ، واعداً بالعودة في اليوم التالي :

– سأحمل اليك أفلاماً اخرى ، إنها جاهزة .

– ولكن أنا ، لن يكون لديّ مبلغ جديد لأدفعه لك غداً !

– تدفع لي في مرة مقبلة . سأفتح لك اعتماداً .

وانصرف الجاسوس . وراح مويزتش الذي لم ينظر إلى محتويات الفيلمين إلا نظرة سريعة ، فألفاها غير مقروءَة لفرط صغرها ، فكبّرها ، ثم عمد الى قراءَتها . وقال بهذا الصدد :

– «لقد ذُهلت تماماً . بدا ذلك أنه يتجاوز حدود المعقول . هناك ، على مكتبي ، ظهرت الأسرار التي يحرص العدو حرصاً شديداً على الاحتفاظ بها ، وهي في آن معاً سياسية وعسكرية ، وذات قيمة لا تُقدَّر . ليس ثمة شيء مشبوه في هذه الوثائق . لم تكن خدعة البتة . لم يكن ثمة اي ظل للشك في أن هذه الوثائق صحيحة . إن بين أيدينا نوع الأوراق التي يحلم بها طوال حياته العميل في الدوائر السرية ، وهو يحسب أنه لن يسعه أبداً الحصول عليها . وقد استطعت التقدير من النظرة الأولى ، أن الخدمة التي تقدَّم الى الرايش الثالث من جانب الوصيف كانت ذات أهمية لا يمكن تصوّرها .»

وكان ذلك ردّ فعل فون بابن :

– خارق ! لا يصدَّق !

إن ما حمله شيشرون ، وما سيحمله بعد ذلك ، كان عظيماً ـ علماً بأنه كان يؤكد دوماً أنه لم يطّلع قط على الوثائق . فالرايش الثالث ، لم يحصل بفضل وصيف السر

هيو ، وحسب ، على أسماء كل العملاء البريطانيين ، والشيفرة السرية ، والتقارير المتعلقة بالعلاقات بين لندن وأنقرة ، والمعلومات العسكرية ذات الاهمية الكبرى ، ولكنه سيكون شيئاً فشيئاً مطلعاً على كل مشاريع الحلفاء وخططهم ، وبخاصة سيحصل على تفاصيل وقائع مؤتمرات موسكو ، والقاهرة ، وطهران !

وحسبوا أنهم يحلمون !

وحسبوا أنهم يحلمون اكثر عندما نعلم ما كانت ردود الفعل الألمانية أمام هذا المنبع الغنيّ من الوثائق الذي يصيب بالغثيان كل رؤساء الدوائر السرية في العالم .

واستدعي مويزتش ، على ذلك ، الى برلين ، وذهل لما سمع كالتنبرونر يقول له :

– ينبغي لنا الانتظار في ما يتعلّق باستخدام الوثائق من الناحية السياسية والعسكرية معاً . سنرى ونراقب جيداً . الأمر يتوقّف على الاتجاه الذي ستتخذه القضية في المستقبل . إن ريبنتروب مقتنع تماماً بأن الانكليز أنفسهم قد أوفدوا اليكم هذا الوصيف ، وكل ذلك ليس سوى فخّ . أنا أعرف ريبنتروب . بوسعك أن تكون متأكداً من أنه سيتشبّث بهذه النظرية بعناد البغال .

والواقع أن ريبنتروب ، بعد ذلك ببضعة أيام ، استقبل مويزتش ، ودفع باحتقار صور شيشرون ، وهو يتمتم :

– إنها أجمل من تكون حقيقية !

غير أن شيشرون سيحمل الدليل على ان الوثائق التي قدّمها كانت صحيحة . ففي جملة الوثائق المسلّمة من الجاسوس كان هناك التاريخ ـ ١٤ كانون الثاني ١٩٤٤ـ تاريخ غارة جوية للحلفاء على صوفيا . وقد دُمّر جزء من المدينة ، في الواقع ، في ١٤ كانون الثاني هذا . وكتب مويزتش يقول :

– «إني لأتساءَل عما إذا كانت برلين قد اقتنعت الآن . هذه هي البراهين . إن وثائق شيشرون صحيحة . إن ٤ آلاف بلغاري ، بين رجل ، وأمرأة ، وطفل ضمنوا ذلك بموتهم .»

وعاد مويزتش الى أنقرة . وفي ذات يوم لفتت اهتمامه هاتان الكلمتان : «العملية اوفرلورد» ، التي كانت تتردد غالباً في الأفلام التي كان يبيعها شيشرون من الألمان .

وسرعان ما اقتنع بأن الامر يتعلق بالاسم الشيفرة للجبهة الثانية التي ستكون بإمرة الجنرال ايزنهاور الاميركي ، وستُفتح في النورماندي . وحوَّل شعوره هذا الى برلين . فأُجيب بالقول : «ممكن ، ولكن الاحتمال صعب .» ذلك بأن الجبهة الثانية ، في رأي كالتنبرونر ، لن تُفتح إلا في البلقان .

وكتب مويزتش :

– «إنه ليبدو من سخرية الأقدار ان تعامل برلين آخر المعلومات التي قدّمها شيشرون ، ولا تقدَّر بثمن ، تماماً باللا فهم الذي استُقبلت به كل المعلومات الاخرى ! أقول آخر المعلومات لأن بكرة هذا الفيلم الذي يحتوي على الاشارة الى «عملية أوفرلورد» والذي تسلّمناه في مطلع آذار ، كان آخر ما سلّمنا اياه شيشرون . هل أن طمعه قد انتهى ، ام أن عمله بالاحرى بات خطراً جداً ، بوجه الاحتمال؟ لا ادري . فهو لم يصارحني بذلك قط .»

ولكننا نعرف اليوم الأسباب التي أجبرت شيشرون على التخلّي عن عمله . . . سندخل الآن في شريط بوليسي حقاً ، وسيصعب علينا أحياناً أن نفصل الاسطورة عن التاريخ !

كان كالتنبرونر منع مويزتش من إطلاع فون بابن على وثائق شيشرون . غير ان مويزتش الذي كانت النازية فيه فاترة نوعاً ما ، لم يطعه . وفي ذات يوم ، استقبل وزير الخارجية التركية نعمان منيمنجغلو سفير الرايش الذي جعل مخاطبه يشعر بأنه لا يجهل البتة أن تركيا مستعدة لاستقبال تسلل موظفين عسكريين بريطانيين . فاذا لم تلزم استنبول جانب الهدوء ، فانه يُخشى من انتقامات ألمانية .

في اليوم التالي ، حمل شيشرون الى مويزتش صورة عن رسالة السر هيو الى وزارة الخارجية البريطانية : «فون بابن ، بالطبع ، يعرف عن ذلك اكثر مما ينبغي له .»

لقد عرف الحلفاء ذلك الآن ، فهناك تسريب ما . وأُثيرت شكوك البريطانيين . فركّبَ اختصاصيون جهازاً كهربائياً على صندوق السر هيو الحديدي . وكان شيشرون ، بفضل اشتراك ابنة اخيه ، وفي ما بعد عشيقته ، أسرا ، التي كانت تحيا معه في دار السفارة ، ينزع الصهيرة الموجودة في المطبخ ، ليعمل بكل يسر .

إن قصة هذه الصهيرة لتشبه كثيراً السيناريو الذي وضعته هوليوود ، عندما أخرجت قصة شيشرون على الشاشة البيضاء . . . واليوم ، يؤكد إلييزا بازنا أن هذه الواقعة ولدت ، بلا شك ، في مخيلة من اقتبس ذكرياته . وهو يتذكّر أنه لم يكن هناك اي صهيرة لأن لم يكن ثمة اي صندوق حديدي في منزل السفير . . .

التتمة ستكون اكثر صحة ودقة

كان يتم تبادل الليرات والوثائق ، غالباً ، بين مويزتش وبازنا في السيارة . كان الدبلوماسي يتوجه الى مكان معيّن ، فيبطئ في سيره لدى رؤيته التركي . فيقفز هذا الى السيارة ـ الاوبل ـ التي تنطلق بسرعة كبيرة . على المقعد الخلفي كان يجد كل شيء مجهزاً ـ رزمة الليرات الاسترلينية ، فيضع مكانها بكرات الأفلام .

ولكن ، في ذات مساء ، وكان ذلك في الاسبوع الثاني من كانون الأول ، لاحظ بازنا ومويزتش أن سيارة ليموزينة (سيارة لستة ركاب) كبيرة سوداء تتعقّبهما . فأسرع الالماني ، وظلت السيارة تتبعه . فتوقّف ، فتوقفت الليموزينة . فعاد وانطلق بسرعة فائقة . . . فتبعه الغريب . ما العمل؟

كان بازنا شاحباً ، وهو يغوص في ركن من السيارة . وتصبب العرق من جبينه . فقال مويزتش :

– اذا قُبض علينا ، فستكون تلك غلطتك !

كان الجاسوس المفتتن بنفسه قد ضاعف تهوره ، وتجرّأ على الاتصال تلفونياً بالملحق التجاري الالماني من حجرة السفير البريطاني نفسها .

فصاح بازنا :

– اتجه الى شارع السفارات ، فسأقفز لدى منعطف أحد الشوارع .

وراحت سيارة الأوبل تقوم بسلسلة من الانعطافات بسرعة جنونية ، ونجحت في الابتعاد مسافة كبيرة عن المطاردين . ولدى ضربة مكبح قاسية ، قفز شيشرون بينما ابتعد مويزتش . وبعد لحظات مرّت السيارة الليموزينة بسرعة البرق . وأُتيح لشيشرون أن يرى الرجل الذي كان يقودها : «وجه شاب وأملس . بدا لي أنني لا

استطيع أن أنساه مطلقاً ، وأنني سأتعرّف اليه وسط ألف وجه .»

لقد عرفه في الواقع في يوم كان يتناول فيه القهوة في بهو فندق «أنقرة بالاس» . كان الوجه «الشاب والأملس» نفسه . ولكن فجأة ، انتفض شيشرون . فمن طارد سيارة الاوبل كانت ترافقه امرأة صبية شقراء . . . إمرأة صبية شقراء الشعر ، تدعى كورنيليا كاب ، ابنة قنصل عام ألماني ترعرعت في الولايات المتحدة الاميركية . وكانت كورنيليا هذه سكرتيرة مويزتش .

وعاد شيشرون فشاهد بعد بضعة أيام الرجل ذا الوجه «الشاب والاملس» ، في شارع احمد آيوغلو . وتوصّل الى اللحاق به حتى منزله ، في شارع صغير يؤدي الى مرمرة سوكاجي . وذات مساء رآه يدخل برفقة امرأة كستنائية الشعر ، مقصوص قصيراً ، وترتدي زي النساء العاملات في البحرية البريطانية . وقد روى لنا شيشرون ذلك في مذكراته . فلزم الصمت من فرط الدهشة ، ذلك بأنه عرف ـ دونما تردد ممكن ـ في هذه الانكليزية ، الالمانية كورنيليا كاب !

في اليوم التالي التقى شيشرون مويزتش ، وعلم منه ان المرأة الصبية تخلّت عن مركزها ، وانتقلت الى العمل لدى الانكليز . في تلك الفترة كان الملحق التجاري يجهل أن سكرتيرته كانت في خدمة الدوائر السرية الاميركية ، ولم تعيّن في مكتبه إلا لكي تكتشف كيف كان الالمان يحصلون على المعلومات السرية . وقد روت كورنيليا ذلك في ما بعد ، وهو أمر دقيق جداً :

– «كان الخطر قد غدا كبيراً جداً . لم اعد احسب ان بوسعي العمل مدة أطول لحساب الاميركيين ، دونما أن أفتضح . وكان الاميركيون قد زودوني بالسّم . فاذا قُبض عليّ ، لم يكن ينبغي ان يكون هناك حكم بالموت ، ولن اقع بين يديّ الجلّاد . لقد سلّمت الاميركيين الشيفرة الدبلوماسية السرية الالمانية . ونسخت الوثائق السرية ، وحملتها يومياً تقريباً الى عميل الارتباط . من شيشرون عرفت كل ما يمكن معرفته ؛ إنه موظف في السفارة البريطانية . لم اكن راغبة في المخاطرة بحياتي أطول من ذلك . وكنت مقتنعة بأن معلوماتي ينبغي أن تتيح معرفة مَن مِن الخادمين هو شيشرون الحقيقي . وأفدنا من عيد الفصح المجيد . وبطلب من الاميركيين ، طلبت

عطلة زاعمة انني اود قضاءَها في زيارة ذويَّ . وتقرّر فراري في ٦ نيسان . وعبثاً انتظرني مويزتش على رصيف محطة السكة الحديدية . كنت قد غادرت وقتها مسكني بعد الظهر حاملة كل حاجياتي . وتوجهت إلى منزل الصديق الذي عرفته في كليفلاند ، في أميركا ، وكان يعمل آنذاك في مكتب الخدمات الاستراتيجية الاميركي . لم أقبض قط فلساً واحداً لقاء عملي . أما الاسباب التي دفعتني الى العمل ، فينبغي البحث عنها في علاقاتي بالشاب الاميركي الذي التقيته في أنقرة ، والذي أصبح عميلاً سرياً . وكان السبب الرئيسي ، مع ذلك ، رغبتي في العودة الى الولايات المتحدة الاميركية . وكان ذلك المكافأة التي وُعدت بها لقاء نشاطاتي كجاسوسة .

«حتى ذلك الوقت ، كان الانكليز يجهلون تماماً وجود شيشرون . كانت الدوائر السرية الاميركية ترغب في وضع الدوائر السرية البريطانية أمام الأمر الواقع . حملوني بالطائرة الى القاهرة ، وقدّموني إلى الانكليز . وفي القاهرة ، وحسب ، سمع الانكليز للمرة الأولى باسم شيشرون يُلفظ . الاميركيون أعلموهم بذلك . وحملت شخصياً البرهان إليهم . أصغى الانكليز الى شهادتي وهم يعضّون على شفاههم . لست أدري اذا كانوا صدّقوني . بالنسبة اليهم كان ذلك إهانة . وكانوا من الفخر بحيث لا يسعهم التسليم به . من جهة اخرى ، حتى اليوم ، يقلل الانكليزمن أهمية الحقائق لكي لا يفقدوا ماء الوجه . ثم إنهم أعادوني جواً الى أنقرة . وقد حوّلوا شكلي بطريقة جذرية . قصّوا شعري قصيراً ، وصبغوه باللون البنّي . وألبسوني بزّة النساء العاملات في البحرية الملكية ؛ حتى أنني شخصياً كنت أجد صعوبة في التعرّف الى نفسي !»

وبقي شيشرون إذ ذاك بعض الوقت في خدمة السر ناتشبول ـ هيوغيسن . لماذا؟ يستحيل إعطاء جواب مقنع عن هذا السؤال . هل تولاّه الخوف من أن يثير الشكوك حوله ، فيما لو انه سارع الى الهرب؟ أم أن الانكليز استخدموه ليمرروا الى الألمان وثائق القصد منها جرّهم الى الخطأ؟ ـ بازنا هنا يتغلّف بالغموض . ان هذا ليس ممكناً ، ذلك بأن إلييزا بازنا اعترف بأنه قابل مويزتش مرة اخيرة ، وفي دارته هذه المرة . في هذه اللحظة كانت المانيا مطوقة ، وتركيا تستعد لدخول الحرب الى جانب الحلفاء .

في تلك الفترة كان شيشرون قد غادر السفارة البريطانية بملء رغبته ـ منذ شهر نيسان ١٩٤٤ ـ على ما يؤكد ، دون أن يخامره أي قلق .

حتى سنة ١٩٤٥ لم يعرف إلا شيء واحد : إن القسم الاكبر من الليرات الاسترلينية التي سلّمها مويزتش الى القوّاص إلييزا بازنا كان مزوراً ، وقد زيّفه بمهارة فائقة مزورو كالتنبرونر . . . وفي سنة ١٩٥٥ ، ذهب آلان دوكو ، صديق كاتب هذا الفصل أندريه كاستيلو ، الى استنبول ، ووجد شيشرون الذي كان الجميع قد أضاعوا كل أثر له ، وكشف نهاية المغامرة التي جاءَت مذكرات إلييزا بازنا تؤكدها .

غداة النصر ، كان بازنا قد أضحى ، بفضل ليراته الاسترلينية ، صاحب أعمال كثيرة . كان منهمكاً في بناء فندق من ١٥٠ غرفة عندما اعلن أحد المصارف السويسرية بكل قسوة أن الليرات الاسترلينية التي قبضها أخيراً مزورة . وأكدت لندن ذلك لما استشيرت . وعادوا الى الينبوع . لم يكن هناك إلا وسيطان أو ثلاثة وسطاء بين بازنا ومن قدّم الاوراق النقدية الى المصرف السويسري . وانهار كل شيء بالنسبة الى شيشرون ، وكاد يصيبه البؤس .

بعد بضع سنوات ، كتب «شيشرون» الى المستشار الالماني كونراد أديناور :

– «كنت في خدمة السفارة الالمانية في أنقرة ، وبدافع التعاطف الخالص مع الرايش الألماني ، وبنيّة تقديم عوني اليه ، انخرطت في خدمة السفارة البريطانية في أنقرة خلال الحرب . وقد كوفئت على الخدمات الجلّى التي أُتيح لي تقديمها الى المانيا في ما بعد ، معرّضاً للخطر حياتي ، وحريتي ، وشرفي ، بليرات إسترلينية مزوّرة .»

بعد أربعة أشهر تلقىّ الردّ التالي :

«قضية مطالبة الرايش الالماني بمال . تأسف وزارة الخارجية لأنه لا يسعها الاستجابة لقضيتك بالمعنى الذي عرضته . . .»

واليوم؟ (السنة هي ١٩٦٣) .

شيشرون نفسه يقول لنا ماذا يفعل :

– «أنا أحيا . . . أشتري وأبيع . فليس غريباً ذلك ، وأنا مشرقي . إننا نقع دوماً على ركبنا ، حتى لو كانت الأرض التي نعود فنقف فوقها ليست مغطاة بالسجّاد

الشرقي الثمين .»

آخر تفصيل يُنشر للمرة الاولى :

في سنة ١٩٦٢ ، قبل أن يُنشر في ألمانيا كتاب «التوقيع شيشرون» ، حلّ بازنا ضيفاً طوال اسبوع ، على مويزتش ، في منطقة التيرول . ولم يكن الملحق التجاري السابق راضياً عن نشر شريكه القديم ذكرياته . ولكن لم يكن هناك أي داعٍ للقلق . فحتى إثبات العكس يبدو لي ـ على ما يقول أندريه كاستيلو ـ ان «قضية شيشرون» لمويزتش تعكس الحقيقة اكثر مما تعكسها ذكريات الوصيف السابق لدى السر هيو . . .

الجنرال الذي تحدّى هتلر

تلقّى فون شولتتس الأمر الجازم من هتلر بإحراق باريس . لماذا لم يفعل ذلك؟ هل أعوزته الوسائل؟ أم هل أن ارادته الواعية كانت الحفاظ على العاصمة؟ الضباط الالمان يعتبرونه خائناً ، والفرنسيون يُنكرون عليه مزية الدور الذي يزعم أنه مثّله . والواقع انه دفع غالياً ثمن عصيانه الفوهرر ، كما يكشف هذا المقال للصحفي الاميركي هنري ايرليتش الذي استجوب فون شولتتس في عزلته ، في اوائل سنة ١٩٨٠ . . .

كانت السيدة اوبرتا فون شولتتس تنتظر الأنباء عندما رنّ جرس التلفون . كان المتكلم صديقاً قديماً ، ضابطاً متقاعداً ، طلب إليها ان توافيه حالاً ، وعلى جناح السرعة . فلم يستغرق منها ذلك سوى وضع شال على كتفيها ، ففي بادن ـ بادن ، عشية ٢٦ تموز ١٩٤٤ كان الطقس بارداً . وغادرت دارتها .

خاض صديقها على الفور غمار الموضوع . فقد أصغى الى الانباء من لندن ، المذاعة من هيئة الاذاعة البريطانية : باريس حُرِّرت في العشية ، على ايدي الفرنسيين والاميركيين ، وزوجها القائد العام للقوات الالمانية في المدينة وقع في الأسر . وعادت السيدة فون شولتتس ببطء الى مسكنها . وبكت بهدوء ، دون أن تدري ما اذا كان عليها أن تحزن ، او على النقيض ، أن تفرح . وكان والدها ينتظرها على عتبة الباب . فعانقها وقال لها : «لاتقلقي . ان اسم ديتش سيسجله التاريخ .»

كان عليها أن تنتظر حتى صيف السنة ١٩٤٦ لكي تعود فترى زوجها . وسينقضي عام تقريباً قبل أن يُطلق سراحه من أحد معتقلات أسرى الحرب . إلا أنها لم تنتظر طوال هذا الوقت لتعلم أن زوجها «سيدخل التاريخ» . فقد عُلم سريعاً في بادن ـ بادن

ان الجنرال في المشاة ديتريش فون شولتتس ، عصى عمداً هتلر الذي أمره بتدمير باريس بدلاً من الاستسلام . وقد حذّر العدو بأنه سيقاومه رمزياً ، ولكنه سيستسلم دون قتال .

في الاشهر التي تلت ، دفع فون شولتتس ثمن عصيانه . ففي معتقل الاسرى الذي كان فيه في أميركا ، وضع في الحجر من جانب جنرالات بلاده ، وقد أسرّ بعد ذلك الى صديق له ، بأنهم كانوا يسهرون على ألا يُعطى طعاماً .

كان شولتتس عزيز النفس ، فلم يرفع اي شكوى إلى السلطات . ولكن بعد أن فقد ٢٧ كيلوغراماً من وزنه ، ونُقل الى المستشفى في المعتقل ، عرف الاميركيون ماذا حدثَ . وعندها وضعوه برفقة أسرى اكثر تسامحاً .

بعد ثلاثة أيام من سقوط باريس ، حوّل الفيلد ماريشال فالتر موديل ، فون شولتتس ، غيابياً ، الى المحكمة العسكرية . وعُقدت المحكمة وسط الفوضى العارمة في تورغاو ، وهي مدينة صغيرة تقع في شرق ألمانيا . ونذكر أنه في هذه المدينة الواقعة على نهر إلبه ، التقت القوات الاميركية والروسية في ٢٥ نيسان ١٩٤٥ .

وعُرضت شهادات ٨٠ شاهداً ، ولكنهم شهدوا جميعاً قسراً . وكان على القضاة ان يحكموا على أساس هاتين التهمتين : هل حافظ شولتتس على باريس؟ هل صمَّم على الاستسلام؟ ولم تُستخلص اي نتيجة . وتأجلت المحاكمة ، لعدم توفّر الادلّة .

إن معظم رفاق فون شولتتس من الضباط لانوا بالنسبة اليه ، ولكن أحداً منهم لم يستطع نسيان عداوته له كلياً . عموماً كانوا يقرّون بأنه ليس ثمة ألماني يمكن ان يحرق باريس ويقتل سكانها ، دون ان يتلقّى أمر الفوهرر . ويصرّح الجنرال غونتر بلومنتريت بقوله : «نحن احببنا باريس ، وكنا نتشوّق كثيراً لكي تنتهي الحرب ونعود اليها .» وبلومنتريت هو رئيس اركان قيادة قوات الغرب ، وهي قيادة أعلى من قيادة فون شولتتس ، وكان مقرها العام لدى مخرج باريس تماماً ، في سان ـ جرمان ـ اون ـ لاي .

ويلاحظ بلومنتريت بالنسبة الى فون شولتتس : «لم يكن بطلاً عظيماً . لم يكن إلا جنرالاً كالجنرالات الآخرين ، وشهرته مغالى في تقديرها . بوسعه ان يتبجّح بأنه

أنقذ باريس إذا كان هذا يلائمه . ولكن ، في الواقع ، لم يكن لديه الخيار . ففي النظام الدكتاتوري ، يمثّل المرء دوره بذكاء شديد مع الرئيس . يتظاهر بأنه ينفّذ أوامره . ولكنه يبحث دوماً عن كيفية تبرير تقريره تجاه «الطفل» (للمناسبة هنا ، هتلر) . إنه يهدهده حتى تنخفض درجة حرارته .» ويؤكد بلومنتريت كذلك :

- «بكل بساطة ، لم تكن لدى شولتتس ، القوى الكافية لتدمير باريس ، والعدو ما فتىء يقترب . ولتدمير مدينة ، لا يكفي لغم الجسور ، والمصانع ، والنصب . ينبغي كذلك طيران وقوة على الأرض . وشولتتس كان يفتقر الى الأداة الاولى ، والى البعض القليل من الاداة الثانية . والقيادة العامة التي كانت تمتلك الوسائل ، كان يمكن ان تقول له : «اذا أنت لم تقم بذلك ، فنحن سنتولى الأمر .» ولكنه لزم الصمت .» ويخلص بلومنتريت إلى القول : «هكذا صنعت الاسطورة من شولتتس المسؤول الوحيد عن «إنقاذ» باريس .»

«هزيمة اخرى»

وينفي الجنرال اوبرتوس فون آوكلوك ، الذي كان على مشارف باريس ، على رأس جيش مؤلف من ١٠٠ ألف رجل ، هو أيضاً ، أن يكون فون شولتتس وحده أنقذ العاصمة الفرنسية . ويزعم ان فون شولتتس أمره باستخدام قواته ـ عدد القوات المسلحة المتوفر حينذاك ـ في معركة الفرصة الأخيرة . غير أنه هو ، أيضاً ، فون آوكلوك عصى الأوامر . وهو يؤكد أنه لو تصرّف غير هذا التصرف لكانت المدينة تمزقت بوحشية وببطء بسبب معارك الشوارع .

يتردد معظم الضباط الالمان في الحكم على المعاملة الشائنة التي بدرت تجاه فون شولتتس من الجنرالات رفاق الحرب . غير أن الجنرال فالتر فارليمونت ، الذي كان نائب رئيس هيئة الأركان العملياتية (ذات العلاقة بالعمليات الحربية) في مركز قيادة هتلر العامة ، يتحدّث ، من جهة بحرّية ، فيقول : «رأيته للمرة الأولى في معتقل الأسرى في آلندورف . نصح لي سائر الجنرالات الموجودين بأن أتجاهله . ألم يعصَ الأوامر؟ وأشاروا اليه «كشخص لم يتصرّف كما كان ينبغي أن يتصرّف .» ويتذكّر

فارليمونت الملاحظة المريرة التي اوردها إذ ذاك أحد زملائه : «أنا لا ألومه على ما فعل أو لم يفعل ، ولكن ، وحسب ، على كل هذه الضجة التي أثارها حول هذه القضية .»

لا بلومنتريت ولا فارليمونت يودّان الاعتراف بالذهول الذي تسبّب به تسليم باريس وسط مراكز قيادتهما . وقال بلومنتريت ان ذلك كان يستحق ان يُناقش . ويوضح فارليمونت ان هتلر في راستنبورغ لم يعرف حتى الغضب الشديد الذي عزاه اليه التاريخ . أطلعوا الفوهرر على النبأ تدريجياً ، وعلى مراحل . فلما اطّلع تماماً على الوضع ، لم يكن يحلم إذ ذاك الا بارسال «الأوامر المستحيلة الى القوات المسلحة» لكي تثبّت في مكان آخر خط المقاومة - على ضفاف نهري السوم والمارن . ويتذكّر بلومنتريت أنه في القيادة العليا الغربية كان سقوط باريس متوقعاً ومقبولاً بهدوء . وهو القائل : «كانت هزيمة اخرى كنا نتوقعها .» كان الفرنسيون متسامحين بالنسبة الى فون شولتتس اكثر من الالمان . وقد قال الجنرال كونيغ ، وكان قبلاً قائد القوات الفرنسية في الداخل ، ثم في ما بعد ، قائداً في بادن - بادن لقوات الاحتلال الفرنسية في المانيا : «إن له من الاصدقاء في فرنسا اكثر مما له في ألمانيا .» وقد عامل كونيغ شولتتس كصديق . وعقب إطلاق سراحه ، قدّم اليه راتب شرف بصفته جندياً ، ولكن شولتتس رفضه قائلاً : «طالما بقي جندي واحد ألماني أسيراً بين ايدي الفرنسيين .» وخلال أشهر الشتاء التي قضاها شولتتس في المعسكرات الاميركية ، سهر كونيغ على أن تتمتع أسرة الجنرال بمنزل مريح ، وبما يدفئه . وكلّف كولونيلاً فرنسياً أبيّاً يدعى جان غونيل ، الاهتمام بأسرته . واستمات الكولونيل غونيل في حب العدو : كان يصحب الأسرة في نزهات بسيارته الخاصة ، ويعلّم بنات الجنرال اللغة الفرنسية . وقد اهتم بدفن والد السيدة فون شولتتس ، وحمل الجنرال الى المنزل عندما أُطلق سراحه في ٢٢ نيسان ١٩٤٧ من معتقل الأسرى .

ديغول لم يقدّم اليه الاحترام

قُبيل نقله من باريس ، عقب التحرير ، عهد فون شولتتس الى مدير فندق موريس حيث كان يقيم ، بحقيبة ملأى بالاشياء الشخصية - بزّته العسكرية الرسمية ، وكتبه ،

وصور أفراد أسرته . وكان يأمل بأن يستعيدها بعد انتهاء الحرب . ولكن ، في ذات يوم ، وبينما كان بعد أسيراً ، توسلت زوجته الى الكولونيل غونيل أن يستعيد الحقيبة ، فقام بالمهمة . وكان حاضراً عندما فُتحت وقد صُعق لما اكتشف ، على رأس محتوياتها ، أمر هتلر بتدمير باريس . ولم يكن نظر أحد من الضباط ، باستثناء الجنرال نفسه ، وقع عليه . لما تسلّم فون شولتتس الرسالة ، دسّها في صندوقه ، ولم يخرجها قط منه . ونقل غونيل الوثيقة إلى القيادة العليا الفرنسية . ولكن ، بعد أربع سنوات ، عندما غادر منصبه في بادن ـ بادن ، رجا رؤساءَه إعادة هذه الوثيقة الى الجنرال . وتمّت تلبية رغبته . ومثلها مثل بزّة الاستعراض الرسمية ، تحتلّ هذه الوثيقة مقام الشرف ، حيث بالوسع تناولها وتأملها في اي مناسبة .

ومع استعداد الكثيرين من الفرنسيين للاعتراف بأن فون شرلتتس قد أنقذ بالفعل باريس ، فإنهم يشاطرون ذلك الجندي الالماني السابق الذي تساءَل حديثاً : «ماذا تتوقعون منا؟ ان نقيم تمثالاً ضخماً لجنرال نازي كبير؟» ويحزّ في نفس فون شولتتس كثيراً ان الرئيس الجنرال ديغول ، الذي سهّل له الدخول المظّفر الى باريس المحتلة لم يقدّم إليه قط الاحترام . ولكن سواه أبدوا وداً ولطفاً أوفر . يتذكّر أن أحد زعماء المقاومة وقد بات اليوم عجوزاً ، هبط بادن ـ بادن لكي يشكره وهو يبكي لإنقاذه باريس . وهناك سيل متواصل من الرسائل يتدفق عليه من فرنسا (قليلة رسائل الالمان اليه) ، يؤكد فيها مرسلوها أنه لم يُنسَ ، ومرتين في السنة تطالعه بأخبارها السيدة لوكلير ، أرملة الجنرال الذي استسلم اليه . وقد قالت له : «لقد قمت بواجبك ، في الوقت المناسب ، في ظروف قاسية جداً ، وعلى الرغم من الأوامر .»

وعلى الرغم من ان فون شولتتس لم يتجاوز الحادية والسبعين . (سنة كتابة هذا المقال) ، فإن له اليوم هيئة الرجل العجوز المتعب . إنه قصير القامة ، وجهه مربّع ، وشعره أسود ، وما يزال يمشي مشية عسكرية وبالكاد تراه يتكلم ، ربما لأن ذلك يتطلب جهداً كبيراً منه . ومع ذلك يتسلق كل يوم الهضبة ، خلف منزله ، حيث يستريح فوق مقعد مستطيل من المقاعد العامة . ومن هناك ، برفقة كلبه «إدي» ، يروح يتأمل بادن ـ بادن القائمة تحت . وخلفه يقوم الملجأ المضاد للطيران الذي

استخدمه هاينريش هملر خلال الأيام الأخيرة من الحرب .

القليل فيه اليوم يذكّر بأنه كان في ما مضى أحد المنتصرين الصلبين في روتردام وسيباستبول ، «والأكثر شجاعة في الجيش» ، بحسب ما أُشير اليه يوم تزوّج . وقد احتل المركز الخامس بين الفرسان في ألمانيا ، العسكري المستقيم والفعال ، والأرستقراطي الذي يحتفظ بنظارته المفردة (المونوكل) حتى وهو في الحمَّام . ومثله مثل ابيه ، وأخته ، وأخيه ، كان يشكو الربو ، ولا يسعه الجلوس في قاعة يسود فيها التدخين . وقد أُصيب بسلسلة من النوبات القلبية أنحلته جسدياً وأثّرت في حيويته . وأصيب بالتهاب المفاصل ، فكان يجد صعوبة في الكتابة ، وقبل سبع سنوات ، وخلال قضائه عطلة في جزيرة كورسيكا ، جرح رأسه وهو يغطس في الماء . وفقاً لأقوال زوجته ، فإن تدهور صحته بدأ منذ أسره ، ولكنه تضاعف بسبب هذا الحدث وبات أسرع . وفي كل شتاء ، عندما يتألم اكثر فأكثر من الربو ، يقضي شهرين في المصحة في باد رايشنهول ، بالقرب من زالتسبورغ .

«لكم أبدو سخيفاً!»

تذكر أُسرة فون شولتتس جميعاً برعب اختبار الأسر الذي تعرّض له الجنرال . فقد أكره على مغادرة باريس بسرعة هائلة ، عقب تسليمه المدينة الى الفرنسيين . الوجهة : النورماندي ، غير أن سائقه الاميركي تاه ، واضطر فون شولتتس الى إرشاده الى الطريق . وكان يعرفها : فلقد وصل الى فرنسا من هذه الطريق نفسها .

في أميركا ، عومل معاملة لائقة ، ولكن الطعام كان رديئاً . («كانوا يقدّمون الينا العظام») ، وكان الطقس حاراً جداً في كلينتون ، في ولاية ميزوري . ويتذكّر فون شولتتس ضباطاً أميركيين كانوا يسترسلون في خطب سياسية لفظية ، ومجنّدة بولونية كريهة المنظر ، كانت تكتفي بترتيب سريره وكنس حجرته ، ولا شيء غير ذلك . وفي الأيام الاولى التي تلت عودته الى منزله ، واصل فون شولتتس ، كعادته ، تنظيف أحذيته وتلميعها . في المعسكر لم يكن ثمة شيء كثير يقوم به الاسرى . ففي حين كان جنرال ما يرفو ملابسه ، وآخر يرسم ، كان هو يعمل في كتابة تاريخ الحرب

العالمية الأولى . وتؤكد أسرته أنها ظلت تجهل أخباره ، وما اذا كان ما يزال حياً . غير أن صديقه راوول نوردلنغ ، قنصل السويد العام في باريس ، خدع السلطات وأرسل اليه خصلة من شعر ابنه تيمو ، وكان ما يزال طفلاً . في أيار ١٩٤٦ ، عاد فون شولتتس الى ألمانيا ، بعد أن نُقل هذه المرة الى معسكر اعتقال اميركي بالقرب من بادن ـ بادن . وكانت الانظمة تحظر عليه مشاهدة زوجته وأولاده . ولكن ابنته ماريّا ، وكانت بعد في السادسة من العمر ، قررت اجتياز كل العقبات . فاقنعت الحرس بأن يدعوها ترى أباها ، ووعدته بأن تكون مجدداً عند نافذته في صبيحة اليوم التالي . ومن اجل ذلك ، اضطرت للاختباء طوال الليل في حرجة تحيط بالمعسكر . وقد أرعبتها المغامرة . كان الحرس يعرفون أنها في مكان ما في الجوار ، وطوال قسم كبير من الليل ـ على ما تروي ـ «راح جندي أسود ضخم يفتش وسط العشب الكثيف بعقب بندقيته» ، بحثاً عن ماريّا ، دونما جدوى . وفي ما بعد ، ذكرت ماريّا أن والدها كان «كئيب المنظر يشفّه الحنين ، ويبدو أنه وحيد تماماً .»

شاهدت السيدة فون شولتتس للمرة الأولى زوجها في آلندورف ، آخر معتقلات الأسر . وهي تتذكّر : «كان واقفاً ، في الصف مع الجنرالات الآخرين ، المنتظرين زيارة زوجاتهم . وفجأة رنّ جرس ، فترك الضباط الصف ، وهرعوا الى المقهى ، حاملين اقداحاً معدنية بأيديهم . وحمل اليّ القهوة ، وعانقني وقال : «لكم أبدو بورجوازي المظهر ، وسخيفاً ، أنا زوجك ، أقوم بخدمتك !» وتمضي السيدة فون شولتتس قائلة : «كانت الأيام صعبة ، ولكننا لم نعرف البؤس قط .» فلقد جعلت إمكانية زيارة المعتقل الحياة أسهل بالنسبة إليها . وكان الجنرال يحتفظ لها بثفل القهوة التي كانت تصنع منها أفضل قهوة رشفتها منذ بداية الحرب . وكان يعطيها أيضاً حصته من السكاير . وكانت تحشو بها جيوب بنطلون السكي ، والسترة ، فتبيعها لدى عودتها الى المنزل . وكانت كل علبة تكسبها ١٠٠ مارك وضعف ايجار المنزل الشهري . وخلال احدى عوداتها ، انقطع المطاط الذي يشدّ السترة الرياضية التي ترتديها ، فانتثرت السكاير على رصيف محطة السكة الحديدية . فلقد كان دورها لكي تبدو سخيفة !

كانت تشعر دوماً أن عليها هي أن تقدّم اليه الهدايا . فذات يوم ، وهي في طريقها

الى آلندورف ، لمحت صفاً طويلاً من الناس يقفون الواحد خلف الآخر لشراء شيء نادر ، حسب تقديرها . ووقفت في آخر الصفّ ، منتظرة دورها . وعندها اكتشفت أن ما كان يباع هو لفّات كبيرة من ورق الصرّ . وقررت الانتظار ، مع ذلك . فلعلّ بوسع زوجها استعماله . وبالفعل ، فإن الجنرال الذي كان يكره المكان الذي يقيم فيه ، صمّغ الورق على أطر خشبية كبيرة وسمّرها جميعاً ، وخفّض حجم غرفته الى قياسات اكثر حميمية وراحة !

لقد جعله معسكر الاعتقال سوداوياً . وتقول زوجته : «لم يكن يستطيع تحمّل السجن . حتى أنه اغتاظ ذات يوم لما قلت للسجّان انه زوجي .» وأسرَّ اليها أنه أضرب عن الطعام للاحتجاج على أسره (كانت تلك ، ولا ريب ، روايته الجديدة عن تآمر الجنرالات الذين حرموه الطعام) . ودوّن على صفحة الوقاية الاولى قبل عنوان كتابه المقدَّس رغبته في الموت .

فون شولتتس ونوردلنغ

عقب الافراج عن فون شولتتس ، واجه اجراءآت «نزع الصفة النازية» عنه امام محكمة فريبورغ . فبرأته بصفة أنه خضع للحزب ولكنه لم يكن عضواً فيه . وقد اعتبر هذا تحقيراً له ، فهتف في المحكمة «بربكم ، عاقبوني إذا شئتم ، ولكن لا تصنّفوني بين الخرفان . فلطالما قدت القطيع ، ولم اتبعه قط في حياتي !»

واللحظة المؤثرة اكثر من سواها ، تتذكّرها زوجته وهي عندما شاهدته ، وقد كادت الدموع تطفر من عينيه ، يوم عودته الى المنزل . كان زائغ البصر ، ذليلاً ؛ ثيابه الرثّة فضفاضة ، وقد طُبعت عليها الحروف الاولى من عبارة «أسير حرب» بالانكليزية ؛ وكان ينتعل حذائين كبيرين بالنسبة الى قياس قدميه . وكان اول ما قام به ضمّ ابنه تيمو (ثلاث سنوات) الى صدره ولم يكن قد رآه إلا مرتين من قبل ، ولمدة قصيرة جداً .

وحرص على أن يبادر ، قبل اي شيء ، الى الكتابة الى نوردلنغ ، الذي يعود اليه الفضل في تجنّب ارتكاب احدى أعظم الجرائم في التاريخ : تدمير باريس . وقد

كتب : «مع مرور الزمن ، يمكننا القول اننا ، نحن الاثنين ، أسهمنا في السلم في اوروبا .» ففي مطلع شهر آب ١٩٤٤ ، عقب وصول فون شولتتس الى باريس بقليل ، قابله نوردلنغ . وقد تناقشا مطوّلاً في الخطط الالمانية الموضوعة لوقف تقدم الحلفاء . وفي نهاية اللقاء ، سأل القنصل السويدي العام فجأة ، وبقسوة ، فون شولتتس عما اذا كان يحرص على ترك ذكرى الغول الذي محا باريس (وقد جرى حديث مماثل بين شولتتس ، في ذلك الاسبوع بالذات على شرفة فندق موريس ، مع بيير تيتنجر ، رئيس المجلس البلدي في باريس زمن الاحتلال . وبعد بضع سنوات ، سيكتب شولتتس اليه يقول إنه بفضله تجنّب جريمة تدمير باريس) .

في رسالته الى نوردلنغ ، أبلغه شولتتس انه خالي الوفاض . ففي حين كان أفراد حرس هتلر الخاص يتناولون معاشاً بصفتهم مدنيين ملحقين بالجيش ، لم يكن للعسكريين أي معاش . ولما كان للقنصل مصالح مع المؤسسة السويدية الكبرى المختصة بصناعة الحديد (اس كا إف) ، فقد خصص للجنرال اذ ذاك مرتباً شهرياً لم يقبل به هذا الاخير إلا بعد الكثير من التردد . ولكن صداقتهما ستنقطع بعد بضع سنوات ، مع ذلك ، عندما يرفض نوردلنغ الاشتراك في انتاج فيلم اميركي يمثل فيه فون شولتتس دوره الحقيقي في تحرير باريس ، محاطاً بكل الذين بقوا أحياء في تلك الفترة . فقد ردّ نوردلنغ على شولتتس بالقول : «أنا لا اريد أن ارى بعد اليوم العلم النازي يرفرف في شارع ريفولي ، حتى في فيلم سنمائي .»

ونقض الجنرال من تلقائه عقده مع شركة «إس كا إف» ، معلناً أنه اسهم في مؤسسة لصنع الزجاج في الغابة السوداء هي «دوروتين هوته» . وتسلّم نوردلنغ من امين سرّ فون شولتتس رسالة اعتبرها مهينة . ولكن ، حتى وفاته في تشرين الاول ١٩٦٢ ، ظل القنصل السويدي يعتبر الجنرال شولتتس «رجل مبادىء ، وامرأً نبيلاً ، التزم بالوعد الذي قطعه على نفسه» . فلقد هبط شولتتس باريس ، مصمماً على إطاعة الاوامر بالتدمير ، ولكنه بدّل رأيه ـ على ما أسرَّ نوردلنغ الى أحد اصدقائه .

في فترة قطع صلته بنوردلنغ تقريباً ، التقى الجنرال البارونة آنّا ـ ماريّا فون در بفوردتن التي أصبحت صديقته الحميمة ، ورفيقة سفره ، ومعاونته في كتابه «جندي

وسط الجنود» وهو الكتاب المستوحى جزئياً من مجلد سابق بعنوان «باريس ، هل تحترق؟»

رافقته البارونة التي كانت تتقن الفرنسية مراراً الى باريس خلال الزيارات الست التي قام بها عقب الحرب . وقد زارا متحف اللوفر ، والتقطت لهما صور على برج ايفل . وكانا يقومان بنزهات طويلة عبر ارجاء العاصمة الفرنسية ، ذلك بأن شولتتس لم يشاهد باريس ، بالفعل ، إلا من شرفة فندق أثناء الاسابيع الثلاثة التي قضاها فيها كقائد للاحتلال .

وغدا الجنرال الصديق الحميم لأسرة تيتنجر ، وقد قدّم الرئيس السابق للمجلس البلدي في باريس بكلمة طيبة الطبعة الفرنسية من حياة شولتتس التي وضعها الجنرال بنفسه . وبادله هذا الأخير مجاملته بتقديمه كتاب تيتنجر عن التحرير .

وكانت هناك دعوات للغداء في فندق كرّيون . وقد اقترح فون شولتتس نفسه بعض الاسماء للدعوة : زوجة الماريشال الراحل لوكلير ، وابناء تيتنجر ، وبعض أفراد المقاومة السابقين ، دون نسيان البارونة فون در بفوردتن (التي احتفظت بحرص بلوائح الطعام الموقّعة من المدعوين) .

في كل التصريحات ، وكل الكتابات ، كان فون شولتتس ، وكذلك تيتنجر (قبل وفاته) ، يثوران على الجنرالات الالمان الذين اعلنوا أن باريس أنقذت لأنه لم تتوفر الوسائل للقيام بشيء آخر . وفي مناسبات عدة أكد شولتتس ان هتلر ، الذي أمره شخصياً بتدمير باريس ، لم يكن إلا امرأً مجنوناً ، بكل تأكيد . ولا يفتأ يردد أنه اقتنع في تلك الفترة بأنه لن يكون ثمةَ أي تقارب ممكن في ما بعد لو ان باريس دُمِّرت بوحشية . وهو لم يشر إلى ضعف وسائله إلا بصورة عابرة .

كاتبه المفضل : كارل فون كلاوزفتس

على حدود الغابة السوداء تقوم مدينة بادن – بادن الغنية المريحة . ومثل معظم المدن الالمانية ، امّحت فيها كل آثار الحرب . وقد لجأ اليها نحو من دزينتين من الجنرالات المتقاعدين ، الذين يلتقون معاً مرتين في الاسبوع في فندق في القسم

الأدنى من المدينة . وفي كل سنة ، في تشرين الثاني ، يدعوهم فون شولتتس لمناسبة عيد ميلاده ، فيمرحون ، ويتذكّرون . وتحضر الحفلة زوجته ، وابنه تيمو البالغ الآن إحدى وعشرين سنة ، فيأتي من مانهايم حيث يعمل في العلاقات العامة ، وكذلك ابنته باربارة الاستاذة التي تقيم مع والديها ، وشقيقتها ماريّا ، المتزوجة ، الاستاذة أيضاً . عقب الحرب قدّم الفرنسيون الى ماريّا منحة دراسية في السوربون . فرفضتها ، ولكنها ، في ما بعد ، تلقّت «منحة فولبرايت» ، ودرست في جامعة سكيدمور في مدينة ساراتوغا سبرينغز ، في ولاية نيويورك .

قبل سنتين ، قام تيمو بطريقة الاوتو ـ ستوب من بادن ـ بادن ، بأول رحلة له الى باريس . وكانت أسرته تقضي العطلة ولم يكن في جيبه سوى ١٠ آلاف فرنك قديم لينفقها على معيشته . فزار كل الاماكن البارزة المتعلقة بالتحرير ، وما لبث أن وجد نفسه بلا اي فرنك . وجاع ، وكان يذهل امام أبواب المطاعم . ولتأمين المأوى والطعام باع ساعته . وقد سألته والدته في ما بعد عما اذا كان فكّر حقاً في الدور الذي مثّله أبوه في باريس . وقبل أن يتمكن من الاجابة ، قاطعهما الجنرال بقوله : «لم يفكّر فيّ قط إطلاقاً .» فقال تيمو : «بلى ، لقد أذهلتني فكرة ان أبي أنقذ هذه المدينة الساحرة وحسب لكي يدعني أقضي جوعاً فيها !»

تعيش أُسرة شولتتس عيشة مريحة ، ولكن بسيطة ، على حدود المدينة في منزل يقع في «شارع فرنسا» ـ وقد دعي كذلك لأن الالمان ـ على ما يُعتقد ، سلكوه للزحف الى باريس في الحرب الفرنسية ـ البروسية السنة ١٨٧٠ . على الجدران عُلقت رسوم الأجداد بالبزّات العسكرية ، وشجرة الاسرة المعقدة . (الجنرال وزوجته إبنا عم . خلال الحرب العالمية الأولى ، كان والد السيدة شولتتس وكان جنرالاً أيضاً ـ شاهد على رأس فرقة من الفرسان ، باريس ترتسم عند الأفق) . ويمتلك فون شولتتس عدداً من المؤلفات العسكرية ـ وكارل فون كلاوزفتس ، الاستراتيجي البروسي ، هو مؤلفه المفضّل ، ولكنه يحبّ كثيراً أيزنهاور ومونتغمري .(والفيلم الذي يحتفظ منه بأفضل ذكرى ، هو «اليوم الأطول» الذي يصوّر نزول الحلفاء على ساحل النورماندي) .

تقدّم الحكومة الألمانية حالياً الى فون شولتتس معاشاً شهرياً يساوي ٣١٠٠

فرنك . وقد درّ عليه تنازله عن مصالحه في مصنع الزجاج مبلغاً من المال . وهو يأمل ـ ساعة كتابة هذا التحقيق ، في السبعينات ـ ان يقبض مبلغاً من المال من بول غريتز ، منتج فيلم «باريس ، هل تحترق؟»

لم يعد يرى معظم رفاقه القدامى ، ولكنه غالباً ما يرى امين سرّه ومرافقه السابق هلموت ماير ، الذي عاش حرب التحرير الى جانبه ، وهو يدير وكالة للسفر بالقرب من بريمن . وبعد الحرب ، وطوال سنوات عدة ، كان الاثنان يحضران اجتماعات المحاربين القدامى . وكانوا يحتفظون دوماً لفون شولتتس بمركز الشرف . ويلاحظ ماير بقوله : «هوذا الدليل على أن ليس كل الجنود الالمان يحتقرونه .»

وماير يحبّ الجنرال محبة كبيرة ، وهو يصفه بأنه إنسان طيب ، وذكي ، وعميق ، وسخيّ ـ قائد جيش ـ على ما يقول ، «لا يؤذي ذبابة» . ويروي ماير ان فون شولتتس كان يمنح الجنود الالمان الجدد الوافدين حديثاً الى الجبهة الروسية ، مدة ثلاثة اسابيع لكي يتدرّبوا ، في حين أن سائر الجنرالات كانوا يرسلونهم مباشرة الى ساحة القتال . ويروي كذلك انه عندما كان الجيش الالماني المتحرك يضطر إلى مصادرة مسكن لجعله مركزاً للقيادة ، كان شولتتس يلحّ على أن يتمكن القاطنون فيه من مواصلة شغله . ويؤكد ماير «ان الجنرال حاول في سيباستبول أن يقلّل من خسارة العدو ما أمكن .» وليس ثمة شيء يؤلم أمين السر السابق من سماع وصف فون شولتتس بأنه «مدمّر مدن .»

في دار الكتب في بادن ـ بادن ، يكثر الطلب على مؤلفات فون شولتتس ، أو على الكتب الموضوعة عنه والمتعلقة به . وفي احدى المكتبات ، يُعتبر كتابه «باريس ، هل تحترق؟» الهدية الأكثر طلباً من الجنود الفرنسيين التابعين لمنظمة حلف الاطلسي (ناتو) الى أصدقائهم الالمان . ولكن قلة هنا تعرف الجنرال أو تتعرف اليه اذا صادفته في الشارع . ومع حرص أُسرة شولتتس على معرفة رأي الآخرين فيها ، وماذا يقولون عنها ، فإن أفرادها يتهرّبون من عدسات المصورين ، ويغتاظون تقريباً من كل ما كُتب عنهم . وقد تذمّر الجنرال ذات يوم : «ان حياتي تُكسب الجميع ، باستثنائي أنا شخصياً .» ولفون شولتتس اليوم رغبتان ، ربما كانتا متناقضتين : اولاً ، هو يرجو

بشدّة أن يُذكر كبطل حقيقي للتحرير ، ثم ، هو قبل أي شيء آخر ، يرغب في أن يدعه الناس يعيش بسلام !

لعبة مذابح حول هتلر

عقب محاولة اغتيال الدكتاتور النازي ، جرى في فرنسا ـ كما نعرف الآن بفضل وثائق رسمية نُشرت حديثاً ـ أحد الفصول الرئيسية في مأساة تموز ١٩٤٤ .

٢٠ تموز ١٩٤٤ ، كانت الساعة الثانية الا خمس دقائق عندما وصل الكولونيل الكونت فون شتاوفنبرغ الى مركزقيادة هتلر .وكان الكولونيل قد فقد خلال حملة ليبيا عيناً ، واليد اليمنى . ولم يبقَ في يده اليسرى سوى ثلاث أصابع تشبّث بها بمحفظة جلدية ضخمة ،وكانت تضمّ تقريراً عن القوات الاحتياطية وقنبلة موقوتة .

كان الاجتماع مقرراً عند الظهر ، في مبنى بعض جدرانه من خشب ، والبعض الآخر من الاسمنت . ووصل هتلر يتبعه نصف دزينة من الضباط الكبار ، وجلس الى طرف الطاولة . وجلس شتاوفنبرغ الى يمينه مباشرة . وتناول تقريره من المحفظة ، ثم وضعها أرضاً وأسندها الى قائمة الطاولة بالقرب من مقعد هتلر تماماً ، وشرع في تلاوة التقرير . فلما فرغ ، تناول المرافق التقرير ، ثم طعّم القنبلة سرّاً ، ونهض من مكانه ، وحيّا الفوهرر التحية النازية المعتادة «هايل هتلر» بحرارة ، وغادر القاعة .

بضغط خفيف على عنق الصاعق ، حطمت اصابع شتاوفنبرغ الثلاث قنينة صغيرة انطلق منها سائل أكّال . وأكل الحمض سلكاً معدنياً يمسك بزنبرك وبعصا الكبسولة . وتأكّل السلك شيئاً فشيئاً وباتت الشحنة على وشك الانفجار بعد بضع ثوانٍ . . . عندها قام هتلر من مكانه واتجه شطر خريطة معلّقة على الجدار في الطرف الآخر من القاعة . وراح يمرّ بأصابعه على منطقة النورماندي في شمال فرنسا ، وإذا بالانفجار يحدث .

كان شتاوفنبرغ قد بقي في الجوار . فشاهد المبنى يتطاير شظايا ، وسط قرقعة

مرعبة ، والضباط المجتمعين يُقذفون ، الى خارج المكان . ورأى هتلر ممدّداً أرضاً وسط الدم ، وقد تمزقت ملابسه ، فبدا له ميتاً ـ بوجه الاحتمال . وظناً منه ان مهمته أنجزت ، أفاد من الذعر العام ليتجه الى طائرته الخاصة ويعود الى برلين ، حيث كان رفاقه يحضّرون من جهتهم ، لسقوط النظام .

نام الفوهرر حتى الظهر

عندما استولى هتلر ، في تشرين الثاني ١٩٤١ ، عقب زوال حظوة الجنرال فون براواشيتش ، على القيادة العسكرية ، اتخذ قرارين رئيسين ، كان لهما ، في جملة القيم ، قيمة الاسراع في الهزيمة الالمانية . كان فريدريك الكبير قد أدخل التكتيك المسمّى «حرية التنفيذ» ، الذي يدع للضابط التابع او المرؤوس مهمة اختيار الوسائل التكتيكية الكفيلة ببلوغ الهدف الذي حدده الرئيس . فألغى هتلر عنصر الحرية هذا . فالرئيس ينبغي له أن يحدد الهدف والوسائل التكتيكية . وكان القرار الثاني يمنع أي ضابط من إصدار الأمر بالانسحاب أو التراجع قبل ان يوافق هتلر عليه .

هذان التدبيران ضيّقا كثيراً حرية القادة العسكريين ، بحيث لم تعد المسألة مسألة تكتيك ، وباتت ذروة الحكمة العسكرية ترك العدو يقوم بالتطويق .

عندما توسّل ماريشالات هتلر اليه لكي يقصّر الجبهة الشرقية (جبهة روسيا) ، التي اتسعت كثيراً ، ويقوم بإنشاء نظام دفاعي ، أصدرت القيادة العليا للجيش البرّي (الفرماخت) الامر الى قواتها بالبقاء حيث هي في المواقع المحتلة ، مهما كلّف الأمر . وبقيت فيها ، ولم تعد منها قط

عندما نزل الحلفاء الى الساحل الشمالي في فرنسا ، صبيحة يوم ٦ حزيران ١٩٤٤ ، نُقل النبأ بالطريق الرسمي الى مركز قيادة هتلر . فلم يجرؤ الضابط المرافق ، نظراً للساعة الصباحية المبكرة ، ايقاظ الجنرال يودل ، معاون الماريشال كايتل ، رئيس هيئة الاركان العامة ، بحيث أن يودل لم يعلم بالانزال الحليف إلا الساعة التاسعة صباحاً . وحرصاً منه على عدم إزعاج كايتل في رقاده ، انتظر ايضاً ساعة اخرى لكي يطلعه على النبأ . وأخيراً ، ونتيجة تنفيذ الشريكين المتواطئين تنفيذاً أعمى تعليمات

الفوهرر بعدم ايقاظه ، لم يطلع هتلر على النبأ السعيد إلا في اجتماع الظهر . ولم يكن هؤلاء السادة ينهضون من النوم متأخرين إلا لأن هتلر كان يبقيهم في حضرته هزيعاً طويلاً من الليل لكي يشرح لهم أفكاره وآراءه حول سعادة الشعوب .

ذلك بأنه وراء جدار الاطلسي ، كانت تعسكر وحدات مدرعة قوية ألمانية ، كانت مهمتها القضاء على القوات المعادية التي يمكن أن تنزل إلى اليابسة . غير أن هتلر احتفظ لنفسه شخصياً باصدار الأوامر الى هذه الوحدات . ولم يكن بوسع أي من القائدين الكبيرين رونشتيت ، أو رومل ، إصدار الأوامر اليها . فلما أمرهما هتلر بالهجوم ، كانت قد ضاعت ساعتان ثمينتان حقاً ، ولكن جزءاً من الوحدات المصفحة كان قد شُلَّ تماماً بفعل قصف الطيران الحليف . وتمّ الهجوم المضاد متأخراً جداً ، ومن دون حمية او حماسة . فلقد كانت التعليمات باحترام رقاد الفوهرر في مصلحة الانزال الحليف على ساحل النورماندي .

في هذه الحالات يُفهم أن يستعيد عدد من الضباط وضوح الرؤية لكي يثوروا ضد الادّعاء الغريب بأن استراتيجياً هاوياً يمكن أن يوجّه وحده ، من عمق جحره ، حرباً كان يجهل أنظمتها وقواعدها الاولية ، ولا يقدّر عواقبها وحقائقها المأساوية . وهكذا تجمّع حول الجنرال لودفيغ بك والدكتور غورديلر المعاديين للنازية منذ الساعة الأولى ، رجال أمثال الماريشال فون فتزليبن ، والماريشال رومل ، والجنرال فون شتولبناغل ، والجنرال اولبريخت . . . وآخرون ، أكثر فزعاً امثال فون كلوغه ، وفون مانشتاين ، وغودريان ، الذين لم يكونوا يمنحون الحركة إلا عطفاً مشبعاً بالتحفّظ والتردد . وستكشف قنبلة شتاوفنبرغ خمول البعض ، وشجاعة أو انتهازية الآخرين .

إعدامات وانتحارات متسلسلة

في برلين ، جرى كل شيء حسب الخطة الموضوعة من أجل الانقلاب . وصل الجنرال بك إلى وزارة الحربية برفقة الضباط المشتركين في المؤامرة . ومن هناك اتصل زعيم المتآمرين تلفونياً بقادة وحدات الجيش المختلفة ، وأخطرهم رسمياً بوجوب إطاعة أوامره .

وخفّ الجنرال اولبريخت لمقابلة الجنرال فروم ، قائد الاحتياط ، وأعلمه أن الفوهرر ذهب ضحية مؤامرة اغتيال . وصعق فروم . فطلب اليه اولبريخت أن ينقل الى كل مراكز القيادة كلمة السر «فالكيري» ، المقررة لدى حدوث اضطرابات داخلية من أجل اتخاذ كل التدابير الضرورية بغية تسليم السلطة التنفيذية الى الفرماخت . وأعلن فروم أنه لا يسعه اتخاذ مثل هذا القرار دون أن يقتنع بموت هتلر . فاتصل تلفونياً بكايتل ، وجرى بينهما الحوار التالي الذي نقله ف . فون شلابدنيدورف ، في كتابه «ضباط ضد هتلر» الصادر في باريس عن دار «سيلف» :

فروم : ماذا يجري في مقر القيادة العليا؟ ! في برلين ، تدور الشائعات الاكثر غرابة ! . . .

كايتل : ماذا تريد أن يجري؟ ان كل شيء على ما يرام .

فروم : لقد أبلغوني ان الفوهرر ذهب ضحية مؤامرة اغتيال .

كايتل : هذه حماقة ! جرت محاولة اغتيال ، ولكن لحسن الطالع ، أخفقت المؤامرة . الفوهرر حيّ ، وقد جُرح جرحاً طفيفاً . ولكن ، للمناسبة ، أين هو رئيس أركان حربك ، الكولونيل شتاوفنبرغ؟

فروم : لم يعد شتاوفنبرغ بعد .

واقتنع فروم بتصريحات كايتل ، فرفض نقل كلمة السر« فالكيري» ولم يدرِ أن ذلك قد تم بالفعل ، وأن الوحدات العسكرية حول برلين قد أُنذرت ، وزحفت شطر العاصمة .

وعندما وصل شتاوفنبرغ إلى برلين ، حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، مثل أمام فروم وبرفقته اولبريخت . فأكّد له موت هتلر .

فروم : هذا مستحيل . الماريشال كايتل أكد لي العكس .

شتاوفنبرغ : كذب كايتل كعادته ، أنا شخصياً ، يا سيدي الجنرال ، طعّمت القنبلة خلال الاجتماع . وحدث انفجار كما لو كانت قنبلة من عيار ١٥٠ قد سقطت في القاعة . لا أحد من الموجودين يمكن أن يكون قد بقي في قيد الحياة .

فروم : المؤامرة أخفقت ، يا كونت شتاوفنبرغ ، ينبغي أن تنتحر على الفور .

شتاوفنبرغ : ليس في نيتي أن انتحر مطلقاً .

فروم : إني القي القبض عليك .

اولبريخت : ليس في وسعك القاء القبض علينا ، إنك مخطىء بالنسبة الى تقرير القوات الحقيقي . نحن من سيلقي القبض عليك .

وحُجز فروم في مكتبه تحت مراقبة ضابط شاكي السلاح . وفي هذه الاثناء ، ووفقاً للأوامر الصادرة ، طوّقت القوات المسلحة الوزارات الرئيسية .

ولكن نبأ إخفاق مؤامرة الاغتيال ذاع بسرعة . هتلر حيّ ، وقد كان الرعب الذي يشيعه هذا الشيطان المجسّد كبيراً الى حد ان الفوضى عمّت على الأثر .

تردد ضباط كثيرون ، وتنكروا للمتآمرين . وتبودلت الطلقات النارية . وحُرّر فروم على يد قوات الحرس الخاص بحماية هتلر . فاذا به يعيّن إذ ذاك محكمة عسكرية مؤلفة من ثلاثة جنرالات ، أصدرت الحكم بالاعدام على مدبّري الانقلاب .

وحمل فروم الحكم بيده ، ودخل المكتب الذي اجتمع فيه كل من بك ، واولبريخت ، وشتاوفنبرغ ، وآخرون . وأعلن لهم أنهم جميعاً مذنبون ، وتلا عليهم الحكم . ودعاهم الى تسليمه أسلحتهم . فنهض الجنرال بك وقال :

– لن تطلب مني هذا ، أنا رئيسك منذ زمن طويل . أنا شخصياً سأتحمل نتائج هذه الحالة السئية .

فوافق فروم . وجلس بك فوق كنبة . وأخرج من جيبه مسدسه ، وأطلق منه عياراً نارياً على رأسه . غير أن الرصاصة مسحت ، وحسب ، القحف وأطلق النار ثانية بينما سنده شتاوفنبرغ . فأفلت منه المسدس ، ولكنه لم يُجرح جرحاً مميتاً .

في السهرة ، أعدم فروم رمياً بالرصاص كلاً من اولبريخت ، وشتاوفنبرغ ، وضابطين آخرين ، في باحة وزارة الحربية . ولما علم ان بك لم يمت ، أصدر الأمر بتخليصه «من آلامه» .

وفي برلين ، سقط الستار على الفصل الأول من المأساة الدامية .

أما الفصل الثاني فسيُمثّل في باريس .

الماريشال رومل على حق

استيقظ المتآمرون من المجموعة الباريسية (وكانوا حوالى الاثني عشر ضابطاً يتجمعّون حول الجنرال فون شتولبناغل) يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ وسط قلق كبير . فلقد ابلغهم الليوتنان - كولونيل سيزاره فون هوفاكر ، العائد من المانيا حيث قابل شتاوفنبرغ قبل ذلك بيومين اثنين ، ان المؤامرة ستتم في ذلك اليوم بالذات . وكان الجميع يعلمون ان فرص النجاح ضئيلة ، وأنه في حال الاخفاق ، سيكون حبل المشنقة بانتظارهم .

وانقضت الصبيحة دون اي حدث بارز . وقد وصف كتاب لفون شرام بعنوان« ٢٠ تموز في باريس» بالتفصيل الفصول التي جرت في فرنسا . وطُلب الكولونيل فنك تلفونياً . فتلفّظ صوت مجهول بكلمة «تمرين» . ثم انقطعت المخابرة التلفونية . و «تمرين» هي كلمة السر . فتأهب المتآمرون .

في الساعة الرابعة بعد الظهر ، وصل هوفاكر ، يلهث من شدة التعب ، وعيناه تبرقان بالفرحة : «مات هتلر . لقد اتصلت قبل قليل بشتاوفنبرغ وكان الانفجار هائلاً .»

في هذه الاثناء ، وصلت كلمة السرّ الى الجنرال فون شتولبناغل ، قائد قوات الاحتلال في فرنسا وزعيم المتآمرين في فرنسا . وشتولبناغل هذا هو ابن عمّ اوتو فون شتولبناغل الذي كان اول قائد لجيش الاحتلال في فرنسا ، وقد اشتهر بأعماله السيئة ، من مثل قتل رهائن شاتوبريان . وقد انتحر اوتو فون شتولبناغل في السنة ١٩٤٩ ، في زنزانته في شيرش ـ ميدي ، في فرنسا

واستدعى الجنرال شتولبناغل قائد الموقع ورئيس أركان حربه ، وقال لهما :

- دبّرت الغستابو مؤامرة في برلين . محاولة اغتيال هتلر . . . ينبغي إلقاء القبض على رجال الغستابو في باريس . تأكدا كذلك من شخص زعيم قوات الصاعقة . في حالة المقاومة إستعملا سلاحكما .

في الساعةالسادسة مساءً طُلب شتولبناغل من برلين . وكان المتحدث الجنرال بك :

- هل علمت ، يا شتولبناغل بالأحداث الأخيرة؟

- أجل .

- أما تزال معنا؟

- أجل .

- الضربة تمّت . ولكن ليس لدينا بعد معلومات محددة . أأنت معنا ، مهما حدث؟

- مهما حدث ! لقد أصدرت الساعة الأمر بالقاء القبض على جماعة الحرس الخاص والغستابو . يمكنك الاعتماد على رجالي وعليّ شخصياً .

وطرح بك سؤالاً أخيراً : «ماذا سيفعل فون كلوغه؟» وقال شتولبناغل بينه وبين نفسه ان ذلك هو الأمر الكبير المجهول ، فقال : «يستحسن ، يا سيدي الجنرال ، ان تكلّمه أنت شخصياً . ابقَ معي على الخط . سأوصلك مباشرة بمركز قيادته .»

كان الماريشال غونتر فون كلوغه قد حلّ محل الماريشال فون رونشتيت ، على رأس قوات الجبهة الغربية ، بعد أن عُزل بسبب إظهاره الشكوك ، لا بل التأكيدات ، بالنسبة الى نتيجة الصراع (لقد اجاب كايتل الذي كان قلقاً من انتصارات الحلفاء ، وطلب رأيه بقوله : «ما العمل؟ . . . ولكن الصلح ، أيها الحمقى !»

بينما كان فون كلوغه قائداً للجبهة الروسية ، فوتح من قِبل حركة المقاومة ، فلم يردّ إلا بموافقة مبدئية . وقبل وصوله الى مركز قيادته في روش ـ غوويّون ، اعتكف في المقر العام للقيادة التابع لهتلر ، حيث كرز عليه الفوهرر نفسه كما ينبغي ، محذّراً إياه من «انهزامية» رومل ، الذي كان قائد مجموعة القوات المكلّفة الدفاع عن النصف الشمالي من فرنسا .

خلال لقائه الاول مع رومل ، بدا بارداً : «أنصح لك بشدّة ، ايها الماريشال رومل ، بإطاعة أوامر القيادة العامة ولو مرة واحدة .» ولكن هذه البرودة لن تدوم . فقد جرّ رومل فون كلوغه الى الجبهة . وعاد القائد العام من هناك مقتنعاً . وهو مستعد للإصغاء مجدداً إلى ممثلي المقاومة ضد الهتلرية .

كان متآمرو فرنسا يعتمدون على رومل لوضع حد للحرب في الغرب . وكانت

سلطته ، وهيبته ، سواء في الداخل أو الخارج ، تؤهلانه لهذا الدور . بعد جولة على الجبهة ، سطّر روميل إنذاراً أخيراً ، للفوهرر : «قواتنا تحارب ببطولة ، ولكن على الرغم من كل شيء ، فإن هذه المعركة غير المتكافئة تقترب من نهايتها . . .» وأضاف بخط يده الى النص المطبوع على الالة الكاتبة : «ينبغي لي أن أطلب أن تستخلص فوراً النتائج السياسية لهذا الوضع . وارى لزاماً عليّ ، بصفتي قائداً لمجموعة جيوش ، أن أقول ذلك بكل صراحة ووضوح .»

وشاطر فون كلوغه روميل هذا الاستنتاج : «بعد قضاء ١٥ يوماً في هذا المنصب ، وعقب مناقشات مطولة مع القادة المسؤولين على مختلف الجبهات ، بمن فيهم قادة وحدات الحرس الخاص ، ينبغي أن الاحظ أن الفيلد ماريشال روميل هو ، مع الأسف ، على صواب .»

ولكن ، في ١٧ تموز ، وبينما كان الماريشال روميل يقوم بمهمة تفتيشية على الجبهة في جوار ليفارو ، هاجمت طائرة انكليزية سيارته . فأصيب السائق اصابة مميتة ، وفقد السيطرة على مقوده ، وانقلبت السيارة . وفي مستشفى برناي ، حيث نُقل روميل ، شخّص المختصون كسراً مزدوجاً في الجمجمة وتهشيماً في الوجنة اليسرى . كانت تلك ضربة قاسية بالنسبة الى المتآمرين . ان مصير الحرب وقدر المانيا سيتوقفان الآن على فون كلوغه . غير أن فون كلوغه قد وافق تماماً على تقرير روميل ، ولكنه «أهمل» بحكمة ارساله .

فون كلوغه والقرار الخطير

حوالى الساعة السادسة والنصف مساءً ، اتصل مركز القيادة في الجبهة الغربية بفون شتولبناغل . «الفيلد ماريشال فون كلوغه يرجو سيدي الجنرال وهيئة أركان حربه أن يحضروا الى مركز القيادة للتحدّث في أمر هام .» فقال شتولبناغل لنفسه : «لا بد أن يكون بك قد كلّمه . ولا شك أنه أقنعه .»

قبل ساعة واحدة ، عاد فون كلوغه من الجبهة ، يتصبّب عرقاً ، ويعلوه الغبار . فسأل : «هل من جديد؟ .» فسرد عليه الجنرال شبايدل بعض المعلومات

الاستراتيجية . وسأل :

- أليس من أمر آخر؟

- بلى ، اتصل بي الجنرال بلومنتريت بالتلفون حوالى الساعة الثالثة . هناك مؤامرة لاغتيال الفوهرر . يقال ان الفوهرر مات . لم استطع معرفة المزيد .

في هذه اللحظة ، رنّ جرس التلفون . برلين تطلب مخاطبة الفيلد ماريشال . وتعرّف فون كلوغه إلى صوت الجنرال بك يتعالى من الطرف الآخر من الخط (إنها المخابرة التي حوّلها شتولبناغل) . وصف بك التدابير المتخذة في برلين وفي الرايش ، قال :

- إن الاحداث تجري بصورة مرضية ، فون كلوغه ، انضم إلينا ، وأصدر إشارة الثورة العامة .

وبينما كان بك يتكلم ، دخل أحد الضباط من المرافقين ، حاملاً الى فون كلوغه نسخة من آخر نشرة للأخبار من الاذاعة الالمانية : «نجا الفوهرر من محاولة اغتيال . إنه سليم معافى ، ولا يشكو إلا من حروق وكدمات طفيفة .» واستوضح فون كلوغه الجنرال بك حقيقة الأمر ، مشيراً الى النشرة التي وضعت الساعة تحت عينيه :

- ولكن ما هو الوضع الحقيقي في مركز القيادة العام؟

- لا أهمية لذلك اذا نحن قررنا التصرّف .

- كلوغه ، سؤالي واضح . هل أنت موافق على تحرّكنا؟ هل أنت مستعد للسير معنا؟

- ينبغي لي أولاً مناقشة الأمر مع معاونيّ ، وسأردّ الجواب في اتصال بعد نصف ساعة .

ولم يتصل قط فون كلوغه !

حوالى الساعة السابعة وصل اول نبأ رسمي . إنه اعلان موقّع من الماريشال فون فتسليبن والكونت شتاوفنبرغ :

«مات ادولف هتلر ، الفوهرر . إن طغمة من زعماء الحزب الموجودين في المؤخرة ، وعديمي الذمة ، حاولت استغلال الوضع لطعن القوات على الجبهة في

الظهر ، ولتسلُّم السلطة لغايات شخصية . في هذه اللحظة من الخطر الأقصى ، قررت حكومة الرايش إعلان حالة الطوارئ ، وأوكلت إليَّ ،في الوقت نفسه ، القيادة العامة للفرماخت ، والسلطة التنفيذية . . .» (تتبع ذلك كيفية تطبيق هذا القرار الذي يُخضع كل السلطات المدنية للفرماخت – أي قيادة القوات البرّية) .

وبدا فون كلوغه قلقلاً . إنه يتحدث الآن عن تحضير هدنة على الجبهة الغربية ، ووضع حدّ للقصف الجوي على انكلترا بقنبلتَي «ف ـ ١» و«ف ـ ٢» . . . ولكن هوذا التلفون يرّن مجدداً . وهذا إعلان جديد موقّع من كايتل ، وهو يناقض الاعلان السابق ، بهذه الكلمات : «إن الفوهرر حيّ .»

واصبح فون كلوغه الآن عصبياً . ما معنى هذا المزاح ؟ إنه يريد معرفة الحقيقة مهما كلّف الأمر . فاتصل بمركز القيادة وطلب التحدث الى الماريشال كايتل . فلم يوفّق في ذلك . فطلب الجنرال يودل ، ولكن هذا لم يكن موجوداً . والجنرال فارليمونت كان في اجتماع . . .

وازداد فون كلوغه حيرة . فمن الغريب ألاّ يوجد القادة الكبار في مركز القيادة في مكاتبهم . عندها فكرّ في صديقه شتيف ، الذي يمكن أن يكون قادراً على اطلاعه على حقيقة الأمر . فطلب الجنرال شتيف ، الذي كان يعرف الحقيقة ، ولكنها لم تكن ما كان يرجوه فون كلوغه : «هتلر حيّ يُرزق . لقد رأيته الساعة !»

«لو مات الخنزير»

بُعيد الساعة الثامنة وصل شتولبناغل ، وهوفاكر ، والضباط من أتباعهما الى روش ـ غوويّون . فاستقبلهم فون كلوغه ومعاونه بلومنتريت على الفور . وجلس الرجال الستة حول طاولة كبيرة . وبدا فون كلوغه هادئاً ، مسترخياً ، في حين ارتسم بعض القلق على ملامح شتولبناغل وهوفاكر . وطلب هذا الأخير الإذن بالكلام .

إنه خطيب يتميّز بالحمّيا والحماسة . وكان واضحاً أنه يسعى الى اقناع فون كلوغه . وقد تحدَّث طوال ربع ساعة .

وبعد أن روى تاريخ قضية المؤامرة ، وذكّر بغاياتها ، خلص إلى القول :

- سيدي الماريشال ، لا همَّ لي إلا مستقبل بلادنا . إني أُناشد وطنيتكم لكي تقوموا بما كان سيقوم به الماريشال روميل ، الذي كان على اتفاق كلّي معنا ، فيما لو كان مكانكم . انفصلوا عن هتلر ، وتسلّموا قيادة حركة التحرير في الشرق . إن الجيش ، كما الشعب ، سيكونان شاكرين لكم . ضعوا حداً للحرب على الجبهة الغربية . قوموا بمفاوضات . اوقفوا هذه المجزرة العديمة الجدوى لتجنّب كارثة اكثر رهبة . وفّروا على ألمانيا أعظم تعاسة في تاريخها .

خلال كل هذا الخطاب ، ظل فون كلوغه بارداً كالرخام . لم يفضح أي شيء في ملامحه الانضمام أو الشجب والاستهجان . ووقف ، وسمّر نظره في البعيد ، وعقب صمت عميق ، سُمع يردد هذه الكلمات البسيطة :

- الخلاصة ، هذا ما يُسمّى مؤامرة فاشلة !

وشحبت ملامح شتولبناغل . فنهض كما لو كان يختنق ، وخرج الى الشرفة ليتنفّس . لقد عصره اليأس الفظيع ، ذلك بأنه كان يعلم أنه في تلك الساعة تندفع قوّاته في باريس للسيطرة على الغستابو . وقال لنفسه : «لقد انتهى كل شيء !» وكانت السماء بيضاء بالنجوم ، واريج الورود يملأ الليل .

ودعا فون كلوغه ضيوفه الى العشاء ، فجلسوا الى المائدة . وانقضى الوقت وسط الصمت المطبق ، على ضوء الشموع الخافت الذي كان يرسل ظلالاً كئيبة ترتسم على السقف . وفجأة قال فون شتولبناغل الذي لم تمتدّ يده الى الطعام :

- سيدي الماريشال ، أيمكنني أن أطلب اليك ان نجتمع وحدنا؟

وقبل فون كلوغه بعد تردّد خفيف . وانسحبا الى قاعة مجاورة . وانقضت بضع دقائق ، وفجأة فُتح الباب بعنف ، فصاح فون كلوغه وهو فريسة الغيظ الشديد : بلومنتريت ، بلومنتريت ، ما رأيك في ذلك؟ لقد قبض على الجنرال اوبرغ وكل قادة الغستابو ، او هم على وشك التوقيف . السيد فون شتولبناغل هو من أصدر هذا الامر ، دون ان يكلّف نفسه عناء العودة إلى قائده . إن في هذا تجاوزاً للصلاحيات لا يوصف ! اتصل تلفونياً على الفور لابلاغ هذا التدبير .

واتصل بلومنتريت بباريس . فقيل له : «فات الأوان . بدأ العمل .»

وعاد فون كلوغه يحدّث شتولبناغل :

– ارجو أن تعود إلى باريس فوراً ، وتحرّر كل الأسرى .

فقال شتولبناغل بعنف :

– لا يسعنا التراجع مطلقاً ، يا سيدي الماريشال .

وحاول هوفاكر التدخّل للمرة الاخيرة :

– سيدي الماريشال ، إن شرف الجيش بأسره ، ومصير الملايين من البشر هما بين يديك .

ولكن بلا جدوى ، ولم يكن لدى فون كلوغه ما يقوله سوى التمتمة بصوت خفيض :

– اجل ، فيما لو مات الخنزير !

ووضع حداً للمقابلة .

والتفت الى شتولبناغل وقال له لحظة همَّ بالانصراف :

– اعتبر نفسك معزولاً من قيادتك !

وبينما كانا ينحدران معاً على درجات السلّم ، أضاف :

– استبدل زيك بالملابس المدنية ، واختفِ في مكان ما .

وتبسَّم شتولبناغل بحرارة . ورفع الجنرال يده الى قبعته العسكرية ، وجلس مع هوفاكر في السيارة التي انطلقت في الحال .

وبقي الماريشال وحده في الليل . لقد افترق غونتر فون كلوغه وهاينريش فون شتولبناغل الى الأبد دون أن يتصافحا .

رجال الغستابو في السجن

كانت باريس تسبح في حرّ ثقيل الوطأة ورطب . الساعة العاشرة ليلاً ، نزع قائد مجموعة حرس هتلر الخاص الجنرال اوبرغ سترته ، وحلّ ربطة عنقه . فقد سوّى مصير بعض «الارهابيين» الذين سيُعدمون رمياً بالرصاص في الأيام القليلة المقبلة .

وقد هدهده خرير المراوح الكهربائية ، فأغفى فوق مقعده الوثير ، بعد أن ارتاح

ضميره لجهة قيامه بالواجب بصفته ضابطاً في الحرس الهتلري الخاص . وفجأة فُتح الباب ، ومشى صوب اوبرغ الجنرال بريهمر ، شاهراً مسدسه . وتبعه ضابطان ، وهما مسلحان مثله ، فقفز اوبرغ من مكانه ، وتمتم وهو مذعور تماماً :

– ما معنى ذلك؟

فقال بريهمر :

– لقد قام جنود الحرس الخاص بمحاولة انقلاب في برلين ، ولديّ الأوامر بالقبض عليك .

ولم يكن بوسع اوبرغ الاعتراض ، وثمة ثلاثة مسدسات مصوبة الى صدره ، فسلّم سلاحه وحذا معاونوه حذوه بكل تأديب .

– ولكن الدكتور كنوشن زعيم الحرس الخاص غير موجود؟

فقال احد الموجودين :

– ان كنوشن في احدى علب الليل .

– ليؤتَ به فوراً .

وتمّ الاتصال تلفونياً ، بالدكتور كنوشن الذي لم يتردد لحظة واحدة بين السهر والواجب . ووصل بخطى ثابتة ، فاعتُقل بدوره .

وجرت غربلة للأسرى ، ففُصل بين أفراد الحرس الخاص من ذوي الرتب العالية وذوي الرتب العادية . واحتُجز الاولون في غرف فندق كونتيننتال . وحُوِّل الآخرون الى سجون باريس . وشُلّت كل آلة الغستابو ، وغدت الفرماخت سيدة العاصمة . ولم تبدر أي مقاومة . ولم يُطلق أي عيار ناري ، ولم تسل نقطة دم واحدة . ونجحت العملية بطريقة لم يتوقّعها أحد .

ان للقدر سخرياته ! ذلك بأن الأمل بدأ ينهار لدى المتآمرين المجتمعين في قاعة في فندق رفاييل . كانوا ينتظرون بقلق أخباراً من شتولبناغل .

هل انضم اليهم فون كلوغه؟ وكانوا يستمعون الى الاذاعة منذ ثلاث ساعات . ويبدو أنها كانت ما تزال بيد النازيين . وعوضاً عن إعلان بك ، وبدلاً من خطاب غورديلر ، كانت الاذاعة الالمانية تبث بلا انقطاع الموسيقى البطولية . وقد أحنق هذا

التطرف الفاغنيري في الموسيقى المتحمسين المعجبين بسيد بايروت . وكان المذيع ، كل ربع ساعة ، يردد نبأ محاولة الاغتيال الفاشلة : «الفوهرر سليم معافى ، وهو لا يشكو إلا من حروق طفيفة .»

ولم يسعهم الانتظار ، فنزلوا الى الردهة لاحتساء ما يهدئ أعصابهم المهدودة . وكان في الردهة قائد الموقع الذي قاد بمهارة العمليات .

كان الضباط المتحلقون حول سائر الموائد ، يجهلون كل شيء عن المؤامرة . ولكنهم كانوا يعلمون ان «الطاعون الأسود» في الأغلال . ورفع بعض الذين انتشوا قليلاً ، الأقداح وشربوا نخب الانتصار على الغستابو .

وساد جو من المزاح ، عندما تردد صوت آخر : «انتباه !» فهّب الجميع واقفين ، ودخل الجنرال فون شتولبناغل يتبعه الكولونيل فون هوفاكر . وبالكاد تبّين الحاضرون شحوب ملامحه . فابتسم ابتسامة خفيفة ، ولكنها متشنّجة . واستنطقته نظرات المتآمرين . فقام برسم اشارة بيده . فصفقوا : «فون كلوغه تهرّب . كل شيء ضاع !»

وما كاد شتولبناغل يجلس حتى دوّت موسيقى مارش عسكري . فقد أدار احد الضباط زر الراديو . وعلى الفور انخفضت ضجة الحديث ، وقرع الأقداح ، فلما انتهى المارش ، أعلن المذيع :

– انتبهوا ، انتبهوا ، بعد لحظات سيتحدّث الفوهرر !

ونهض الجميع ، واقتربوا من مكبّر الصوت . ينبغي لشتولبناغل انقاذ ماء وجهه ، ولا يسعه البقاء جالساً ، ولا الابتعاد . فاقترب بدوره . فالقدر ما كان ليوفّر له أي شيء .

– انتبهوا ، انتبهوا ، الفوهرر يتحدّث !

وفجأة انطلق الصوت الممقوت ، مفعماً بالغضب والتهديدات :

– ان طغمة من الضبّاط التافهين الطامحين ، العديمي الذمة ، وذوي الحماقة المجرمة . . . عصبة صغيرة من الخونة السفلة الذين سأفنيهم حتى آخرهم . . . إنها اشارة من العناية الإلهية . لقد شاءَت أن أتابع عملي وسأتابعه . . .»

وأصغى الجنرال هاينريش فون شتولبناغل ، وهو واقف حتى النهاية ، وعلى

ملامحه صفرة الموت ، دون أن يرفّ له جفن ، الصوت الجهنمي يحكم عليه بالموت .

في ذلك المساء بالذات ، أُطلق سراح كل رجال الغستابو .

بعد الانتقام ، العدالة!

من السهل التكهّن بخاتمة المأساة ؛ فبعد بضعة أيام ، أُوقف كل المتآمرين . وتلقّى الجنرال فون شتولبناغل الأمر بالحضور الى برلين . فذهب اليها بالسيارة ، وتوقّف في ضواحي فردان ، في ساحات القتال التي دارت عليها الحرب العالمية الاولى ، وأطلق رصاصة على رأسه . ولم يكن الجرح مميتاً ، وكل ما سبّبه له هو العمى .

وقد مثل مع هوفاكر وسائر المتآمرين امام المحكمة الشعبية التي ترأسها امرؤ ساديّ حقيقي لاحق ، بلا أي شفقة ، لدى المتهمين ، ما تبقّى لديهم من الكرامة التي خلّفتها في نفوسهم أسابيع طوال من التعذيب الجسماني والنفسي .

نزعوا حمّالات سراويلهم لإجبارهم على إمساكها بأيديهم اثناء المحاكمة بشكل مثير للاحتقار . وما هم إن هم بدوا كما يصفهم المتّهم : «حمقى جبناء» تكفي خيانتهم وعجزهم لتفسير هزائم الفرماخت .

في ٣٠ آب ١٩٤٤ ، شُنق الكفيف شتولبناغل ، وفون هوفاكر ، ورفاقهما بكلاّبات الجزّار .

وقبل ذلك بأيام ، هاجمت طائرة سيارة فون كلوغه أثناء تفقّده الخطوط المتقدّمة على الجبهة . فقُتل السائق ، واحترقت السيارة ، وأمسى الماريشال معزولاً وسط الريف . وقد استغرق بلوغه مركزاً ألمانياً الساعات الطوال . وساد الاعتقاد بأنه اختفى .

خلال غيابه ، طلبه الفوهرر مراراً . فلما لم يجده ، شك في أنه انحاز الى صفوف العدو . وكان هذا الشك البسيط الذي لا يبرره شيء ، اللهمَّ إلاّ جنون هتلر ، ضاعف من ثورته ، فعُزل الماريشال من منصبه واستدعي الى برلين .

وعرف فون كلوغه ما ينتظره . فأوقف سيارته وهو في طريق العودة ، لكي يستريح بضع دقائق على ما ذكر . واتجه شطر بقعة من نبت الحراج ، وتمدد على

الطحلب ، وتناول من محفظته حبة صغيرة من سّم السيانور . ولما وصل الضباط أتباعه ، كان الموت قد فعل فعله . ولم تصل رسالته الأخيرة الى الفوهرر قط :

«يا زعيمي ، أرجو من صميم قلبي ان يتوصّل خلفي الى تحسين الوضع . مع ذلك ، اذا لم تكن تلك الحال ، أيها الفوهرر ، فإني استعطفك بأن تقرّر إنهاء الحرب . إن آلام الشعب الالماني لمن العظم بحيث آن الاوان لكي يُوضَع حدّ لها .»

أما رومل ، فقد شفي من جراحه في منزله في هرلنغن . وعقب انتحار شتولبناغل الفاشل ، كان هذا الأخير في هذيانه قد تلفّظ باسمه غير مرة . ولا بدّ أن تكون اكتشفت ورقة ما تدينه عقب محاولة الاغتيال . وفضلاً عن ذلك ـ وهذا يكفي ـ كان فون كلوغه قد ارسل ، قبل وفاته ، المذكّرة التي سبق أن أشّر عليها . وأيقن رومل أنه محكوم عليه !

في ٧ تشرين الأول ، استدعي رومل الى مركز القيادة العامّة ، فرفض الامتثال : فقد عارض اطباؤه في انتقاله نظراً لحالته الصحية . ولكن ما هم ، فسيزعج السفّاحون أنفسهم وينتقلوا هم اليه . وفي ١٤ تشرين الأول حضر إليه جنرالان .

بعد حديث دام ساعة ، خرج الزائران من المنزل ، في حين دخل رومل لرؤية زوجته لحظة واحدة . وقالت زوجته في ما بعد : «يصعب عليّ التعبير عمّا قرأته على وجهه .»

وانضمّ رومل الى الجنرالين اللذين كانا ينتظرانه في الخارج واستقلّ الثلاثة السيارة التي انطلقت بهم .

بعد نصف ساعة علمت زوجته من مخابرة تلفونية ان الماريشال نُقل الى المستشفى في أُولم حيث توفي متأثراً بسدّة .

لقد وضع رسولا هتلر رومل امام مشكلة رهيبة : إما الانتحار الفوري بالسم ، او المثول أمام المحكمة الشعبية مع حكم الخزي . فاختار رومل السّم .

ويقدّرون أن مؤامرة يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ كلّفت حياة ٧٠٠ ضابط ومعظمهم من الضباط الكبار ، و ٣ آلاف مدني !

ومثل الجنرال فروم الذي سحق المؤامرة ، وتسبّب باعدام المتآمرين البرلينيين ، امام

المحكمة الشعبية حوالى نهاية السنة ١٩٤٤ . وقد دين بأنه أخمد الثورة في وقت متأخر ، ولم يعترضها في حينها ، وبأنه أظهر ضعفاً شديداً . وحُكم عليه بالموت بجرم «الجبانة» ، ورُمي بالرصاص على أيدي حرّاس سجن براندنبورغ ، في ١٩ آذار ١٩٤٥ .

لقد كان للعدالة ساعتها . وما هي إلا اسابيع قليلة حتى كان للعدالة ، أخيراً ، ساعتها !

لماذا حرّر هملر ٣٥٠٠ يهودي ؟!

قبل سقوط برلين بأسابيع قليلة ، وقبل استسلام المانيا ببضعة أسابيع ، (سنة ١٩٤٥) جرت مقابلة على جانب عظيم من الاهمية ، على مسافة بضعة كيلومترات من عاصمة الرايش الثالث . فقد وقف يهودي قزم أمام هاينريش هملر ، زعيم الحرس الاسود في ألمانيا النازية . . . فماذا حصل في هذه المقابلة؟

قبل هذه المقابلة ببضعة اسابيع ، عقد زعماء الوكالة اليهودية العالمية اجتماعاً خطيراً . كانت الحرب تقترب من نهايتها ، وكان يهود اميركا يخشون أن يبيد الهر هاينريش هملر اليهود الذين ما يزالون احياء يُرزقون في المعتقلات الالمانية الرهيبة . وقد عرفت الوكالة اليهودية أن هملر على اهبة الاتصال بالكونت برنادوت ، رئيس جمعية الصليب الاحمر السويدي ، الذي قام بدور حمامة السلام في الحرب العالمية الثانية ، وتمّت على يده الهدنة بين الفريقين المتحاربين في أوروبا . فاغتنموها فرصة لإرسال التعليمات اللازمة الى مكتبهم في السويد ، فكلّف احد اعضائه ، هـ . ستروش ، الاتصال على الفور بكرستين الذي القى هملر على عاتقه مهمة التمهيد لمقابلته الكونت برنادوت . وقد أخبر كرستين بدوره سيده هملر برغبة اليهود الاميركيين في الاتصال المباشر به . فقبل نوربرت ماسور ، رئيس الفرع السويدي للوكالة اليهودية العالمية ، الدخول في محادثات مع هملر ، بالرغم من دقة هذه المهمة وخطورتها ، بعد ان حصل على موافقة سفارات الدول الحليفة في ستوكهلم .

في ١٩ نيسان ١٩٤٥ ، استقلّ المندوب اليهودي احدى طائرات الصليب الاحمر السويدي الى برلين ، حيث كانت تنتظره في المطار سيارة من سيارات الغستابو ، أقلّته الى ضواحي العاصمة . فلما هبط الليلُ وافاه الى المكان الذي نزل فيه الهر هملر

يرافقه ثلاثة من معاونيه ضباط الحرس الاسود وهم شيلنبرغ ، وبرانت ، وكرستين . وفي ما يلي نص التقرير الكامل الذي رفعه الى الامين العام للوكالة اليهودية العالمية نوربرت ماسور بعد مقابلته هملر وعودته الى ستوكهلم . قال ماسور :

«كانت مقابلتي للهر هملر في ليل ١٩-٢٠ نيسان ١٩٤٥ . حيّاني بابتسامة ، ورحّب بي بكلمة لطيفة دون ان يرفع يده بالتحية الهتلرية : «هايل هتلر !» وقال لي : ان جيلنا لم يتذوّق قط نعمة السلام . فلما نشبت الحرب العالمية الاولى لم يكن لي من العمر سوى اربعة عشر عاماً . ومن ثم شهدت الحرب الاهلية الدامية التي اشترك فيها اليهود اشتراكاً فعالاً . وقد كانوا عنصراً غريباً عنا نحن الالمان الحقيقيين . ولما تسلّمنا زمام الامور فكّرنا في التخلص منهم بأي سبيل . وكنت انا شخصياً من انصار فكرة محض انسانية وهي السماح لليهود بالهجرة من ألمانيا الى اميركا . وقد اتصلت فعلاً بالسلطات الاميركية المختصة ، ولكنها رفضت قبول هؤلاء المهاجرين . واندلعت نيران هذه الحرب التي نقاسي اليوم ويلاتها واهوالها ، فاذا بنا امام طبقة من اليهود الملاّكين الكبار جاؤوا الينا من الشرق . وكانوا جميعاً مصابين بداء التيفوس الوبيل ، فانتقلت العدوى منهم الى مواطنينا المساكين ، ولا سيما افراد فرقة الحرس الاسود الذين كانوا يموتون بالالوف . وقد ساعد هؤلاء اليهود الانصار الذين كانوا يقاوموننا في بولونيا وسواها من البلدان المحتلة في اوروبا . ولكي نقضي على داء التيفوس ونمنع تسرب عدواه ، اضطررنا الى حرق جثث المرضى بهذا الداء في الافران التي يتهمونني بأنشائها .

«اما الحرب على الجبهة الشرقية فجد قاسية . ولم نكن نريدها في يوم من الايام . ولكننا قررنا ان نكون نحن البادئين بشهرها بعد ان عرفنا ان روسيا قد حشدت على حدودنا اكثر من ٢٠ الف دبابة .

كان عليناإما الانتصار او الموت : واذا ما نزلت بالشعب اليهودي خسائر فادحة فان الشعب الالماني نفسه قد تألم آلاماً مبرّحة كذلك .»

طلب ماسور الى هملر ان يحرّر جميع اليهود المعتقلين في سجون محاذية للحدود السويدية والسويسرية لأن السويد وسويسرا مستعدتان للترحيب بهم .

ولكن ما هو عدد هؤلاء اليهود؟

اعترف هملر نفسه بهذه الارقام ، قال : في تيريسنشتات ٢٥ الفاً ، في رافنسبروك ٢٠ الفاً ، في موتهاوزن من ٢٠ الفاً الى ٣٠ .» ثم قال انه ترك في المجر زهاء ٤٥٠ الف يهودي وشأنهم احراراً من كل قيد ، ولكنهم لم يقدّروا هذا العطف وهذه المعاملة الحسنة ، بل جعلوا يطلقون النيران على الجنود الالمان ، ويغتالون الضباط كلما سنحت لهم الفرص . وأبقى على المعتقلين اليهود في برغن بلسن ، وبوخنفالد (وقد حرر الحلفاء هذا المعتقل الاخير وقتئذ) دون ان يحظى منهم بكلمة شكر واحدة . ومما قاله :«حرّرت في العام الماضي ٣٧٠٠ يهودي ، وسمحت لهم بالسفر الى سويسرا . وكنت اتوخى في كل اعمالي خدمة مصلحة وطني .»

وبعد مداولة طويلة بين ماسور وهملر ، صرّح هذا الاخير بقوله :«اني على استعداد لتحرير الف امرأة يهودية يمكنهن الذهاب الى السويد مع خمسين يهودياً من المعتقلين في النرويج . وفي إمكان المعتقلين في تيريسنشتات ان يستعيدوا حريتهم على الفور ، شرط ان تتعهد جمعية الصليب الاحمر بتقديم نفقات انتقالهم .

كان هملر يشعر بأن النهاية اصبحت على الابواب . . . كان ذلك قبل سقوط برلين ببضعة ايام . فلما افترق ماسور وهملر ، قال هذا الاخير لمخاطبه اليهودي :«إن اثمن العناصر الالمانية ستذهب هباء منثوراً ، ولا اهمية لما يحلّ بعد ذلك !»

برّ هملر بوعده ، وواصل الكونت برنادوت المحادثات التي بُدئت مع ماسور . وما هي الا ايام حتى وصلت الى السويد سبعة آلاف امرأة يهودية ، مما جعل زعماء الوكالة اليهودية العالمية وماسور نفسه يتساءلون عما حدا همملر الى التصرف هكذا دون ان يطالب بأي اجر . وقد انتهوا ، بعد طول البحث والتأويل ، الى ان همملر كان يؤمل ان يقدّمه الكونت برنادوت الى العالم كخليفة لهتلر ، فيتركه الحلفاء وشأنه ويوافقون على الدخول معه في مفاوضات لعقد الهدنة .

اما الحلفاء انفسهم فلم يدلوا برأيهم في هذا الصدد . والمعروف ان همملر كان قد حرّر ، قبل عام من ذلك التاريخ ٣٥٠٠ يهودي ذهبوا الى سويسرا مقابل حصوله على «فدية» قدرها خمسة ملايين دولار . ولكن «المسكين» لم يضع يده على دولار واحد من اصل هذا المبلغ ! . .

ماذا حلّ بمارتن بورمان؟
هناك حماقات تُعتبر أمراضاً معدية...

كتب الصحفي روجيه دولورم ، في جريدة «إريسون» الفرنسية ، في عددها الصادر في ١١ كانون الأول ١٩٦٩ ، هذا التحقيق الشيّق . . .

في جملة الاسرار الغامضة التي خلّفتها للعالم ألمانيا النازية الراحلة ، لعلّ اكثرها فتنة وتشويقاً هو مصير مارتن بورمان ، الذي عيّنه هتلر ، في اللحظة الاخيرة ، خليفة له ، قبيل انتحاره في الغرفة المحصنة تحت الأرض ، في مستشارية الرايش الثالث ، في برلين ، في ٣٠ نيسان ١٩٤٥ . فكان بورمان ، إذاً ، آخر فوهرر ، (زعيم) رسمياً ، بالنسبة الى ما يمكن أن يكون بقي لقرار ادولف هتلر من صفة رسمية في تلك اللحظة . وتولّى بورمان ، بالفعل ، القيادة بعد أن لم يكن قد بقي شيء للقيادة في الرايش الثالث . والأمر الغريب هو أن هذه الشخصية ظلت طويلاً مجهولة في حين كان لها نفوذ حقيقي في الرايش الثالث الهتلري ، ولم يغدُ عالمياً ، شهيراً إلا بعد اختفائه .

خلال ربع القرن الذي انقضى اليوم منذ ذلك الحين ، وُجد بورمان غير مرة في عدد من البلدان ، وقد أسهم ذلك في المحافظة على شهرته التي نَعتبرها نحن شهرة بعد الوفاة . . . على الرغم من أنه من الاهمية بمكان كبير إبقاء بورمان حياً يُرزق من الوجهة الصحفية والأدبية . إن مارتن بورمان يحتفظ ، على أي حال بميزة أنه الشخصية النازية الوحيدة التي اختفت من الغرفة المحصنة تحت الأرض دون أن تترك أي أثر ، ومجرم الحرب المهم الوحيد الذي حوكم غيابياً في نورنبرغ ، والوحيد الذي لُفظ حكم الاعدام بحقه امام محاميه (المعيّن من قبل المحكمة) وليس امامه شخصياً !

وثمة ميزة اخرى يُعترف بها لمارتن بورمان (ولجوزف غوبلر ، ايضاً) هي أنه بقي حتى النهاية وفياً لزعيمه ومبادئه ، مهما يكن هتلر والمبادئ مما يؤسف له . فلقد أظهرَ بالطبع ، بذلك ، مشاعر اكثر شجاعة من مشاعر غورينغ الذي حاول إنقاذ حياته بمحاولته التفاوض مع العدو عندما خُسرت المعركة ، او من مشاعر اولئك الضباط الذين تآمروا على هتلر بعدما هُزم ، بعد أن تمجّدوا أثناء أربع سنوات من الانتصارات التي جعلهم يحققونها ، والفتوحات التي أتاحها لهم .

آكلة رجال

من قصة بورمان الغريبة والخارقة ، لم تلفت الحقبة الطويلة لبلوغه المنصب الأول في الرايش الهتلري ، أي اهتمام خاص . وبقيت قصة اليومين أو الأيام الثلاثة التي تزّعم فيها الرايش الذي أمسى امبراطورية شبحاً ، مجهولة زمناً طويلاً . ولأسباب جلية ، فإن الأحياء من غرفة أدولف هتلر المحصّنة ، لم يُظهروا أي حماسة للكشف عن أنفسهم ، والكشف عما يعرفونه عن اللحظات الاخيرة في مركز القيادة النازية تحت الأرض . ولم تُعرف ظروف اختفاء مارتن بورمان ببعض التأكيد إلا حديثاً جداً .

في ٢٧ نيسان ١٩٤٥ ، وصل آخر رسول من الخارج الى الغرفة المحصّنة . كان جندياً برتبة سرجان في سلاح الطيران (لوفتفافه) ، نجح في الهبوط بطائرة صغيرة من طراز «اللقلق» ، في الجادة المكدس فيها الركام أُونتر دن ليندن (تحت ظلال الزيزفون) . فقد أصدر هتلر الأمر الى بورمان لكي يعود مع الطيار ويتسلّم قيادة جيش الجنوب ، في بافاريا ، وهو جيش كان يجهل آنذاك أنه تفتّت كلياً . وغادر الرجلان الغرفة المحصّنة ، ولكن لدى وصولهما قريباً من الطائرة ، شاهداها قد أُصيبت بالمدفعية الروسية . وقُتل السرجان الطيار بانفجار قنبلة وهو عائد الى الغرفة المحصّنة برفقة بورمان .

في أُمسية ٢٩ نيسان ، انسحب مارتن بورمان الى غرفته الخاصة بصحبة ثلاث صبايا ، كانت إحداهن الحسناء هيلدا غلاسنر ، ممثلة السينما التي كانت أغنيتها الشهيرة تقول «أنا أُحب التهام الرجال ، أنا لا أشبع أبداً . . .» ولم يخرج إلا في اليوم التالي ،

٣٠ نيسان ، بعد الظهيرة ، عندما استدعاه هتلر . ولم يرَقط أحد هيلدا غلاسنر ، ولا المرأتين الصبيتين الأخريين !

الاختلاجات الأخيرة

قال الفوهرر لبورمان الآن بغرابة : «كل شيء انتهى . لم يبقَ ثمة أي أمل . كل جنرالاتي خانوني . ستشرّفني بحضورك زواجي من الآنسة براون ، ثم ستنتهي من هذه القضية . . .» . عندها سأل بورمان هتلر عما اذا كان عليه هو أيضاً أن ينتحر . فقال الفوهرر : «لا ، ستحمل وصيتي الى خارج برلين . بعد أن يعقد دونيتز الصلح مع الاميركيين والانكليز ، ستجمع الالمان المخلصين حولك . إني أجعلك وارث الحزب الاشتراكي الوطني .»

بعد بضع ساعات صدّق بورمان ، وغوبلز ، وبعض الشخصيات النازية الرفيعة المقام الوثيقة التي تمنح بورمان السلطة لتسلّم حكومة ألمانيا من دونيتز . وكان هذا الأخير في تلك اللحظة على الجبهة الغربية ، منتظراً قبول الجنرال أيزنهاور عرضه لاجراء مفاوضات الصلح . وتزوج هتلر ايفا براون في تلك الليلة . ثم هزَّ بهدوء ايدي بورمان وغوبلز وسائر النازيين . وعقب انسحابه الى غرفته مع زوجته ببضع دقائق ، دوّى طلق ناري ، فهرع بورمان ووصيف هتلر الى المكان .

كانت ايفا ممددة على السرير ، وهي تختلج الاختلاجات الأخيرة بفعل التسمم بالسيانور . وكان هتلر جالساً ، ميتاً ، فوق مقعد وثير ، فالرصاصة التي أطلقها في فمه انتزعت قمة رأسه وألصقته بصورة بشعة بالجدار . وحُمل الجثمانان الى الخارج وحُرقا بالوقود . (ولأسباب معروفة منهم وحسب ، انتظر الروس السنة ١٩٦٨ لكي ينشروا الصور المرعبة لما يزعمون أنه بقايا جثتّي ادولف وايفا) . وبعد ساعتين ، في فجر الاول من أيار ، سَّم غوبلز وزوجته أولادهما ، ثم طلبا الى احد ضباط الحرس الخاص أن يقتلوهما خارج الغرفة الحصينة . فأجهز هذا عليهما بمسدسه .

وبات بورمان الآن السيد الأول في ما تبقّى من النازية ، فأصدر التعليمات باخلاء الغرفة الحصينة . وتم ذلك ليلاً ، فكانت مجموعات صغيرة تهرب كل ٣٠ دقيقة .

وحاول الهاربون المرور عبر المجارير للالتحاق بالوحدات الالمانية التي كانت ما تزال تحارب . ثم اجتازوا نهر شبري ، ووجدوا أخيراً الأمان خلف الخطوط الالمانية في الشمال الغربي . غير أن قلة من الرجال الذين فرّوا من الغرفة الحصينة في دار المستشارية في تلك الليلة المأساوية من تاريخ الرايش الثالث ، رؤيت أو وُجدت في ما بعد . ويبدو على الارجح ، ان معظمهم قُتل على ايدي الروس ، وأن جثثهم اختفت في إعصار معركة برلين ، مع آلاف من الاشخاص الآخرين في الوقت نفسه .

على بعد ٣ أمتار من الروس

غادر مارتن بورمان الغرفة الحصينة برفقة ستة أشخاص . وكان الجميع مسلحين بالرمّانات ، والمسدسات ، والرشاشات . فاجتازوا حطام دار المستشارية تحت وابل من القنابل ، محتمين تحت شقق الجدران ، وأكوام الحجارة حتى بلغوا المجرور . فدخلوه ، وخرجوا منه في محطة المترو في شارع فريدريك . وعندما خرجا من على سلالم المترو ، شاهد بورمان دبّابة ألمانية تنزل الشارع . فصنع أحد رفاقه لودفيغ شتمبفيغر ، جرّاح هتلر الخاص ، إشارات ، فتوقفت الدبابة . فتحدَّث الطبيب مع قائد الدبابة ، وعرّف بالمجموعة ، وطلب أن يواكبوا حتى نهر شبري . وقبل قائد الدبابة ، فاستدارت الدبابة ، ثم اتجهت شطر النهر ، يتبعها بورمان ورفاقه .

بعد مجموعتين من المنازل أصابت قنبلة بازوكا روسية الدبابة في الصميم . فحاول جنديان الفرار منها ، ولكن ألسنة اللهب لفّتهما قبل أن يتسع أمامها المجال . وبقي الجثمانان منسيين على حافة برج الدبابة ، والنار تلتهمهما . فابتعد بورمان بسرعة ، وعندها تفرّقت الجماعة . وقد شهد أرتور آكسمان ، معاون قائد الشبيبة الهتلرية ، في ما بعد انه رأى شتومبفيغر وقد صرعته رصاصة بندقية ، وسقط على مسافة مائة متر من الدبابة المحترقة . ولكن ذلك لا يمكن اعتباره يقيناً مطلقاً ، نظراً للظلمة واضطراب الظروف . وبقي بورمان مع قائد الحرس الخاص الميجور ألفريد كارغر . وواصل الرجلان طريقهما ، متخفيين على طول واجهات ومقدّمات المنازل المهدمة . وشاهدا ، وهما مختبئان في ظل ممشى ، في لحظة معيّنة دورية من الجنود

الروس تمرّ على مسافة تقلّ عن ٣ أمتار منهما .

ولما بلغ الهاربان نهر شبري ، شاهدا الجسر الذي كانا ينويان استخدامه قد نُسف ، وكانت نيران الرشاشات المتقاطعة تمشّط القلعة المحيطة بالنهر . فقال كارغر : «ليس أمامنا أي خيار . ينبغي المغامرة بالعبور من هنا .»

ثم راح يركض عبر التلعة (ما انحدر من الأرض) . وقفز الرجلان فوق جدار صغير ، وتركا نفسهما يتدحرجان في العشب حتى بلغا حافة الماء .

آخر من شاهد بورمان

فجأة ، دوّت أصوات بالقرب منهما ، اصوات جنود روس . ورأى كارغر رجلين يظهران من بين أنقاض دعامة الجسر ، وسُمع صوت رشاش ، فأُصيب كارغر في فخذه الايسر ، ولكن الجرح كان سطحياً . فألقى نحو الروسيّين القنبلة اليدوية الوحيدة التي كان يحملها ، ثم صاح ببورمان بأن يلقى نفسه في النهر . ويبدو ان قنبلته أصابت هدفها ، لأن الاصوات والرشاشات صمتت . ولكن لما انقشع دخان الانفجار ، كان بورمان قد اختفى . . .

وقد صرّح كارغر في ما بعد بقوله : «لقد فتّشت عن بورمان لحظة . وحسبت أنه أُصيب ، ولكنني لم أعثر له على اي أثر . ثم سمعت طبطبة في الماء ، وأبصرت رجلاً يسبح ، وقد كاد يبلغ الضفة الأخرى . ينبغي أن يكون بورمان . ولا اعتقد أنه كان ثمة هاربون آخرون من الغرفة الحصينة ، في تلك الارجاء ، آنذاك . وألقيت بنفسي في الماء ، وبينما أنا أسبح ، شاهدت الرجل يخرج من الماء ويسير بسرعة على طول عوارض الجسر المتهدم ، باتجاه الطريق . فلما وصلت الى هذا الشارع كان قد اختفى . . .

كان الميجور في الحرس الخاص ألفريد كارغر ، إذاً ، وسيبقى آخر من شاهد بورمان ، آخر زعيم للرايش الهتلري . وهو لا يسعه حتى التأكيد بأن بورمان توصّل الى اجتياز نهر شبري ، كما فعل هو . فاذا كان الرجل الذي رآه يخرج من الماء هو بورمان ، فإنه يكون قد تلاشى خلال الليل لكي لا يعود فيظهر مجدداً . وحتى على

الضفة الاخرى للنهر ، لم يكن مارتن بورمان ، على أي حال ، قد نجا . ذلك بأن برلين كانت مطوقة تماماً من الروس ، ولم يكن لدى اي ألماني اي حظ بالهرب . وكان بورمان يرتدي البزة العسكرية الالمانية ، ويبدو ، منطقياً ، أنه إما قُتل أو أسر : ولكن ، اذا كان الروس قد أسروه ، فليس لديهم اي سبب يجعلهم لا يقدمونه الى نورنبرغ للمحاكمة مع سائر الأسرى . واذا كانوا قد أعدموه ، فينبغي لهم أن يتبجّحوا بذلك ، وتبجّحهم مبرر على اي حال .

النازيون تبخّروا

في حالة بورمان ، كما في حالات تاريخية كثيرة اخرى ، يتعدد اولئك الذين يفضّلون النظريات الرومنطيقية على نظرية الاحتمالات . حتى البروفسور هـ .ر . تريفور ـ هوبر ، ضابط الاستخبارات السرية البريطانية الذي سبر غور سرّ اختفاء بورمان طوال سنوات عدة ، صرّح بقوله : «إن المرء لا يهرب ، بكل بساطة ، حتى وسط الكارثة .» ومهما يكن رأي الانكليز ، فلم يكن بورمان وحده من اختفى ، بل ان عدة مئات من النازيين الآخرين «تبخّروا» إلى الأبد خلال الانهيار النهائي للرايش الثالث . وهناك اثنان من هؤلاء «المشاهير المتبخرين» هما الجنرال هاينريش مولر ، القائد العام للغستابو ، والدكتور جوزف منغيله ، رئيس الأطباء في معتقل آوشفتس . وقد لوحق هذان الرجلان طوال عشرين سنة ، وبنشاط أكثر مما بُذل بالنسبة الى بورمان ، ولكن دون جدوى . . .

في السنة ١٩٥٤ ، أعلن في احدى المحاكم الالمانية بورمان ، رسمياً ، ميتاً ، ولم يظهر اي شيء ملموس مذ ذاك ينفي هذا القرار غير المتحيّز بكل احتمال . ولد بورمان في السنة ١٩٠٠ ، وترك زوجة ، ولا أقلّ من عشرة أولاد ، ولدى نهاية الحرب لجأت زوجته غردا بورمان ، الى ايطاليا مع العفاريت اولادها ، ولكنها قضت هناك بالسرطان في السنة ١٩٤٦ . وتبنّت اولادها امرأة ارستقراطية نمساوية تزوجت إيطالياً . ويعمل اليوم الابن البكر ادولف مارتن بورمان ، المولود السنة ١٩٣٠ ، مرسلاً كاثوليكياً . وتكلّفه شهرة أسمه الحزينة ، بين آن وآخر ، المقابلات الصحفية في وسط افريقيا السوداء من جانب ممثلي الصحافة العالمية الكبرى .

* * *

في ٢٩ كانون الثاني من سنة ١٩٤٤ ، شاء مارتن بورمان ، «سكرتير هتلر» غير المعروف كثيراً من الجمهور ، ولكن الكلّي القدرة ، أن يسهم في مستقبل «الجنس الالماني» وقد تكلّف ، في الواقع بطلب من هتلر ، بتدبُّر أمر زيادة الشعب الالماني ، الذي يعتبر النازيون أن نسبة المواليد فيه مقلقة . ينبغي أن يكون هناك عدد أكبر من صغار الالمان . وعلى ذلك ، قرّر بورمان «دفع التناسل قدماً» بالنسبة الى الرجال من النخبة ، ذوي الطبع القاسي ، السليمين جسداً وروحاً ، بحسب المقاييس الآرية . ومن أجل ذلك ، قلب كل المحرّمات والعوائق المادية في سبيل الزنا ، لإخصاب النساء «خارج نطاق الزواج» . ولتمويل العملية وتربية الاطفال الذين سيولدون هكذا ، وتعليمهم ، اقترح بورمان ،أن تُنشأ ، بعد الحرب ، ضريبة خاصة تتناول الأزواج الذين لا اولاد لهم ، والعازبين ، على السواء .

ولما كانت زوجته تعرف تمام المعرفة أن ذلك يتناول «اقتراناً في مصلحة الشعب الحيوية» ، فقد استطاع بورمان أن يقدم مساهمته الى المشروع دونما أي مانع . وأُعلنت الجمعية المسّماة «ليبنسهورن» ـ أي «ينبوع الحياة» ، المنشأة في سنة ١٩٣٥ ، من المنافع العامة ، وستُسهم على ذلك ، في استمرارية أو تأبيد « رأس المال التناسلي الثمين» ، وبخاصة ذلك المتعلّق بالقوات الخاصة ، بغضّ النظر ، بالطبع ، عن كل اعتبار زواجي أو أخلاقي .

وتهتم «الليبنسهورن» بالأمهات وذريتّهن الثمينة ، فتبني لهن مؤسسات خاصة . وفي ٢٢ مؤسسة ، عشر منها تقع في الأراضي التي تحتلها ألمانيا ، سيولد خلال الحرب زهاء ١٠ آلاف طفل . و«الليبنسهورن» مولجة أيضاً ، بجعل الاولاد الذين انتُزعوا من ذويهم في النرويج ، وبولونيا ، وتشيكوسلوفياكيا ، ألمان وشماليين . وعلى ذلك ، سيُحمل الى ألمانيا اكثر من ٢٠٠ ألف من الاولاد لأنهم يعطون «الانطباع الالماني» ، ويُعهد بهم إلى أُسر ألمانية مختارة .

ويقدَّر عدد الأولاد الذين أمكن العثور عليهم وإعادتهم سالمين ومعافين الى ذويهم الحقيقيين ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، بالخمس ، وحسب !

ملحق مصوّر

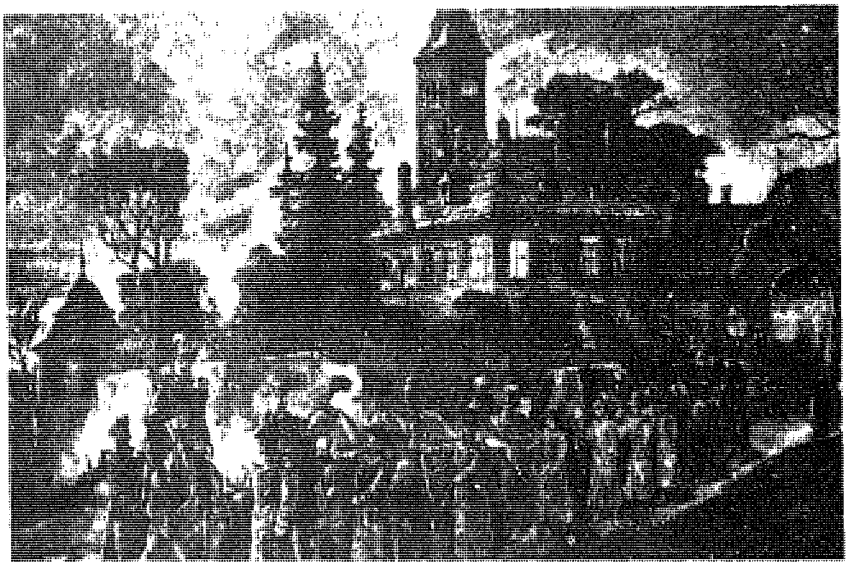
١ ـ من التاريخ الالماني والنمساوي



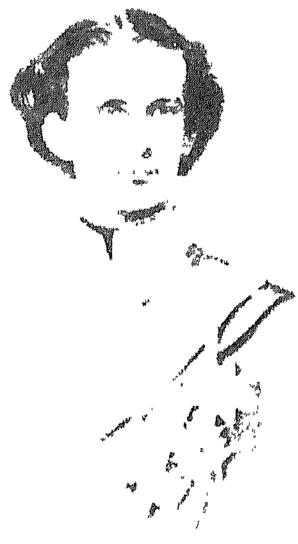
ماريّا فتسيرا ، متنكرة بملابس راعية لمناسبة حفلة راقصة مقنّعة . وكانت بالكاد في السابعة عشرة لما التقت الارشيدوق رودولف .



أحدث صور الأرشيدوق ، وقد حلق لحيته ، وأطلق شاربيه جرياً على الزي السائد في عصره .



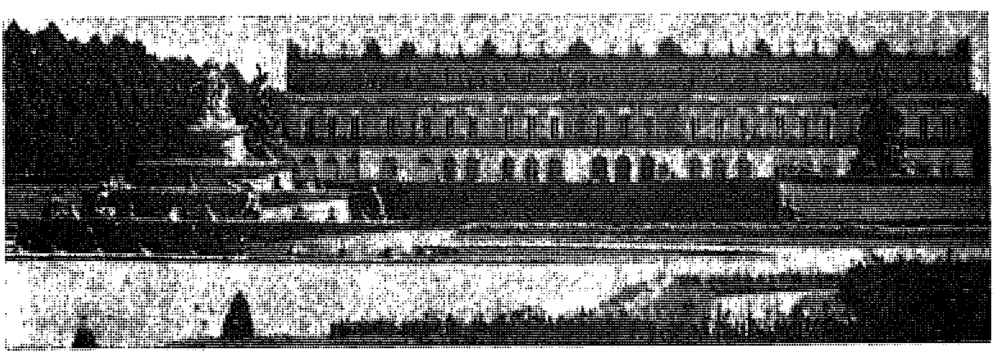
مأتم رودولف ،
أمام قصر مايرلنغ
(حسب رشمة في
تلك الحقبة) .



لودفيغ الثاني البافاري .



حب مشترك لموسيقى فاغنر ربط بين قلبي لودفيغ الثاني البافاري وصوفي . ولكن قصة حبهما كانت قصيرة!



قصر هيرنشيمسي ، نسخة طبق الاصل عن قصر فرساي الذي بناه الملك لويس الرابع عشر الفرنسي ، ولكن على طريقة الملك لودفيغ الثاني البافاري.

كانت تطارد الملك لودفيغ الثاني البافاري فكرة ان يكون منافس الملك الشمس ، لويس الرابع عشر الفرنسي ، فبنى قاعة المرايا هذه في قصره في هيرنشيمسي ، على غرار قاعة المرايا في قصر فرساي .





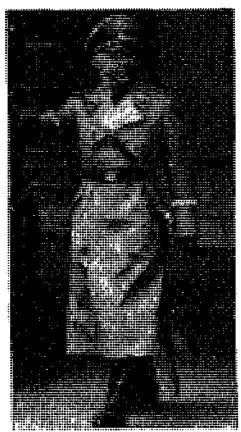
زواج حب : شارلوت ومكسيميليان باللباس الرسمي .

جريمة اغتيال في سراييفو

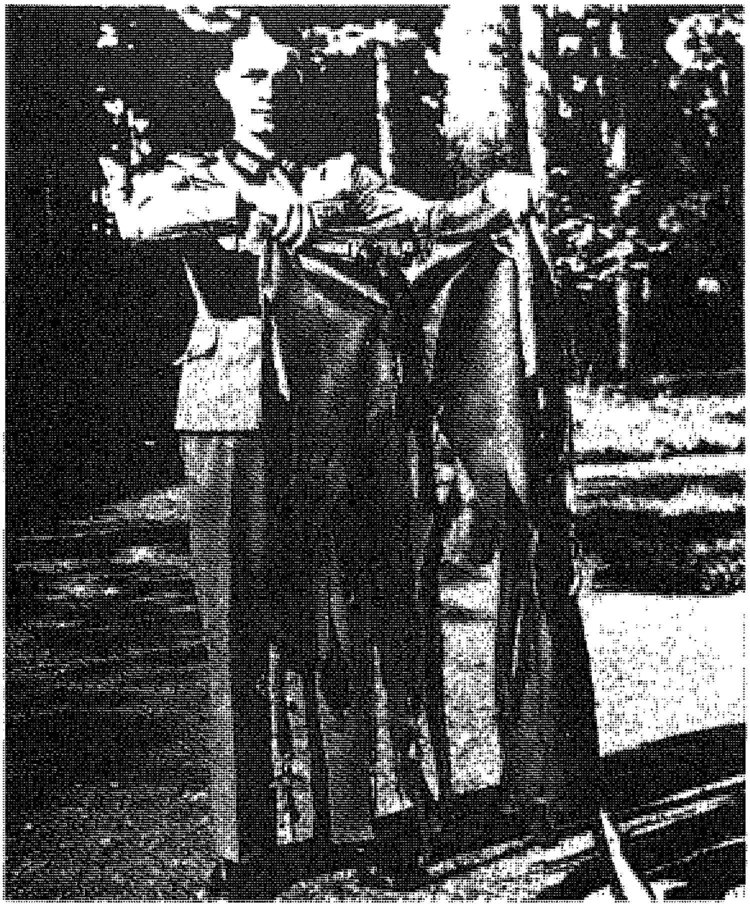




صورة الكولونيل فون
شتاوفنبرغ (الى اليسار)
وقد التُقطت له السنة ١٩٤٢
في مركز القيادة العامة في
فينيتسيا .



هملر .



بنطلون هتلر ممزقاً عقب انفجار قنبلة يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ .



في برلين ، النصُبُ الذي أُقيم لاحياء ذكرى المتآمرين في عملية الاغتيال يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ .

جنرالات هتلر

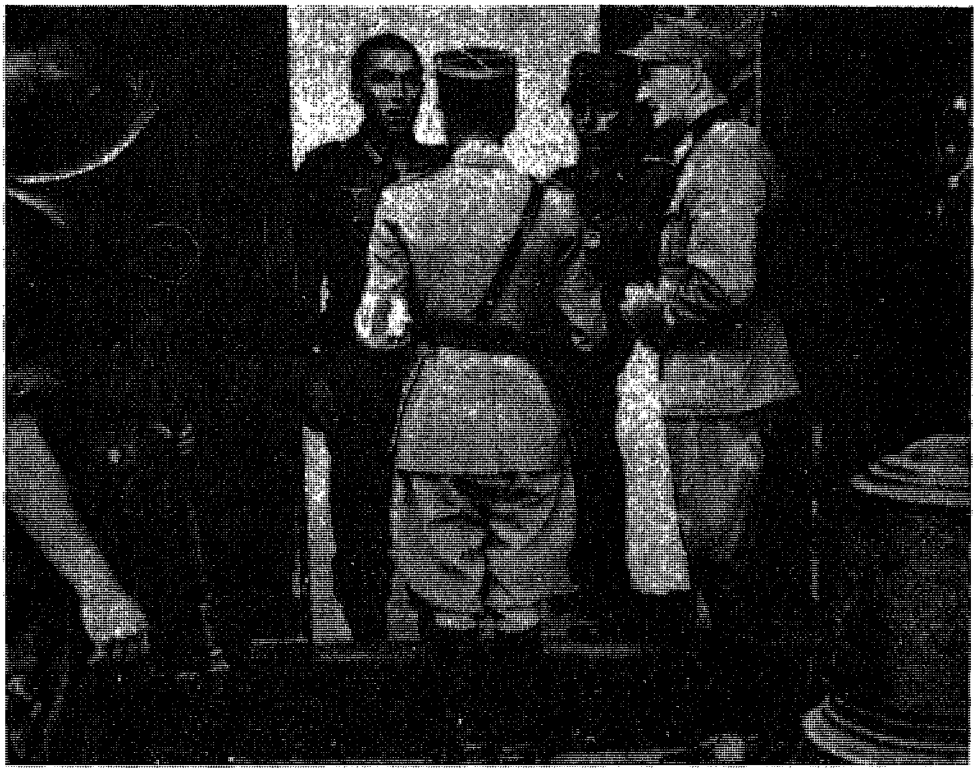




الجنرال فون شولتتس ، وقد التقطت صورته هذه في باريس بُعيد استسلام الحامية الالمانية في ٢٥ آب ١٩٤٤ .



في ٢٥ آب ١٩٤٤ ، في محطّة مونبارناس ، فون شولتتس يوقّع وثيقة الاستسلام .



في ٢٥ آب ١٩٤٤ ، ضابط تابع للقوات الفرنسية الداخلية ، يتناقش ، قبل الاستسلام ، مع جنود من الفرماخت أمام مجلس النواب .



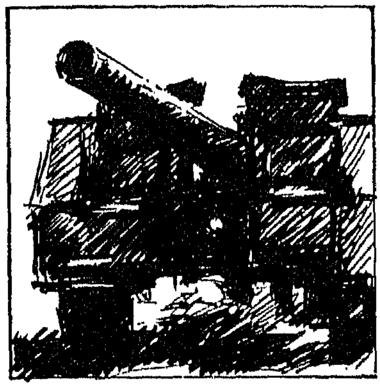
فون شولتتس يدلي بشهادته في محاكمة اوتو آبيتس ، سفير الرايش الثالث السابق في باريس خلال الاحتلال . وقد دافع عن آبيتس المحامي رينه فلوريو (الى اليسار) ، وقد حوكم آبيتس أمام المحاكم الفرنسية وحُكم عليه السنة ١٩٤٩ .



جان - لوي فيجييه (الى اليمين) ،وكان آنذاك رئيس المجلس البلدي في باريس ، يسلّم راوول نوردلنغ ، قنصل السويد العام في باريس اثناء الاحتلال ، شهادة مواطن شرف . وقد مثّل راوول نوردلنغ دوراً حاسماً في اقناع شولتتس بعدم إطاعة أوامر هتلر .



ابن مارتن بورمان اصبح مرسلاً كاثولكياً .







هتلر : الزعيم رقم ١ .



مارتن بورمان : الزعيم رقم ٢ !

٢ - من التاريخ الروسي

☐ هل ماتت أنستازيا السنة ١٩١٨؟

☐ قضية ابنة كارل ماركس الغريبة.

☐ لينين: معركة من اجل ميراث.

☐ إخفاق المحاولة لاغتيال لينين.

☐ كيف استولى ستالين على الذهب الاسباني؟

■ ملحق مصوّر.

هل ماتت انستازيا السنة ١٩١٨؟

الأمير ديمتري رومانوف هو ابن أخي نقولا الثاني آخر قياصرة روسيا . وهو في هذا المقال الذي خص به مجلة «بكتشر بوست» اللندنية ، يورد أسباباً تدحض رواية المرأة التي ادعت أنها الغراندوقة أنستازيا ، ابنة القيصر ، إذ إنها لو كانت صادقة في ادعائها هذا لكانت ابنة عم الأمير ديمتري . وقد اعتمدت محكمة برلين ، التي نظرت في هذه القضية الخطيرة ، تصريح الأمير ديمتري في رد دعوى السيدة المذكورة ومطالبها .

قال الأمير ديمتري لمندوب المجلة اللندنية :

-« أنا لم أقابل قط هذه المرأة (السيدة أندرسون) التي قابلها مندوبكم في «الغابة السوداء» وأخذ منها حديثاً صحفياً . هي تزعم أنها الغراندوقة انستازيا ، أما أنا فلا أتردد أبداً في التصريح بأن هذه السيدة لا يمكن أن تكون ابنة القيصر بحال من الأحوال . وأعلم جيداً أنني في قولي هذا انما أعبّر عن رأي جميع أفراد الأسرة التي تدّعي أنها تنتمي إليها ، وعن شعورهم . وقد قابلها عدد كبير منهم دون أن يتزعزع إيمانهم بأنها ليست نسيبتهم الغراندوقة أنستازيا .

«وفي جملة الذين زاروا هذه السيدة ، الغراندوقة أولغا الكسندروفنا ، شقيقة القيصر نقولا الثاني ، وعمتي وعمة انستازيا معاً . انها ، كما ترى ، أقرب المقربين الينا . رأتها ، على ما أعتقد ، السنة ١٩٢٦ في ألمانيا ، بعد ظهورها وادعائها بفترة وجيزة . وعادت عمتي متأكدة تماماً أن السيدة التي رأتها ليست انستازيا .

«ترددت أقوال حول اسم «الدلع» باللغة الألمانية الذي كانت الغراندوقة - كما يقال - تنادي به انستازيا . وقد زعم المحيطون بالسيدة اندرسون والذين كانوا يساندون دعواها أنها رددت في اثناء زيارة «عمتها» أولغا لها هذا الاسم الذي يعني «نشوى» . الا

أن عمتي لم تذكر لي او لغيري من الاسرة انها كانت تدلل انستازيا بهذا الاسم . ويمكنني التأكيد أن الأسرة الامبراطورية لم تستعمل قط لغة غير الروسية أو الانكليزية .

«وزارت السيدة اندرسون أيضاً الاميرة ايرين ، شقيقة والدة انستازيا ، القيصرة الكسندرا فيودوروفنا ، وأكدت أن هذه السيدة ليست ، ولا يمكن أن تكون ، أنستازيا ، ابنة شقيقتها . وقد تبيّن للخالة ، كما تبيّن لعمتي ، أنها لا تستطيع أن تجيب عن اسئلة تتعلق بالحياة التي كانت تحياها قبل الثورة الشيوعية . ثم انها عجزت عن التكلم باللغة الروسية . . . كانت تتحدث بالالمانية والبولونية ! . .

«إن لائحة الاشخاص الموثوق بهم الذين عرفوا انستازيا الحقيقية طويلة جداً . ولا تقلّ عنها طولاً لائحة الاشخاص الذين قابلوا هذه المدعية ودحضوا ادعاءاتها . ومن هؤلاء اثنان هما : البارونة بكسهوفدن ، والسويسري بيير غيليار . فالبارونة كانت وصيفة القيصرة الكسندرا ، وغليار كان مؤدب ولي العهد ، شقيق أنستازيا . وكلاهما كان برفقة آل رومانوف في ايكاتيرينبرغ ، ولكن الشيوعيين عفوا عنهما وأطلقوا سراحهما . وكلٌ منهما يعتقد أنه لا ذرّة من الصدق والحقيقة في ادعاءات السيدة اندرسن .

«ومن الذين قابلوا هذه السيدة صهري ، الامير فيليكس يوسوبوف ، الذي قتل راسبوتين . ذهب إلى قلعة سيون ، مقر دوق لوشتنبورغ ، حيث كانت تقيم السيدة اندرسون . ثم أكد فيليكس أن هذه السيدة ليست انستازيا ، وانها طوال المقابلة التي جرت بينهما لم تنبس بكلمة واحدة باللغة الروسية ، وإنما حديثها كله كان باللغة الالمانية .

«وحاولتُ انا شخصياً أن أقابلها عندما كانت تقيم في مقاطعة لونغ ايلاند في منزل ابنة عمي الاميرة زينيا ، زوجة الثري الانكليزي و . ب . ليدز . فلم أفلح في مقابلتها مرة واحدة خلال ترددي المتواصل على هذا البيت . فقد كانت تفعل كل ما بوسعها لتتجنب رؤية كل من عرف انستازيا الحقيقية .

«تكاثرت الاشاعات عن ثروة طائلة أودعها القيصر نقولا الثاني في أحد مصارف لندن . ولكن الواقع أن لا وجود لهذه الثروة البتة . فالمال الذي كان للقيصر في انكلترا

سنة ١٩١٤ حُوِّل بمجمله إلى المصارف الروسية عند بداية الحرب العالمية الأولى ، وقد استولت عليه الحكومة الثورية الشيوعية . وبطبيعة الحال لو كان ثمة مال مودع في مصارف انكلترا لامتثل المصرف للقرار الذي اتخذته إحدى المحاكم البريطانية سنة ١٩٢٠ وهو يقضي بدفع هذا المال لورثة القيصر الوحيدين : اشقائه وشقيقاته .

«أما في ما يتعلق بي شخصياً ـ وأعتقد جازماً انني استطيع التحدث بلسان أفراد آل رومانوف ـ فأقول إن تحقيقين اثنين قررا بما لا يقبل الجدل بهتان الادعاءات التي أوردتها السيدة اندرسون .

«أما الأول فقد أُجري سنة ١٩١٨ عندما احتل الجيش الأبيض ، بقيادة الاميرال كولتشاك ، ايكاتيرينبرغ ، فوصلت فصائله متأخرة لإنقاذ القيصر نقولا الثاني وأسرته ، بمن فيها انستازيا ، من أيدي الشيوعيين الذي اعدموهم . وقد عيّن كولتشاك نقولا سوكولوف للقيام بتحقيق عما جرى في تلك الليلة الرهيبة من تموز .

«وقد اثبت تحقيق سوكولوف ، المبني على روايات شهود عيان بما لا يقبل الشك والجدل ، ان جميع أفراد الاسرة المالكة الاقربين - أي نقولا الثاني وزوجته وابنه وبناته الأربع - أُعدموا في تلك الليلة ، وحُملت جثثهم وأُلقيت في إحدى الحفر ، وحُرقت ملابسهم ودفنت معهم . ولكن هناك عدداً لا بأس به من الاشياء التي لم تُحرق ، وهي محفوظة ، كما اعتقد ، في قصر وندسور .

«إن هذا التحقيق الفوري أجري بعد المذبحة ببضعة أسابيع ، وأميل إلى الأخذ به ميلاً شديداً .

«وأما التحقيق الثاني فقد أجري في المانيا في منتصف العقد الثالث من هذا القرن (أي حوالى ١٩٢٥) بعد أن أخبرت سيدة تدعى دوريس ونغندر إحدى الصحف البرلينية أن صاحبة الحق الشرعي بلقب الغراندوقة انستازيا هي ولا شك السيدة التي كانت تقيم في مسكن تملكه هي وتدعى فرنشيبكا شفانزكوفا ، ثم اختفت عن الأنظار سنة ١٩٢٠ . وقد كانت عاملة في أحد المصانع ، وهي من أسرة بولونية فقيرة تعيش في قرية بوميرانيا . فاتصلت الشرطة بهذه الأسرة وعرفت أن الفتاة البولونية المفقودة والمرأة التي تزعم أنها السيدة اندرسون هما المرأة نفسها .

«تلك هي الحقيقة في هذه القضية التي شغلت الرأي العام العالمي فترة غير قصيرة من الزمن» .

وفي ما يلي شهادة ستودارت ، من ليدز في مقاطعة يوركشر ، في انكلترا ، وهو أحد قراء مجلة «بكتشر بوست» ، قال :

«في السنة ١٩٢٠ كنت ملحقاً ببعثة عسكرية بريطانية ، كانت في طليعة فيلق هامبشر ، فوصلنا إلى ايكاتيرينبرغ بعد قليل من غزو البولشفيك لها . وكان المنزل الذي أُسر فيه القيصر تحتله قوة من التشيك . وكان عليّ أن أتردد عليه يومياً ، تقريباً ، حاملاً الرسائل . ويمكنني القول اني الوحيد بين القلائل القلائل الذين يعيشون في انكلترا اليوم من الذين ترددوا كثيراً على المخزن - أو بيت المؤونة - الذي سُجنت فيه الأسرة المالكة ، ولا أقول أُعدمت .

«وفي رأي الكثيرين من سكان ايكاتيرينبرغ ، أن الأسرة المالكة (باستثناء ابنة واحدة) لم يُعدموا في بيت المؤونة ، ولكنهم حُملوا بالقطار الحديدي إلى الغابات المجاورة حيث أُطلق عليهم الرصاص ، وأُلقوا في إحدى الحفر ، ثم رُفعوا منها وأُحرقوا .

«أما في ما يتعلق بالابنة التي نجت من الاعدام ، فإن سكان ايكاتيرينبرغ قالوا وقتئذ إنها قد تكون انستازيا التي أُبقيت في قيد الحياة لغايات الدعاية . ولعل تلك هي الحقيقة ، إذ بعد ذلك بشهور كنت في بلدة أومسك ، فروى لي أحد الروس أنه حضر اجتماعاً شيوعياً ظهرت خلاله على المنبر انستازيا نفسها بايعاز من الشيوعيين للتدليل على قوّتهم .

«أما الصورة التي أرسلها اليكم والتي تمثل الجثث في ذلك الحوض الذي جف ماؤه ، فإنها من أحد الروس الذين يدّعون أنها جثث أفراد الأسرة المالكة بعد مقتلهم . وقد فحصها بعدسة مكبرة ، ولا شك في احتمال كونها صحيحة .

«وإذا بدت لكم الصورة حديثة بعد ٣٧ سنة من التقاطها ، فما ذلك إلا لأنها صورة مكبرة للصورة الأصلية الصغيرة التي سحبتها عنها منذ عشر سنوات فقط !»

* * *

في ٢٨ شباط ١٩٦٧ ، كانت دقائق ثلاث كافية ليضع القاضي بترزن ، رئيس محكمة هامبورغ ، في المانيا ، حداً لاطول القضايا القانونية في التاريخ . فمنذ سبع وثلاثين سنة ،ما فتئت امرأة تقيم في الغابة السوداء ، في منزل منعزل ، باسم آنّا أندرسون تطالب بأن يُعترف بأنها أنستازيا نيكولافيينا ، الإبنة الرابعة للقيصر الروسي نقولا الثاني ، وقد نجت من مذبحة ايكا تيرينبرغ . وقد أعلن القاضي بترزن :

– يستحيل عليَّ أن أُعطي اليوم تعليلاً للحكم . فحيثيات هذه الدعوى الضخمة من الكثرة بحيث يمكن أن تملأ مجلداً . وبالاختصار أشير الى ان صاحبة الطلب لم تقدّم الدلائل الكافية للاعتراف بالشخصية التي تدّعيها .

في الواقع ،كان هناك حتى ذلك التاريخ اكثر من عشرة كتب ،في شكل قصصي روائي او آخر ، مخصصة لسر أنستازيا . هناك الكتب التي تعتبر الى جانبها ، والاخرى التي تعتبر ضدها . غير أن حكم هامبورغ لم ينل من إيمان اولئك الذين يعتقدون أن آنّا أندرسون هي في الحقيقة الدوقة الكبرى أنستازيا .

في٢٧ شباط ١٩٢٠ ، اي بعد سنتين من الليلة الدامية في منزل ايباتييف (١٦ ـ ١٧ تموز ١٩١٨) ، سُمع للمرّة الاولى الحديث عن هذه القضية .

في تلك الفترة لم تكن الدوقة الكبرى المزعومة قد اصبحت بعد السيدة أندرسون . كانت تقيم في برلين ، وخلال محاولة انتحار ، انتُشلت من قناة لاندفير ، وأدخلت مستشفى إليزابت ، ثم مصحة دولدورف . وكانت بطاقة دخولها تحمل كلمة «مجهولة» . وأمطرها الأطباء بالاسئلة إذ لاحظوا الشبه الكبير بينها وبين صورة لأنستازيا الحقيقية ، وقد نشرتها قبل فترة قصيرة جريدة «برلينر إلوستريرته تساينونغ» ، فروت لهم قصتها .

حسب البولشفيك الذين قضوا على أفراد أسرتها ، على بكرة أبيها ، أنها ماتت مثلهم ، فتركوها وشأنها . فأنقذها إذ ذاك جنديان من الجيش الروسي بقيا مخلصين للقيصر ، هما الأخوان سيرج وستانيسلاس ميشكيفتش ، وبرفقتهما ، نجحت في مغادرة روسيا الى رومانيا ، حيث استقرَّ الثلاثة .

وفي السنة ١٩١٩ ، تزوجت أنستازيا ستانيسلاس ميشكيفتش ، وأنجبت له ولداً

دُعي ألكسي . وبعد مولد الطفل بقليل ، اغتيل ستانيسلاس في بوخارست ، على يد الشيوعيين . واختفى سيرج بطريقة غامضة وسرية ، فخشيت هي على مصيرها ، فتخلّت عن ابنها الى أحد المياتم ، وفرَّت إلى ألمانيا . وارتمت على بلاط برلين ، دون اي مورد ، يائسة ، قانطة ، وعزمت على التخلّص من هذه الحياة . . .

هذا ما قالته أنستازيا قبل سبع وثلاثين سنة من المحاكمة ، ومذ ذاك وهي تردد تصريحاتها نفسها دون أن تحيد عن اي تفصيل ، أو تغيِّر فيها البتة . وفي السنة ١٩٢٢ ، غادرت المصحة ، وبعد فترة قصيرة رحلت الى الولايات المتحدة الاميركية ، بفضل سخاء بعض المهاجرين الروس .

وبعد ذلك بسبع سنين عادت منها الى ألمانيا حاملة اسماً جديداً اختارته لنفسها : آنّا أندرسون . ولكنها أقامت ، على الفور ، الدعوى الطنّانة التي لم يستطع حكم محكمة هامبورغ أن يضع لها نقطة النهاية .

بالطبع ، وفضلاً عن مطالبتها بالاعتراف بأنها أنستازيا ، طالبت آنّا أندرسون بميراث القيصر . وهكذا ألفت نفسها في نزاع مع الاسرة الدوقية في هيسه ، التي كانت تنتمي اليها والدتها القيصرة .

عندها عُلم أن القيصر نقولا الثاني لم يخلّف اي ثروة طائلة ، كما جرى الحديث غداة مقتله وأسرته . فقد صودرت ممتلكاته الروسية ، وأنكر الورثة الهيسيون وجود ايداع بملايين عدّة في بنك انكلترا ، وبعد ذلك ، اعترف هذا المصرف بوجود مبلغ مودع فيه ، دون أن يشاء تحديد أهميته . ولكن ، على حسب ما يقترح رولاند كروغ فون نيدّا ، الذي نشر قصة أنستازيا كاملة ، «فإن التكتم حول هذا الشأن يميل الى التشديد على أهمية المبالغ المودعة في بنك انكلترا .»

وفي برلين ، حيث افتتح القيصر في بنك مندلسون ، حسابات باسماء أولاده الخمسة ، فإن اجمالي هذه الودائع لم يتجاوز المليون رايشمارك ، أذابه التضخم ، الأمر الذي أتاح لكروغ فون نيدّا أن يؤكد أنه «لو بقي القيصر نقولا الثاني حياً يُرزق ، لكان فقيراً معدماً !»

قضية ابنة كارل ماركس الغريبة
احدى بطاقات برنارد شو البريدية أوجدت الحل

هذا ملخّص القضية الغريبة كما يرويها فيلكس بيكر في مجلة «كورنهل» اللندنية . . .

ذات يوم من السنة ١٩٤٩ لفت احد الاصدقاء ، وكان يقطن في شقة تحت الشقة التي اقطن فيها في تشانسري لاين ، في لندن ، نظري الى الاسطر التي تُنزل الستار على الفصل الثالث من مسرحية «حرفة السيدة وورين» .

لقد قيل لفيفي ، ابنة السيدة وورين ، قبل قليل ، ان فرانك غاردنر هو اخوها غير الشقيق ، فاشمأزت ، واتجهت نحو بوابة حديقة بيت القسيس .

فناداها فرانك :

– الى اين أنت ذاهبة؟ اين سنجدك؟

فأجابت فيفي :

– في شقق هونوريا فريزر ، الرقم ٦٧ ، تشانسري لاين ، طوال البقية الباقية من حياتي .

الرقم ٦٧ ! يا للمصادفة الغريبة . وتساءلت ماذا دفع برنارد شو ، وهو يكتب مسرحيته السنة ١٨٩٤ ، إلى ان يشير بدقة تامة الى عنوان سكني اليوم؟

كيف اتفق ان ذكر الرقم الصحيح في مجموعة المكاتب والمساكن الرمادية الملوثة بالسخام التي تُعرف الآن باسم «نيوستون بلدنغز»؟

وأبرزت رسالة الى إيون سنت لورنس احدى بطاقات برنارد شو البريدية ، وجواباً غير متوقّع البتة . يبدو أنه مسرح العنوان لاقترانه بأُناس حقيقيين عاشوا هناك .

فقد أشار الى الآنسة اورم ، وهي من أعضاء الحركة النسائية المتحررة ، عملت هناك ، وكانت تدّخن السيكار الضخم .

غير ان جملة اخرى هي التي لفتت اهتمامي . فقد ذكر ان ابنة كارل ماركس ، إليانور ، عاشت هناك مع رجل يدعى إدوارد إيفلنغ ، وأنها «انتحرت» هناك ، عندما علمت أنه تزوج امرأة اخرى إثر وفاة زوجته الشرعية .

ورحت احشد غرف مسكني بالاشباح . وتخيّلتها مكاناً وزماناً لحديث شيّق بين فريق من اللامعين يضم شو ، وإنغلز ، ووليام موريس ، وكير هاردي ، ودجون بيرنز ، وإيفلنغ الغامض . وإليانور الأبرز بينهم ، ولكن الغامضة ، كانت تتحرك وسطهم ، وتصبّ لهم القهوة المرة لإثارة الحديث عن كل شيء ، بدءاً بالكاتب المسرحي إبسن وانتهاءً بقانون تناقص الغلّة (قانون يقول بأن زيادة العمل او رأس المال الى أبعد من نقطة معيّنة لا يترتب عليها زيادة مناسبة في الانتاج) .

ما كان شكل إليانور؟ اذا كان شبحها سيظهر وسط الليل ، كيف لي أن أتعرّف إليها؟ يبدو أن إليانور كانت تدعو بصمت ، ولكن بإلحاح ، من الماضي للاهتمام بها ، ولم يكن هناك بدّ من اجابة إيماءتها .

بدأ بحثي ، كما ينبغي لمثل هذه البحوث أن تبدأ ، في قاعة المطالعة في المتحف البريطاني . وقد سرّني أن أفكر ، عقب جلوسي لاقتفاء آثار ابنة كارل ماركس ، في أنني ربما كنت جالساً على المقعد الذي شغله ماركس نفسه طوال سنوات عدة خلال عمله في كتابه «رأس المال» .

وما إن قادني جرس قاعة المطالعة الى الليل حتى كنت قد أثبتّ ان إليانور هي ابنة أبيها الحقيقية ـ عالمة باللغة لامعة ، وكاتبة وداعية سياسية ، ومترجمة عدد من الكتب والمسرحيات . وكانت ترجمتها الانكليزية لرواية «مدام بوفاري» للكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير ، قد طُبعت أربع طبعات .

وكانت لائحة كتبها تضمّ احد عشر كتاباً ، وبالاشتراك مع إدوارد إيفلنغ وضعت أربعة كتب اخرى . وكانت تشتمل على عناوين مثيرة من مثل «المرأة القضية» و«مصنع جهنّم» .

ولعلّ أثمن شيء هو أنني حصلت على اول لمحة لإليانور كما بدت وهي بعد امرأة صبية . ففي ربيع السنة ١٨٨٣ (السنة التي توفي فيها ماركس) ، وكانت بعد في السابعة والعشرين ، التقت بياتريس وب ، وقد تأملتها ملياً الاشتراكية الاولى الانيقة ، وبكل دقة . وكتبت في يومياتها تقول ان إليانور كانت «لائقة في ملابسها ، ولكن بطريقة مهملة لافتة للنظر . وكان شعرها الأسود الاجعد يتطاير في كل اتجاه . وعيناها الجميلتان تفيضان بالحياة والعطف . أما بشرتها فكانت تُبرز إمارات حياة سقيمة ومثيرة ، تحفظها المنبّهات .»

ولدت اليانور السنة ١٨٥٦ ، وكانت آخر اولاد أسرة كارل ماركس الستة . وكان يرجو أن يُرزق ابناً يواصل عمله . ولكن اي خيبة امل شعر بها سرعان ما اختفت في المحبة العميقة التي غمر بها ابنته الصغرى . وأضحت اثيرته بسرعة فائقة .

أقامت الأسرة في حجرتين ضيقتين صغيرتين في منزل يقع في دين ستريت ، في منطقة سوهو ، منذ هبوطها لندن آتية من بروسيا في السنة ١٨٤٩ . وقد فقد ماركس الذي عرف أيام ضيق مادي شديد إبنيه الاثنين ، وواحدة من بناته الاربع قضوا هناك وهم في شرخ الصبا . غير أن اليانور ، على الرغم من ضعفها وهزالها (مثل شقيقتيها دجيني ولورا) ظلت حية تُرزق .

في السنة التي أبصرت فيها النور ، انتقل الجميع الى ميتلاند بارك ، في هامستيد . وهناك ، كانت مطامح اليانور ، وهي تكبر ، تترجح بين المسرح والسياسة .

والتحقت في فترة ما ببعض الصفوف المسرحية ، ولكن حتى بلوغها العقد الثالث ، لازمت المنزل ، تعنى بوالديها ، على الرغم من تأكيد ماركس الجازم أنه لم يشأ أن تتخلّى عن مهنة التمثيل لكي «يُضحَّى بها على مذبح الأسرة كممرضة لرجل عجوز .»

في الصفحات التي تكوّن مذكرات ول ثورن ، لمحات او نظرات خاطفة عنها في الثمانينات من القرن الماضي . فلقد علّمت ذلك الزعيم العمالي وعضو مجلس العموم البريطاني عن وست هام الكتابة والقراءَة ، وهو يصف بمحبة عملها في إنشاء اتحاد عمال الغاز والعمال غير الماهرين في منطقة إيست اند اللندنية ، ودورها في إثارة

إضراب عمال الاحواض في السنة ١٨٨٩ والتحريض عليه .

كانت إليانور خطيبة سياسية جريئة ، وغالباً ما كانت تسمع وهي تخطب في ليالي الأحد ، لدى زاوية دود ستريت ، في لايمهاوس . وكانت وبرنارد شو في أكثر الاحيان على صعيد البرنامج السياسي نفسه . وهناك نادرة تروى مفادها أن برنارد شو ملّ مرّة من خطبة كانت تلقيها ، ولكنه كان معجباً بكاحليها . فأرسل إليها بطاقة يطلب اليها فيها أن تتوقف عن الكلام وتقف على رأسها .

غير أن شو كان ينكر ذلك بشدة ، قائلاً ان إليانور كانت عاجزة عن إلقاء خطب مملّة ، فضلاً عن أنها كانت ترتدي دوماً تنانير طويلة تخفي كاحليها . . .

آن الأوان لكي ننظر عن كثب الى شخصية الدكتور إيفلنغ غير العادية الذي عاشت معه إليانور خمس عشرة سنة ، والذي كانت وفية له ومخلصة الى حدّ العبودية .

قال احد اصدقاء إليانور ممن استنكروا هذا المرافقة : «لا يمكن أحداً أن يكون أسوأ من إيفلنغ» ، ولكن حتى اولئك الذين كانوا يكرهونه اتفقوا على أنه كان «أحد أعظم الخطباء الذين عرفتهم هذه البلاد حتى اليوم .»

كان ايفلنغ ابن احد قسس ابرشية لندن ، وكان ملحداً ، انفصلت عنه زوجته بسبب قسوته ووحشيته . ويزعمون أن برنارد شو اتخذه مثالاً لتجسيد شخصية الدكتور ديوبدات في مسرحيته الشهيرة «معضلة الطبيب» ، وشهد الجميع بذكائه ، وخداعه ، وعدم استقراره الاخلاقي .

ولكن لا احد ارتاب في تعدد مهاراته . فقد كان في آن دكتوراً في العلوم ، وناقداً مسرحياً ، ترجم كتاب «رأس المال» لكارل ماركس ، وتنوعت موضوعات الكتب الثلاثين التي وضعها بين الكتب المدرسية والمحاضرات عن شكسبير وأدبه ، والاعلان الالحادي المسمّى «لماذا اجرؤ على ألا أكون مسيحياً» .

لم تكتمل علاقة إليانور بإيفلنغ تماماً حتى ما بعد وفاة كارل ماركس السنة ١٨٨٣ . وكانت والدتها التي عنيت بتمريضها ، كذلك ، قد توفيت قبل سنتين اثنتين ، فاذا بها تتحرر من كل مسؤولية عائلية .

في شهر آب من تلك السنة استأجرت وإيفلنغ كوخاً في بول هل ، بالقرب من وركسويرث ، ووصفهما فريدريك إنغلز الذي اعتبر هذه العطلة شهر عسلهما ، بأنهما «ينعمان بمنتهى السعادة في جبال داربيشر .»

غير أن اوليف شراينر ، أقرب الصديقات الى إليانور ، وكانت تقيم بالقرب منهما ، كانت قلقة . فبعد فترة قصيرة لاحظت أن إليانور تبدو بائسة فعلاً . وفي ذات ليلة ، وعقب ذهاب إيفلنغ وحده الى مأدبة عشاء ، جلست إليانور لتكتب الى صديقتها صفحات وصفحات تعلن فيها كم هي توّاقة الى الحب الحقيقي .

غير أن إيفلنغ كان قليل الاكتراث بأي أمر ، باستثناء ما يقلقه شخصياً . وكان يتجول في الأرياف ، مبتهجاً كثيراً بتجاهله كل اللافتات التي تحظر دخول بعض الاماكن والاملاك الخاصة . وبالطبع ، غادر القرية مخلّفاً فاتورة بمبلغ كبير ثمن احتساء المشروبات الكحولية في النُزُل ، لم تُسدد قيمتها .

وفي تلك السنة ١٨٨٣ ، بوشر بتشييد مساكن «نيوستون بلدنغز» في الطرف الشمالي لتشانسري لاين . وإني لاتساءَل عما إذا كان ايفلنغ والسيدة إليانور ماركس ـ إيفلنغ » ـ كما راحت إليانور تسّمي نفسها ـ قد انتقلا اليها مباشرة .

في سجلات الرسوم والضرائب التي يعلوها الغبار في مجلس مدينة هولبورن وجدتُ الجواب . فقد أنبأتني صحيفة نحاسية نقشها احد الكتبة الذين مضى على وفاتهم زمن طويل ، انهما لم يُقبلا على تشانسري لاين إلا بعد ذلك التاريخ بأربع سنوات . انتقلا الى هنا في وقت مبكر من السنة ١٨٨٧ ، ولكن ليس الى المنزل رقم ٦٥ ، بل الرقم ٦٧ . لقد أخطأ شو في الرقم .

ولم يسعني إلا الشعور بخيبة الأمل ، او بالاحرى الشعور بأنني خُدعت .

فلقد بتّ أشعر بالتعلّق بإليانور . كان ثمة شيء رومنطيقي بالنسبة الى امرأة في مثل سنّها تنطلق ضد التقاليد ، وتتبع بعناد المثل التي تؤمن بها .

ومهما يكن من أمر ، كان عليّ الافادة ما أمكن من الراحة لكوني أُشاهد في كل مرة أنظر فيها من خلال نافذة حجرة الجلوس ، مسكن إليانور ـ أو بالاحرى ، ما تبقّى منه ـ على بعد عشرين قدماً . لم يبقَ قائماً الآن سوى قسم من الجدران ، وموقدة ،

ذلك بأن المنزل الذي شاطرته مع إيفلنغ هدمته قنبلة سقطت عليه السنة ١٩٤٠ .

لم يكن لها أو لإيفلنغ مهنة منتظمة ، ولم تكن مراجعة الكتب وسائر الأعمال الصحفية الادبية تدرّ عليهما إلاّ النزر اليسير من الجنيهات .

وكذلك لم يكن عملهما من أجل الاشتراكية ، التي تنقّلا في سبيلها عبر ارجاء أوروبا بأسرها والولايات المتحدة الاميركية ، محاضرين عن الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي ـ وهو منظمة اشتراكية رائدة ـ تدرّ عليهما اي مبالغ من المال ، الأمر الذي اضطرهما في معظم الاوقات الى العيش على حافة شارع نيوغراب الجديد .

انقضت خمس من السنوات المزدحمة بالعمل بالنسبة إلى اليانور في تشانسري لاين ، ولكنها غادرت ذلك المكان مع إيفلنغ في السنة ١٨٩٢ ، ربما للإقامة في الريف . ولم يكونا يتمتعان بالصحة الجيدة ، وأصبح منزل بالقرب من اوربنغتون ، في إقليم كنت ، بيتهما في فترة ما خلال السنوات الثلاث التالية . ثم في آب ١٨٩٥ ، تحسنّت ظروفهما المادية عقب وفاة إنغلز .

كان فريدريك إنغلز الذي أسهم كثيراً في كتاب ماركس «رأس المال» ، وساعد أسرة ماركس خلال فترات العسر السيئة ، يتمتع بموارد مالية شخصية ضخمة بفضل تجارة أبيه القطنية في مقاطعة مدلاندز ، وأورث إليانور مبلغاً ضخماً من المال .

ومع توفر المال مع إليانور للمرة الاولى في حياتها ، فكرّت بعد شهرين ، ان الحكمة تقضي بوضع وصيتها ، فقرّرت أن توزع كل ما يصيبها من أموال كحقوق أو جعالات عن أعمال أبيها الأدبية ، بالتساوي بين أولاد أختها الراحلة دجيني لونغيت ، وأوصت لإيفلنغ الذي وصفته بعبارة «زوجي» ، بما تبقّى من ممتلكاتها .

بالوسع أن نتكهن ، وحسب ، بما تلا ذلك ، ولكن من ملحق الوصية الذي أُضيف مشتملاً على تعديل في تلك الليلة بالذات ، ليس من الصعب تصورّ الاتهامات المضادّة ، والتهديدات ، والتأكيدات اليائسة من جانب إليانور المتعلّقة برغبات أبيها ، ورفض إيفلنغ سماع اي كلمة اخرى منها ، حتى استُدعيت خادمتها دجرترود دجنتري ، والخادم الى قاعة الاستقبال لكي يوقّعا على التعديل في الوصية الذي يقضي بمنحه كل بنس من تلك الجعالات الادبية .

وبفضل أموال إنغلز استطاعا استئجار منزل فخم في سايدنهام . وأودّ أن أعتقد أن إليانور تمتعت ببعض السعادة في «الوكر» في «شارع اليهودي» ، على مبعدة من وستوود هِل ، خلال السنوات الثلاث التي أقامتها هناك . ولكن نهايتها المفاجئة والمأساوية في السنة ١٨٩٨ ، لا تقدّم إلا أملاً ضئيلاً .

ففي يوم الخميس ، آخر أيام شهر آذار من تلك السنة ، دخلت حجرتها الخادمة دجرترود دجنتري الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ، فذعرت لرؤيتها سيدتها ، مرتدية الملابس البيضاء ، وهي ميتة في سريرها . وكان هناك قنينة من السم المعروف بحامض البروسيك فارغة على المنضدة بقربها . وكان هناك رسالة أيضاً ، جاء فيها :

«عزيزي ، عما قريب سينتهي كل شيء . إن آخر كلماتي اليك هي نفسها التي ردّدتها خلال تلك السنوات الطويلة البائسة ـ الحب .»

وجدتُ كل هذا ، والتفاصيل التي برزت في تحقيق الطبيب الشرعي ، في الصفحات المصغّرة للقصة من مجلة اسبوعية صدرت يوم الجمعة التالي .

ويبدو أنه في صبيحة اليوم الذي توفيت فيه إليانور ، تسلّم احد الكيميائيين من سايدنهام قصاصة ورق من خادمة ايفلنغ . وقد جاء فيها : «الرجاء تسليم حاملتها بعض الكلوروفورم وكمية صغيرة من حامض البروسيك للكلب . ـ إ .إ .» وارفق بذلك بطاقة الدكتور إدوارد إيفلنغ .

ووفّر الكيميائي السم المطلوب ، وارسل معه كتاب السموم ، الذي أُعيد وقد ذُيّل بالأحرف «إ .م .إ» .

وقد ذُكر ان الدكتور ايفلنغ كان ، وقتئذ ، خارج المنزل ، وفي طريقه الى لندن ، فلما استنطقه الطبيب الشرعي ، ذكر أنه إنما سمع بالمأساة لدى عودته . وقد دار بينهما الحوار التالي :

الطبيب الشرعي : هل كانت الراحلة زوجتك؟

إيفلنغ : أتقصد شرعياً أم غير شرعي؟

الطبيب الشرعي : إنك امرؤ يصعب التعامل معه . هل كنت متزوجاً من الراحلة؟

ايفلنغ : بصورة غير شرعية .

الطبيب الشرعي : اتقصد أنها كانت تحيا معك كزوجة؟
إيفلنغ : أجل .
الطبيب الشرعي : هل كانت صحتها عادة على ما يرام؟
ايفلنغ : تماماً .
ثم ، بعد بضعة اسئلة ، قال الطبيب الشرعي :
الطبيب الشرعي : هل لديك أي فكرة عن رغبتها في الانتحار؟
ايفلنغ : لقد هددت بالانتحار غير مرة .

وبعد أن لام الطبيب الشرعي بقسوة الكيميائي لتقديمه السم (كان عذر الكيميائي أنه حسب الدكتور إيفلنغ طبيباً مؤهلاً) أصدر حكمه بأن في القضية محاولة انتحار جرت في حالة جنون مؤقتة .

يوم الثلاثاء التالي ، احتشدت جماعة حزينة قليلة من الاصدقاء وممثلين عن الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي أتوا من لندن ومن مختلف أرجاء اوروبا ، في محطة المدفن الكبير في وترلو . وألقى وِل ثورن خطاباً قبل أن يُنقل جثمان إليانور الى ووكنغ لكي يُحرق .

سوى أن إيفلنغ ربما لم يشعر بالراحة في ذلك اليوم ، لأن بعض اصدقاء إليانور لم يرضهم الحكم بالانتحار . وفي الواقع ، بعد بضع سنوات ، قدّم هـ .م . هندمان ، مؤسس الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي ، افتراضاً يقول إن إيفلنغ ، أخبر إليانور ، عقب وفاة زوجته ، أن «زواجاً ثانياً يُفرض عليه» ، وإن اتفاق انتحار كان الحل الوحيد . ثم إن إيفلنغ ارسل بطلب السّم ، ولما تناولته إليانور ، لم يبرّ بما التزم به من جانبه في تلك الصفقة .

وحسب افتراض هندمان ، تدرّب إيفلنغ على الكتابة بحيث يُصبح خطه غير مختلف او مميّز عن خط إليانور ، وهكذا يتمكّن من تزوير رسالتها الاخيرة .

وأظهرت بطاقة شو ، كما نذكر جميعاً ، ان إيفلنغ قد تزوج في الواقع امرأة ثانية قبل وفاة إليانور ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإن ذلك يشكل ، ولا ريب ، مفتاحاً للسرّ . وفي منزل صمرسيت ، وعقب بحث واستقصاء طويلين ، اكتشفتُ أن إيفلنغ قد

تزوج فتاة في الثانية والعشرين تدعى ايفا فراي ، كانت ممثلة الدور النسائي الاول في مسرحية «حارس محطة السكة الحديدية» التي انتجها إيفلنغ لحساب فرقة هواة مسرحية في لندن .

ولإخفاء كل أثر لتصرّفاته ، ولحفظ السر ، ولا ريب ، عن إليانور واصدقائهما ، تزّوج الفتاة ، باسم مزعوم هو أليك نلسون ـ وهو الاسم الذي كان يوقّع به مقالاته النقدية المسرحية .

كان تاريخ الزواج الذي تم في مكتب التسجيل في تشلسي ، ٨ حزيران ١٨٩٧ ، ويدلّ ذلك على أن إيفلنغ قد عاش ، نوعاً ما ، حياة مزدوجة ، طوال عشرة أشهر ، قبل وفاة إليانور .

ولكننا نجهل ما إذا كانت اليانور علمت بذلك ، ومتى . ولكنها اذا ما كانت اكتشفت أمر ايفا فراي ، فإن الدافع الى الانتحار يبدو كافياً . ويكون إيفلنغ ، ربما مسؤولاً أدبياً عن وفاتها . إلا أنني أبرّئه من اتهام هندمان له بالقضاء عليها .

ولم يعش ايفلنغ طويلاً لينعم بزواجه الثاني وبأموال إليانور . فقد توفي بعد أربعة أشهر في قصر ستافورد في طريق جسر ألبرت ، في باترسي ، من مرض كلوي كان يشكو منه طوال سنوات . وكان في السابعة والأربعين من العمر .

وبموته ، حسبتُ أن بوسعي كتابة نهاية لقصة إليانور ، ولكنني شرعت في التساؤل عما حدث بعد إحراق جثمانها .

وقد علمت أن رمادها حُفظ طوال بضعة أعوام في إناء في مكاتب الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي في بولت كورت ، على مبعدة من فليت ستريت ، شارع الصحافة الشهير ، ثم نُقل في ما بعد الى المقر العام للحزب في ميدن لاين . فلما انفصل عنه بعض الاعضاء المتطرفين السنة ١٩٢٠ لتأليف الحزب الشيوعي ، حملوا معهم الاناء الى شارع الملك ، في كوفنت غاردن .

ودُرس في فترة من الفترات أمر ارسال الرماد إلى موسكو ، ولكن قبل أن يتمّ ذلك ، وفي أيار من السنة ١٩٢١ ، هاجم رجال الشرطة المقرّ العام للشيوعيين بحثاً عن منشورات تحريضية واستولوا على الإناء ، دونما أي سبب ظاهر . وحُمل رماد

إليانور الى دوائر اسكوتلاند يارد .

ولكن لا أحد يدري كم من الوقت بقي الرماد هناك ، أو ما هي الذريعة التي تبرر عدم استطاعتي العثور عليه . وينبغي لنا تجاوز ثلاثين سنة كاملة ، لنصل الى ما بعد ظهر أحد الأيام عندما اكتشفته بمحض المصادفة في مكتبة كارل ماركس في كليركن غرين ، حيث كان مكتب لينين خلال إقامته في لندن .

وبقي رمادها هناك ، في كليركن غرين حتى تشرين الثاني ١٩٥٤ ، عندما قام بما كان ، بكل تأكيد ، رحلته الأخيرة !

عندما دُفن كارل ماركس في مقبرة هايغيت ، لم يكن بوسع أسرته أن تتصوّر أن ضريحه سيجتذب حجّاجاً من مختلف أطراف العالم : فلقد ووري الثرى في ركن ناءٍ نوعاً ما .

وكان لدى تلاميذه منذ فترة بعيدة خطة لنقل نعشه الى مكان أفضل موقعاً ، وإقامة نُصب لائق فوقه . وقد تمّ ذلك في الساعات الأولى من يوم الثلاثاء في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٤ .

ونقل حفّارو القبور الذين كانوا يعملون على ضوء مصابيح الزيت النعش الى مسافة حوالى مائتي يردة ، إلى مكان يقوم على الممشى العريض الاوسط للمقبرة . وقبل أن يُهال التراب فوق النعش ، تمت عملية دفن اخرى في الضريح الجديد . فقد أُنزل إناء صغير اليه .لقد ذهبت إليانور لملاقاة والدها !

لينين: معركة من أجل ميراث

تحت هذا العنوان نشرب مجلة «الاكسبريس» الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ ٢١-٢٧ كانون الثاني ١٩٧٤ هذا المقال . . .

يصادف ٢١ كانون الثاني ذكرى وفاة الملك لويس السادس عشر . . . اجل ، ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ . وهو كذلك ذكرى وفاة لينين لخمسين سنة خلت بالضبط . ولقد روي عنه وكُتب كل شيء ، إلا إن مؤرخ الاشتراكية جان رابو ، اكتشف وثيقة لم تُنشر قط . إنها مذكرة تتعلّق بإرث شميت الذي نازع فيه كلارا تسيتكن . . . ويعود الفضل في الحصول على هذه الوثيقة الى ابن دوكو دو آي المحامي . وفي ما يلي القصة المذهلة كما يرويها الكاتب جان رابو .

كان لانحسارات الامواج الثورية زبدها ؛ حياة المهاجر السياسي ، ومصائبه . تلك هي حال قضية إرث شميت التي ساهمت منذ سنة ١٩٠٦ حتى عشية الحرب العالمية الاولى ، في تسميم حياة قادة حركة الديمقراطية ـ الاشتراكية الروسية ، والبولونية ، والالمانية .

كانت الرعاية المالية أحد الموارد الرئيسية الى الثوريين الروس دوماً . . . ففي كانون الثاني ١٩٠٦ ، توفى في السجن ـ ربما تحت تأثير التعذيب ـ صناعي شاب من مدينة بطرسبرج ، هو المناضل الاشتراكي نقولا بافلوفتش شميت ، صاحب معمل للمفروشات ، ووارث عمّ له يدعى موروزوف قدّم بدوره الكثير الى الحركة الديمقراطية ـ الاشتراكية في روسيا (وكانت آنذاك مقسمة كثيراً ، ولكن لم تعرف الانشقاق العضوي إلا في سنة ١٩١٢) . وقد أوصى شميت للحزب بثروته المقدَّرة بـ ٤٩٠ ألف روبل ، او ما يعادل ٨ ملايين و٨٠٠ ألف فرنك فرنسي حالي .

ولكي تتم الأيلولة ، او انتقال الحق ، كان ينبغي الحصول على موافقة شقيقتيه كاترين وإليزابت . ولكنهما لم تشكّلا اي عقبة ، إلا أنهما كانتا قاصرتين . ولتوفير ترخيص لهما لا يمكن أن يكون إلا ترخيصاً بالزواج ، تقرر تدبير زوج شرعي لكل منهما . كانت إليزابت عشيقة شيوعي وفيّ اسمه فكتور تاراتوتا . ووفّر لها تاراتوتا زوجاً في حالة مدنية أحد «المصادرين» من المتخصصين بعمليات السلب بالقوة في مصلحة القضية يدعى إيغناتييف . أما كاترين فقدّموا إليها مغوياً اسمه نقولا أندريكانيس . ولكن ، يا للمصيبة ! فبعد أن جعل منها عشيقة ، نشر ، أندريكانيس هذا الزعم بأنه سيحتفظ بثلثي المال المدفون ، ولم يستسلم إلى إي ابتزاز .

المِلك والبِلك

هل سيؤول الإرث الى البولشفيك وحدهم؟ لم يكن المنشفيك موافقين على ذلك . واطّلعت جلسة عامة عقدها حزب العمال الديمقراطي ـ الاشتراكي الروسي بكامل أعضائه ، عُقدت في كانون الثاني ١٩١٠ ، على القضية . وكان على البولشفيك ، بموجب القرار المتخذ التنازل عن نصف الإرث الى اللجنة المركزية للحزب ، واستيداع الباقي لإدارة متسلمي الوصية الائتمانية (العهداء) الثلاثة الذين اختيروا من بين المناضلين الاكثر تمتعاً بالاحترام في الحركة الديمقراطية ـ الاشتراكية الألمانية : فرانتس مهرنغ ، وكلارا تسيتكن ، وكارل كوتسكي . وكان الشرط المفروض بالنسبة الى هذا الاتفاق أن يحافظ المنشفيك («المِلك بحسب تعبير روزا لوكسمبورغ في مراسلتها) على وحدة العمل مع «البِلك» البولشفيك .

واغتنم لينين مناسبة ـ أو ذريعة ـ مخالفة المنشفيك هذا الاتفاق ، واودع المبلغ الذي كان ينبغي أن يُعهد به الى متسلّمي الوصية الائتمانية الالمان في مكتب الحسم في باريس . وبفضل خدعة في الشكليات ، حمل على إقرار «لجنة تقنيّة» مخلصة له ، لتسلّم النصف الثاني من الإرث . ولكنه أكره على تحويل المبلغ الى برلين .

وكانت تلك ، بعد ، بداية القضية ! كان البولشفيك بحاجة ماسة الى النصف الناقص من المبلغ . وفي هذه الأثناء كانت المياه قد جرت تحت جسور نهر نيفا . ومنذ

حُلّ مجلس الدوما الحمراء(الجمعية الوطنية في عهد القيصر نقولا الثاني) في حزيران ١٩٠٧ ، كانت الحركة الثورية الروسية تسير من هزيمة الى أخرى

في جو من القمع الشرس ، ومن الهجران ، ومن سقوط الطبقات مجدداً في الخمول وفتور الشعور والشكوكية ، كانت تتحرك الديمقراطية ـ الاشتراكية ، الحزب «الذي لم يكن له اي وجود» ـ على حدّ تعبير زينوفييف .

أوراق نقدّية مسرقة

إذاً ، إنقسامات ومنازعات يصعب التكفير عنها . وفضلاً عن ذلك ، تجاوزت الفضيحة أوساط السر والخفاء ، والهجرة ، والأحزاب الشرعية ـ عواقب نزع الملكية ، والسوابق المرتكبة في السنوات السالفة . (ولعلّ السوابق المذهلة أكثر من سواها عملية عربة بريد مدينة تفليس في ٢٦ حزيران ١٩٠٧ ، وقد أعقبها في الخارج القبض بتهمة التواطؤ على عدد من المناضلين ، من امثال لتفينوف ، وزير الخارجية العتيد على عهد ستالين ، بينما كانوا يحاولون تصريف الأوراق النقدية المسروقة) . ولكن لماذا هذه الشراسة من جانب لينين لاستعادة المبلغ؟ كان يتعيّن عليه أن يحيا ، ولو وسط الفقر ، كما كان ينبغي له ان يسدد بدلات تحرير صحف الحزب وطبعها ، وتوزيعها ، ومساعدة الرفاق البائسين . كان البولشفيك يتحمّلون عواقب النظرية اللينينية المتعلّقة بالثوري المحترف ، وهي تلتمس إعالة عدد كبير من الدائمين ، الذين يؤلفون رئاسة أنصار هذه النظرية في الصراع الحزبي .

ومن أجل استعادة إرث شميت ، اتصل لينين في سنة ١٩١٣ بثلاثة محامين فرنسيين اشتراكيين هم : إرنست لافون ، وألبير ويلم ، ودوكو دو لا آي ، للمرافعة في قضيته أمام لجنة متسلّمي الوصية الائتمانية الالمان . وفي مذكرته ـ ولما كان أحد «الحكماء» فرانتس مهرنغ المتعب والمرهق ، قد توقّف عن الاهتمام بالقضية ـ أشار لينين ألى ان تخلّي احد متسلّمي الوصية الائتمانية ، يقحم مشروعية اللجنة في الموضوع . وتحدّث عن مهاجمة كلارا تسيتكن .

ويبدو أن يكون «الحق» الذي يدّعيه ، والمحكمة التي يتهدّد بها رفاقاً ينتمون هم

الثلاثة الى اليسار في الحركة الديمقراطية ـ الاشتراكية الالمانية ، حقاً ومحكمة «بورجوازية» ، إلا ان ذلك لم يجعله يتردد . وغالباً ما كان لينين يظهر متشرعاً أو قانونياً متمكناً ، حتى وسط صخب ثورة تشرين الأول .

تحت الحراسة

لم يتكلل مسعى الزعيم البولشفيكي بأي نجاح . فقد ردّت كلارا تسيتكن على دوكو دو لا آي ، بقولها إن المبالغ المودعة في ألمانيا «عُهد بها الى المؤتمنين على أنها ملكية جماعية للحزب الديمقراطي ـ الاشتراكي الروسي ، وليست بحال من الاحوال ، ملكاً للرفيق لينين ، او حتى ملكاً للحزب البولشفيكي وحده» ، وأن متسلمي الوصية الائتمانية لن يضعوا المبالغ بين يديّ لينين إلاّ «شرط ان تتم مصالحة مشروعة وقانونية بين الحزب البولشفيكي والممثلين الشرعيين للحزب الاشتراكي ككل . ونظراً للحالة ،لا سيما التساؤل عما اذا كان هذا الموجب يُعتبر منيعاً بالنسبة الى القانون البورجوازي ، وبحسب معتقداتنا الاشتراكية بالنسبة الى القانون ، فإن الشرط إلزامي .» واعلنت كلارا تسيتكن أنها مستعدة للدفاع عن «قناعتها» أمام الأممية الاشتراكية .

غير أن روزا لوكسمبورغ التي كانت تُسئمها هذه القضية التي بسّطنا عرضها وتسبّب لها الاشمئزاز ، تقول « إن البولشفيك سيؤول بهم الأمر الى الاعتقاد بأن في جسدهم علَقاً يمتصّ دمهم» !

في آب ١٩١٣ ، أعاد لينين الكرّة امام اللجنة مديرة الحزب الديمقراطي ـ الاشتراكي ، وامام المكتب الاشتراكي الدولي . ولكن دونما نجاح . فقد جاءت الحرب تحجز المال الذي وُضع تحت الحراسة من جانب الألمان . ولقد كتب بعض المؤرخين ، ولكن دون تقديم الادلة والبراهين ، ان جزءاً من هذا المال قد سُلّم خلال الحرب الى «البنك» ثم الى «الملك» .

مذكرة لينين

وهذا هو نص المذكرة التي وجّهها لينين بخط يده وباللغة الفرنسية الى المحامي دو كو دو لاآي .

«يلتزم المحامي دوكو دو لاآي بأن ينظّم هيئة محامين ، أي أن يدعو بعد محاميَين ينبغي ان يكون أحدهما من الحزب الاشتراكي .

«ومجموعة المحامين هذه يتعيّن عليها أن توقّع النتيجةالمعلّلة المتضمنة :

«أولاً – النص الكامل للوثائق الرئيسية والحاسمة (اي الوثائق الضرورية وغير الكافية لإثبات طلب السيد اوليانوف (هذا هو اللقب الشرعي للينين) أمام المحاكم ؛

«ثانياً – التحليل المتعمق والمفصّل لهذه الوثائق يثبت أن المواطنة تسيتكن على خطأ ، وأنه يتعين عليها أن تعيد على الفور المال المذكور الى السيد اوليانوف ، وأنها ترتكب سوء ائتمان برفضها القيام بذلك ،

«ثالثاً – تحليل المصاعب القانونية في هذه القضية ،إذا ما وجدت ، والتدليل على أن هذه المصاعب وهمية ، وأن السيد أوليانوف بوسعه وينبغي له أن يستحضر المواطنة تسيتكن أمام محاكم شتوتغارت .

«يتعهد السيد اوليا نوف بأن يدفع الى المحامي دوكو دو لا آي مبلغ ٥ آلاف فرنك إذا ما أعادت المواطنة تسيتكن المال الى السيد اوليانوف قبل أول آب ١٩١٢ ، بفضل الخلاصة التي يتوصل إليها مجمع المحامين ، وسائر المساعي التي يراها مفيدة المحامي دو كو دو لا آي .

«وإلا ، فإن السيد اوليانوف يتعهد بأن يدفع الى المحامي دوكو دو لا آي مبلغ ـ ؟ ـ . وعليّ أن أكرر ما سبق وقلت لك : ليس في وسعنا أن ندفع إلا مبلغاً جد زهيد ، ومن أجل هذا السبب نشترط أجراً جد مرتفع في حالة النجاح (لقد ضُرب صفح عن مسألة الأتعاب هذه في المقابلات التي تلت) . ومن المحتمل جداً أن تنتهي هذه القضية ، اذا ما أديرت بمهارة نهاية ناجحة تامة دون ما حاجة الى دعوى قضائية . ليس ثمة أي رجل قانون جدّي يسعه أن ينكر المبدأ ، التالي : «إذا عقد الطرفان تسوية تحكيمية ، ووضع طرف ما المال موضوع الدعوى امام المحكّمين المعينين ، فإن غياب محكّم واحد

يكفي لكي يوضع حدّ للتسوية التحكيمية ، ويضطر المودعون الى إعادة المال الى من دفعه إليهم .»

«إن الصعوبة الوحيدة التي قد تنشأ هي أن التسوية التحكيمية غير موقّعة . سوى ان هذه الصعوبة وهمية لأنه مثبت في الرسالة الموقّعة من المحكّمين الثلاثة أن السيد اوليانوف وعد بأن يدفع اليهم المال . إذاً ، فان الحدث الرئيسي ـ وجود تسوية تحكيمية ـ أمر ثابت ـ والقانون المدني ، الذي لا يتدخل مطلقاً في مضمون التسوية التحكمية ، وفي أساس المسألة وفي الأسباب (الاخلاقية ، السياسية الخ) ـ ان هذا القانون المدني يحمي الموجب الرسمي : لقد قام السيد او ليانوف بواجبه ، بدفعه المال الى المحكّمين ، والمحكّمون ـ المحكّمة السابقة تسيتكن ، لم تقم بواجبها ، ويتوجب عليها إعادة المال .

«اذا ما أبلغ مجمع المحامين خلاصته الى : (١) السيدة تسيتكن ؛ (٢) السيد بيبل ، رئيس اللجنة مديرة الحزب الالماني ؛ (٣) اللجنة مديرة الحزب الاشتراكي في فورتمبرغ ـ فإنه لمن المحتمل جداً أن تعترف المواطنة تسيتكن بأنها على خطأ ، وتعيد بالتالي المال .

«إن سفسطة (مغالطة منطقية) من جانب خصمي ـ وقد أطّلعت على ذلك من طريق شخصي ـ تستحق الاعتبار بصورة خاصة . وهذه هي السفسطة : لنفرض جدلاً انه يتعيّن علينا إعادة المال . ولكن الى من؟ هل ثبت ان السيد اوليانوف هو المالك حقاً؟ الم يتصرّف باسم هذا الفريق او ذاك او اللجنة المركزية . . . الخ؟

«إن دفاع المواطنة تسيتكن ينبغي أن يكون ضعيفاً جداً اذا ما هي لجأت الى هذه السفسطة . إن تلك هي حتماً مهمة المحكّمين ،أن يقررّوا لمن كان يعود المال ، ويعود الآن ، وينبغي أن يعود . واذا كان المحكّمون قد استقالوا ، فليس لهم الحق بعد إثارة مسألة الملكية ، وعلاقة مختلف الفرقاء . . . الخ ، ليس لهم سوى إعادة المال الى من دفعه إليهم ومن كان مالكه ، وحامله قبل عقد التسوية ، وقد اعترفت به رسائل المحكمين كفريق أو حتى كأحد الفرقاء المتعاقدين .

« أنا شخصياً كنت محامياً ، وقد درست القانون الفرنسي والقانون الالماني حول التهموية التحكيمية . ولا أشك مطلقاً في ان السيدة تسيتكن على خطأ تام . وإذا كان

من الصعب إيجاد محامين فرنسيين يتقنون الألمانيه ، بوسعي أن أترجم لك المواد المتطابقة في اصول المحاكمات الالمانية ، وتعليقات أشهر المؤلفين الالمان أمثال غاوب وشتاين .

«حاشية ، ينبغي أيضاً الاثبات ـ وهذا ليس بصعب البتة ـ أن التصريح المنشور في لسان حال الحزب الديمقراطي ـ الاشتراكي يشكّل تسوية تحكيمية ، وان المودعين هم محكّمون .»

إخفاق المحاولة لاغتيال لينين

كتب هارولد وولتون في جريدة «إيفننغ نيوز» اللندنية في سنة ١٩٥٨ يقول :

كان صيف سنة ١٩١٨ طويلاً وشديد الحرارة والرطوبة . ولكن آخره عرف قرصة برد الخريف .

وعلى الجبهة الغربية كانت جيوش الحلفاء التي عجزت عن التقدم طوال سنوات في وحول الفلاندر ، قد شرعت في التحرك الى الأمام . فكان في ذلك آخر هجوم في الحرب العالمية الاولى .

في هذه الأثناء كانت الدولة الروسية البولشفية الناشئة تكافح بيأس لتثبيت أقدامها وسط الفوضى والعنف . وكان زعيمها فلاديمير ايلتش لينين ، قد سبق للالمان قبل سنة أن سهّلوا تهريبه عبر أوروبا لتزعّم العصيان ضد القيصر الروسي ، وقيادة أنصاره . وكان لينين آنذاك اكثر من قائد وزعيم ـ كان التجسيد الكامل لروح القضية الثورية وإنقاذها .

لولاه لكانت الحركة ربما انهارت ، ذلك بأنها كانت عرضة للهجوم من كل الجبهات . وكان أعداؤها في الخارج القوات الروسية البيضاء ، وحلفاءَها الفرنسيين ، والانكليز ، والتشيكيين . أما في الداخل ، فكان أعداؤها المفكرين الساخطين والثائرين القدامى من الاشتراكيين الذين كانوا يودون قيام دولة ديمقراطية لا حكم البروليتاريا .

وكان من أنصار هذه القضية الأختان دورا وفاني كابلان ، وهما من الطبقة الوسطى ومن طبقة المفكرين ، وكسواهما من معظم أمثالهما في ذلك الزمان ، دارا في فلك هذه الحرب الثورية على القيصر الروسي .

وكانتا تعتقدان أنه اذا كانت روسيا ستبقى ديمقراطية ، فإن موت لينين هو الذي

يمكن ان يؤمن ذلك . فراحتا تخططان للتخلُّص منه .

وسنحت لهما الفرصة مساء ٣٠ آب ١٩١٨ . ففي تلك الليلة خرج العمّال من مصانعهم بثيابهم المتسخة الرثّة ، وتدفّقوا شطر مصنع ميكلسون حيث كان مقرراً أن يلقي لينين خطاباً مهمّاً لأنه يتناول الوضع الغذائي . واختلطت الأختان دورا وفاني بالحشد . تحت قميصها ، كانت إحداهما تخفي مسدساً محشواً بالرصاص .

تكلّم لينين طوال ساعات ، فرثى لأزمة الغذاء ، ولكنه قال إن على العمّال ان يستعدوا لتقديم التضحيات ، مؤكداً ان الحال ستتحسن قريباً . ولا مجال الى إنكار الحماسة في صوته ، والإغراء المغنطيسي لكلماته . ثم غادر منبر الخطابة . واتجه الى العربة التي كانت تنتظره .

وفي الطريق اوقفته فاني ودورا كابلان ، مدعيتين أنهما تودّان التحدّث معه عن الوضع الغذائي . وفجأة شهرت إحداهما مسدساً وأطلقت منه عيارين ناريين ، فتراجع لينين ، وسقط والدم ينزف من جراح أصابته في صدره (رئته) وكتفه .

وفي غمرة الفوضى التي حدثت ، لم يستطع أحد أن يجزم بما اذا كان لينين ما يزال في قيد الحياة أم مات . وفي لندن ، نشر بعض الصحف نعيه . غير أنه ، في الواقع ، لم يقض ، على الرغم من أنه طوال أيام كانت حالته خطرة . وما لبث ان عاد الى تسلُّم دفّة الحَكم بعد مضي أسابيع .

ولكن ، ماذا جرى بعد ذلك؟

حسب بعض الروايات المعاصرة ، كانت المعتدية دورا كابلان ، وقد حملت الأنباء نبأ إعدامها في ٣ أيلول ١٩١٨ .

ومن سوء طالع أنصار الاشتراكية أن عملها الطائش أطلق موجة من الانتقاضات ضدهم في مختلف ارجاء روسيا ، لاتهامهم بالضلوع في مؤامرة الاغتيال . أما مصير أُختها فاني ، فلم يُكشف عنه النقاب الا بعد اربعين سنة من ذلك ، عندما أعلن في كانون الثاني ١٩٥٨ أنها توفيت في السجن . تُرى ، على ماذا كانت تدور أفكارها وهي تمضي فترة سجنها الطويلة؟ هل أن إخفاق شقيقتها في محاولتها اغتيال لينين كان يستحق ذلك؟

من الثابت أن لينين لو قضى في ذلك اليوم قبل الاخير من شهر آب ١٩١٨ ، لكانت الثورة الروسية غيّرت مسارها ، ولكانت انتصرت الديمقراطية الاشتراكية .

غير أن ذلك لم يحدث . وقد عاش لينين حتى رؤية دولته الشيوعية تثبّت أساساتها .

أما فاني ، فإنها عاشت لكي ترى ، من ناحيتها ، انتصار الاتحاد السوفياتي التقني الكبير الرائد : سبوتنيك ، أو أول قمر صناعي في العالم يُطلق الى الفضاء في ٤ تشرين الاول ١٩٥٧ ، حاملاً عدداً كبيراً من مختلف الاجهزة العلمية حول مدار الأرض ، بسرعة ١٨ ألف ميل في الساعة ، وعلى ارتفاع ٥٦٠ ميلاً !

كيف استولى ستالين على الذهب الإسباني؟

هذا واحد من أجرأ أعمال السلب التي عرفها التاريخ ، يكشفها الآن للمرة الاولى ، بالتفصيل الرجل الذي نظّم هذا العمل ألكسندر اورلوف ، الدبلوماسي السوفياتي والجنرال التابع لمصلحة مكافحة التجسس ، وكان اول كبار رجال الاستخبارات السوفيات من الذين قطعوا كل صلة لهم بالكرملين . وكان في السنة التي نُشر فيها هذا الفصل المثير في مجلة «ريدرز دايجست» الاميركية يقيم في الولايات المتحدة الاميركية . ويذكّر محرر المجلة المذكورة القراء بأن من يودّ منهم الاستزادة من تفاصيل إضافية حول هذه القضية الخطيرة ، يستطيع الرجوع الى كتاب بعنوان «اسبانيا ، السنوات الحيوية» للوسي بولين ، الذي نشرته في كانون الثاني ١٩٦٧ دار «كاسل» الاميركية . فهو يتضمن النص الرسمي الكامل للوثائق التي تعترف بتسلّم السوفيات الذهب الاسباني .

واليكم الآن تفاصيل هذه القصة المثيرة كما يرويها ألكسندر اورلوف . كان ما يزال هناك بصيص نور في تلك الامسية في ٢٢ تشرين الأول ١٩٣٦ ، عندما غادرت بسيارتي قرطجنّة ، الميناء القائم على الساحل الجنوبي الشرقي من إسبانيا .وقد جلس بجانبي في السيارة موظف رفيع المستوى في الخزينة الاسبانية ، لم يستطيع ضبط توتر اعصابه وإخفاء قلقه . وخلفنا كان يسير صف من عشرين شاحنة حمولة الواحدة منها ٥ أطنان . وكان المكان الذي نقصده يقوم في الهضاب على مسافة اربعة أميال او خمسة شمالاً : مستودع الذخيرة التابع للبحرية الاسبانية . ولكننا كنا نسعى وراء شيء أكثر اهمية من القذائف والبارود .

وما إن بلغ موكبنا الموقف حتى كان الليل قد أرخى سدوله . وما كدنا نترجّل من

السيارة حتى لاحظت سلسلة من الابواب الخشبية الضخمة ، المثبتّة والمشبكة بالقضبان الحديدية ، وقد وُضعت في وجه الهضبة ، وقام على حراستها رجال مدججون بالسلاح . وسحب احد الحراس المزلاج الهائل ، وفتح باباً مزدوجاً على مصراعيه . ودخلنا كهفاً فسيحاً ، تضيئه مصابيح كهربائية .

في الداخل ، وقف ستون بحّاراً اسبانياً ينتظرون أوامرنا . وقد كُدّست على جوانب الجدران آلاف الصناديق الخشبية المتشابهة . وكانت هذه الصناديق ملأى بالسبائك والنقود الذهبية التي تساوي ملايين الجنيهات ! إنه كنز أمة عريقة ، تكدَّس وجُمع عبر القرون . وكانت مهمتي تقضي بحمل هذا الكنز الى موسكو !

كان ذلك في الشهور الأولى من الحرب الأهلية الاسبانية . وقد كنت أقوم بتنظيم «العملية ذهب» في أدقّ تفاصيلها طوال عشرة أيام . فقد خشي بعض الزعماء الجمهوريين ان يقع احتياطيهم القومي من الذهب بين أيدي الوطنيين المهاجمين من أنصار الجنرال فرنكو ، فقرروا أن يأتمنوا عليه ستالين ـ «لصيانته» ! ، مع أن هذه الصفقة كان مصرّحاً بها (مع شرعية مشكوك فيها) من جانب الجمهوريين ، فإنها ربما مثلّت اكبر عملية سلب فريدة في نوعها في التاريخ .

أن نقل معظم الاحتياطي من الذهب الاسباني ـ على الأقلّ مبلغ ٢١٥ مليون جنيه استرليني منه ، بحسب تقديري ـ كان موضوع الشائعات والتخمين طوال ثلاثين سنة . ومن حفنة الرجال الذين تورّطوا في ابتداء هذه العملية ، او المشروع ، ما يزال اثنان في قيد الحياة : احد الاسبان وأنا !

هبطت مدريد في ١٦ أيلول ١٩٣٦ ، بعد حوالى شهرين من اندلاع شرارة الحرب الاهلية الاسبانية ، لترؤس بعثة سوفياتية كبيرة من رجال الاستخبارات والخبراء العسكريين . وبصفتي جنرالاً في مصلحة الاستخبارات (مفوضية الشعب للشؤون الداخلية) (N.K.V.D) ، كنت المستشار الرئيسي السوفياتي للحكومة الجمهورية في شؤون الاستخبارات ، ومكافحة التجسس ، وحرب العصابات ـ وهو منصب شغلته طوال سنتين تقريباً . وكسائر الروس في اسبانيا ، كنت مخلصاً بشغف كبير للقضية الجمهورية .

كنا نطلق العمليات من الطبقة العليا في السفارة السوفياتية في مدريد ، بواسطة أجهزة ارسال وبث قوية موضوعة في تصرّفنا . ولم يكن قد مضى علي أقلّ من شهر واحد حتى دخل مكتبي موظف في قسم الرموز (الشيفرة) متأبطاً كتاب الرموز ، وحاملاً بيده برقية .

وبادرني بالقول :

– لقد وصلت هذه البرقية من موسكو في التو ، وهذه سطورها الاولى : «سرية للغاية ينبغي فك رموزها من قبل «شفيد» شخصياً .»

وكان «شفيد» اسمي الرمزي ، ففككت رموز سائر مضمون البرقية . فبعد مقدمة قصيرة من نيكولاي يجوف ، رئيس مصلحة الاستخبارات في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية ، كان فيها ما يلي :

«تدبّر مع رئيس الوزراء لا رجو كابايرو أمر شحن احتياطي الذهب الاسباني الى الاتحاد السوفياتي . استخدم زورقاً بخارياً سوفياتياً . حافظ على السّرية التامة . إذا طالب الاسبان بإيصال ، أرفض ـ أكرر ، أرفض . قل لهم إن ايصالاً رسمياً سيصدر في موسكو من جانب مصرف الدولة . إني أجعلك مسؤولاً شخصياً عن العملية (التوقيع) ايفان فاسيلييفتش .»

وكان التوقيع الاسم الرمزي لستالين شخصياً ، وقلما كان يُستعمل ! هل يمكن ان يكون صحيحاً أن لا رجو كابايرو وزملاءه ـ وهم اسبان شرفاء ، ووطنيون ـ سيوافقون على إيداع ذهب بلادهم بين يديّ ستالين؟ هل كانوا يعتقدون أن الكرملين الذي يحتقر الاخلاقية البورجوازية ، سيتخلى عن مثل هذه الثروة؟ وقد دلّت تحرياتي واستقصاءاتي ان الجواب كان بالايجاب . فالواقع أن فكرة «حماية» الاحتياطي الذهبي من الوقوع بين ايدي الوطنيين ، بإرساله الى روسيا ،قد نبتت لدى الزعماء الجمهوريين المرهقين أنفسهم ! كان الوطنيون يضيّقون الخنّاق على مدريد ، وبدا سقوط العاصمة وشيكاً ، ومحتوماً . وقد صدر الأمر بنقل الذهب والفضة من أقبية مصرف اسبانيا بموجب مرسوم سرّي صادر في ١٣ أيلول ، وموقّع من الرئيس مانويل أثانيا ، ووزير المالية الدكتور خوان نغرين . وقد خوّل هذا المرسوم وزير المالية

صلاحية نقل المعدنين الثمينين من مدريد «الى المكان الذي يشكّل ، في رأيه ، أفضل ملجأ أمين .» وقد نصّ المرسوم ، كذلك ، على أنه «في الوقت المناسب» سيُجعل هذا النقل نظامياً بعرضه على الكورتيس (اي البرلمان الاسباني) .

ومهما يكن من أمر شرعية هذا المرسوم ، فإنه ، بلا ريب ، لم يلحظ شحن هذا الكنز الثمين الى خارج البلاد . ولكن مع تفاقم الوضع العسكري ، توسّع نغرين ، في حالة يأس ، في صلاحياته . وبمعرفة كل من الرئيس ، ورئيس الوزراء ، جسّ نبض ملحقنا التجاري السوفياتي حول خزن الذهب في روسيا . فأبرق الموفد الى موسكو ، ووثب ستالين لاقتناص هذه السانحة .

عقب تسلّمي أوامر ستالين بيومين اثنين ، اجتمعت بنغرين في سفارتنا . فبدا لي أنه النموذج التام للمفكر ـ المعادي للشيوعية نظرياً ، ومع ذلك ، المتعاطف بغموض مع «التجربة الكبيرة» في روسيا . وهذه «السذاجة» السياسية تساعد على تفسير حافزه على تصدير الذهب الى تلك البلاد . وفضلاً عن ذلك ، ومع قيام هتلر وموسوليني بمساعدة الوطنيين ، ووقوف الديمقراطيات موقفاً متحفظاً ، كانت روسيا السوفياتية الدولة الكبرى الوحيدة التي تناصر الجمهوريين .

سألت :

– أين هو احتياطي الذهب؟

فأجاب نغرين :

– في قرطجنّة ، في احد الكهوف القديمة التي تستخدمها البحرية لخزن الذخائر .

وقلت بيني وبين نفسي بإثارة ، ان ذلك من حظ ستالين . وقد جعل مهمتي مبسّطة كثيراً كون الشحنة في قرطجنّة . فهذا الميناء الرحب الفسيح كان الميناء الذي تفرّغ فيه السفن السوفياتية السلاح والمؤن . ولذا لم تكن السفن وحدها في متناول اليد ، بل اليد العاملة الأمينة ، كذلك !

وكان ينبغي لنا أن نفضي بهذا السر الى مسؤول اسباني آخر ، هو وزير البحرية والطيران . فنحن سنحتاج الى بوارجه لمواكبة الشحنة عبر البحر المتوسط الى ميناء اوديسا ، على البحر الأسود . فلما استشرناه ، وافق على اصدار الأوامر الضرورية .

وكانت السرعة ملحّة وأساسية . حتى أن شائعة واحدة كانت كافية لتعريض سفننا الى ان تُعترض من جانب إيطاليا وألمانيا . وكان الاهم من ذلك أن مزاج الشعب الاسباني كان يمكن أن يمثل دوره فيما لو تسرّب اليه ان كنز الوطن يُرسل الى الخارج ـ ولا سيما الى روسيا الشيوعية ! ـ ولكانت العملية أخفقت ، وقضي على منفّذيها .

وبناءً على تعليمات نغرين ، قدّم اليّ احد كبار موظفي الخزينة تفاصيل حول الذهب ومكان اختزانه . كان هناك حوالى ١٠ آلاف صندوق ، بطول ١٩ إنشاً وعرض ١٢ ، وارتفاع ٧ . وكان في كل منها ١٤٥ رطلاً انكليزياً (باوند) من الذهب ـ وزنها معاً حوالى ٧٥٠ طناً .

في اليوم التالي توجهت بالسيارة الى قرطجنة . وكان ملحقنا البحري هناك صديقي نيكولاي كوزنتزوف (الذي اصبح خلال الحرب العالمية الثانية وزير البحرية السوفياتية) . وقد أبلغته بأن يصادر كل السفن الدولية التي ترسو في قرطجنة ، ويفرغ حمولتها بالسرعة القصوى ، ويضعها تحت تصرّفي . وكانت احدى سفن الشحن في الميناء ، ويُتوقّع وصول سائر السفن . واتصلنا ، كذلك ، بقائد القاعدة البحرية الاسبانية ، فوضع في تصرّفي ستين بحّاراً .

وتحولتُ إذ ذاك الى مشكلة نقل الذهب من الكهف الى أرصفة الميناء . وكانت كتيبة دبابات قد أنزلت الى اليابسة في قرطجنة قبل اسبوعين ، وهي الآن معسكرة في أرتشينا ، على مسافة ٤٠ ميلاً من هناك . وقد خصص لي الكولونيل هناك عشرين من شاحناته العسكرية ، ومثل هذا العدد من أفضل سائقي الدبابات .

وأخيراً تم تجهيز كل شيء . توقّفت شاحناتي في محطة للسكة الحديدية ، ووراء مقود كل واحدة منها سائق دبّابة سوفياتية مرتدياً بزة عسكرية اسبانية . وكان الستون بحّاراً قد أوفدوا الى الكهف قبل ذلك بساعة أو بساعتين . وقد أُعلم طواقم اربعة سفن سوفياتية بمن فيها الطهاة وخدم الموائد ، أن يتوقعوا عدة ليالٍ من تحميل شحنة هامة . وهكذا ، في ٢٢ تشرين الأول ، ومع حمرة الأفق الباهتة عند غروب الشمس ، توجهتُ بالسيارة الى مستودع الذخيرة ، وخلفي موكب الشاحنات ، الطويل .

كان البحّارة الاسبان ، وجميعهم من اسطول الغواصات ، ذوي بنية نحيلة .

فجعلت كل اثنين يحملان صندوقاً واحداً ، ويرفعانه الى الشاحنة . ولكي أسهّل عملية العدّ ، حددت خمسين صندوقاً لكل شاحنة ، وكنت أرسل كل عشر شاحنات معاً الى الميناء بعد تحميلها . وما ان تعود بعد حوالى ساعتين ، حتى تكون عشر شاحنات اخرى قد حُمّلت وباتت جاهزة للانتقال حاملة ٥٠٠ صندوق اخرى . وكانت سيارتي ، وانا فيها ، او مسؤول آخر من مصلحة الاستخبارات ، وأحد موظفي الخزينة الاسبانية ، تقود كل موكب من الشاحنات هذه .

وأثناء القيام بعملية التحميل بكل يسر وانتظام ، طرحت السؤال الذي طالما تعمّدت تجنبّه حتى ذلك الحين : «كم من الذهب يُفترض أن نشحن؟» وكانت العملية قد دُبّرت في الجانب الاسباني مصادفة واتفاقاً ـ على ما يبدو ـ إذ أجابني مسؤول الخزينة : «آه ، اكثر من النصف ، على ما أعتقد .» فقلت في سريّ : «سيكون اكثر بكثير» .

واستمرت عمليتا التحميل والنقل طوال ثلاث ليالٍ ، من السابعة مساء حتى الصباح . وكانت تلك الليالي دامسة الظلمة لا ينيرها القمر . وكانت البلدة تخضع لنظام إطفاء الانوار الصارم ، ولم يكن بوسعنا استخدام أنوار السيارة الامامية . وأحياناً كان أحد السائقين يفتقد الشاحنة التي امامه ، الأمر الذي كان يقطع صف العمود المتقدم . وقد انتابني الكثير من المخاوف في هذا المجال ، ذلك بأن سائقي الدبابات السوفيات ، على الرغم من ارتدائهم الملابس العسكرية الاسبانية ، لم يكونوا يعرفون كلمة اسبانية واحدة . تُرى ، ما العمل فيما لو أوقفوا من قبل دورية عسكرية ، واعتبروا جواسيس ألمان؟ فعدالة الحرب الاهلية يمكن أن تكون سريعة ومتهورة . ولنفرض جدلاً أن الشاحنات فُتّشت؟ فالانباء عن أن أجانب يهربون بشاحنات محملة بالذهب ستطلق شرارة عنف سياسي .

وكان ثمة خوف من إمكانية قصف جوي ألماني . فالكهوف المجاورة ملأى بالمتفجرات ، وضربة مباشرة يمكن أن تعني النهاية بالنسبة الينا جميعاً ، كما يمكن أن تغرق سفننا كلها في الميناء .

لم أكن أنام إلا مدة اربع ساعات نهاراً . وكان البحّارة المحتجزون في الكهف

يناموں ممددين أرضاً بين الشحنة والشحنة . وكنا نقدّم اليهم السندويتشات والقهوة ، والمشروبات الباردة ، والفستق . وكان الكثيرون منهم يقضون الوقت في لعب الورق . وتشاء سخرية الأقدار ان يراهنوا في لعبهم على نقود نحاسية ، وفي بعض الأحيان على الفستق ـ والذهب بالملايين يحيط بهم !

وحالفنا الحظ حتى الليلة الثالثة والأخيرة . فحوالى الساعة الرابعة صباحاً حلّقت قاذفات القنابل الالمانية فوق سلسلة الهضاب المنخفضة . وكان بوسعنا ، ونحن في الكهف ، ان نسمع صوت سقوط القذائف على الأرصفة . وقد علمت من السائقين العائدين ان الالمان اصابوا سفينة شحن اسبانية راسية بالقرب من سفننا . وقررت إنهاء العملية وارسال سفني خارج الخليج بأسرع ما أمكن .

لما أرسلت آخر شاحنة في تلك الليلة سألت المسؤول عن الخزينة المشرف على العملية عن رقمه الأخير ، فأجابني : «إني أقدرّه بـ ٧٨٠٠ صندوق ، حوالى ثلاثة أرباع كمية احتياطي الذهب .

في الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٥ تشرين الأول ، وُضع آخر صندوق على متن السفينة . وقد دهمتني لحظة غير مريحة ، ولكن لم يكن منها بدّ ـ فقد طُلب مني إيصال !

وفي محاولة مني لتجنّب احتقان الدم في عينيّ الرجل المحزنتين ، قلت بكل برود : «ايصال؟ ولكنني ، يا رفيقي انا لست مخوّلاً إعطاء اي ايصال . لا عليك ، يا صديقي ، سيصدره مصرف الدولة في الاتحاد السوفياتي بعد أن يتم التحقق من كل شيء ، ووزنه .»

فلهث الرجل ، وقد صُعق في مكانه . وبالكاد استطاع الهمس بكلمات متماسكة . لم يفهم . . . كان يمكن أن يعني ذلك حياته في تلك الأيام . . . هل ينبغي له الاتصال بمدريد تلفونياً؟

لم أشأ أن ادعه ينشر الذعر بالاتصال بالتلفون . وقد اقترحت عليه بدلاً من ذلك ان يرسل مندوباً عن الخزينة مع كل سفينة من السفن الأربع كمرافق رسمي للذهب . وفي ضوء المنطق البارد لم يكن هذا التنازل يعني شيئاً . ولكن الرجل الشديد

الاضطراب تمسّك بذلك .

بعد ساعتين اثنتين ، أبحرت السفن . وأخيراً بات في وسعي أن أعلم موسكو أن الشحنة متجهة شطر أوديسا .

في ما بعد ، وبفضل مسؤولين من الاستخبارات الرائحين والغادين بين روسيا واسبانيا ، تسنّى لي أن أجمع معاً تفاصيل النهاية السوفياتية للعملية .

لقد هبط أوديسا عدد كبير من كبار مسؤولي مصلحة الاستخبارات ، من موسكو وكييف .وهناك ، وطوال بضعة أيام عملوا في تفريغ السفن من الذهب ، وحمل الصناديق الى قطار حديدي خاص . ولما غادر القطار متجهاً صوب موسكو ، رافق الشحنة المئات من الضباط .

في الليلة التي أعقبت وصول الشحنة الى موسكو ، أقام ستالين حفلة سخية على شرف كبار ضباط الاستخبارات للاحتفال بنجاح العملية .

وقد نقل يجكوف الى احد أصدقائي كلمات ستالين المرحة : «لن يروا أبداً ذهبهم ، تماماً كما أنهم لا يرون آذانهم !»

في الشهور الاحدى والعشرين المنقضية بين «العملية ذهب» وردّتي عن النظام السوفياتي ، كنت على اتصال دائم بالزعماء الجمهوريين الاسبان ، ولكن القضية ظلت سراً خفياً ومؤلماً في ما بيننا . كنت واثقاً من أن عملهم بدأ يتجلى لهم كأنه خطأ جسيم جداً . والمرة الوحيدة التي ذُكر فيها الموضوع كانت خلال محادثة بيني وبين نغرين الذي كان آنذاك رئيساً للوزراء . سألني : «أتذكر اولئك الرجال الاربعة الذين وُضعوا على مفنكم منذ سنة؟ إنهم ما يزالون في روسيا . إني لأتساءل لماذا لا يسمح لهؤلاء المساكين بالعودة الى الوطن؟» وبعد ذلك بفترة طويلة اكتشفت أنه سُمح لهم بمغادرة الاتحاد السوفياتي ، ولكن بعد انتهاء الحرب الاهلية الاسبانية .

ولا يستبعد أن يكون الجنرال فرنكو قد عرف بأمر الذهب المفقود إثر استيلائه على مدريد . ولكن لم تصدر اي كلمة في هذا الصدد من جانب حكومته طوال ثماني عشرة سنة . وكان لا بد من أن تنهار العملة الاسبانية التي كانت ضعيفة إذ ذاك ، فيما لو عُرف ان الصناديق الأهلية كانت فارغة تقريباً .

وقُطع الصمت الرسمي في كانون الاول ١٩٥٦ ، عقب وفاة نغرين . فبفضل أوراقه الشخصية ، أكدت وزارة الخارجية الاسبانية ، أنها تمكنت أخيراً من استعادة ايصال رسمي بالذهب المودع في الاتحاد السوفياتي . وما هي إلا بضعة شهور ، حتى ظهر مقال ساخر الى حد بعيد ، في الجريدة السوفياتية الرسمية «البرافدا» ، فيه اعتراف بأن زهاء ٥٠٠ طن من الذهب قد تسلّمها الاتحاد السوفياتي في السنة ١٩٣٦ ، وأصدرت الحكومة ايصالاً بذلك . ومضى المقال يقول إن الذهب هذا كان لضمان تسديد أثمان طائرات ، وأسلحة ، وسلع أخرى سوفياتية سُلمت الى الجمهورية الاسبانية . ولم يُنفق هذا المبلغ كله ، بل انه بقي لروسيا في ذمة الاسبان مبلغ ١٧ مليون جنيه استرليني ! وما يزال الموضوع عند هذا الحدّ .

ملحق مصوَّر

٢ - من التاريخ الروسي



لينين في موسكو ، في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ «السيد اوليانوف أدى واجبه . . .»

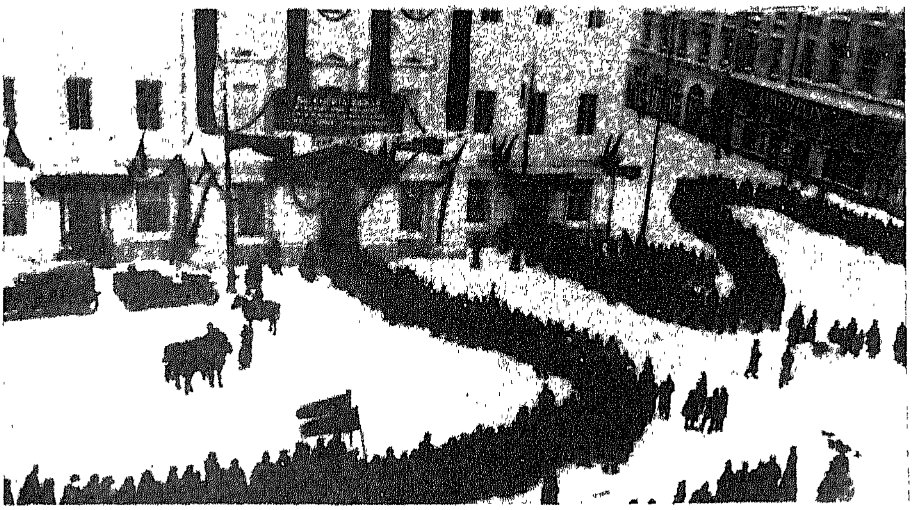


كلارا تسيتكن .



إليانور ، ابنة كارل ماركس .

سنة ١٩٢٤ : مأتم لينين في موسكو . الجماهير أمام مقر النقابات .



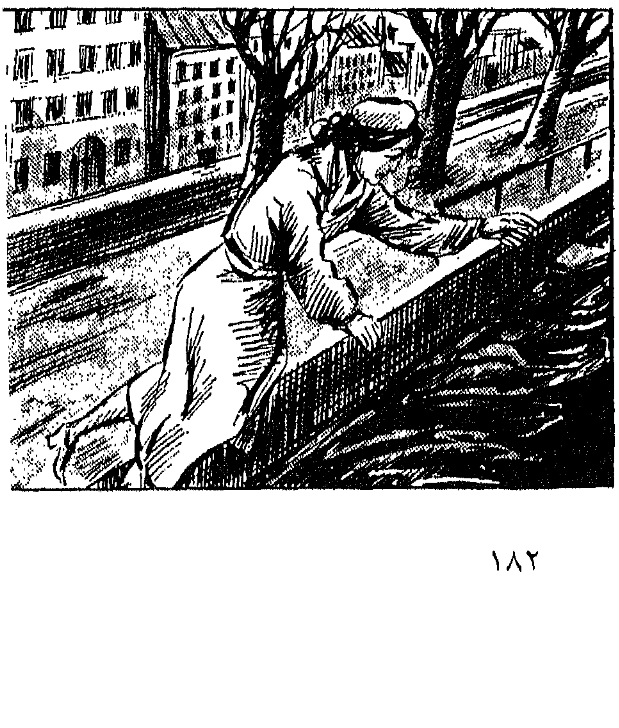


في آب ١٩١٨ ، وعقب مغادرة لينين اجتماعًا في موسكو ، تبعته امرأة كانت تراقبه عن قصد طوال الاجتماع ، يُعتقد أنها المرأة الى اليمين (دورا) التي أطلقت عليه ثلاث طلقات من مسدس جرحته في كتفه ورئته!



(١)

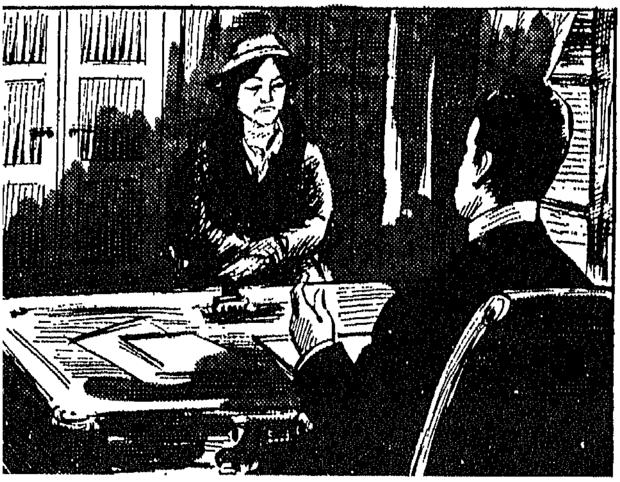
أنستازيا في صور



(٢)



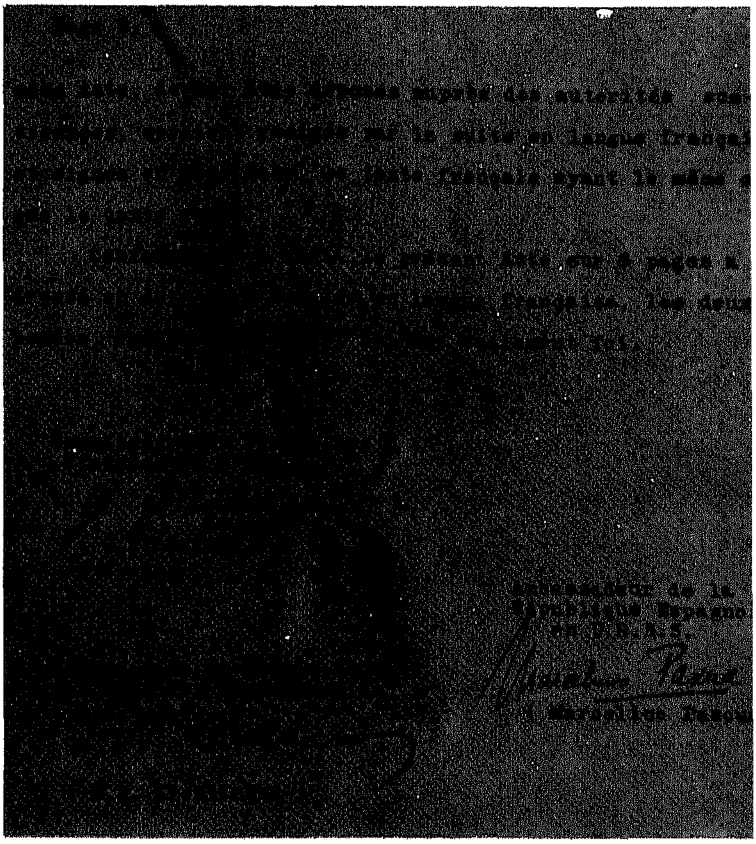
(٣)



(٤)



هل ماتت أنستازيا هنا؟ الصورة التي حملها ستودارت معه من سيبيريا سنة ١٩٢٠



auprès des autorités

par la suite en langue français

le texte français ayant la même

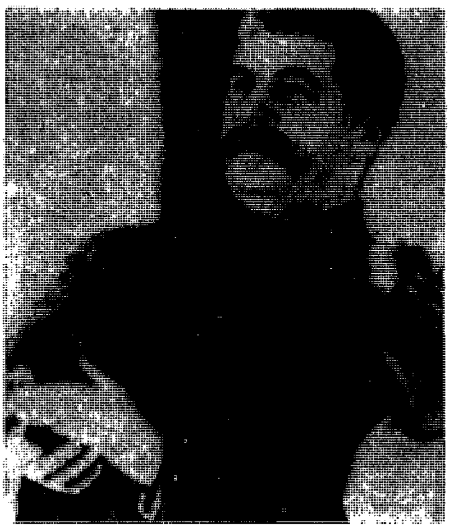
présent Acte sur 5 pages

langues française, les deux

Ambassadeur de la
République Espagnole
en U.R.S.S.

Marcelino Pascua

بعد الكشف عن السر : صفحة التواقيع من ايصال مؤرخ في ٥ شباط ١٩٣٧ ، يفيد بوصول ٨٧٠٠ صندوق من الذهب من اسبانيا ، «لصيانته» في موسكو .



ستالين

٣ - من التاريخ الايطالي

- ☐ تقليد آل بورجيا.
- ☐ كاليوسترو، الكونت المزيّف، يشغل اوروبا بأكاذيبه البيضاء.
- ☐ النصّاب الذي اختلس موسوليني بمهارة.
- ☐ الكونت غراندي: أحد أقطاب الفاشيستية، يدافع عن نفسه في معرض اتهام موسوليني.
- ■ ملحق مصوَّر

تقليد آل بورجيا

«الجنس البشري مستعد دوماً لأن يكشف تجسيد الفضائل البشرية أو العيوب البشرية في بعض الأشخاص النموذجيين الموجودين في التاريخ او في الحكايات .» هكذا كتب المؤرخ الالماني غريغوروفيوس ، الذي ذهب في القرن التاسع عشر نوعاً ما الى تبرير سلوك لوكريتسيا بورجيا . ولكننا لسنا معنيين بخاصة بلوكريتسيا وحسب ، لأن أخاها سيزاره وأباها ألكسندر نالهما ما نالهما أيضاً على ايدي مؤرخين عديمي الضمير .

بالوسع ايجاد المدافعين دوماً عن اي شرير في التاريخ ، ولكن على الرغم من ذلك فإنه غالباً ما يحدث أن يكون هناك مؤرخون كثر ميالون الى القدح والطعن بسلوك شخصيات تاريخية ، كما أن هناك اولئك الذين يودّون أن يبرئوهم . وقد أجريت محاولات لتبرير كل من سيزاره ولوكريتسيا ، ولكن قليلة هي الجهود التي أعلنت على الملأ ، في حين أنه ليس ثمة اي جهد لتبييض ساحة ألكسندر . فقد وُصف كثيراً بمثل هذه العبارات «وحش الفساد» ، و«تجسيد كل ما هو شر» ، «وتجسيد كل خطيئة عرفتها البشرية» .

ويقود التفكير المتزن كل ذي عقل نزّاع الى الانتقاد ـ وكل صاحب قدر لا بأس به من الفطرة السليمة ، وذلك شيء نادر جداً بين المؤرخين ـ الى الارتياب في سمعة بهذه الشناعة ، وبصراحة ، حتى بلا اي قرينة لدعم أي تبرير ، فإن صورة ألكسندر ملأى بالتفاهة ، والفكرة المبتذلة ، وملخص المراجع ، والهراء لتُحمل على محمل الجدّ . فالتنقيب المحكم في المصادر المعاصرة ، والرسائل تقدّم الينا صورة تختلف كثيراً

عن التسلسل الغريب للأساطير التي تعتبر تاريخاً جدياً .

مما لا شك فيه أن مطامح ألكسندر كانت كلها تقريباً ذات طبيعة دنيوية ولكنه ، على أي حال ، لم يكن البابا الاول ، وبلا أدنى ريب البابا الأخير ، ذا المصالح الزمنية ، وقد كانت اهدافه التوسعية من اجل البابوية ، كما كانت من أجل آل بورجيا . وكانت البابوية قد مرّت حديثاً من خلال أكثر الحقب قذارة من حيث الدنيويات ، تعرف باسم الانشقاق الكبير ، وهذا هو الاسم الذي عُرف به نصف القرن عندما تنازع باباوان اثنان من اجل سيادة الكنيسة ، ودام من السنة ١٣٧٨ الى السنة ١٤١٧ . فقد ابتليت الكنيسة بالمشهد المخجل للقيادة المنقسمة ، عندما انتخب الفرنسيون بابا ، هو كليمان السابع ، مقره في مدينة أفينيون الفرنسية ، في حين كان في روما بابا آخر ، هو اوربان السادس ، تدعمه تقريباً كل البلدان في العالم المسيحي الغربي .

وكان وضع الكنيسة في ذلك الوقت فاضحاً عموماً ، وسلطة البابوية قد أسيء استعمالها بصورة مخجلة من اجل أهداف سياسية . وانتشرت قصص شراء المناصب الكهنوتية وبيعها ، والفساد وحياة الفجور في البلاطين البابويين معاً ، عبر اوروبا ، وأثارت بالطبع ، الاستياء ، والسخرية في كل بلد ، وبخاصة في انكلترا . وكان هذا عنصراً من العناصر التي أسهمت في نجاح المصلح دجون وايكليف وتلاميذه ، اللولارديين ، وكذلك نجاح يان هُسْ في بوهيميا . وقدسُدَّ الانشقاق أخيراً السنة ١٤١٧ بانتخاب البابا مرتينوس الخامس في روما ، وقد اعترف به الطرفان . ولكن ، حتى مع ذلك ، وطوال نصف القرن التالي ، لم تتحسّن الأمُور كما كان ينبغي ، وظل هناك معسكران منفصلان من حيث المصلحة السياسية ، وكلاهما الآن في مكان واحد .

عندما انتُخب ألكسندر السادس لارتقاء السدة البابوية ، كانت حالة البابوية أكثر فساداً خلقياً . ولعلّ السر تشارلز اومان ، قد وصف ذلك أفضل من أي واحد آخر ، قال : «ان حالة الكنيسة في العالم المسيحي الغربي ، قد باتت ، مؤخراً ، باعثة على الأسى أكثر فأكثر . وأسوأ مثال كان في المقر العام . وبقدر ما كان الباباوات في القرن الرابع عشر ، فإن اولئك الذين كانوا معاصرين لسلالة تيودر المالكة ، كانوا أكثر

سوءاً . ولقد رأت روما ، بالتتابع ، ثلاثة باباوات مخزيين ، أولهم ألكسندر السادس ، رودريغو بورجيا الشهير ، وهو قاتل مستسلم لممارسة أشنع الشرور ؛ والثاني ، يوليوس الثاني ، وهو سياسي زمني بحت ، بلا ورع ، ولكنه ذو مهارة واضحة في التآمر والميل الى القتال ؛ والثالث ، ليو العاشر ، المحبّ للفنون ، وهو الاكثر من نصف وثني ، وقد قال مرة ان المسيحية هي خرافة مريحة للبابوات . وفي ظل مثل هؤلاء الأحبار ظهرت كل مفاسد الكنيسة في القرون الوسطى . فقد مورست جهاراً من قبل الكهنة اكثر من اي عصر سابق الامور الشاذة التالية : حياة الفساد ، انعدام التقوى العلني ، التدخل الطائش في السياسة الدنيوية ، عدم الاستقرار في مكان دائم ، إهمال كل الواجبات الروحية ، والطبع المادي .»

إن هذا الموضوع شيق للمطالعة ، ومعظمه صحيح دون أي ريب .

ذلك بأن حالة الكنيسة المحزنة أثارت ثورة في بلدان أوروبا ، وأدّت الى حركة الاصلاح الديني (البروتستانتية) .

غير أن ألكسندر لم يكن أسوأ ممن سبقوه ، وأرجو أن نُظهر أن معظم المزاعم المساقة ضده هي غير صحيحة ، في حين أنه ليس ثمة اي دليل على قتله أياً كان ، على الاطلاق .

إن تاريخ آل بورجيا لممتع ، ومليء بالإثارة والمغامرة ، والرومانس (قصص الحب الشريف او المغامرات الفروسية) ، ممزوجٌ بالخداع ، وبالموت المفاجئ ، والفساد وبخاصة الفسوق . وتكمن مسؤولية هذه الساغة (القصة الزاخرة بالاعمال البطولية) في المؤرخين الذين تقبلّوا الاساطير التي روجّها أعداء آل بورجيا . فالقصة الحقيقية هي أقلّ إثارة ، والغاية من هذا الفصل ليست الكشف عن قصة على غرار ما كان ألكسندر دوما يكتب ، بل تبديد بعض الخرافات السخيفة التي احاطت بأسرة بورجيا منذ العهد الذي عاشت فيه .

هناك بعض الجرائم في تقويم القانون لم يتّهم بها ألكسندر ، وكان ، في الحقيقة ، مذنباً في بعضها . ولكن لدى النظر في حياة الامراء الاوروبيين المعاصرين ، يتبيّن لنا أنه لم يكن وحده في شروره . وليس ثمة اي حكمة في محاولة التخفيف من الجرائم

التي نقرّ بأنه اقترفها .

ولد رودريغو بورجيا في اسبانيا السنة ١٤٣١ . وكان أفراد أُسرة بورجيا موهوبين وأقوياء في آن ، وكان محظوظاً من البدء لأن عمه آلونزو كان صاحب مقام رفيع في الكنيسة ، وأصبح البابا كاليكستوس الثالث السنة ١٤٥٥ . وبعد ذلك بسنة ، عُيّن رودريغو الشاب الوسيم البالغ من العمر خمساً وعشرين سنة ، كاردينالاً على يد عمه ، وأصبح في خلال سنتين نائب رئيس القضاة في الكنيسة الكاثوليكية . وتوفي عمه في السنة ١٤٥٨ ، وكان ينبغي لرودريغو الانسحاب من البلاط البابوي . إلا أنه ، على النقيض ، بقي في روما ، فكسب بجهده التقدم والنجاح الملحوظين في مهنته الفريدة في نوعها ، وبفضل مواهبه وقوته ، الأمر الذي جعله شخصية مشهورة جداً في تاريخ العصر .

منذ البداية لم يكن ذا شعبية في روما . كان له قلة من الاصدقاء ، واثنان منهم وحسب ، كاردينالان . غير أن التفضيل سعى اليه بشيء من السهولة ، بفضل مساعي عمه . وقد جرَّ هذا التقدم السريع بالطبع ، الى الغيرة والحسد ، وألفى نفسه مكرهاً على محاربتهما طوال حياته ، مما يفسّر الكثير من سلوكه في ما بعد . وليس بالوسع الانكار أن رودريغو كان يتمتع بقدرة فريدة على التآمر والنفعية ، غير أن الظروف التي عاش وسطها كانت تدعو بإلحاح الى ممارسة هذه الخصال . وقد نجح في نقل هذه المهارة الى ابنه سيزاره ، فكان كلا الأب والابن المثال لكتاب نيكولو ماكيافللي السياسي الشهير «الأمير» ، وهو دراسة عن الحكومة وفن الحكم ، تستند الى المبدأ القائل « الغاية تبرر الوسيلة» . وقد تبنّى هذه النظرية في ما بعد طغاة ودكتاتوريون عتيدون امثال نابوليون وهتلر ، وكلاهما عرف الكتاب جيداً ، وحاول تنفيذ دروسه وتعاليمه .

باتت هذه القدرة على التآمر مهمة في مرحلة مبكرة من حياة رودريغو العملية ، لأنه كان قادراً على تدبير أمر إيصال صديق له الى السدة البابوية ، هو بيوس الثاني ، في وجه معارضة جدية وقوية لحبريته خلال جولة انتصارية عبر ارجاء ايطاليا خلال السنة الاولى . وعندها حمل بيوس صديقه وسنده الشاب ، وخلال تجوالهما في

فلورنسا قابلا ، في جملة من قابلا ، شاباً وسيم الطلعة يدعى ليوناردو دا فنتشي . وقد ذُكر ليوناردو في ما بعد في حياته ، وتلقّى التشجيع على عمله الفنّي ، وعيِّن مهندساً في جيش سيزاره .

عاش رودريغو عيشة أمير جميل ، أنيق ، ورجل مجتمع في القرن الخامس عشر ، دونما اي اختلاف عن أمثاله من شبان القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد آذنت النهضة الأوروبية بعصر «تحوَّلت فيه الحسية ـ او القول بأن جميع الفكرات مستمدة من الاحساس وحده ـ الى الانغماس في الشهوات الحسية» ـ على حد تعبير كورفو ، صاحب كتاب «تاريخ آل بورجيا» . وماذا كان يُتوقَّع غير ذلك . فقد كانت المعرفة والغش يُعتبرَان نقيض المسيحية تماماً ، وقد اتّبعت الكنيسة منذ البدء سياسة التسوية ، اي التعليم والتربية ، وليس غير ذلك . ولذا عندما يقدَّم على الطبق الفضي نفسه الحسن والطبيعة ، فمن السخف أن يُصدَم المرء عندما يتصرّف أصحاب المقام الرفيع من الاكليريكيين مثل سائر الكائنات البشرية . وليس القرن العشرون ، بالمقارنة ، أفضل من القرن الخامس ، وكان رودريغو كائناً بشرياً .

وصفه المؤرخ الإخباري هييرونيموس بورشيوس بقوله : «انه طويل القامة ، متوسط اللون ، عيناه سوداوان ، وشفتاه مكتنزتان نوعاً ما . صحته قوية ، وهو بليغ الى ابعد الحدود ، ومحب جداً للشؤون الدنيوية .»

يبدو أن رودريغو قد انجرف في حياة التهتك والخلاعة بُعيد وفاة عمه كاليكستوس الثالث ، ذلك بأن ثمة رسالة كتبها البابا التالي اليه والى أصدقائه ، يلومهم فيها ، بنبرة أبوية ، على حياة الخلاعة والاستهتار . ووعد البابا بأن يغفر لهم شرط الاقلاع عن ملذاتهم الدنيوية . والرسالة مؤرخة في ١١ حزيران ١٤٦٠ وقد كُتبت في الحمّامات في بتريولو . ونشرها غريغوروفيوس بنصها الكامل في كتابه عن حياة لوكريتسيا بورجيا . ويُشير التعنيف الى ليلة حمراء خاصة في بلدة سيينا ، حضرها رودريغو ، وعدد آخر من الكرادلة . ويبدو أنه مورست فيها مختلف أنواع القصف والعربدة ، وأُطلق العنان للملذات الجسدية . غير أن البابا بيوس الثاني أكتفى بلومهم بلطف ، مشيراً الى ان هناك الآن ما يكفي من الاحتقار العام المكدّس على رؤوس الكنيسة . وقد

جاء في أحد المقاطع القصيرة : «افرض ، يا بنيّ المحبوب ، أنك على رأس أبرشية فالنسيا ، وكبير أساقفة اسبانيا ؛ وأنك نائب رئيس ديوان الكنيسة ؛ وأنك تجلس وسط المستشارين الرئيسيين في مجمع الكرادلة . احكم بنفسك ـ هل من المناسب لمقامك الرفيع ان تحوّل الصبايا عن واجباتهن؟ وأن ترسل الهدايا من الثمار والخمر الى عشيقاتك؟ وأن تقضي حياتك كلها في استنفاد مباهج الشهوات الحسية؟»

وتسلّم رودريغو رسالة اخرى بعد بضعة أسابيع ، وقد صيغت بعبارات أقسى وأشدّ . وبعد خمس عشرة سنة وصلته ايضاً رسالة من بابا آخر . ويتضح من ذلك أنه لم يغيّر نمط حياته قط ، وفضلاً عن رغباته وشهواته التي لم تُروَ ، يبدو أنه كان يتمتّع بقوة هائلة وطاقة جسدية غريبة . وفي الواقع ، استمر في إطلاق العنان لشهواته حتى سن الشيخوخة ، ذلك بأنه في سن الثانية والسبعين كان عشيقاً لامرأة حسناء شابة هي جوليا فارنيزي ، رُزق منها طفلاً . وقد زعم ، في البدء ، ان هذا الطفل رُزقته جوليا من سيزاره ، ثم قيل إنه ابن رودريغو الذي حملت به ابنته لوكريتسيا . غير أن ذلك ليس سوى هذر خبيث ، ذلك بأن الطفل ترعرع في قصر لوكريتسيا وزوجها ، وكان امرأ ذا شهوات عنيفة .

وسواء أكان رودريغو داعراً ، كما يبدو ، أم لا ، فإن ذلك لم يؤثر قط في مستقبله العملي في الشؤون الاكليريكية . واذا كان البعض يُغرى بالانغماس بما يسّمى اللذات الشهوانية (ويمكن حتى أن يستسلم اليها) ، فإن ذلك لا يستتبع ان هؤلاء الجانحين ينبغي أن يصبحوا قتلة ، أو مسمِّمين ، أو مجرمين . فحياة التهتك ليست بالضرورة حجر رصف على طريق الخداع والقتل . لذا ، فمن الخطأ بناء الاتهامات ضد رودريغو على أساس نشاطه الشبق كشابّ . إن هذا النوع من التفكير والاستنتاج هو حكاية صبيانية . إنها ليست تاريخاً ، مثلما لا يسع احداً ان يعتبر الاتهامات ضد الملك رتشارد الثالث الانكليزي تاريخاً ، وهي الاتهامات التي تستند الى الفذلكة الزائفه أنه قضى في رحم أمّه سنتين ، وله طقم اسنان كامل ، وشعر يبلغ كتفيه ، وظهر معوجّ .

وتشير الرسالة الثانية من بيوس الى رودريغو ، بصورة خاصة ، الى بعض الزيارات الطويلة التي قام بها رودريغو واصدقاؤه الى سيدات من معارفهم . وليس ثمة

فضح لأمور اخرى محددة ، ربما لأنه لم يكن ثمة شيء من ذلك يستدعي اللوم والشكوى . وقد اعتبر البابا هذه الزيارات طائشة ، وليست مخلّة ، ولا سبب هناك لاعتبارها أي شيء آخر . ويمكن تبيّن مدى الطعن الذي تعرّض له رودريغو من أعدائه ، عندما يُجرى تحقيق في الوقائع التي تضمّنتها هذه الرسالة ، وسببها .

لقد تم تضخيم هذه الزيارات ، وجعلت حفلات عربدة ليلية ، وانغماساً في الملذات الحسية ، تذكرّ بقصص «ديكاميرون» لبوكاتشيو ، دونما أي تفكير أو إثبات ، ذلك بأن البابا لا يشير الى الليل مطلقاً . فلو كان ذلك صحيحاً ، لكانت حدثت فضيحة أشدّ وأدهى . وقد وقع المؤرخون في هذا الخطأ عبر الجهل . فالواقع أن الطريقة الايطالية في حسبان الوقت في القرن الخامس عشر ليست معروفة أو مفهومة على نطاق واسع . انها تختلف عن طريقتنا في يومنا هذا . ولذا ، فعندما يقال ان رودريغو كان يقوم بزيارات للسيدات في حدائقهن من الساعة السابعة عشرة حتى الساعة الثانية والعشرين ، فلا يعني ذلك من الساعة الخامسة مساءً الى العاشرة ليلاً . ذلك بأن الساعة الاولى بدأت بعد الغروب بنصف ساعة ، ولما كانت هذه الزيارات قد تمّت في الصيف (الرسالة مؤرخة في حزيران) ، فمن السهل ان يكون رودريغو قام بزيارته قبيل فترة الغداء ، وبقي حتى الساعة الخامسة . كان ذلك عملاً طائشاً ، ولكنه لا يعني أنه قصف او عربدة ، وليس ثمة أي تبرير للاستهتار الساخر من قبل المؤرخين في تسميتها عربدة ليلية . وعندما يسلك القادح المتعمد الطريق لتدمير سمعة ما ، فمن السهل تحويل خطأ الى جريمة .

ليس من شأننا محاولة التخفيف من سلوك رودريغو غير الاكليريكي والخليع نوعاً ما ، أو تجاهله ، فنحن مهتمون وحسب ، بالاشارة الى أن عدم التدقيق المهمل ـ او اذا شئت ، سوء التفسير المتعمّد ـ في هذا المثال الصغير ، يمكن ان يطاول شؤوناً أعظم . ومن المروّع التفكير كم حدث مثل ذلك في التاريخ ، وكم من الرجال حكم عليهم السلف بسبب تقدير او حساب خاطئ ، أو تزوير للوقت .

كان لرودريغو عدد من الاولاد خارج نطاق الزوجية ، من امرأة رومانية معروفة جداً تدعى فانوتسا كاتانيي ، وهي حسناء ، ولكنها قليلة الاحتشام . احتفظت بحبه

طوال عشرين سنة ، وأنجبت له ثمانية أولاد . لم يمدحها أي شاعر ، ولا نعرف عنها إلا الشيء القليل ، باستثناء أنها كانت سعيدة جداً مع رودريغو ، وأنها تزوجت ثلاث مرات ، وانها رُزقت هؤلاء الاولاد من رودريغو ، وعرفوا بأنهم أبناء الأخ الكاردينال ، خلال فترة زواجها من الآخرين ! فلما اتخذ رودريغو عشيقة أخرى هي جوليا فارنيزي ، يبدو أن فانوتسا كانت راضية ، لأن اولادها كانوا ينعمون دوماً بالعطف والتقديم .

أبصر الإبن الأول جيوفاني ، النور السنة ١٤٧٤ ، وتوفي السنة ١٤٩٤ ، في ظروف مأساوية . كان دوق غانديا ، وكان من ذريته دون فرنشيسكو بورجيا ، من الرهبانية اليسوعية ، وقد طوِّب قديساً في ما بعد باسم القديس فرنسيس بورجيا . وولُد سيزاره السنة ١٤٧٦ ، وقُتل السنة ١٥٠٧ . كان أبرز أفراد الاسرة من حيث الحظوة والشهرة . فإليه استند رودريغو لما أصبح بابا ، في آماله لتوسيع وتكبير أُسرة بورجيا ، وتوحيد الولايات الايطالية . وولُد جيوفري السنة ١٤٨١ ، وقضى مجهولاً ومغموراً . لوكريتسيا أبصرت النور السنة ١٤٨٠ ، وتوفيت كدوقة فيريرا ، السنة ١٥٢٩ . وهي أكثر أفراد الأسرة من حيث وفرة الطعن والقدح في سلوكها . ذلك بأن الاسطورة قلما توقّفت عن تكديس العار والخزي على ذكراها .

وقد تزوجت لوكريتسيا ثلاثاً . وكان جيوفاني آخر أبناء رودريغو ـ وقد سمّي كذلك لأن ابنه البكر قُتل في ظروف رهيبة . وكان جيوفاني الثاني هذا ابن رودريغو وجوليا فارنيزي . وقد مرَّ معنا أن ألكسندر اتُّهم بسفاح القربى مع اخته ، فكان جيوفاني نتاج ذلك . وهذا أمر من السخف بمكان كبير . لقد تربّى الطفل في رعاية لوكريتسيا وزوجها الثالث ألفونسو ديستي ، المعروف بعواطفه الملتهبة العنيفة ، بحيث أنه ما كان يمكن ان يقترن بامرأة متهمة بسفاح القربى ، في حين كان بإمكانه أن يعقد قراناً أفضل كثيراً : إن اتحادهما زواج حقيقي ، وتهمة سفاح القربى لا تستحق اي اهتمام بعد .

خلال ولاية رودريغو كنائب رئيس الديوان ، كان للأسبان الأكثرية في الفاتيكان ، ومع أنه كان هناك فترة اربع وثلاثين سنة بين ولاية كاليكستوس الثالث ورودريغو ،

البابوين من آل بورجيا ، فإن نفوذ أُسرتهما كان قد تأمن ، واستمر يتضاعف . ومع وصول رودريغو الى السدة البابوية ، انجز الفريق الاسباني تطوره الكامل . وقد انتج المزج الاسباني والايطالي للسلوك ، في ما بعد ، نماذج جديدة من القوة الاستثنائية . ومع ان نفوذهما أثبت أنه قاس ولا يرحم بالنسبة الى مستقبل البلاد ، فان الخلافات بين الامتين باتت اعمق وأكثر ديمومة . حتى اليوم ، فإن بعض الأسر تتذكر الصراعات التي اشترك فيها أجدادها . وفي كاليكستوس ، ورروديغو ، وسيزاره ، اتّحدت عبقرية ايطاليا واسبانيا المزدوجة . وكان العنف ، وقوة الهدف ، والدهاء السياسي دوماً في خدمة القوة .

ان اول زعم خطير يساق ضد رودريغو هو أنه اشترى العرش البابوي .

يُعرف شراء المناصب الاكليريكية بالسيمونية ـ ولم يفتأ المؤرخون يرددون بعبارات إحتياطية أن رودريغو مارس أشنع مثال لهذه الخطيئة ، ولكن هذه هي الوقائع .

توفي البابا اينوسان الثامن في ٢٥ تموز ١٤٩٢ ، وكان هناك ، في ذلك الوقت ، سبعة وعشرون كاردينالاً في المجمع المقدّس . اربعة منهم كانوا في الخارج ، ولا يسعهم بلوغ روما ضمن مهلة الأيام التسعة التي ينص عليها النظام ، وكان واحد منهم من أفراد أُسرة بورجيا .

فحضر الاجتماع السري لانتخاب البابا الجديد ثلاثة وعشرون ، بمن فيهم رودريغو ، وعدوه اللدود جيوليانو ديلّاروفيري ، الذي أصبح في ما بعد البابا يوليوس الثاني . وكان الكرادلة معتادين على حضور الانتخاب ، الذي كان عملية روتينية مطلعين عليها تمام الاطلاع . ولكن في تلك المناسبة لم يكن بوسعهم التكهن عن الانطباع الذي يمكن أن يتركه على تاريخ العالم المرشح الذي ستقترع له اكثريتهم . وكان رودريغو ، بصفته نائباً لرئيس الديوان مرشحاً قوياً ، وبصفة كونه ابن أخي بابا سابق ، فقد كان يتمتع بميزة ملحوظة . ولكن جيوليانو ديلّا روفيري ، منافسه ، كان كذلك ابن اخي بابا ، هو سيكستوس الرابع .

كان بين أحبار رودريغو كرادلة ذوو نفوذ أمثال أسكانيو سفورتسا ـ فسكونتي

وجيرولامو ديلّا روفيري ، ابن عم جيوليانو . وكان رودريغو قد اتُهم بأنه حصل على دعم هؤلاء السادة بالهدايا ، والوعود بالمناصب الرفيعة ، وبأنه نقض هذه الوعود عندما تربّع على عرش القديس بطرس . وفضلاً عن ذلك ، زُعم أنه رشا اربعة عشر كاردينالاً آخرين ، الأمر الذي أتاح له ان يجمع دعم ثمانية عشر كاردينالاً ـ وهو عدد كافٍ لاحراز النصر في الانتخاب بكل راحة .

إن الاعتراضات على سلوك رودريغو وأهليته للانتخاب نُقضت في ضوء المعايير الاخلاقية في القرن الخامس عشر . ولما كان بلا ريب ، أغنى الكرادلة ، ويتمتع بأرفع المناصب ، وينبغي التخلّي عنها جميعاً في حال نجاحه في الانتخاب ، فانه يسهل علينا أن نرى كرادلة عديدين ، بمبادرة شخصية منهم ، يدركون أنه في مصلحتهم مساندته .

واذا كانوا حسبوا أنهم سيكسبون مادياً باقتراعهم لرودريغو ، فليس لنا أن نلومهم لاقتناصهم هذا الوضع الغريب . كما أنه لا مجال لأن يوصم بسبب نقضه وعوده التي ليس ثمة اي دليل كان على أنه قطعها لهم ، في الدرجة الاولى . وهذا بحد ذاته لا يشكل اي سيمونية ، وتقضي سلامة الادراك بأن يتم إثبات السيمونية ـ مثل اي جريمة اخرى ـ مما لا يقبل الشك ، لكي يعترف بأنها ارتُكبت حقاً .

كان المحرضّ الرئيسي على هذه التهمة (السيمونية ، أو شراء المنصب الإكليريكي) روفيري ، منافس رودريغو . ولا يمكن الاعتماد على كلام رجل يخسر الكثير فيما لو انتصر خصمه . وقد نجح رودريغو بإصرار حيث أخفق روفيري ، ولم تتوقف العداوة بين الاثنين ، ولم تنتهِ لدى وفاة الاول ، لأننا سنرى ، في ما بعد ، ان موت سيزاره كان من تدبير روفيري .

كان ترشيح روفيري للسدة البابوية نتيجة محاولة قام بها الملك شارل الثامن الفرنسي لإضعاف قوة الاسبان في البلاط البابوي . وقد وضع شارل مبلغ ٢٠٠ ألف دوكاتية (عملة ذهبية اوروبية) في مصرف ، في روما ، بهدف شراء الاصوات ، وقد صمم جدياً على استخدام كل المبلغ من اجل هذه الغاية . أليست هذه سيمونية؟ أوَلم يتغاضَ عنها الرجل نفسه الذي تجرّأ على اتهام منافسه بها؟

وكان هناك مرشح ثالث ، ولكن حظه كان ضئيلاً منذ البداية نظراً الى أنه لم يكن مدعوماً الا من كاردينال واحد وحسب . وروفيري نفسه لم يكن حظه بأفضل كثيراً منه ، لأن ابن عمه نفسه اقترع لرودريغو ، وكان مكروهاً كرهاً عاماً . ولم يكن يتمتع بأي من ميزات رودريغو ، ولكنه لما اصبح بابا في ما بعد ، تشاء سخرية الأقدار أن يكون الرجل المسؤول عن انتخابه لم يكن إلا سيزاره بورجيا الذي كوفئ بالخداع والموت .

لم يكن المال الفرنسي سوى مقدار صغير جداً بالقياس الى ثروة اسبانيا ، إلا أنه إذ ذاك ، لم يكن ثمة أي اصوات للبيع ، على أي حال . فقد كان بإمكان سفورتسا ، ممثل البيت المالك في ميلانو ، ترشيح نفسه للانتخابات ، وكان يمكن ان يحظى بتأييد كبير . ولكنه اختار عدم ترشيح نفسه ، وألقى بكل ثقله مع رودريغو . الأمر الذي يعني الكثير في ما خصّ فرص النجاح التي توفرت لرودريغو ، والشهرة العامة والاحترام اللذين كسبهما . وقد اتقن سفورتسا عملية الطواف من اجل التماس الاصوات الانتخابية ، وكانت حملته قوية وناجحة .

ارتدى الانتخاب بمجمله طابع النزاع بين فرنسا واسبانيا ، وكانت النتيجة انتصاراً رائعاً لاسبانيا . وفي ١١ آب ١٤٩٢ ، تم عدّ الاصوات ، فانتخب رودريغو بأكثرية ساحقة . وعندها اتخذ اسم ألكسندر ، وبات يُعرف باسم البابا ألكسندر السادس . وكما جرت العادة ، وزّع كل ثروته ومناصبه .

إذا كانت هذه الأشياء ، في ممارسة العرف البابوي ، تُعطى - وتُقبل - كثمن للاصوات ، فإن السيمونية تكون قد ارتُكبت حقاً . ولكن من المهم أن نتذكّر انه في ذلك الوقت ، لم تُثرقط أي تهمة مماثلة . وعندما اثيرت ضده هذه التهمة ، بعد فترة من الزمن ، فقد كان روفيري ، المرشح الخاسر هو مثيرها . وكان سبق لأربعة كرادلة ان أعلنوا قبل الانتخابات عن نيتهم في رفض أي رشوة مهما تكن ، فاذا بهم يقترعون بالفعل لرودريغو ، وليس ثمة اي دليل على أن عدداً آخر من الكرادلة باعوه أصواتهم . ولا يمكن لومه على التنازل عن هذا العدد من المناصب - فقد كان لديه الكثير منها ، وكان من الطبيعي أن يمنح اصدقاءَه ذلك .

يخبرنا فريدريك رولف، الذي تسمَّى البارون كورفو، عن أمر رسمي بابوي أصدره روفيري عقب وفاة البابا ألكسندر السادس . وقد دعي «الانتخاب السيموني» ، وهو أبطل كل انتخاب اكليريكي يُدبّر بواسطة السيمونية . ويضيف كورفو أنه اذا كان هذا الأمر يُطبَّق على ألكسندر ـ كما يزعم الذين يحطون من سمعته أنه كذلك ـ فان ألكسندر لم يكن قط بابا ، ولذا ، فلا يمكن أن يهاجم بصفة بابوية . إن ذلك منطق ملتوٍ ، ولكنه لا يقلّ بطلاناً عن منطق الذين ينقصون من قدر ألكسندر ، والكثير من مزاعمهم سخيفة إلى درجة لا تصدَّق .

خلال الفترة بين وفاة البابا اينوسان الثامن وانتخاب ألكسندر ، كان هناك اضطراب مدني في روما ، وأرتكبت اكثر من مئتي جريمة قتل لا معنى لها .

وذلك ليس غير عادي على الجملة ، ذلك بأنه يحدث عادة في الانتخابات الهامة في كل ارجاء العالم ، اضطرابات وقلاقل ، باستثناء انكلترا . وكان اول أعمال الكسندر عقب تربّعه على السدة البابوية ، وضع حدّ لهذا الاضطراب ؛ وفعل ذلك بقوة وسرعة . وتمت تسوية النزاعات في المحاكم بدلاً من الشوارع ، ودُفعت الرواتب الرسمية المتأخرة حتى ذلك اليوم .

وتم إذ ذاك مواصلة الترتيبات من اجل حفلة التتويج ، وبدأت ولايته الحبرية .

إن الاتهامين الاكثر جدة وخطورة كانا ، إذاً ، عدم أهليته لاحتلال المنصب البابوي ، وأنه اشترى منصبه هذا بالمال والوعود . وقد بيّنا أنه ، على الرغم من حياته الداعرة لم يكن أسوأ من اي كاردينال كان يمكن أن يرشح نفسه في انتخاب البابا . كما بيّنا ان التهمة السيمونية لم تكن تقوم على أي أساس مادي ، وأنه اتهم بها من رجل أخفق في الانتخاب إخفاقاً ذريعاً . وقبل أن نتمكن من تقبّل هذه الاتهامات ينبغي ابراز المزيد من الدلائل والقرائن . ولكن يبدو أن ذلك لن يحدث مطلقاً .

ماذا نعرف عن سيزاره بورجيا؟ أي سمعة عزاها اليه المؤرخون؟ هل باستطاعتنا تصديق ماكيافللي ، الذي خدعه الملحق في حكومة فلورنسا ، وقد عرف سيزاره حق المعرفة؟

ترك غريغوروفيوس والمؤرخ الإخباري اليسوعي ، الأب أليسون ، الى الخلف

تقديراًمجرداً ، لا يشوبه شيء من اللائحة الهائلة الزاخرة بالاساطير حول آل بورجيا .

وقد اعتبر ماكيافللي سيزاره رجلاً عبقرياً ، مدركاً تماماً ضخامة العمل الموكول اليه القيام به ، على الرغم من الوسيلة التي كان يستخدمها لتحقيقه . وحسب غريغوروفيوس سيزاره مغامراً ، وكتب يقول : «لو عاش سيزاره زمن سقوط الجمهورية الرومانية ، لكان حقق سمّواً في التاريخ . إلا أنه يفتقر الى الطاقة الخلاقة التي هي جزء اساسي في العظمة الأخلاقية . كان مشدوداً الى بابوية والده ، وقد وُلد ومات معه . كان الثمرة غير المتعذّر ضبطها لمحاباة الأقارب . وكان تطور قوّته سريعاً وعنيفاً ، مثل تطور النبتة السامة ، ولكنها لم تعمّر سوى ثلاث سنوات .»

ولاحظ الأب أليسون الذي يتجاهل قسوته ، أن سيزاره كان قادراً على تحقيق كل المشاريع الطموحة التي فكرّ فيها ، بفضل مزاياه الرائعة ، الطبيعية منها والمكتسبة . وهو يقول : «ان عبقريته ، وحصافته ، وإدراكه كل شيء ـ كل ذلك كان بارزاً ، وكانت معرفته الشاملة كل فرع من الفنون والعلوم الانسانية ، مزية فائقة الاهمية له في الادارة ، وقيادة الجنود وتنظيمهم . وكان يُعنى بتعبئة المساعدين الأكثر مهارة ، ولما كان له مجال الاختيار بين كل ما هو متوفر في ذلك العصر ، فقد استطاع أن يفعل تقريباً كل شيء يصمم عليه . وقد اكتسب الشهرة بفضل السلاح والسياسة بحيث ان كثيرين من الملوك والأمراء ، بمن فيهم ملكا اسبانيا وفرنسا ، سعوا الى التحالف معه .»

ان الحكم على سيزاره يصدر عن اكليريكي لهو شيّق ومهم . كان متقدماً بالنسبة الى عصره ، ويناقض تماماً حكم إكليريكيي اليوم . إلا أنه يستحيل مع ذلك ، تبرئة سيزاره ، وليست تلك غاية هذا الفصل . إننا معنيون ، وحسب ، بتبرئته من اثنتين من أشهر الجرائم التي تقترن به خطأ ، وهما قتل أخيه وصهره . وفي ما يلي وقائع «جريمتي» القتل هاتين .

في السنة ١٤٩٦ عُيّن بكر أبناء ألكسندر ، ويدعى جيوفاني ، دوق غانديا والموظف المسؤول عن الامن في نابولي ، قائداً عاماً للجيش البابوي . وكانت مواهبه العسكرية ملائمة تماماً لهذا المنصب ، ولكنه لم يكن قط القائد الشهير ، أو العبقرية

الاستراتيجية ، كما كان أخوه سيزاره . وبالتعاون مع الجيش النابوليتاني ، انصرف ألكسندر الى تحجيم البارونات الرومان الذين كانوا يتمتعون بقوة فائقة . وكان على رأس هؤلاء أسرة اورسيني ، الخصم اللدود لآل بورجيا . وسنرى ان هذه الاسرة هي أول من اتَّهم سيزاره باغتيال جيوفاني ، في حين أن ثمة احتمالاً كبيراً بأنها هي المسؤولة عن الجريمة . وخلال هذه الحملة ، كان جيوفاني بطلها ، وقد اعتزّ ألكسندر كثيراً بابنه الناجح . ولكنه ، مع ذلك ، كان شديد العناية والدقة في توزيع المغانم ، فتلقّى كل أبنائه حصصاً سخيّة . وهذا ينفي التأكيد أن سيزاره كان يحسد أخاه على ثروته ، ذلك بأنه بصفته كاردينالاً لم يكن مسموحاً له بتلقّي هدايا زمنية إطلاقاً . وكان في الواقع قد اصبح ثاني أغنى كاردينال في روما ، لأن التعويض عليه بإغداق المكاسب العديدة عليه كان كبيراً جداً . وكذلك ، لم يكن سيزاره يحسد اخاه على انتصاراته العسكرية ، لأنه ،بصفته كاردينالاً أيضاً ، لا يسعه الاشتراك في الحرب .

في ١٤ حزيران ١٤٩٧ ، أقامت فانوتسا كاتانيي مأدبة في دارتها على شرف ابنيها جيوفاني وسيزاره . وعقب المأدبة قرر الأخوان العودة الى المنزل ، الى الفاتيكان حيث كانا يقيمان ، وانطلقا على ظهر جواديهما شطر قصر نائب رئيس الديوان أسكانيو سفورتسا ـ فسكونتي . هناك قال جيوفاني لسيزاره إنه ذاهب وحده ليبحث عن اللهو والتسلية . واصطحب رفيقه المستأجر الذي كان يرافقه إلى كل مكان تقريباً ، واتجها شطر الحيّ اليهودي في روما . ولم يُرَ حياً بعد ذلك .

في الصباح عُثر على الرفيق في شارع غيوداي جريحاً جرحاً بليغاً ، وعلى شفا الموت . وبعد ذلك بنصف ساعة قضى دون أن ينبس ببنت شفة . وبلغ نبأ اكتشافه مسامع البابا ، ألكسندر ، فأرسل من فوره جماعات للبحث عن ابنه جيوفاني . ولدى هبوط الليل لم يكن ثمة اي أثر له ، فهلع البابا كثيراً . وأمر ، في صباح اليوم التالي ، بالبحث عن الغريق بالشبكة في نهر التيبر ، فأسفر ذلك عن التقاط جثمان جيوفاني وهو في كامل لباسه ، ومعه محفظة ملأى بالمجوهرات الثمينة لم تمسّ ، وعلى اجزاء مختلفة من جسده اكثر من عشرة جراح ، ربما تسبّبت بموته . هذا كل ما هو معروف من التفاصيل الراهنة لجريمة القتل هذه .

وانسحق قلب ألكسندر لوفاة ابنه ، واختفت صرامة الطاغية الزمني والروحي لتحلّ محلها العاطفة البشرية والحزن العميق . وتحدّث عن نيته في الاستقالة من منصبه ، واللجوء الى الريف . وأفرغ صناديقه من المبالغ الطائلة من المال التي خصّصها للكنائس والأديار ، وراح يعتمد أكثر فأكثر على ابنه سيزاره طلباً للراحة والدعم .

وحامت الشبهة حول كل من سيزاره وأسكانيو على الفور تقريباً ، ولكنهما أنكرا كل مسؤولية ، ويبدو أن البابا صدّق أقوالهما . على أي حال ، إن من الصعب ايجاد اي سبب يدفع أياً منهما على ارتكاب هذه الجريمة المنكرة . وقد كان ، ولم توجه اليهما اي تهمة . ولم يُكشف هذا السر قط ، الأمر الذي آذن بحصاد من الاساطير ، معظمها يلقي بالتهمة على سيزاره . وتناول التاريخ هذه الاتهامات الزائفة بطرب ، لأنها كانت تنسجم تماماً مع التقديرات الخاطئة حول حياة سيزاره وسلوكه التي حيكت دونما أي اعتبار للحقيقة .

بعد ستة أشهر أقنع سيزاره والده بأن يسمح له بالتخلّي عن الكنيسة ، وبالالتحاق بالحرفة العسكرية التي طالما تاق اليها . وكان قد اعلن عن نيته هذه قبل فترة من اغتيال أخيه ، ولكن البابا رفض السماح له بذلك .

وفي كانون الثاني ١٤٩٨ ، وبعد اكثر من ستة أشهر على وفاة جيوفاني ، سُمعت تتردد في البندقية اول شائعة حول قتل سيزاره أخاه . وإنه لأمر يثير الاهتمام أن يستغرق لصق التهمة بسيزاره حوالى ثمانية أشهر ، ولم تكن ، مع ذلك مباشرة . كانت مجرد ثرثرة ، وبدأت على مسافة اكثر من مائة ميل من مسرح الجريمة .

وفضلاً عن ذلك ، لم يكن ثمة اي دليل يدعمها . هل كان لآل اورسيني أي علاقة بالشائعة ، أو بالجريمة نفسها؟ ربما كان ذلك كذلك لأن آل أورسيني كان لهم مصالح في البندقية ، وكانوا يتلقون دعماً من هذه المدينة في حربهم مع ألكسندر ، وقد هُزموا هزيمة شنعاء في أكثر من مناسبة على يد جيوفاني والجيش البابوي . وكان ممثلوهم الرئيسيون في البندقية ساعة انطلقت الشائعة ، ولذا كان لديهم كل سبب لارتكاب ذلك النوع الايطالي الخاص من الثأر المسمى «فانديتا» بلغتهم . ولا يسعنا ان نثبت انهم

كانوا مذنبين ، ولكن كل شيء يشير الى ذلك ، بينما ليس ثمة ما يُظهر انه كان لسيزاره اي سبب للتخلّص من أخيه .

سوى أننا ، ههنا ، معنيون بتبرير سيزاره اكثر منا في موقف اتهام أحد آخر . يكفي إضافة نقطة واحدة ضد آل اورسيني ـ وهي أن الجريمة ارتُكبت في منطقة من روما ، تعتبر فيها أسرة اورسيني المسيطرة الأولى . وهذه المنطقة هي سانتنجيلو ، وهي قريبة من النهر . وقد عُثر على الجثمان في النهر . كان الدليل الظرفي المادي ضد آل اورسيني قوياً جداً ، ولكنه ليس حاسماً أو مقنعاً .

وجريمة الاغتيال الأخرى التي تُلصق بسيزاره ، تاريخياً ، هي خنق صهره ألفونسو الاراغوني زوج شقيقته لوكريتسيا . ففي ١٥ تموز ١٥٠٠ ، هوجم ألفونسو ، وكان في طريقه الى الفاتيكان ، على درجات كاتدرائية القديس بطرس ، على يد عصابة رجال مقنّعين . فجرح جراحاً بليغة ، ولكنه تمكّن من الزحف حتى القصر ، والتهاوي في حجرة البابا ، حيث كان البابا وسيزاره ولوكريتسيا يتجاذبون أطراف الحديث . وأُغمي على لوكريتسيا لدى رؤيتها زوجها ينزف بقوة ، فأمر البابا بحمل الجريح الى حجرة مجاورة . وقد توفي ألفونسو بعد بضعة اسابيع ، مخنوقاً ، على ما يُعتقد . وفي هذا المجال ، يزعمون أن سيزاره ردَّد : «أنا لم اجرح الدوق ، ولكن لو قمت بذلك ، لما كان الأمر اكثر مما كان يستحق .»

من هذه الوقائع البسيطة التي لا تساعد كثيراً ، ابتُكرت حكايات غريبة عدة . يروي لنا ناشر الرسائل الرسمية لدى باولو كابيللو ، المدّعي في مدينة البندقية (وقد نشرت بعد عدة سنوات بواسطة هذا الناشر الذي لم يعرف كابيللو) ، أنه ليلة وفاة ألفونسو ، دخل حجرته كل من سيزاره ، وأحد ضباط جيشه ميكيلوتو ، وقد خنقه هذا الأخير . ويورد هانز بورشارد رواية اخرى . فقد ارسل ملك نابولي علقته الخاصة نفسها الى ألفونسو لفصدة (ويبدو أنه تم تجاهل قضية نزف الكثير من دمه إثر الجراح التي أصيب بها !) وبينما وُضعت العلقة على جسد ألفونسو تمَّ خنقه ، ولكن على يد من ، لا أحد يعلم . وجاء خبر من مدينة بافيا ، بعد ذلك التاريخ ، يزعم أن سيزاره قتل صهره بيديه الاثنتين .

وتروي رسائل كابيللو المزعومة أن سيزاره اعترف بجريمته ، وقد حاول تبريرها ، غير أن بورشارد لا يورد شيئاً البتة حول هذه النقطة ، وقد كان في روما في ذلك الوقت . والروايات ملأى بالثغرات الساطعة ، ولا يوثق بها مطلقاً . وثمة حقيقة واحدة يمكن أن تبرّئ سيزاره ، وقد تجاهلها مبغضو آل بورجيا ، هي أن ميكيلوتو حكم عليه بأن يوضَع في المخلعة (اداة تعذيب قديمة يُمَطّ عليها الجسم) على عهد البابا يوليوس الثاني ، من أجل استخلاص الحقيقة منه . ومهما يكن الكلام الذي ردده ، فان المحققين كانوا راضين وقد أطلقوا سراحه .

وكان يمكن أن تكون وفاة ألفونسو طبيعية ، إما نتيجة للجراح ، وإما بسبب الالتهاب الذي اعتاد صيف روما أن ينشره . ويمكن أن يخطئ الجهلة في معرفة علامات الكزاز (التيتانوس) من علامات الخنق . ولما كان ألفونسو قد أصيب بجرح في فكّه ، وبجراح عدة في ذراعيه ، فإن هذا النوع من النتيجة ليس مستبعداً على الاطلاق . أما الجرح في الفخذ ، الذي كان يسبّب نزفاً دموياً مخيفاً ، فكان يمكن أن يلتهب من جراء الغنغرينا المتأتية عن النتانة وحالة الهواء غير الصحية والموبوءة في روما في ذلك الوقت . ونظراً الى أن الاقرباذين (مجموعة الادوية) كان موضوعاً لا يُعرف عنه الكثير آنذاك ، فإن النجاة من تسمم الدم كان أمراً نادراً . إذاً ، فمن الممكن أن يكون ألفونسو ذهب ضحية جراحه . وينبغي ان يكون هذا الحلّ للافتقار الى القرائن التي تثبت العكس .

وهكذا يصبح لدينا سبب وجيه لتبرئة سيزاره من الجريمتين .

ولنلقِ الآن نظرة على الجانب الأكثر إشراقاً في حياته ، وقد تغاضى عنه بعض المؤرخين الذين من عادتهم أن يكشفوا اسراراً شخصية أو وقائع مثيرة .

كاد سيزاره ينجح في توحيد الولايات الايطالية تحت ظل آل بورجيا ، وهو وضع كان يمكن أن يكون أفضل بالنسبة الى الايطاليين من المجموعة الحالية للولايات المتنافسة المتنازعة أبداً من أجل القوة التافهة التي تكسبها لبضعة اسابيع ، ثم تفقدها بالخزي وبهدر حياة الكثيرين . أما انه أخفق في ذلك ، فمردّه الى خطأ كبير جداً . فقد دعم ترشيح روفيري للسدة البابوية لدى وفاة ألكسندر السادس السنة ١٥٠٣ . وكان

خصماً ليوليوس الثاني منذ أمد بعيد ، ومن القوة بحيث كان بوسعه الحؤول دون انتخابه . ولكن لسبب غير مفهوم ، دفع حزبه الى مساندة عدو آل بورجيا . وهذا الرجل الذي كان يدين بانتخابه لسيزاره ، هو الذي قضى على سيزاره ، في كمين في اسبانيا ، السنة ١٥٠٧ ، في ظروف كان يمكن البابا أن يمنعها بسهولة . سندع ماكيافللي يقول الكلمة الفصل حول سيزاره . «ذلك بأنه بروحه الكبيرة وطموحه الذي لا يحدّ ، لم يكن بوسعه التصرّف غير ذلك التصرّف . فكل امرئ ، إذاً لدى تسلّمه إمارة جديدة ، يعتبر ضرورياً التخلّص من الاعداء ، ومصالحة الاصدقاء ، والسيطرة بقوة ، وجعل نفسه مرهوب الجانب ولكن محبوباً من رعاياه ، يتبعه جنوده ويحترمونه فضلاً عن سحق اولئك الذين يجرأون على إلحاق الأذى به ، وادخال تغييرات في النظام القديم للشؤون كافة ، مع كونه قاسياً متشدداً وأنيساً ، حليماً ومتحرراً ، يحلّ الجيش الثائر ويشكّل جيشاً جديداً ، ويحافظ على حسن العلاقات مع الملوك والأمراء على الصعيد نفسه الذي ينبغي ان يروا أن في مصلحتهم مده بالمساعدة ، ومن الخطر مضايقته . إن المرء لا يرى أمثلة أسطع على ذلك من أعمال سيزاره بورجيا .»

ومهما تكن هذه المزايا قاسية ولا ترحم ، فلا يمكن أن ننكر أنها ساعدت على توفير القيادة الناجحة ، وهي تميز ، بعد كل شيء عظماء رجال العصر . وعلى المرء أن يلائم نفسه مع متطلبات اليوم إذا كان يبغي البقاء حياً يُرزق .

وماذا عن لوكريتسيا؟ كانت الإبنة المفضّلة لدى ألكسندر ، وأبصرت النور في السنة ١٤٨٠ . ولوكريتسيا هي الأشهر في أسرة بورجيا ، واقترنت شهرتها دوماً بالتسميم . والحقيقة ان سم بورجيا ، كما يصفه كورفو كان السبب في ظهور اساطير صبيانية رائعة . ونظرة سريعة الى الوقائع ، مع ذلك ، ستبدي لنا أن لا أحد من أزواجها الثلاثة قضى بالسم على يدها .

ولا حتى أحد من أفراد أُسرتها . وبصورة خاصة لم يكن ألكسندر ، بالطبع ، ضحية السم الشهير الذي يحمله هو شخصياً ـ سم بورجيا . ومن المهم ان نفهم الوقائع المتعلقة بموته ، لأن لوكريتسيا اتُهمت بدس السم له خطأً .

في ٥ آب ١٥٠٣ ، أُصيب الكسندر بداء الزحار (الديزنطاريا) خلال فترة الحرارة الشديدة في صيف روما . ولم تكن بنيته قوية كما في السابق لكي يقاوم الحمّى ، فقضى في غضون اسبوعين . فاذا كان قد تجرّع السمّ ، كما يزعمون ليلة إصابته بالحمّى ، فإن ما يبعث على الدهشة الكبيرة أن يظل حياً طوال هذه المدة . وهناك رسائل مكتوبة بيد مدّعي فلورنسا في ذلك الوقت ، تبيّن بوضوح ان روما ضُربت آنذاك بوباء الحمّى ، وان الكثيرين يهلكون نتيجة ذلك . وقد كان ألكسندر وسيزاره على مائدة العشاء ليلة الخامس من آب ، ويزعمون انهم تسمّموا أثناء هذه الحفلة . غير أن الرسائل التي تصف نتائج الحمّى كتبت قبل الحفلة .

شفي سيزاره بواسطة نوع من العلاج الطبي القاسي الذي ترك فيه بعض الندوب ، ولكنه كان آنذاك شاباً . ولم يكن ممكناً أن يُتوقّع من امرئ جاوز السبعين ، وعاش عيشة ألكسندر ، أن ينجو من مرض عُرف عنه أنه مميت حتى في ايامنا هذه . لقد تسمم ألكسندر بالطبيعة ، ولم تقتله ابنته .

كانت لوكريتسيا تستمع بكل ما تشتهي فتاة صبية منذ مولدها . كانت جميلة وذكية ، ولطيفة ، ومتميزة في الكلام والسلوك . تلقت أفضل تعليم ممكن ، ولُقّنت تقريباً كل انواع الفنون ، من رسم ، ونحت ، وشعر ، وعلوم . وجعلها مولدها الاسباني ومحيطها الايطالي بارعة في اللغتين معاً . وتعرّفت الى أبرز وجوه النهضة الاوروبية ، واعتُبرت خبيرة في كل فرع من فروع الفن .

كان غريغوروفيوس اول مؤرخ يضع سيرة غير متحيزة للوكريتسيا ، وهو يبدأ بإظهار ان كل ما ذكر عن لوكريتسيا هو اسطوري كلياً . وقد كُتبت هذه السيرة في الاماكن نفسها التي عاشت فيها . وهذه الاكتشافات ، والجهد الباهر والشاق الذي عاناه هذا المؤرخ في تقديم ذلك قد أسهم كثيراً في استبدال الاسطورة بالتاريخ ، واكثر من اي مترجم آخر للوكريتسيا قبله أو من بعده .

ولدت في فترة خطرة ومزعجة . فقد كانت البابوية ، كما مرّ معنا ، فقدت ورعها ، والفساد كان الطابع الغالب آنذاك . وباتت ، كصبية من أسرة قوية ، صفقة رابحة للتحالفات مع أسر نبيلة أُخرى . وقد خُطبت مرتين اثنتين لشابين هما بكر

أسرتيهما الشهيرتين ، ولكن الخطبة فسخت ، لأنه مع مرور الأيام ، بلغت مطامح أسرتها حداً لم يعد يرضي رودريغو غير أمير او دوق ان يكون صهره . وكان زواجها الاول بجيوفاني سفورتسا فاشلاً ، وفُسخ على أساس أنه لم يتم بالدخول عليها . وكان زوجها الثاني ألفونسو الاراغوني الذي قضى السنة ١٥٠٠ . ولم يكن لها ، كما سبق معنا ، اي علاقة بموته ، وتُظهر اليوميات المعاصرة أنها حزنت حزناً شديداً مخلصاً للاعتداء الوحشي عليه .

وبعد ترمّل مدة سنة واحدة ، اقترنت بألفونسو ديستي ، وارث دوق فيرارا . فأنجبت له خمسة أولاد وعاشت معه في انسجام تام ثماني عشرة سنة حتى كانت وفاتها السنة ١٥١٩ . وكانت ، في فيرارا ، معبودة الفقراء لأعمالها الخيرية ، ومعبودة المتعلمين لذكائها ورعايتها لهم ، ومعبودة أسرتها لإخلاصها ، ومعبودة زوجها لحبها ووفائها ، ومعبودة الجميع لجمالها .

من الصعب فهم لماذا وكيف ألصق بها المؤرخون مثل هذه النعوت الفظيعة والكاذبة . دعوها «المتهتكة العربيدة السامة» ، و«المرأة المخالَطة في عقلها ، حاملة السم» ، وزعموا انها كانت «ملطخة بالفساد الخلقي المقزز للنفس» . فاذا كان أي حكم على السلوك يمكن أن يُستخلص من الملامح الطبيعية والجسدية ، فإن هذه السمعة لا تتلاءَم والملامح الدقيقة ، والجميلة ، والمعقولة التي تبرزها لنا رسومها وتماثيلها النصفية . فضلاً عن أن القادحين فيها لم يحسبوا حساب قصائد المديح التي نظمها فيها أشهر شعراء النهضة الادبية امثال بمبو ، وستروتسي ، وآريوسطو . فهؤلاء الرجال العظام لم يتفقوا مع الاسطورة وقد عرفوها جيداً .

هذا لا يستتبع أن تعتبر لوكريتسيا طاهرة الذيل ، ولا أن تدعى مثال الفضيلة . ولكن في الوقت نفسه ، كان يستحيل عليها أن تخفي تماماً الاضطرابات الاخلاقية التي كان يمكن ان يسببها لها الذنب من جراء أبشع الجرائم التي يزعمون أنها اقترفتها . فقد كان اخفاء ذلك يتطلب قوة تفوق طاقة البشر ، وتلك ميزة لا يتحلى بها إلا اولئك الذين لديهم الثبات في العزم وقوة الارادة ، ولم يكن لدى لوكريتسيا شيء من ذلك . كانت ضعيفة بسبب بيئتها ، وعبر نفوذ الأسرة التي ترعرعت فيها ، حتى انها لم تكن

تستطيع العيش مطلقاً مع خطايا يُزعم أنها ارتكبتها .

جمعت لوكريتسيا حولها في بلاطها ، في فيرارا ، بعض أشهر وأعظم فناني النهضة ، وكثيرون منهم يدينون بفرص نجاحهم لتشجيعها ومساعدتها المالية . وكان الأمر كذلك مع سائر أفراد أسرة بورجيا . لم يكونوا فنانين كباراً هم أنفسهم ، ولكنهم كانوا دائمي الاهتمام بكل أنواع المعرفة والفن ، حيثما وجدوها ، ولولا رعاية ألكسندر ، وسيزاره ، ولوكريتسيا ، لما أُنجز قط الكثير من مجد النهضة الاوروبية .

إن العالم ، ما لم يُبرز له الدليل الوثائقي غير المتحيز على ان لوكريتسيا كانت متهة بسفاح القربى والتسميم ، فليس له الحق بقبول الاساطير السخيفة حولها ، هذه الاساطير التي اعتبرت تاريخاً جدياً .

كان ألكسندر واولاده ، قبل كل شيء ، بشراً ، ولكن اذا اعتُبر كل ما قيل عنهم حقيقة ، فإنهم يكونون قد أتوا من كوكب آخر غير كوكبنا الأرضي ! إلا أنه يستحيل دراسة التاريخ في عالم من الخيال . والكتابة فيه تحت تأثير الخيال ، والدلائل الزائفة ، والافتراضات ، والشائعات ، تصبح تحريفاً خطيراً وضلالاً بالنسبة الى التربية العقلية . ان معظم الامراء في اوروبا القرن الخامس عشر ، كانوا مذنبين لارتكابهم بعض الفظاعات خلال حياتهم ، وليس لنا اي مبرر لالقاء الحجارة شطر روما عندما يكون الانحلال الخلقي في انكلترا ، مثلاً ، خلال حرب الوردتين ، موضع سخرية اوروبا بأسرها .

كاليوسترو، الكونت المزيّف
يشغل اوروبا باكاذيبه البيضاء

توفي في السجن ـ القلعة سان ليو الايطالي ، جوسيبي بالزامو - وهو الاسم الحقيقي للمغامر العالمي الشهرة الذي عُرف باسم الكونت آليسندرو كاليوسترو ، والذي ملأت فضائحه أرجاء اوروبا ، وظلّ حراً طليقاً يمارس شتى انواع الاحتيالات ، حتى وقع أخيراً في قبضة العدالة .

فمن هو كاليوسترو ، وما هي قصته التي لا تكاد تصدق لفرط ما حفلت به من اعمال وأمور غريبة حقاً؟ !

محتال مفرط الذكاء وخيميائي ـ اي مشتغل بالكيمياء القديمة ـ ابصر النور في بالرمو ، في جزيرة صقلية ، سنة ١٧٤٣ ، من اب تاجر فقير يهودي . وقد اضطر الى الهرب من الجزيرة بسبب ارتكابه سلسلة من الجرائم المبتكرة ، وقد حُكم عليه بالسجن اكثر من مرة وزار على التوالي مصر ، واليونان ، والجزيرة العربية ، وبلاد فارس ، وجزيرة رودس ـ حيث تلقّى دروساً في الخيمياء والعلوم المشابهة على يد اليوناني آلتوتاس ـ وجزيرة مالطة .

والخيمياء القديمة كانت غايتها تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ،واكتشاف علاج كلّي للمرض ، ووسيلة لاطالة الحياة الى ما لا نهاية ـ كما يقولون .

وفي مالطة قدّم نفسه الى رئيس نظام فرسان مالطة على أنه الكونت كاليوسترو ، ونعم بالحظوة لديه بصفته زميلاً له في الخيمياء ، ذلك بأن ميول حاكم مالطة كانت تتجه في الاتجاه نفسه . ومنه حصل على توصيات الى العديد من البيوتات الكبرى في كل من روما ونابولي .

وفي روما تزوج لورنتسا سيرافينا فيليتشياني الحسناء ، ابنة أحد كبار أصحاب المسابك أو مصاهر المعدن في ايطاليا ، وكانت في السادسة عشرة ، وهو في السابعة والعشرين من عمره .

ولم تكن زوجته تعرف القراءة ولا الكتابة ، ولكنه كان يؤكد ان تلك هي العادة «لدى السيدات الرومانيات الرفيعات التهذيب ، احتراساً من المؤامرات العاطفية» .

وراح ينتقل برفقتها في مختلف أرجاء اوروبا ، متخذاً لنفسه اسماء عدة ملفقة .

زار كاليوسترو لندن وباريس سنة ١٧٧١ ، حيث باع «شراب المحبة السحري» ، و«شراب الشباب» ، والمحاليل الخاصة بتحويل الدميمات الى نساء جميلات ، فضلاً عن بيعه مساحيق خيميائية مختلفة ، محققاً من وراء كل ذلك مكاسب ضخمة .

ولم يكن يبدي اي غيرة بالنسبة الى جمال زوجته الطاغي ، ولم يتورع عن استخدام هذا الجمال في سبيل الاثراء .

ففي لندن ـ مثلاً ـ نجح في ابتزاز احد الاشخاص من طائفة الكويكرز ، المعروفة بالتشديد على البساطة في الملبس وكره الطقوس الخارجية ومقاومة الحرب ، وقد «فاجأه» في حديث عاطفي مع زوجته ، وتقاضى منه مبلغ مائتي استرلينية لستر الفضيحة .

وادعى في لندن أنه مؤسس لظام جديد من الماسونية ، فاستُقبل في أفضل طبقات المجتمع الراقي ، وبات معبود النساء .

وتعددت الروايات حول قواه السحرية ومعجزاته ، ومعالجاته العجائبية في كل مكان . من ذلك قول الكثيرين انه حوّل ، في لاهاي ، في هولندا ، حصى عادياً الى ألماس ، وشفى سيدات من علية القوم في العاصمة الروسية ، سان بطرسبرج ، من داء السرطان . وفي سويسرا حيث أقام ثلاث سنوات ، اذهل فنّه في شفاء السكان بقدر ما أذهلهم المصدر الغامض لثرائه الفاحش ومستوى عيشه الرفيع . ويُذكر هنا أنه ، في صباه ، عمل ممرضاً في مستوصف كان يديره «رهبان الرحمة» ، حيث جمع القليل من المعلومات والمعارف الطبية التي ساعدته في حياته العملية .

وعقب زياراته ورحلاته في ارجاء اوروبا (المانيا ، هولندا ، روسيا ، بولونيا) وصل

الى باريس مجدداً في السنة ١٧٨٥ حيث تورط في قضية «عقد الملكة» الشهيرة او قضية عقد الألماس التي هزت البلاط الفرنسي ، وتورط فيها الكاردينال دو روهان . وعلى الرغم من أنه استطاع التنصل من الاتهام في هذه الدعوى الفضيحة ، فقد زُج في سجن قلعة الباستيل الشهير لأسباب أخرى حيث قضى بعض الوقت .

غير أن اهم ضرباته الاحتيالية كانت قضية «الكنز المدفون» ، الذي كان يكفيه أن يجمع له شركاء وأوصياء يمولون حملة الغاية منها البحث عن المال الدفين هذا . وكان خبيراً في مختلف أنواع التزوير ، وبخاصة تزوير الوصايا .

ويُذكر انه لما هبط باريس في ٣٠ كانون الثاني ١٧٨٥ ، كانت حملة دعائية قوية قد مهدت السبيل له ، أمّنها له موزعو مناشير ، كانوا يطبعون مجاناً صورته حاملة هذه الابيات :

«تعرّفوا الى ملامح صديق البشر ،
انها في كل يوم تُوسم بحسنات جديدة .
انه يطيل الحياة ، ويغيث الفقراء ،
ومكافأته الوحيدة هي متعته في أن يكون ذا فائدة !» .

وحرص على أن يستقر في مسكن يليق بشهرته . فاستأجر من المركيزة دورفيليه ، القصر الذي تمتلكه في «ماريه» . وكانت العربات تتوقف في الصف لدى بوابته ، وصالونه لايفرغ من المترددين عليه طلباً لمعونته في شتى الامور ، بين الساعة الخامسة صباحاً ومنتصف الليل .

وعقب اطلاق سراحه من سجن الباستيل زار انكلترا مجدداً ، حيث اعتقل ردحاً من الزمن في سجن فليت . ولما غادر انكلترا راح يتنقل عبر أوروبا ، فبلغ روما ، وهناك اعتقل السنة ١٧٨٩ . وقدّم الى العدالة وحُكم عليه بالموت لاتهامه بالهرطقة . ولكن الحكم استبدل بالسجن مدى الحياة ، في حين ان زوجته سجنت في أحد الاديرة .

النصّاب الذي اختلس موسوليني بمهارة

بحسب آخر بطاقة هوية رسمية معروفة عنه ، جواز السفر ذي الرقم ١٠٣ ـ ١٤٨ ـ ٦٢ ، الصادر في ١٠ نيسان ١٩٥١ من القنصلية الاسبانية في ميلانو ، يدعى بطل هذه القصة الغريبة الحقيقية فرنانديز أنطونيو نوفارو ، المولود في فيغو سنة ١٨٩٤ . ليس هذا اسمه الحقيقي ؛ ولكنه الاسم الذي تفضّل دوائر الشرطة في حوالى دزّينة من البلدان الاشارة إليه به تسهيلاً للأمور .

إنه لأمر شاقّ حقاً إذا اضطروا في كل مرة يتاح لهم فيها إرسال البرقيات بصدد مغامراته ، الى تعداد اسمائه الزائفة الأخرى : ألكسندر دانو ، شارل جادو ، أنريكه ديلّا فاله ، ماكس فريمن ، كارلوس آمادنيس ، ماكس لاندو ، مكسيم آماديز ، ألكسندر نيوبورن ، الكونت أليكس نيفاره ، ألفريد روتشيلد ، الأمير الكسندر رومانوف . . . وحوالى ثلاثين اسماً آخر أقلّ شهرة .

في احدى صبيحات شهر أيار من سنة ١٩٥١ ، إذاً ، وصل فرنانديز أنطونيو نوفارو ، الى مدخل أحد أكبر الفنادق الباريسية في سيارة لنلوكن كونتيننتال لونها سكّري ، طويلة كزورق ، يقودها سائق يرتدي بزّة رسمية تثير غيرة اميرال . وكانت حقائبه كثيرة ، مثيرة ، وعليها إشارات وملصقات تبرز القيام بأسفار طويلة ومتعددة . أما ملابس نوفارو ، على الرغم من كونها رفيعة الجودة ، فقد كانت مستعملة كثيراً بما فيه الكفاية للدلالة على أن صاحبها هو مسافر عالمي .

وبفضل بشرته الزيتونية ، وشاربيه الدقيقين ، ومشيته الضجرة ، كان مظهر نوفارو يدل على كونه ارستقراطياً لاتينياً يبحث عن المتع الباريسية . ولم يشبع من عبّ المتع . وسرعان ما قدّم هو شخصياً الحفلات السخية اليومية إلى المجتمع المتعدد

الجنسيات في العاصمة الفرنسية ، على نطاق واسع ، الأمر الذي أذهل الجميع . ولم تتأخر الحسان الباريسيات عن التهافت على باب جناحه الفخم .

وقدّر المبلغ الذي أنفقه نوفارو بزهاء ١٥ مليون فرنك . وعندما كان أحد يدهش من سخائه ، كان يذكر بلامبالاة ، ولكن بصورة غامضة ، مناجم حديد في مكان ما في البيرو . ونظراً الى أنه كان يدفع دوماً نقداً ، ويمنح بقشيشاً ضخماً ، فقد اكتسب سمعة ممتازة في الأوساط التي يصنع فيها رؤساء الخدم في الفنادق والحرّاس الشهرة . . . ولما أعلن في تموز أنه مغادر الى مدينة كانّ في جنوب فرنسا ، تلقّى رئيس السقاة في أحد المشارب في فندق كبير في شارع الكروازيت في كانّ مخابرة تلفونية من زميله في الفندق الباريسي الكبير ، يعلمه فيها أنّ رجلاً عظيماً ربما كان صاحب مليارات ، سيهبط مدينته ، ويُستحسن الاهتمام به اهتماماً خاصاً .

واستُقبل فرنانديز أنطونيو نوفارو في كانّ استقبال المتسلطنين ، وعرّفوه الى كل الشخصيات البارزة هناك . وعلى الشاطىء اللازوردي ، مثّل نوفارو دوره كسيّد عظيم ، بمهارة الممثل المحنّك . أقام حفلات راقصة كبرى في الكازينوات ، وكان يقامر كالمجانين . فكان أول من يجلس إلى موائد الميسر وآخر من ينهض عنها ، ولم يكن يتردد في المقامرة بعشرة ملايين فرنك أو بخمسة عشر مليوناً لدى كل رهان .

وفي آب ، أطلق نوفارو المرحلة الثانية من عمليته ، مذيعاً الشائعة القائلة إن ثروته الحالية ليست سوى «فراطة» بالنسبة إلى ما يمتلك فيما لو تمكّن من الوصول الى بعض الصناديق الحديدية التي استأجرها في عدد غير قليل من المصارف الاميركية باسماء مختلفة . وكان يبرّر عدم تمكّنه من الوصول الى هذه الصناديق لأنها تحتوي على مبلغ ستين مليون دولار وضعها فيها على زمن تحريم الاتجار بالخمرة في الولايات المتحدة الاميركية ، عندما كان النائب الاول للشقي المعروف آل كابوني . وكان رجال العصابات في تشيكاغو يدعونه «كدْ تايغر»» (اي النمر الشاب) ـ على ما كان يسرّ الى البعض . وكانت مهمته تهريب شحنات المشروبات الكحولية من كندا الى الولايات المتحدة الاميركية .

وكان يقول : «إذا أنا عدت الآن الى الولايات المتحدة الاميركية لأخذ أموالي ، فإن

الحكومة الاتحادية ستلقي القبض عليّ بتهمة التهرّب من دفع الضريبة . بالطبع ، أنا مستعد لدفع عمولة قدرها عشرة بالمائة الى كل من يسعه مساعدتي على استعادة هذه الثروة . ولكن من يرضى القيام بهذه المغامرة الخطرة؟»

كانت العمولة التي قدَّمها نوفارو بحدّ ذاتها مبلغاً هائلاً ، يجد كثيرين ممن يسيل له لعابهم ، ولا يترددون في المجازفة بهذه العملية مهما تكن المخاطر . . . على ما كان يعلمه نوفارو تماماً . على الرغم من تظاهره بالتشاؤم .

وتكشف المحفوظات السرية في دوائر الشرطة في عدد من البلدان الاميركية والاوروبية أن نوفارو استثمر هذا النصب الكلاسيكي بنجاح باهر طوال عشرين سنة ، وكان يجد دوماً حمقى يقرضونه المبالغ الضخمة مقابل إمكانية ان يصبحوا فوراً أصحاب ملايين . ولما اكتشف السريعو الانخداع الاغبياء هؤلاء ان لا وجود لأي صناديق حديدية في الولايات المتحدة الاميركية ، كان نوفارو قد أصبح في بلد آخر ، خارج نطاق صلاحيتهم العدلية . وتستند «ضربة الصناديق الحديدية الاميركية» الى المبدأ نفسه الذي تقوم عليه «ضربة الكنز الاسباني» الذي ما يزال إلى اليوم يتسبّب بضحايا كل سنة في فرنسا نفسها ، على الرغم من فضحه مائة مرة على أقل تعديل في الصحافة منذ خمسين سنة على أقل تعديل .

كان أثرياء الريفييرا العظام يصدّقون أقوال صديقهم الاسباني ، جهلاً منهم سوابقه . ولكن قبل أن يتسنّى لأي منهم أن يقدّم اليه أي عرض ، دخل نوفارو ذات مساء في علاقات مع أكبر «طريدة» صوَّب إليها نيرانه حتى ذلك الحين . فقد كان فرنانديز أنطونيو يتناول عشاءَه في كازينو سان ريمو وهو يرتدي السموكنغ الابيض الأنيق ، وبرفقته ثلاث حسان شقراوات . ولفت ذلك اهتمام رجل آخر كان يتعشى هناك ، ولم يكن غير الملك فاروق الأول ، ملك مصر ، وكان آنذاك في الثانية والثلاثين . وكان العاهل المصري من طلب ان يتعرّف الى النصّاب . وعقب الفراغ من العشاء بقليل كان الرجلان يجلسان جنباً الى جنب الى مائدة البكارا . وسرعان ما تحوّل هذا التعارف الأول الى صداقة حقيقية في غضون أيام .

كان الملك فاروق وحاشيته يشغلون طبقة كاملة من احد فنادق كانّ الكبرى .

ونشر نوفارو في المكان خبراً يفيد أنه «من أفراد الأسرة» . ومنحه ذلك هيبة مضاعفة ، على طول الشاطىء اللازوردي . وقُبل عضواً في احد اكبر اندية اليخوت الاوروبية الخاصة بأسرها ، واختير عضواً في اللجنة التحكيمية لمباراة دولية في الجمال ! وكان الملك والنصّاب يقضيان معاً الليالي حول موائد البكارا . وتحدَّث نوفارو ذات مساء «مصادفة» عن ملايين من الدولارات الاميركية غير المشروعة . وأبدى الملك اهتماماً كبيراً بهذا المخزون من العملة الصعبة ، التي كانت تفتقر إليها كثيراً آنذاك بلاده . ولمضاعفة اهتمام فاروق في الصفقة أكثر فأكثر ، قدّم إليه نوفارو ، فضلاً عن عمولة قدرها عشرة بالمائة ، عرضاً باستثمار الجزء الاكبر من ثروته الضخمة في مصر . فهو ينوي أن يبني في وادي نهر النيل ، بحسب قوله ، كازينو سيكون الأفخم في الشرق الاوسط . وسيتفق مع أشهر الفرق الاستعراضية الاوروبية والاميركية التي تضم اجمل الحسان لتقديم عروضها في هذا الكازينو الذي ستناط إدارته بالملك فاروق . وكان يُرفق هذه الكلمات الأخيرة بغمزة مواطئة . وزاد ذلك في تحمُّس فاروق للمشروع ، وبدأت مفاوضات جدّية . ولم يكن يطلب نوفارو من الملك سوى «مؤونة» متواضعة قدرها ١٠٠ ألف دولار لكي يرسّخ الصفقة . وكان يمكن أن يدفع فاروق المبلغ بكل تأكيد فيما لو لم يُستدعَ الملك الى القاهرة بسبب واجباته الملكية . سوى أن المحادثات تواصلت ، مع ذلك ، بالمراسلة .

كان فرنانديز أنطونيو نوفارو ، من بلدة فيغو في اسبانيا ، يدعى في الواقع أبرام سيكوفسكي ، المولود في رادموسك ، في بولونيا ، في ٢٣ تموز ١٨٩٢ . غير ان قصة صباه غامضة ، ولكن المؤكد أنه نشأ وترعرع في الاوساط الفقيرة في منطقة بوري الحقيرة في مدينة نيويورك ، حيث هبط والداه المهاجران . ومعروف أن السجن الاول الذي تشرَّف باستقباله كان سجن هافانا (في كوبا) حيث أمضى فترتَي حبس في سنة ١٩١٢ ، لاختلاسه بضع عشرات من الدولارات من بعض السيَّاح . ومن كوبا انتقل الى المكسيك كأميركي باسم مستعار هو كارلوس نن . وقد سُجن في سنة ١٩٢١ في سجن سان دييغو (في كاليفورنيا) حيث أمضى سنتين لتزويره جواز سفر . ولدى خروجه عمل حقاً في منظمة آل كابوني ، اولاً في لوس انجيليس ، ثم في

تشيكاغو .

غير أنه لم يبلغ يوماً الاهمية التي ادعى بلوغها ، لأنه حكم عليه بالسجن ست سنوات بجرم سرقة سنة ١٩٢٣ . وطرد من الولايات المتحدة لدى انتهاء مدة محكوميته ، ونُقل على متن سفينة الى ألمانيا . وجاب أنحاء أُوروبا ، جامعاً ثروة صغيرة من النصب على الاغبياء السريعي الانخداع ، ومن الغش في ورق اللعب . وشوهد مجدداً بفضل سهر شرطة مدريد سنة ١٩٣٤ ، وكذلك الشرطة النمساوية في سنة ١٩٣٦ . وفي هذه السنة الاخيرة ، رؤي في سويسرا ، حاملاً جواز سفر صادراً عن القنصلية النيكاراغوية في فيينا . وفي سنة ١٩٣٧ ، نجح في روما ، في احدى اروع عمليات النصب التي قام بها في حياته .

كان نوفارو ، وفقاً لطريقة عمله المعتادة ، قد حضّر الجو وشرع في نشر شائعة ملايينه من «دولارات آل كابوني» ، المجمّدة في المصارف الاميركية . وطرقت هذه الشائعة أذنيّ كلارا بيتاتشي ، حظية بنيتو موسوليني الجميلتين ، التي سرعان ما نقلتها إلى الدوتشي . وفي تلك الفترة كانت ايطاليا الفاشستية ، مثل الكثير من الدول الاخرى ، في حاجة ملحّة للعملة الصعبة . ورأى موسوليني في القضية مناسبة رائعة وسانحة للاقتناص . وعرّفت كلاريتا نوفارو على الدكتاتور . ولم يجد نوفارو بعد ذلك أي صعوبة في الحصول على مبلغ سبعة ملايين لير ايطالي على سبيل «المؤونة» من موسوليني . وغادر فرنانديز انطونيو نوفارو على الفور إيطاليا حاملاً «ليراته» ، واستخدمها في شراء الرشاشات التي باعها بعد ذلك من الجمهوريين الاسبان .

وعاد نوفارو فظهر مجدداً سنة ١٩٣٨ على الشاطىء اللازوردي ، فطردته منه الشرطة الفرنسية الى اسبانيا ، فأقام في افخم فنادق برشلونه ، وراح «ينصب شباكه» من جديد ، بفضل قصة الصناديق الحديدية الملأى بالملايين في المصارف الاميركية . وكان أعظم غبي وقع في الشباك رئيس شرطة كتالونيا الذي سلّمه ما يعادل ١٥ مليون فرنك بعملة ذلك الزمان . وغادر كتالونيا على عجل ، وإذا به يظهر في أفخم فنادق مونريال ، في كندا ، باسم الكونت الكسندرو نوفارو فرنانديز ، ابن عمّ الملك الاسباني الراحل ألفونسو الثالث عشر .

كان لذلك أكبر تأثير سيكولوجي ، ذلك بأن الأميركيين الشماليين ، لأسباب لا يعرفها سواهم ، يتأثرون جداً بألقاب النبالة الاوروبية . وفي مونريال ، راح نوفارو يتحدَّث بإسهاب عن ثروته . وسرعان ما تردد في الاوساط الواسعة الاطلاع في المدينة ، أن ثروته البالغة ٣٤٠ مليون دولار ، مغمورة في الصناديق الحديدية في ٣٤ مصرفاً أميركياً . والأمر الذي لا يُصدَّق أن أول من «بلع» الطعم كانا رجلين من أذكى الرجال في الشؤون القانونية والمالية ، وهما وكيل دعاوى كبير من واشنطن اونو دانىنغ ، ورئيس شركة طيران اميركية سيغموند دجيناس .

إن شراهة الرأسماليين الكبار التي لا تعرف أية حدود ، ولا تشبع مطلقاً ، أعمت ذكاء هذين الرجلين اللذين كانا آخر من وقع في شباكه . فقد ألّفا مجموعة مالية مع بعض الأصدقاء ، وابتاعا من نوفارو «شيفرة» تشير بحسب قوله ، إلى اسماء المصارف وارقام الصناديق ، وطريقة استخدامها . وقد دفع داننغ ، ودجيناس وشركاؤهما ثمن قصاصة الورق هذه مبلغ ١٢٠ ألف دولار «نقداً» ، سنة ١٩٤٥ . وما إن تسلّم نوفارو هذا المال ، حتى غادر كندا على متن طائرة من شركة سيغموند دجيناس نفسها .

وأطلق الاميركيون شرطيي مكتب التحقيقات الاتحادي (إف . بي . آي) في إثر «الكونت» . فوجدوه في فنزويلا ، ثم في كوراساو ، ولكنهم لم يستطيعوا القبض عليه إلا لما اخطأ ونزل الى اليابسة في ميامي ، في أيلول سنة ١٩٤٦ . وفي شباط سنة ١٩٤٧ ، حُكم عليه بالسجن مدة ثلاث سنوات ، ثم طرد إلى كوبا في سنة ١٩٤٩ . وما هما الا سنتان حتى هزّت الشصّ ، على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، أكبر سمكة هاجمها في حياته ، صديقه الملك فاروق . وفي نيسان ١٩٥٢ ، استدعى فاروق نوفارو إلى القاهرة . ونزل النصّاب العالمي في أكبر فنادق العاصمة المصرية ، برفقة عشر من الحسان الاوروبيات هدية الى حريم فاروق الأول .

غير أن عملية فاروق كانت كذلك ، اكبر إخفاق لفرنانديز أنطونيو نوفارو . وإذا كانت قد فشلت ، فليس لافتقاره الى المهارة والذكاء ، بل بسبب إطاحة ملك مصر على يد الضباط الاحرار في ذلك الانقلاب الابيض الشهير في تموز من سنة ١٩٥٢ ،

الذي أكره فاروق على اثره الى مغادرة مصر قبل أن تنضج الصفقة بينه وبين نوفارو . ويبدو أن هذا الإخفاق حدَّد انحطاط الحياة العملية الباهرة التي عرفها النصّاب العالمي . وفي السنوات التي تلت ، ظهر نوفارو في مناسبات شتّى على الشاطئ اللازوردي ، وفي الريفييرا الايطالية ، وفي سويسرا ، متردداً على الكازينوات ، وعاملاً في ميدان الصرافة غير المشروعة ، وهي خدعة قديمة اخرى لا ينبغي ان يقع احد ضحيتها ، ولكن طُعْم الكسب يتيح دوماً وجود ضحايا يبتلعونه . وفي سنة ١٩٥٧ ، أُبلغت الشرطة الاقليمية ان فرنانديز أنطونيو نوفارو شوهد ينتقل الى الجمهورية الشهيرة الصغيرة سان مارينو ، وأنه في ما بعد سلك الطريق الى ألمانيا الغربية .

ويتساءَل الصحفي الفرنسي روجيه دولورم ، كاتب هذا التحقيق المثير حقاً في نيسان من سنة ١٩٦٧ ، اين هو اليوم؟

وحده أبرام سيكوفسكي يعرف ! . . .

قطب من اقطاب الفاشيستية يتكلم!
الكونت غراندي يدافع عن نفسه في معرض اتهام موسوليني

نشرتُ هذا البحث في مجلة «الحرب الجديدة المصورة» الصادرة عن «دار المكشوف» في بيروت، في سنتها السادسة (١٩٤٥) في الاعداد من ٢٦٧ ـ ٢٧٢ .

الكونت غراندي فاشستي مشهور وهو لا يتنصل من هذه الصفة . خدم السنيور موسوليني مدة اثنتين وعشرين سنة كاملة متقلباً في عدة مناصب حكومية عالية، ووضع الدوتشي ثقته به وبمقدرته . ولا غرو، فغراندي هو أحد اركان حرب الفاشيست الذين زحفوا الى روما وتسلموا زمام الحكم في ايطاليا . وقد قضى على محاولات المعارضة التي كانت ترمي الى إحداث الشغب والفوضى وقلب نظام الحكم الجديد عندما كان ليوتنان جنرال في الميليشيا . وما لبث ان اصبح عضواً في مجلس الفاشيست الاعلى ورئيساً للنقابات العمالية . ثم عيِّن وكيلا للداخلية فوكيلاً للخارجية، ومن ثم اسند اليه الدوتشي وزارة الشؤون الخارجية . ولم يمضِ طويل وقت على ذلك حتى عيِّن سفيراً لايطاليا في لندن خلال السنوات السبع العصيبة التي مر بها النظام الفاشيستي . وفي السنة ١٩٣٩ عاد غراندي الى روما ودخل الحكومة كوزير للعدل، وظل يواصل مهام منصبه هذا حتى السنة ١٩٤٣ . وعلى اثر انهيار النظام الفاشيستي سافر الى البرتغال واعتصم في لشبونه حيث بذل مجهوداً كبيراً للدفاع عن نفسه وتبرير موقفه السابق، لأن الاحزاب اليسارية في ايطاليا كانت تطالب بمحاكمته وتعدّه مسؤولاً عن مظالم النظام السابق .

وقد نشرت صحيفتا «لايف» و «الدايلي اكسبرس» في اجزاء متتابعة رد غراندي على المطالبين بمحاكمته . وهو دفاع لا يحاول به الكونت ان يقنع خصومه ببراءته .

ولم يفقد غراندي ثقته بالدوتشي الا بعد ان نزل الحلفاء في جزيرة صقلية . عندئذ ايقن انه ليس من المستحيل ان يقلب الدهر للسنيور موسوليني ظهر المجنّ بعد ان توالت على ايطاليا هذه الكوارث العسكرية العظمى التي تقصم «ظهور» اقوى الدول .

والواقع ان الكونت ساعد في قلب نظام الدوتشي مساعدة تذكر . الا ان هذا في نظر الايطاليين ، لا يحلّ الكونت من خطيئته ، ولا يمنع من اعتباره في عداد مجرمي الحرب . وفي ما يلي رد الكونت غراندي الذي يجمل تاريخ ايطاليا الفاشيستية . قال :

لم تكن الصداقة التي تربطني بموسوليني متينة وحميمة بالرغم من انها ترجع الى عهد بعيد . ولا عجب ، فان موسوليني لم يكن له يوماً من الايام اصدقاء حميمون . . . ولم يعرف قط معنى للصداقة الحقيقية .

عرفت موسوليني السنة ١٩٢١ عندما التقيته للمرة الاولى في ميلانو . وقد سألني احد الاصدقاء يومئذ رأيي في بنيتو موسوليني ، فقلت له : «انه داهية ، وعبقري ، وساحر ، ومجنون في آن معاً ! فاذا ما استطعنا ان نستثمر هذا الداهية العبقري ، ونحبط احابيل هذا الساحر ، ونقيّد هذا المجنون ، فأغلب الظن اننا نسدي الى إيطاليا اجلّ خدمة واعظمها لأنها ستجد فيه زعيماً كبيراً .»

وقد تبيّن لي منذ اللحظة الاولى ان اعتداد موسوليني بنفسه وطموحه ليس لهما حد . ومن اقواله التي طالما كان يرددها على مسامع الجميع : «عندما اتفرد برأيي مطيعاً بذلك غريزتي الحيوانية اكون قد سرت في جادة الصواب وتأتي النتائج الحسنة مبررة هذه «السياسة» . ولقد كنت دائماً على خطأ في الاخذ بمشورة الاعوان والاصدقاء ونصائحهم . . .»

لم يكن لموسوليني ثقة بأحد ، وكان اكره شيء الى نفسه ان يدلى اليه بنصائح مهما تكن قيّمة .

وهو لا يقر بأية معارضة ، فاذا ما ابرزت هذه رأسها سارع في الحال الى قمعها والقضاء عليها مهما كلفه الامر . وجدير بالذكر ان الدوتشي لا يتقبل الا نصائح هؤلاء

الذين يضحون بشخصيتهم من اجله ويخضعون له خضوعاً اعمى . وهو فضلاً عن هذا سهل الانقياد ، لا يرى غضاضة في تغيير رأيه مشترطاً ان يظل الامر طي الكتمان .

ولم يكن موسوليني ليعترف بأخطائه . وكثيراً ما كانت خطبه تتضمن تنبؤات وتكهنات تحقق بعضها ، فيقوم يعلن على رؤوس الاشهاد ان حدسه لم يخطئ ضارباً صفحاً عن سائر التنبؤات التي لم تؤيدها الوقائع .

اما القاعدة التي كان يحلو لموسوليني ان يتمشى عليها في حياته فهي ان عليه احراز الانتصار تلو الانتصار ليستلفت انظار العالم . ولم يكن له خطط ومشاريع موضوعة يأخذ بها ، بل كان يعمل حسب الظروف . ومن ابرز صفاته الحسد ، والحقد ، وشهوة الانتقام ، وتقلّب الرأي ، وعدم الاستقرار .

وتقوم عبقرية موسوليني في الدرجة الاولى على الوسيلة التي كان يستخدمها في سبيل التسلط على الجموع الشعبية واجتذابها الى الحظيرة التي يدعو اليها ويبشر بعقيدتها .

الا ان هذه العبقرية كانت تتضاءل عندما ينزل الدوتشي الى حلبة المناقشات . لهذا كنا نراه في آخر عهده بالحكم يجلس على كرسي بعيد عن حلقة المناقشة او يجلس على كرسي يرتفع قليلاً عن الارض وبالتالي عن سائر مقاعد مناقشيه ، وهو يرمي من وراء ذلك الى التأثير فيهم لأنه يخشى ان يفقد سلطته وقوة حجته وبراهينه اذا ما كان مع مناقشيه على صعيد واحد . وكان يحرص على تحويل كل اجتماع للمناقشة الى حفل ليس له الا الاصغاء الى خطبة من خطبه الرنانة كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وعندها يصبح بوسعه فرض مشيئته كاملة غير منقوصة .

والواقع ان شخصية موسوليني فذة ساحقة ، والدليل على ذلك التفاف هذا الشعب بأجمعه حوله ، وحمله على اعتناق مذهبه السياسي الجديد ، ورفعه الامة الايطالية الى المستوى اللائق بها بين الامم مما لم تعهد له مثيلاً من قبل ، وذلك كله في اعوام معدودة .

وكان في داخل موسوليني شيطان ، بيد انه استطاع التغلب عليه مدة من الزمن غير قصيرة . ولكن سرعان ما انفجر شيطانه وبان للعيان ، وتحوّل الدوتشي من رجل

وطني الى مجنون زج بايطاليا في الحرب التي مزقت اوصالها وقضت على كل آمالها وأمانيها ـ كل ذلك لان الجنس الجرماني اراد الانتقام من الامم اللاتينية .

حكاية الزحف الى روما

وما الزحف الى روما الذي استولى فيه بنيتو موسوليني على أعنة الحكم الا خرافة فاشيستية قيل عنها الشيء الكثير وحيكت حولها القصص التي هي الى الخيال اقرب منها الى الواقع . ولما كنت احد افراد «المربع» الذي تولى هذا الزحف فإني استطيع أن أروي حقيقة ما جرى يومئذ واكشف عن اسرار لا يعرفها الكثيرون .

كنت في جنيف في سويسرا أحضر مؤتمر العمال الدولي عندما بلغ مسامعي ان في نية الدوتشي إحداث انقلاب .

ليست ايطاليا التربة التي نمت فيها بذور الفاشيستية كما هي حال النازية في المانيا . فقد كنا على اتفاق لأن نجعل من الفاشيستية حركة قومية صرفاً لا ان نقيم نظاماً دكتاتورياً على اساس العنصرية واضطهاد خصومنا السياسيين والابتعاد بإيطاليا عن رسالتها التاريخية .

كان في نية موسوليني الغاء الملكية والوصول الى اعلى قمة من «الهرم» السياسي الذي سيحل حتماً محل الملكية . ولكن هذا لم يرق لي البتة ، فرحت أهاجمه في كل مناسبة ، الأمر الذي اضطره الى الاستقالة من المجلس الفاشيستي التنفيذي . الا ان الحال لم تدم طويلاً فقد اضطررت بدوري الى الاستقالة من المجلس المذكور بعد ان توالت «حملات» الدوتشي عليّ ، وتم له النصر . . .

وفي تشرين الاول من العام ١٩٢٢ عدت من جنيف الى نابولي على جناح السرعة لحضور اجتماع المجلس الفاشيستي الذي كانت تدبر فيه خطط الثورة والانقلاب ولم اكتم موسوليني والمجتمعين وقتئذ عدائي للحركة من اساسها . وزدت على ذلك اننا نتمتع بعطف البلاد وتأييد السكان على اختلاف نزعاتهم وان الثورة لا محل لها من الاعراب ، اذ بوسعنا ان نخوض المعركة الانتخابية القادمة ونخرج منها فائزين .

الا أن رأيي لم يلقَ آذاناً مصغية لان موسوليني كان ضد سياسة الانتخابات بل كان يكرهها كرهاً شديداً . وكان جل مراده تحطيم الدستور وتسجيل فوز شخصي باهر بواسطة انقلاب سياسي .

وفي الليلة نفسها ، ليلة الخامس والعشرين من تشرين الاول اتخذ قرار الزحف الى روما ، وقد كلفني موسوليني ، بصفتي احد الزعماء الاربعة او الخمسة في المجلس الفاشيستي الاعلى ، القيام بمهمة خطيرة في بلدة بيروزيا . غير اني لم اذهب الى المكان المعيَّن بل بقيت في روما الى جانب سالاندرا ، رئيس الوزارة السابق ، وبعض الرؤساء الاحرار الذين كانوا يعملون بالاتفاق معي على تأليف حكومة جديدة يرأسها سالاندرا نفسه بغية الاشراف على معركة الانتخابات . وقد قبل الملك بمشاريعنا ، فأسرعت الى الاتصال بموسوليني ابلغه موافقة عاهل البلاد على اجراء الانتخابات . ولكن الدوتشي رفض الاستماع الى ما كنت اريد الافضاء به . وهكذا بدأ الزحف الى روما . . .

لقد اتُّهم الملك خطأ بخيانة الدستور سنة ١٩٢٢ ، اتُّهم بهذا لأنه عهد الى موسوليني بالسلطة حال وصول هذا الاخير الى العاصمة الايطالية . والواقع ان الملك فعل ذلك للحؤول دون نشوب ثورة . وقد طلب الى موسوليني حينئذ ان يتقدم الى مجلس النواب ليحصل على ثقته . وقد كان ، وتقدم موسوليني الى البرلمان الايطالي الذي يضم ستمائة عضو ليس بينهم الا ثمانية عشر نائباً فاشيستياً . وكان يغلب على هذا المجلس النزعة الديمقراطية الحرة . ومع ذلك استطاع ان ينتزع الثقة لسياسته وسط عاصفة شديدة من التصفيق ودلائل الاعجاب .

وفي اليوم التالي لتسلُّم موسوليني زمام رئاسة مجلس الوزراء الايطالي قال لي : «انت مضطر الآن لأن تعترف بقوتي وتؤمن بطالعي .» وقد اتهمني بالخيانة لمحاولتي احباط الثورة والانقلاب ولتعاوني مع رئيس الوزارة السابق لاجراء انتخابات نيابية ، وابعدني عن الوظائف الحكومية مدة سنتين تقريباً .

هذه هي مهزلة الزحف الى روما !

سنة ١٩٢٥ تبدأ دكتاتورية موسوليني الحقيقية عندما راح يتشبث بالوزارة تلو الاخرى . وجُففت المستنقعات البونتية ، وبدأت «معركة القمح» . وعندها اتجهت

انظار العالم شطر ايطاليا . . . انها انظار الاعجاب الشديد بهذه النهضة الحثيثة . في ذلك الوقت دخلت الحكومة الفاشيستية كوكيل وزارة ، وفي العام ١٩٢٩ عينت وزيراً للشؤون الخارجية .

وعقدت النية على العمل لمصلحة بلادي ، والقيام بكثير من الاصلاحات الضرورية . وقد بذلت جهدي خلال المدة التي قضيتها وزيراً للخارجية (١٩٢٩-١٩٣٢) لابقاء ايطاليا في حظيرة الدول الديمقراطية .

ولم يوافق موسوليني البتة على سياستي هذه ، وقد اكد لي بصريح العبارة اكثر من مرة ان هذه السياسة تتنافى مع الخطة التي رسمها لحكومته الفاشيستية . فهو لم يرد الاعتراف بغير سياسته الشخصية ، ولم يكن له في الواقع سياسة حكيمة . . . ووقف العالم بأسره على شفير آخر .

لم ترق يوماً عصبة الامم لبنيتو موسوليني لأن جنيف هي الديمقراطية والبرلمان ونادي المناقشة ، وموسوليني لم يكن ديمقراطياً ولا برلمانياً ولا خطيباً بوسعه ان يدير المناقشة في احد الاندية .

وكان على يقين من انه لن يستطيع تسجيل انتصار له في جنيف ، لهذا رفض رفضاً باتاً الذهاب الى عصبة الامم .

ولم يكن موسوليني سهل القياد ، فهو اشبه شيء بالفرس الجموح الذي يصعب تطبيعه . ولكي تؤثر فيه ينبغي لك ان تعتمد الشدة تارة واللين طوراً .

وكنت في جنيف عندما قدّم الرئيس هوفر الاميركي مشروع السلم الى الجمعية . فقلت في نفسي ان موسوليني سيرفض حتماً الموافقة على هذا المشروع اذا ما اتصلت به واوقفته على حقيقة الامر . لهذا قررت ان اتفرد بالعمل . ووقفت في الاجتماع الذي عقدته الجمعية وقتئذ واعلنت موافقة ايطاليا على المشروع بحذافيره دون ما قيد ولا شرط بينما كانت بريطانيا وفرنسا توافقان على المشروع مع بعض التحفظات .

وجن جنون موسوليني ، وارغى وازبد ، واقام الدنيا واقعدها عندما اتصل به نبأ موافقة ممثله في العصبة على مشروع السلام الاميركي . ولكنه بدّل لهجته عندما اجتمعت به وقلت له ان العالم كله معجب بسياسته وان اميركا تعدّه زعيماً لا

يجاري . فسرّ بما سمع ووافق على تصرفي . وطلب الي القول بأن الدوتشي يوافق دون ما تحفّظ على هذه الخطوة المباركة نحو السلام والاستقرار .

الاطراء هو الوسيلة الوحيدة لكسب ثقة موسوليني . وقد عرف وزراء خارجية الدول هذا ولمسوا جانب الضعف في شخصيته فكانوا اذا مازاروا ايطاليا لمقابلته والتحدث اليه في بعض الشؤون الهامة يحرصون قبل الاجتماع به على نشر الاحاديث عنه وعن ايطاليا ويشيدون بعظمة بلاده والنهضة التي وصلت اليها . وكنت واقفاً على جانب آخر من الضعف في شخصيته . فكنت الجأ الى «سياسة» اللف والدوران لكي احمله على الموافقة على خطوة ارى فيها مصلحة بلادي ولا استطيع الاعراب له عنها او التحدث اليه بها . فموسوليني «يحترم» كثيراً الاشياء المكتوبة والمطبوعة . من ذلك انني كنت ، اذا ما اردت القيام بعمل ما ، ابعث بهذا الرأي الى احدى الصحف لنشره على انه رأي احد الخبراء او المراسلين الدبلوماسيين . وكنت اضع هذه الصحيفة على الطاولة التي يجلس اليها موسوليني في مكتبه عند الصباح قبل ان يأتي الى مكتبه . ويقع نظر موسوليني على الرأي «المطبوع» فيروق له ويصمم على العمل به ، ويمسك بقلمه الازرق العريض ويرسم اطاراً حوله ثم يرسله الي مرفقاً بهذه الكلمة التقليدية : «عزيزي الكونت غراندي ، عليك اتباع هذه السياسة !»

الا ان الصحف والكلمات المطبوعة كانت سلاحاً ذا حدين ، يعمل حيناً لمصلحتي ولمصلحة ايطاليا ، واحياناً ضد المصلحتين معاً .

فقد كنت في كل مرة احاول فيها التقريب بين وجهتي النظر الايطالية واليوغوسلافية أُمنى بالفشل الذريع ، لان جريدة «فريم» التي تصدر في زغرب كانت تعمل ضدي بنشرها مقالات تهاجم فيها موسوليني دون ما تورع . فتقوم قيامته ويأبى عليّ مواصلة السعي للتقرب من يوغوسلافيا وسائر الدول التي تباعد بينها وبين ايطاليا البغضاء والشحناء .

ولم يفتني ان جريدة فريم تدعمها اموال دولة اجنبية لها مصلحة من وراء هذه الحملات الصحفية الموجهة ضد الدوتشي . وقلت لموسوليني ذلك ، ولكن دون جدوى . وفي كل مرة تحمل عليه فريم كان يدير ظهره ليوغوسلافيا وتتملكه سورة

من الغضب الشديد .

هذا ويكفي ان تختتم الصحف مقالاتها عن ايطاليا وسياستها بهذه الكلمات : «كم هي حكيمة ورشيدة سياسة غراندي الخارجية» حتى يأبى موسوليني الموافقة على أي خطوة أشير انا باتباعها .

هذه هي صفات الرجل الذي كانت تتوقف عليه مقدرات اوروبا . ومع هذا كله لم يكن هناك أي دليل حوالى العام ١٩٣٠ على طبيعة ايطاليا العدائية ونزعتها الحربية اللهم الا ما كان يرد في خطب موسوليني من اشارات الى ملايين الجنود الشاكي الحراب .

في ايلول من العام ١٩٣٠ حصل الحزب الاشتراكي الوطني (النازي) على مائة وسبعة مقاعد في مجلس الرايشتساغ . فصرح موسوليني الذي كان ما يفتأ يردد لمناسبة ولغير مناسبة ان الفاشيستية ليست بضاعة للتصدير ، وقتها قائلاً : «ان الفاشيستية عقيدة سياسية عالمية ، تعدت حدودنا . فقد كانت ايطاليا بالامس وحدها فاشيستية واليوم يلمع شعاعها في الخارج ، وغداً يدين بها العالم كله .»

هتلر وموسوليني

في الساعة التي رأى فيها موسوليني زميله هتلر يرفع يده بالتحية الفاشيستية رقص قلبه طرباً وخيِّل اليه انه اصبح سيد العالم .

وكنت وقتئذ في جينيف اعمل جنباً الى جنب مع فرنسا وانكلترا في سبيل نزع السلاح عندما قرأت تصريح موسوليني القائل إن الفاشيستية قد تخطت حدود ايطاليا وان العالم لن يلبث ان يصبح فاشيستياً . فصعقت ولم استطع شيئاً ، ولكن قلت في نفسي : «هذه هي نهاية سياستي الخارجية واخشى ان تكون هذه بداية النهاية اذا لم يسارع الدوتشي الى تبديل رأيه مرة اخرى . واغلب الظن انه سيغير رأيه بسرعة لشدة غيرته من هتلر .»

وموسوليني شخصياً يمقت هتلر منذ البدء لانه يرى فيه المزاحم الاول الذي يخشى ان ينازعه السيطرة العالمية التي ينشدها . وما عتم الامر ان نشب بين الدكتاتورين نزاع

موت وحياة . وهنا يتجلى لنا بوضوح العامل السيكولوجي الذي جعل العلاقات بين البلدين ، ايطاليا والمانيا ، واهية وسريعة العطب مما حمل الكثيرين على الاعتقاد بأن ايطاليا ستتمكن في النهاية من الاستقلال بسياستها .

وكان هتلر ادهى من زميله الايطالي . وعلى هذا راح يشيد بحنكة الدوتشي السياسية منذ تعارفهما ولقائهما الاول ، وجعله يؤمن بأنه هو ، في الحقيقة ، مؤسس العقيدة الفاشيستية العالمية التي ستجتاح الدنيا .

وانخدع موسوليني بكلام هتلر وظن نفسه حقيقة زعيما دولياً فقال : «سنشن في اوروبا حرباً دينية عواناً . . . وانا خالق هذه الديانة الفاشيستية !»

وكان يدغدغ موسوليني فكرة ادخال النمسا ضمن منطقة نفوذه اولاً ثم حمل كرواتيا على الحذو حذوها . ومما يبعث على الدهشة والاستغراب ان الدوتشي كان يفكر كذلك في إنشاء كتلة فاشيستية تضم في جملة ما تضم المانيا النازية نفسها وتكون بذلك تحت سيطرته المباشرة .

اما رأيه في هتلر فقد اعرب عنه مرة بقوله ! «ان هذا الشخص ابله يستحق الهزء والسخرية حقاً ، ويفتقر الى الذكاء والحيوية والى الدهاء والحنكة السياسيين . ولا استطيع فهم التفاف الشعب الالماني حوله ، وهو شعب معروف بالذكاء الفطري . . .»

وكان شغل موسوليني الشاغل ازالة هتلر من الطريق او ، على الاقل ، العمل على التقليل من نفوذه وسلطته . وملكت عليه هذه الفكرة لبه حتى بات يردد في كل مناسبة : «ان الشعب الالماني يفهمني اكثر مما يفهم هتلر !» وعلى ذلك جند المئات من الجواسيس وبعثهم الى المانيا ليتسقطوا له الاخبار ويحملوا اليه المعلومات الدقيقة عن رد الفعل الذي تحدثه اعماله في الاوساط الالمانية . اما فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة فلم يكن ليأبه لها او ليعير الرأي العام فيها ادنى اهتمام .

المشادة الاولى

التقى الدكتاتوران في مدينة البندقية سنة ١٩٣٤ فانفجرت القنبلة . ذلك لأن

هتلر لم ترق له هذه البرودة التي استُقبل بها كما لو كان شخصاً عادياً .

وقد ثأر الفوهرر على الفور بتدبير اغتيال الدكتور دلفوس ، المستشار النمساوي ، الذي كان محسوباً على موسوليني . وقد جاء هذا الاغتيال ضربة شخصية موجهة الى الدوتشي نفسه خصوصاً ان عائلة المستشار النمساوي ، وهو المعروف بمستشار الجيب لصغر حجمه ، كانت وقتئذ في ضيافة الزعيم الفاشيستي . وأمر الدوتشي بالتعبئة وبعث بالجنود الى ممر برينر حيث جلسوا ينتظرون معونة بريطانيا العظمى وفرنسا التي لم تأتِ . فكان ذلك بمثابة فشل دبلوماسي مُني به الدوتشي من الفريقين : فريق الديمقراطيات ، وجماعة النازيين . . .

وكان الدوتشي قد تعب من «اللعب» مع عصبة الامم وملها واستثقل ظلها ، فبعث الي بهذه الرسالة الموجزة : «اريد منك ان تستقيل من وزارة الشؤون الخارجية في تمام الساعة العاشرة من صباح غد .» ولما قابلته ابتدرني قائلاً : «يظهر انك «متيم» بجينيف ، فسأتولى انا اعباء وزارة الخارجية ، اما انت فستصبح سفيراً لايطاليا في احدى الدول الاوروبية ، اذ ليس من الحكمة في شيء ان تبقى في ايطاليا .»

وبعد ذلك ببضعة ايام قيل لي ان الدوتشي يأمرني بمغادرة البلاد بسرعة والابتعاد عن مسرح السياسة . ولم يكن لموسوليني ثقة بأحد . . . واتشرف انا بأن اكون من الاشخاص الذين لا يتمتعون بثقته .

ولم يمضِ اسبوع على ذلك حتى كنت سفيراً لدى بلاط صاحب الجلالة البريطانية . ومكثت في السفارة اللندنية مدة سبعة اعوام تخللتها احداث خطيرة ظلت تتوالى على مسرح السياسة الدولية حتى اليوم الذي أُطلقت فيه الرصاصة الاولى فطارت الشرارة من دانتزيغ واندلعت نيران الحرب العالمية الثانية في صيف ١٩٣٩ .

في غضون هذه المدة استطاع موسوليني ان يُخرج ايطاليا من حظيرة الديمقراطيات بينما كنت انا الاقي عطفاً كبيراً من جانب الرأي العام الانكليزي .

لا اغالي اذا قلت ان الاعوام السبعة التي قضيتها سفيراً لايطاليا في لندن هي من اجمل سني حياتي بالرغم من حوادث الحبشة ، واسبانيا ، وحركات موسوليني ، وتشيانو ، وريبنتروب . والفضل في ذلك يعود في الدرجة الاولى الى البلاد التي كنت

امثل فيها بلادي . فقد عرفت في انكلترا معنى الصداقة الصحيح . وكم اثّر ذلك في نفسي وجعلني اردد بأسى على مسامع زوجتي : «آه لو كان لنا في ايطاليا عشر عدد الاصدقاء الانكليز الكثيرين !»

واحببت لندن على الرغم من طقسها الرديء القاسي . هناك الحرية المطلقة ، الحرية المنظمة التي لا اظن ان بقعة من بقاع الارض تتمتع بها بالقدر الذي تعرفه لندن وسائر اجزاء الجزر البريطانية . غير ان مهمتي كسفير في لندن لم تكن سهلة خصوصاً ان موسوليني هو الدكتاتور المطلق ، يدير الشؤون الخارجية على هواه .

اول شيء فكر فيه موسوليني هو انشاء تحالف رباعي لا يضم روسيا ويكون موجهاً ضد مؤسسة جينيف. وقد ادى ذلك التحالف ، كما هو معلوم ، الى كارثة ميونيخ . واستطاع لافال ان يحوّل نظر الدوتشي صوب افريقيا ويغريه باحتلال الحبشة . وقد كان ، وتخلى الزعيم الفاشيستي عن حمايته النمسا التي سرعان ما خرت صريعة عند اقدام النازيين وتحقق الانشلوس ، حلم هتلر الاول . . .

وكان مؤتمر شتريزا بين بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا اعجز من ان يتوصل الى اتفاق يمكّن الدول الثلاث من ان تضع حداً لتضخم التسلح الالماني المستمر . وعندها ترك موسوليني جادة الديمقراطيات ليخطو خطوته في سبيل آخر كان من نتائجه المباشرة الاتفاق الثلاثي المشهور .

وكان الالمان في هذه الاثناء يعملون جهدهم لاستثمار اختلاف وجهات النظر بعد ان علموا علم اليقين ان في نية موسوليني تحدي عصبة الامم واحتلال الحبشة بأي ثمن . وقد دخل هتلر منطقة الراين واحتلها ابان «المعركة البيضاء» ، معركة العقوبات الاقتصادية التي «فرضتها» بعض دول العصبة على ايطاليا المعتدية . واجتمع مجلس العصبة ، ولم تكن المانيا قد اشتركت في فرض العقوبات ضدنا . فأشعرني موسوليني وقتئذ بوجوب بذل قصارى الجهد للمحافظة على صداقة برلين . وكانت المشكلة التي سيتناقش بها المجلس : «هل يعدّ دخول هتلر منطقة الراين اعتداء؟»

وحرص ريبنتروب على حضور جلسة مجلس عصبة الامم . وكان لا يخامره شك في ان ايطاليا ستجيب بالنفي عن السؤال المذكور . الا ان رأيي الخاص هو ان تتمسك ايطاليا بشدة ببنود معاهدة لوكارنو حفظاً للسلام في اوروبا . وارفضّ عقد الاجتماع ، فخرج ريبنتروب حانقاً دون ان يحييني .

كانت تلك المرة الاولى التي اقابل فيها ريبنتروب . ولما عيّن سفيراً للرايش في لندن في خريف العام ١٩٣٦ ايقنت انه سيجعل حياتنا في العاصمة الانكليزية صعبة ومتعذرة . وقد كان ، وتحقق حدسي .

كان تعيين ريبنتروب سفيراً في لندن ثم وزيراً لشؤون خارجية الرايش الثالث ضربة موجهة الى صميم اوروبا لأنه من الاناس الذين يقسمون العالم قسمين : قسم وُجد للتربع في دست الحكم ، وقسم لم يُخلق الا للخضوع وطأطأة الرأس . . . وما انفكّ ريبنتروب ينخر كالسوس الرباط الذي يشد ايطاليا الى بريطانيا العظمى حتى تم له ما اراد بعد ثلاث سنوات .

وكان اول عمل اتاه سفير الرايش في لندن لدى وصوله ان ارسل في طلبي ، فلم ألبِّ الدعوة . وبعد اسبوع زارني هو ، وسرعان ما علمت انه جاسوس نازي يعمل على تقويض كل ما ابذله من جهود في سبيل التقريب بين بلدي وانكلترا وسائر الدول الديمقراطية ، ويبعث بتقارير عن تصرفاتي الى روما . وقد ضمنا مجلس سري حمي فيه وطيس الجدال الطويل ، وكان ذلك على اثر منازعة علنية جرت بيني وبين مايسكي ، سفير الاتحاد السوفياتي في العاصمة الانكليزية ، حول المشكلة الاسبانية .

وفي العام ١٩٣٧ جرى حادث مخز حقاً إن دل على شيء فإنما يدل على دناءة الذي قام به . ذاك ان ريبنتروب مثل بين يديّ الملك جورج السادس في قصر بكنغهام في لندن ورفع يده بالتحية النازية . وكان قد قابلني في اليوم السابق وطلب الي ان احذو حذوه بصفتي دبلوماسياً فاشيستياً . ولما لم يستطع حملي على ذلك سارع الى ابلاغ روما . وكم كانت فرحتي عظيمة عندما قوبل تصرُّف ريبنتروب الشائن هذا بالاشمئزاز . وكانت هذه «الفضيحة» كافية لأن تقطع آخر خيط من الصداقة يربط بين

الرايش الثالث وبريطانيا العظمى .

وذات يوم زارني ريبتروب ومعه رزمة من الصحف الانكليزية وفيها صورة السفارة الالمانية وقد تكسر زجاج نوافذها وخشبها على اثر التظاهرات التي قامت ضد «فضيحة» رينبتروب في قصر بكنغهام الملكي .

وسألني عن سبب «الهجمات» المتواصلة على سفارته بينما تظل سفارتي بمنجاة من الاعتداء حتى في الوقت الذي تطبّق فيه العقوبات ضد ايطاليا من اجل اعتدائها على الحبشة .

وكان ريبنتروب يرغي ويزبد وهو يتكلم، والظنون تساوره . وقد قامت قيامته عندما قلت له ان مرجع هذه «الحملات» ضده عدم شعبيته في الاوساط الانكليزية ، وانصرف مغضباً . وكتمت عنه فتحي النوافذ على مصاريعها عندما اشم رائحة مظاهرة في الساحة العمومية التي تقوم فيها بناية السفارة الايطالية . . .

وكادت مهمتي الدبلوماسية تنتهي بانتهاء فرض العقوبات ضد ايطاليا الذي اتخذ بشأنه قرار في مجلس العموم البريطاني . وقد ظهرت صحيفة الدايلي اكسبرس وفيها صورتي وانا اغادر البرلمان الانكليزي وقد كتبت تحتها هذه الكلمة : «المنتصر» . ولم يرق هذا لموسوليني لاعتباره نفسه احق مني بهذا اللقب ، وأقام الدنيا واقعدها عندما وصلته نسخة من الدايلي اكسبرس ، واستدعيت على الفور الى روما والعاصفة ما تزال على اشدها . وقد بلغ كره موسوليني الانكليز ان اتهمني في احدى المقابلات بانني جد متأثر بالبريطانيين لمجرد انتعالي حذاء انكليزياً . . .

تشيانو

في تموز من العام ١٩٣٦ ، وفي الوقت الذي كان فيه جو العلاقات بين ايطاليا وبريطانيا العظمى اصفى ما يكون ، حدث ما عكر هذا الجو . فقد عيّن الكونت غاليازو تشيانو ، صهر موسوليني ، البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً ، وزيراً للشؤون الخارجية .

كان ذلك صدمة عنيفة . . . وكانت نكبة على ايطاليا ان يدير شؤونها الدولية في

ذلك الوقت العصيب شاب حدث خاضع لسيطرة امرأته ايدا ، ابنة موسوليني .

وكانت ايدا تشيانو الشخص الوحيد الذي احبه موسوليني من دون سائر الناس ومن كل قلبه . وعرف هتلر ذلك ، وراح الالمان يطرون زوجة الكونت الوزير الفتى و«ينفشونها» مما جعلها تبذل المساعي والجهود الكثيرة من اجل المحور .

اما الكونت تشيانو فلم يكن سياسياً وهو رجل تعوزه اختبارات الحياة ، أسند اليه منصب خطير في الدولة فراح يرتكب الاخطاء بالجملة دون ما رادع او وازع .

وذهب تشيانو بصفته وزير الخارجية الايطالية في تشرين الاول من السنة ١٩٣٦ الى برلين ، فبرشتسغادن حيث استُقبل بحفاوة الملوك . ولعب الالمان لعبتهم مع تشيانو الذي عاد الى روما وفكرة المحور تختمر في دماغه . وسرعان ما اخذ التقرب الالماني ـ الايطالي ينمو شيئاً فشيئاً .

المحور

واستثمر هتلر الحرب الاهلية الاسبانية ليفصم عرى الصداقة التي تربط بين ايطاليا وانكلترا نهائياً . وكان الالمان يضعون كل املهم في شخص تشيانو . وبقدر ما كانت ايطاليا تتورط في المشكلة الاسبانية كانت تسير بخطى حثيثة نحو تحقيق المحور .

وفي حين كنت اتجادل مع ريبنتروب بشأن الاتفاق الانكليزي ـ الايطالي كان هناك جدال آخر حامي الوطيس بيني وبين سفير روسيا يدور على المكشوف .

وتجهَّم افق السياسة الاوروبية . ففي ايلول من العام ١٩٣٧ صرح الدوتشي في «ساحة ايار» في برلين قائلاً : «عندما يكون لي صديق أُخلص له حتى النهاية .» ولم يمض طويل وقت على هذا حتى انضمت ايطاليا الى ميثاق مكافحة الكومنترن في تشرين الثاني من السنة نفسها . واحتلت المانيا النمسا في آذار من العام ١٩٣٨ . وفي ايار زار الفوهور ايطاليا وصدر على الفور في روما اول قرار ضد اليهود . وفي ايلول ابتدأت الازمة التشيكوسلوفاكية ، وكان مؤتمر ميونيخ . . . وتوالت التهانىء على موسوليني من جميع اطراف القارة الاوروبية .

وواصل ريبنتروب نشاطه . وفي آذار السنة ١٩٣٩ استدعيت فجأة الى روما .

وكان تشيانو في مكتب الدوتشي لأنه حرص ، بصفته وزير الشؤون الخارجية ، على حضور كل اجتماع يجري بيني وبين حميه . وكنت لا اخاطب موسوليني الا بصيغة المفرد مما يغضب الصهر الوزير لأنه هو مضطر بحكم «القرابة» ان يجله فيخاطبه بصيغة الجمع .

وافهمني الدوتشي بصريح العبارة ان مهمتي الدبلوماسية في لندن لم تنجح لأنني فقدت كل صلة تربطني بإيطاليا والفاشيستية ، وفضلاً عن هذا لفتني الى وجوب ارتداء البذلة الفاشيستية الرسمية ، وطرح نزعاتي الديمقراطية جانباً ونهائياً . وكان ذلك بمثابة انذار . . . وأي انذار .

ضمانة بولونيا

وكنت في هذه الاثناء اتوق الى مواصلة جهودي في العاصمة البريطانية عندما ضمنت انكلترا استقلال بولونيا . واستدعيت للحال لمقابلة موسوليني الذي ابتدرني قائلاً وهو يرتجف من فرط الارتباك : «عليك بالذهاب حالاً الى انكلترا لتفهم الانكليز انهم حمقى . فقد وضعوا بين ايدي البولونيين قنبلة يمكن ان يفجروها ساعة يريدون . هذا اذا لم تكن المسألة الا مجرد «بلفة» انكليزية !»

وعبثاً حاولت افهام موسوليني ان صفحة جديدة يخطها البريطانيون في تاريخهم وان الشعب في تلك الجزيرة ينادي : «لقد دحرنا نابوليون بونابرت والقيصر فلهلم الثاني ، وسندحر موسوليني وهتلر كذلك !»

وكان اعتقادي راسخاً بأن انكلترا ، بضمانها استقلال بولونيا ، عازمة على دخول الحرب من اجلها اذا ما اعتدي عليها . فانفجر الدوتشي : «انك جد مخطئ ، فالبريطانيون لن يعلنوا الحرب من اجل امر تافه كهذا .»

وما لبث ان اردف : «هب انهم اعلنوا الحرب وتغلبوا علينا فإن النصر سيخلّد اسمي . فقد دُحر نابوليون من قبل بعد ان جلب المجد الى فرنسا ، وكانت جزيرة القديسة هيلانه اعظم انتصاراته .»

ولما ذكّرته بأن حروب نابوليون جرته الى واترلو ، قال : «لقد كانت انتصارات نابوليون تاج فرنسا الذي لم تستطع واترلو أن تحطمه .»

غلطتي الكبرى

لم ابغض موسوليني يوماً . وكانت غلطتي الكبرى اعتقادي بإمكان ارجاع موسوليني الى جادة الصواب او على الاقل ارشاده الى السبيل السوي . وقد اكسبته مهزلة ميونيخ شهرة عريضة حتى ان الملك فكتور إيمانويل الثاني جاء بنفسه الى محطة السكة الحديدية في روما ليستقبل الدكتاتور الفاشيستي . وكان موسوليني مضطراً لأن يظهر على شرفة قصره اكثر من مرة محيياً الجماهير المحتشدة التي اتت لشكره على إبعاد شبح الحرب المرعب .

وكان دأبي في لندن ان اصل الى اتفاق معقول مع بريطانيا العظمى . وقد تكللت مساعيّ بالنجاح في آخر الامر ، ووفقت الى وضع اسس ميثاقين عرف كل منهما باتفاقية الجنتلمان ، وذلك في كانون الثاني من العام ١٩٣٧ ، وفي نيسان من العام ١٩٣٨ . وكان الاتفاق الثاني يتعلق بسحب الجنود الايطاليين المحاربين مع الثوار الاسبان .

وجد الدوتشي نفسه تجاه الامر الواقع فلم يحرك ساكناً لان الشعب الايطالي بأسره رحب بالاتفاقيتين ايما ترحيب .

خطبتي المزورة المفروضة

وقّع موسوليني مع هتلر «الميثاق الفولاذي» في الثاني والعشرين من ايار السنة ١٩٣٩ وقد أُجبرت على لفظ خطبة فريدة في نوعها جئت فيها على ذكر المستقبل الزاهر الذي يفتح مصراعيه امام الدولتين الدكتاتوريتين وان سلسلة انتصارات عظيمة تنتظرهما . واليك حكاية هذه الخطبة الرنانة التي أُرغمت على القائها من السفارة الايطالية في لندن :

كان موقفي في العاصمة الانكليزية جد حرج ، وقد زاده حراجة حملات شنتها على الصحف الفرنسية تنعتني فيها بأنني نقطة الاتصال في المعارضة ضد موسوليني وميثاق المحور .

ذاعت في لندن شائعة يزعم مروجوها ان مصدرها روما ومفادها أنني سأخلف

الكونت تشيانو في وزارة الشؤون الخارجية وسأقضي نهائياً على التحالف مع الرايش الثالث .

واتصل الوزير الكونت بي تليفونياً وطلب الي ان القي خطاباً عاماً اشيد فيه بسياسته الرشيدة دون ما تحفُّظ ، بناءً على رغبة الدوتشي واوامره . فرفضت على الفور .

وفي صباح اليوم التالي وصلتني من روما خطبة مطبوعة ومرفقة بتحذير شديد اللهجة جاء فيه ان الزعيم الفاشيستي سيعتبرني «كونت سفورزا رقم ٢» اذا رفضت القاءها بحذافيرها . ولم ابالِ بالتحذير وتمنعت عن لفظها تاركاً للمقادير ان تعمل عملها .

ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة . ونصح لي بعض الاصدقاء الانكليز بأن ابقى في منصبي وانفّذ رغبات الدوتشي . وقد كان ، وألقيت الخطبة المفروضة عليّ فرضاً في دار السفارة بحضور موظفي السفارتين الايطالية والالمانية ، على امل ان لا تُنشر في الصحف . ولكني لم احسب حساب تشيانو . فقد ظهرت الخطبة في جميع صحف روما ، وقبل ان ألقيها . وهكذا دار «خطاب غراندي» دورة العالم .

وقصدت وزارة الخارجية البريطانية لمقابلة لورد هاليفاكس الذي ابتدرني قائلاً : «لا تهتم كثيراً لما حدث ، يا عزيزي الكونت غراندي ، فان حكومتي واقفة على حقيقة الامر . . . والمهم ان تبقى انت هنا لتعمل الى جنبنا في سبيل السلام .»

بيد ان هناك سبباً وجيهاً لنزولي عند هذه الرغبة . فقد علمت ان في «الميثاق الفولاذي» مادة سرية تعهّد فيها هتلر بعدم شن حرب اوروبية قبل مرور ثلاث سنوات على اقل تعديل . فقلت في نفسي ان لدي متسعاً من الوقت وبوسعي ان اعمل الشيء الكثير لمصلحة بلادي ، وان التحالف الايطالي – الالماني لا يمكن ان يدوم الى الابد او يؤثر كثيراً في السياسة الخارجية الايطالية .

ولم يمضِ وقت طويل حتى استدعاني الدوتشي الى روما من جديد .

في وزارة العدل

عدت الى روما فأبى موسوليني ان يستقبلني في مكتبه . وقد خيرني ، بواسطة صهره تشيانو ، بين سفارتين ومنصب حاكم جزيرة رودس . وعرض عليّ كذلك منصب نائب الملك في ألبانيا . فرفضت كل وظيفة وكل منصب ما عدا السفارة الايطالية في لندن . . . وانسحبت من المسرح السياسي .

وذات صباح وبينما انا اطالع الصحف في منزلي في «بولونا» اذا بي اقف على نبأ تعييني وزيراً للعدل . فهبطت روما وطلبت مقابلة الدوتشي . فلما رآني قال لي : «لقد طالبني الالمان برأسك فلم يسعني الرضوخ لأوامرهم ولذا عينتك وزيراً للعدل . وانا بحاجة الى محام في حكومتي .»

رفضت قبول هذا المنصب ، غير ان الملك اقنعني بوجوب تولّي هذا المنصب الخطير مهما كلف الامر لأن الدستور في خطر وعلينا الابقاء عليه بأي ثمن .

وفي وزارة العدل انقطعت عن الدنيا بحكم المنصب ، بيد أنني بقيت على صلة بما يجري على مسرح السياسة الدولية من طرف خفي .

وقد بذلت جهدي للمحافظة على حرمة الدستور ، فلم اوقّع على ما يقرب من الثمانين مرسوماً وقراراً . . .

وفي آب من العام ١٩٣٩ ، وعلى رمال ملعب اوستيا القريب من روما ، قابلت تشيانو وسألته عما يجري في برلين من احداث سياسة خطيرة وعن هذا الاخذ والرد بين العاصمتين البولونية والالمانية ، وعما اذا كانت الحرب وشيكة الوقوع . فكان جوابه : «ستشهد عما قريب ميونيخ اخرى . فقد طلب الي ريبنتروب ان اوافيه الى سالزبورغ بعد غد ، وذلك دون شك ، لقرب اجتماع الاقطاب الاربعة وتقرير مصير دانتزيغ هذه المرة .»

وما هي الا ايام حتى تلفن الي الكونت الوزير وطلب الي الحضور الى مكتبه للتداول في احد الامور الهامة . وقد اكتشفت اثناء المقابلة ان تشيانو عاد من برلين وقد اطّرح سياسة التعاون مع الالمان جانباً ، مُظهراً كرهاً لهم لا مثيل له . ذلك بأنه وجد في ريبنتروب لاول مرة رجلاً المانياً حقيقياً . فقد افهمه وزير خارجية الرايش بصريح

العبارة ان الفوهرر سيعلن الحرب على بولونيا في ظرف اسبوعين وان على ايطاليا واجباً بصفتها حليفة المانيا . وقامت قيامة تشيانو وحاول افهام زميله ريبنتروب ان المانيا تعهدت بحفظ السلام لمدة ثلاث سنوات ، وان من الضروري التشاور قبل اتخاذ اي قرار خطير كهذا ، وان بريطانيا العظمى قد ضمنت استقلال بولونيا وان . . . وان . . .

فلم يأبه ريبنتروب لكل هذه الامور «التافهة» قائلاً : «ان انكلترا وفرنسا لن تشهرا الحرب من اجل بولونيا . واذا دخلتا الحرب فإن ذلك يعني اننا سنزحف الى باريس ولندن بعد فرصوفيا . وبعد هذه المقابلة بثمانٍ واربعين ساعة وقف العالم بأسره على خبر خلاف تشيانو - ريبنتروب .

وللمرة الاولى ، رجاني تشيانو كالطفل ان انقذه من ورطته . وخيِّل الي ان بالامكان استثمار الخلاف لإعلان عدم تمسك المانيا بمحالفتنا واخراج ايطاليا من المحور . وقد بذلنا جهدنا في تلك الاثناء للبقاء خارج النزاع .

وتلقّى تشيانو من وزارة الحربية الايطالية لائحة طويلة بالمؤن الحربية المختلفة التي تطلبها ايطاليا من الرايش في حال دخولها الحرب . فأخذنا ، تشيانو وانا ، اللائحة وضاعفنا الارقام قبل ارسالها الى برلين ، بعد ان اكدنا للسفير الالماني في روما حاجتنا الماسة الى الكمية المطلوبة بكاملها ، وكل املنا ان تعجز المانيا عن تلبية رغبتنا فيصير بوسعنا عندئذ الخروج من تعهداتنا بحجة نقض المانيا الميثاق الفولاذي .

مخابرة تليفونية

واتصل هتلر بالدوتشي تليفونياً ، وكان هناك خط خاص يصل قصر المستشار الالماني في برلين بقصر البندقية ، واحتج الفوهرر على مطالب ايطاليا التي لا تطاق . فدهش موسوليني واستفسر من الكونت تشيانو عن الامر . الا ان هذا لم يبدّل الحالة لأن الزعيم الفاشيستي قال لزميله النازي انه وقع فريسة «خيانة» وزير خارجيته وسائر معاونيه . وفهم الالمان على الفور انه ليس في نية ايطاليا خوض غمار الحرب .

وكانت دهشة ايطاليا عظيمة جداً عندما فوجئت بعقد معاهدة عدم الاعتداء بين

ريبنتروب ومولوتوف في الرابع والعشرين من آب سنة ١٩٣٩ . فقد قُرر هذا الاتفاق بالفعل قبل اسبوعين من توقيعه وإبان زيارة الكونت تشيانو لريبنتروب في سالزبورغ . الا ان الوزير الالماني لم يطلعه على شيء من المفاوضات والمباحثات التي كانت دائرة بينه وبين الاتحاد السوفياتي ، وعلى رغبته في هدم ميثاق مكافحة الشيوعية من اساسه .

ايطاليا اللامحاربة

وتردد موسوليني كثيراً . . . وهاجم الالمان بولونيا في ٣١ آب ، فاتخذ الدوتشي الاجراءات اللازمة للتعبئة ، ورفعت الاعلام ، واعطيت الاوامر لجميع السفن الايطالية بالعودة الى مرافئها . وبعد ذلك بيومين عقدت الوزارة اجتماعاً خطيراً .

وكان موسوليني شاحب اللون ، فتناول برقية الفوهر وقرأ فيها ما يلي :

«اني اشكر لك ، يا عزيزي الدوتشي ، مساعدتك السياسية والدبلوماسية . واني لكبير الثقة بأن قوة المانيا العسكرية ستتيح لي تحقيق ما اردت من شن هذه الحرب . وأظن ، يا عزيزي الدوتشي ، ان الرايش الثالث ، والحالة هذه ، ليس بحاجة الى معونة ايطاليا الحربية . واني اشكرك على جميع ما بذلته من الجهود في سبيل قضيتنا .»

هناك رجل واحد يمكنه ان يخط مثل هذه البرقية التهكمية للحط من قوة الدوتشي العسكرية بصفته القائد الاعلى للجيش الايطالي . ان هذا الرجل هو ريبنتروب .

واعلن موسوليني ان ايطاليا ستبقى خارج النزاع ، مما اثلج صدر الوزارة .

وكنت احضر الجلسة لأول مرة بعد مضي سبع سنوات ، فطلبت الكلام ، ورحت اكيل الاحتجاجات على تصرّف المانيا بهذا الشكل نحو حليفتها . فقد نقضت كل تعهداتها والتزاماتها ولم ترعَ لها حرمة .

وطلبت الى المجلس ان يبدّل الجملة «البقاء خارج النزاع» بجملة سواها تكون اشد وقعاً واصدق تعبيراً عن حقيقة موقفنا ، وان يصدر كتاباً ابيض يشرح فيه نقض المانيا التحالف القائم بيننا . . . الخ .

ولم يدعني الدوتشي انهي كلامي ورفض الاستماع الى اكثر من ذلك . فقد كان

يحرص على عدم افتضاح خيانة هتلر له . . . ورفعت الجلسة .

وبعد ساعة جاءني تشيانو ليعلن لي عن رغبة الدوتشي في عدم تعرضي للشؤون الخارجية بعد الآن إن في جلسات الوزارة او خارجها لانها ليست من اختصاصي . وقد جاء السبب في رفض هتلر معاونة ايطاليا له عندما اعلن الحرب على بولونيا في صيف العام ١٩٣٩ في خطبة له القاها في العاشر من ايلول العام ١٩٤٣ اذ قال :

«عندما اعرب لي الدوتشي عن رغبته في تعبئة قواه ودخول الحرب الى جنبنا عملاً بالاتفاق المعقود بيننا حالت بينه وبين تحقيق هذه الرغبة يومئذ العناصر ذاتها التي قادت ايطاليا اليوم الى التسليم دون قيد او شرط للحلفاء .» وكفى بهذا دليلاً على رغبتنا في البقاء خارج النزاع . وقد جاء هذا الدليل من حيث لا ندري وفي الوقت الذي لم نفكر انه سيجيء .

ومهما يكن من امر ، فإن ايطاليا تجنبت الحرب يومئذ فاستحق موسوليني البركة البابوية وتقدير الامة جمعاء له لتجنيبها الويلات والارزاء التي هي في غنى عنها . غير ان الدوتشي لم يكن مرتاحاً لذلك ، ولامسروراً ابداً من هذا الحياد الجبري الذي لا يشرفه ولا يشرف وطنه .

واختفت كلمة «المحور» من الصحف واتخذ موسوليني فضلاً عن هذا اجراءات سرية ضد المانيا .

فأوقف كل اعمال التحصينات الدفاعية على الحدود الفرنسية ، وارسل آلاف العمال الى الشمال لبناء (الجدار الالبي) على الحدود الايطالية ـ الالمانية . وكان يلقب هذا الجدار الدفاعي بخط ماجينو الايطالي .

هذا كان موقف ايطاليا ، وهذه كانت حالة العلاقات المتحرجة بينها وبين المانيا عندما ترجل ريبنتروب من القطار الحديدي في زيارة له لروما في التاسع من آذار السنة ١٩٤٠ وصرح للكونت تشيانو بقوله : «لم آتِ هذه المرة لأنبه ايطاليا الى واجبها نحو حليفتها ، انما جئت لأمنعها من الارتماء في احضان اعداء المانيا .»

كيف دخلت ايطاليا الحرب

اختلى ريبنتروب بالدوتشي اكثر من مرة . وقد اسفرت هذه الخلوات عن اجتماع الدكتاتورين الفاشيستيين في ممر برينر في التاسع عشر من آذار ١٩٤٠ . ولما عاد موسوليني الى روما اخذ يشن الحملات الصحفية ضد الحلفاء .

وصدرت الي الاوامر بقطع كل صلاتي مع السفير البريطاني السر بيرسي لورين ، وعدم استقبال اي شخصية بريطانية على الاطلاق . فساورتني الشكوك والمخاوف وضقت ذرعاً بهذه الحالة التي اخذت تتحرج يوما بعد يوم .

وكان في نيتي القاء خطبة في اواخر ايلول ، فبعثت بها الى موسوليني ليوافق عليها . وقد اعادها الي بعد ان اضاف هذه الجملة : « . . . ولما كانت ايطاليا من الدول الكبرى فإنه لا يسعها بحال من الاحوال البقاء خارج النزاع الاوروبي المستعرة نيرانه الآن . . . وهي مستعدة في اي لحظة لأن تنفذ رغبات الدوتشي عند اقل اشارة تبدر منه .»

وهاجم الالمان الدانمرك والنرويج وراحوا يتهيأون للزحف نحو الغرب . وكانت اشارات الدوتشي وتلميحاته عن الحياد ، على حد قوله ، ترمي الى خطب ود الحلفاء واقتضائهم ثمن وقوفه على الحياد غالياً . . .

وعاد الماريشال بالبو في تلك الاثناء الى روما على جناح السرعة ليقول للدوتشي ان التحصينات الايطالية في ليبيا ليست متينة وقد افضى الي الماريشال الهرم بعد مقابلته الزعيم الفاشيستي بما قاله له الدوتشي : «لا تشغل بالك . . . لن تدخل ايطاليا الحرب .»

غير ان الحالة تبدلت بسرعة عندما هاجمت القوات الالمانية هولندا واخذت تهدد خط ماجينو .

واذكر انني دخلت ذات يوم على موسوليني في مكتبه فألفيته مكباً على خريطة كبرى لفرنسا . وكان مذعوراً لاتساع العمليات الحربية الالمانية . واذا به يقول : «ماذا يفعل الجنرال غاملان ؟ ولماذا لا يقاوم ؟» ثم ينهض ويسير في الغرفة جيئة وذهاباً قائلاً : «لن يستطيع الالمان المرور ، وستجري معركة مارن اخرى .»

ولكن لم تجر هذه المعركة التي كان ينتظرها . فقد كانت اسابيع معركة دنكرك ومحنة فرنسا اسابيع حداد في ايطاليا . وكان الخوف يشوب هذا الحداد : الخوف من انتقام المانيا لخيانة حليفتها ايطاليا التي لم تعلن الحرب معها في ايلول من العام ١٩٣٩ .

وسيجيء دور ايطاليا حتماً بعد سقوط فرنسا اذا لم تنضم الى الصف النازي في الحال .

وقابلت موسوليني فقلت له : «اذا دخلت الحرب الآن سينظر اليك اعداؤك وحلفاؤك على السواء نظرة ازدراء .» فكان جوابه : «انك وزير العدل على ما اظن ، فدع هذه الشؤون لسواك .»

وجلس الى مكتبه . وكان الامل بالنجاة من الحرب كبيراً طالما المجلس الفاشيستي الاعلى غير منعقد .

ولم تكن التعبئة قد اعلنت ، والوحدات الحربية البحرية لا تزال منتشرة في البحار السبعة . غير ان الدوتشي وضع نفسه فوق القانون والعرف . فقد ظهر في العاشر من حزيران ١٩٤٠ على شرفة قصر البندقية في تمام الساعة السادسة مساء ليعلن للجموع المحتشدة وللوزراء انه قرر خوض غمار الحرب الى جانب الرايش الثالث .

الف قتيل على الاقل

اعلن الدوتشي الحرب وكله امل بأنه لن يضطر الى اطلاق رصاصة واحدة . فقد ظن ان بريطانيا العظمى قد انتهت ، وانها ستخر على ركبتيها امام المحور ، وان برلين سترحب بدخول ايطاليا الحرب .

كان موسوليني يؤمل من دخوله الحرب اقتسام الغنائم والاسلاب . فأمر المارشال بادوليو بالهجوم على فرنسا . وقد قابلت الماريشال فقال لي : «ان هذا الرجل لأحمق . . . انه مجنون يشن حرباً دون ان يحسب اي حساب للطوارئ . لقد حاولت عبثاً ان اثنيه عن عزمه ، اذ ليس لنا اية خطة حربية موضوعة . فصاح في وجهي مغضباً : انني بحاجة الى الف قتيل على اقل تعديل حتى يسمح لي هتلر

بالتوقيع على معاهدة الصلح .»

وكان لموسوليني ما اراد من القتلى الذين يعدّون بمئات الألوف ، غير انه لم يتقدم الا بضعة كيلومترات داخل فرنسا . وكان في نيته غزو جنوب فرنسا واحتلال حوض نهر الرون والمنطقة القائمة بينه وبين مرسيليا ليحول دون تقدم القوات الالمانية نحو الجنوب مما يشكل خطراً على ايطاليا نفسها .

وعُقدت الهدنة دون أن يشترك موسوليني في توقيعها ، ووضعت فرنسا الجنوبية تحت سيطرة الماريشال بيتان . وسأل الدوتشي زميله الفوهرر السماح له باحتلال كورسيكا وتونس والسافوى ونيس ، فرفض هتلر هذا الطلب .

يوغوسلافيا واليونان

كان طعن فرنسا في الظهر كافياً لأن يصغِّر من شأن ايطاليا ويصمها بوصمة العار والشنار . ففكّر الدوتشي في إحراز نصر عسكري عظيم في اوروبا الجنوبية الشرقية والوقوف بوجه المطامع الالمانية هناك . وكانت يوغوسلافيا الهدف الاول . وفاتح هتلر بذلك ، فعارضه . فقرر الدوتشي وضع الفوهور تجاه الامر الواقع . واجتمع الدكتاتوران في فلورنسا في ٢٧ تشرين الاول العام ١٩٤٠ وتداولا في شؤون كثيرة دون ان يطلع الدوتشي زميله على الامر الذي كان يدبره في الخفاء وهو ارسال انذار الى اليونان في اليوم التالي .

وهاجمت القوات الايطالية اليونان ، هذا البلد الذي لم ينشب بينه وبين ايطاليا اي نزاع مسلح من قبل . غير ان الحملة اليونانية كانت وبالاً على ايطاليا اذ اضطرت قواتها بعد تقدم يسير الى التقهقر السريع المشين الذي جر الى الكارثة المعروفة . وهكذا اراد موسوليني مهاجمة اليونان وهو يعلم ما هي عليه من البأس والقوة العسكرية ، فارتد خائباً . . . فقد طلب الى الجنرال جيلوزو قائده في البانيا ، ان يضع خطة للغزو ففعل ، وقال للدكتاتور الفاشيستي ان هذا الغزو يتطلب عشرين فرقة . وعُزل جيلوزو وأسندت القيادة الى قائد آخر هاجم اليونان بسبع فرق فقط متوهماً ان «الثورة» التي قيل انها نشبت على الحدود ستعمل لمصلحته . وراح موسوليني يتهيأ لدخول اثينا

على صهوة جواده الابيض .

ولم تمضِ خمسة عشر يوماً على ذلك الهجوم الفاشيستي حتى اخذت انباء الانهزامات تتوالى على روما . وجعل موسوليني يبعث باعدائه للتخلص منهم . وانحل المجلس النيابي من تلقائه . وأُمرت باللحاق بكتيبتي القديمة في ظرف يومين .

وكان جنودنا قد ملوا تلقّي الاوامر من الضباط الذين يقودونهم من هزيمة الى هزيمة . وفي روما كان موسوليني يتشدق بهذا الكلام : «سنقصم ظهور اليونانيين ونحطم سلاسلهم الفقرية .» وفي اليونان كان يُحفر قبر الفاشيستية .

وظلت الحال على هذا المنوال حتى بدأ التذمر يتسلط على الجنود الايطاليين والضباط في الجبهة وبدأوا يظهرون مقتهم وكرههم لموسوليني . وكان الجنود ، عندما اجلس للاستماع الى اذاعات الحلفاء بصفتي وزيراً ، يلتفون حولي لتسقُّط انباء الانهزامات المتتالية . وبدأت الفرق الالبية التي كانت تناصر الملك وتكنّ له الولاء تشكو وتتظلم . فلم يكن من موسوليني الا ان ثأر منها وبعث بخيرة رجالها لتحارب مع الالمان في مستنقعات نهر الدون في روسيا .

وقلت في نفسي : «لقد دقت الساعة ، يجب ان نخرج من الحرب بأي ثمن وفي اسرع ما يمكن .» واتصلت بزملائي ورفاقي في الخنادق على الجبهة اليونانية وقر قرارنا على التخلص من الدوتشي ، ووضعت القرار الذي سقط بموجبه الدكتاتور في جلسة المجلس الاعلى التاريخية في ٢٤ – ٢٥ تموز ١٩٤٣ . . .

الالمان في ايطاليا

عاد الجنود من جبهة اليونان منهزمين وهم موقنون من سقوط موسوليني السريع ونضوج الثورة في ايطاليا . ولكن خاب فألهم اذ وجدوا الالمان «يحتلون» بلادهم . فقد اخذت جيوش روميل تتدفق على ايطاليا في طريقها الى الصحراء الغربية الافريقية لصد هجوم وايفل في بنغازي . وكان الدوتشي قد رفض في كانون الاول ١٩٤٠ مساعدة القوات الالمانية للدفاع عن الممتلكات الايطالية . اما اليوم فهو الذي يطلب النجدة والعون . . .

وانقذ رومل موقف موسوليني ، الا ان ايطاليا أذلت وأهينت ، واحتلت اجزاء منها القوات الالمانية . وكان رجال الغستابو منتشرين في جميع الانحاء . وقال لي سونيز ، رئيس شرطة روما ، ان هناك عشرة آلاف جندي الماني في العاصمة وحدها «يحتلون» المساكن والمباني ذات المواقع الاستراتيجية .

وكان الجواسيس يتأثرون خطاي ، وهم اتبع للمشتبه بهم من ظلهم . ولكني لم اياس . . .

وفي تشرين الاول من العام ١٩٤٢ ، نزل الحلفاء على الساحل الافريقي الشمالي . ورغبت في السفر الى مدريد للاتصال بالسفير البريطاني السر صمويل هور وتنسيق حركة العصيان داخل ايطاليا بمعاضدة قوات الحلفاء . وادعيت امام موسوليني بأن الغاية من سفري هي الاتصال بوزارة العدل الاسبانية لجلاء بعض الشؤون بصفتي وزير العدل الايطالي . فرضي في بادىء الامر ، ثم عاد عن قراره وأوفد الكونت تشيانو ليقول لي ان الدوتشي يخشى ان يغيظ وجودي في مدريد حلفاءَه النازيين وانه اجّل السفر الى ما بعد نهاية الحرب .

والواقع ان موسوليني كان يخشى لعبة اقوم بها في مدريد .

وفي الرابع من شباط أقال موسوليني الوزارة وقام بحملة تطهيرية واسعة النطاق شملت جميع المتذمرين . وخرجت بالطبع من وزارة العدل كما خرج بوتاي الذي كنت اعوّل عليه في وزارة التربية . . . وخرج تشيانو من وزارة الشؤون الخارجية بعد ان عيّن سفيراً لدى الفاتيكان . وجاء رد المقر البابوي بقبول تشيانو سفيراً لايطاليا في الفاتيكان . الا ان موسوليني غيّر رأيه واراد ان يعيّن صهره اما في برلين او في مدريد ، وقصد من ذلك ابعاده الى خارج البلاد .

النزول في صقلية

وتوالت الهزائم العسكرية على ايطاليا . فقد استطاع الحلفاء شق طريق لهم عبر افريقيا الشمالية والاتصال بقوات مونتغمري . وسقطت تونس وبنزرت . وفي العاشر من تموز نزل الحلفاء في جزيرة صقلية ، وهي أرض ايطالية .

وتلقيت الامر من الدوتشي بمغادرة العاصمة والتوجه الى بلدتي بولونا لالقاء خطبة احث فيها الشعب على مواصلة الجهاد والمقاومة والمجهود الحربي . فرفضت . وتلقّى بعض اعضاء الوزارة وكبار اعضاء المجلس الفاشستي الاعلى اوامر مماثلة . ولكنهم ابوا مغادرة روما وايدوني في وجوب عقد جلسة مستعجلة .

قال موسوليني ان المجلس الاعلى لا يجتمع الا بأمر منه ، وان ذلك لن يكون قبل انتهاء الحرب وفوز ايطاليا ، وذهب للاجتماع بهتلر في فيلتر ، من اعمال ايطاليا الشمالية .

ولـم تكن امثال هذه المقابلات والمحادثات بين الدكتاتورين سوى مهزلة لان احداً منهما لـم يكن ليسلّم بوجهة نظر الآخر . ولم تكن الغاية من هذه المقابلات الا التأثير في الاوساط الدولية . . .

وهتلر لا يعرف الايطالية كما ان موسوليني لا يتقن الالمانية . . . وتكون النتيجة ان ينبري الفوهور الى القاء محاضرة طويلة بالالمانية يجهد الدوتشي نفسه كثيراً لتتبعها بينما يحدج بنظره الاشخاص الجالسين بعيداً عنهما . ثم ينتحي ريبنتروب وتشيانو بصفتهما وزيري الخارجية ركناً من القاعة . ويحذو القائد الاعلى فون كايتل حذوهما ، فيختلي بزميله الفاشيستي . ولـم تكن المقررات لتؤخذ في هذه المقابلات بل كانت تؤخذ اما قبلها او بعدها .

اما في فيلتر فقد تبدلت الحال ، فطالب الدوتشي زميله الالماني بمدد عظيم ورضي هتلر بتلبية الرغبة على شرط ان تناط بالالمان مهمة الدفاع عن ايطاليا ، وان تضم «الافريكا كورب» فيلقاً ايطالياً يكون تحت قيادة إرفن روميل . وحذّر الفوهور الزعيم الفاشيستي من قيام ثورة او عصيان في النظام الفاشيستي .

المجلس الفاشيستي الاعلى

وعاد موسوليني الى روما في العشرين من تموز ودعا المجلس الاعلى الى الانعقاد . ويتألف هذا المجلس من ثمانية وعشرين عضواً ينقسمون الى : ثمانية وزراء ، ورئيسي مجلسي البرلمان (مجلس النواب والشيوخ او الاعيان) ، ورؤساء النقابات الفاشيستية

العمالية ، ومن اربعة الى خمسة اعضاء آخرين يختارهم الدوتشي بنفسه .

هنا يرقد املنا الوحيد الهزيل . . . ينبغي لنا التسلط على المجلس الفاشيستي ، هذا السلاح المشحوذ الذي يعتمده الدوتشي في تصريف اموره ، لكي نحاربه به الآن . فقد رفض هذا المجلس في جلسة السابع من كانون الاول سنة ١٩٣٩ قرار الاشتراك في الحرب . اما السبب في دعوته الى الاجتماع بعد مضي ثلاث سنين فيتلخص بما يلي :

اولاً ـ القاء تبعة رمي ايطاليا في احضان المانيا علينا نحن اعضاء المجلس .

ثانياً ـ اضطرار الاعضاء الذين يناوئون موسوليني وسياسته الى كشف القناع عن وجوههم ليتسنى له ان يضربهم الضربة القاضية ، وكان واثقاً من نجاحه .

ماذا بوسعنا ان نعمل؟ كل ما هنالك اننا نريد ازاحة الدكتاتور من الطريق وبالوسائل الشرعية الدستورية .

وكان البرلمان مكموماً ، والجيوش الايطالية مبعثرة في انحاء روسيا الشاسعة النائية وفي افريقيا والبلقان . وكانت الثورة بعيدة البعد كله .

فالطريقة الوحيدة اذن ، لقلب النظام الفاشيستي الدكتاتوري ، هي العمل من فوق ، اي ان يتولى الملك هذه المهمة بعد ان يتخذ المجلس الاعلى القرار بتغيير نظام الحكم في البلاد .

هذه كانت المشكلة العويصة : لا يسعنا بحال من الاحوال انزال الملك في هذا «المغطس» قبل ان نتحقق من تأييد اكثرية اعضاء المجلس . وفي حال اخفاق هذه المحاولة الخطرة ماذا سيكون مصيرنا ومصير التاج؟ علينا اذن ان نتحمل نحن وحدنا مغبة خطواتنا دون ان نشرك معنا الملك .

وابرزت قراري الذي حررته في بولونا قبل ذهابي الى الخنادق في الميدان اليوناني وفيه أطالب بعودة الحياة الدستورية ، ودعوة البرلمان ، وبتنازل موسوليني للملك عن قيادة القوات الايطالية وعن حق اتخاذ قرارات لها قوة القانون بصفته رئيس الدولة الاعلى .

وقابلت اول من قابلت فيدرزوني ، وهو من اخلص اصدقائي واشدهم تأييداً لي

في «سياستي» . وهو بدوره ارسل يطلب اصدقاءَه بوتاي وألبيني وباستيانيني الذي خلفني في السفارة الايطالية في لندن . وامَّن الجميع على قراري ووعدوني بكسب عطف سائر الاعضاء الذين لهم بعض التأثير فيهم . وذهبت بنفسي الى سكورزا ، سكرتير الحزب الفاشيستي ، وسلمته نسخة من القرار المذكور واطلعته على الخطة التي ستتبعها في جلسة المجلس الاعلى . ووافق على القرار وانضم الى صفوفنا ، ولكنه عاد فخاننا في اثناء الجلسة وانحاز الى موسوليني . وكنا قد قابلنا اربعة عشر عضواً من المجلس الفاشيستي الاعلى انضم الينا اثنا عشرعضواً منهم .

وخفت ان تنظر الامة الى قرارنا نظرها الى دسيسة تدبّر في الخفاء . وعولت على كشف النقاب عنه . وفي الحال ذهبت لمقابلة موسوليني في قصر البندقية .

وكان ذلك في الثاني والعشرين من تموز وفي تمام الساعة الرابعة بعد الظهر . . .

التقيت وانا اهم بالدخول الى غرفة مكتب الدوتشي المارشال كايسرلنغ الالماني وكان ينتظر الإذن له بمقابلة الدكتاتور الفاشيستي ليتسلم منه القيادة العليا للجيوش الايطالية عملاً باتفاقية فيلتر . وكنت اخشى ان يبوح له الدوتشي بما سأقوله له بعد خروجي . الا ان اعتداد موسوليني بنفسه يمنعه من ركوب هذا المركب الخشن الذي هو في غنى عنه ، خصوصاً وهو يحاول ان يظهر امام حلفائه الالمان بمظهر الحاكم الفرد المطلق الصلاحية الذي لا يجرؤ احد ان يرفع رأسه في حضرته . . . والواقع ان موسوليني لو اطلع كايسرلنغ على قراري لما انعقد المجلس الاعلى .

وقد صوَّر الناس خطأ الدوتشي في تموز سنة ١٩٤٣ بصورة الرجل المنهوك القوى . والواقع انه لم يكن كما تصوره الجميع وقتئذ . فقد كان اقوى شكيمة وامضى عزيمة من ذي قبل . ذلك لان ايطاليا كانت بعيدة كل البعد عن الثورة والعصيان وتهديم آلته الساسية . وكان ما يزال يسيطر على فرق عدة : فرقتين مصفحتين من فرق الميليشيا الفاشيستية على مسافة بضعة كيلومترات الى شمال روما ، وعشرة آلاف رجل من الغستابو الالماني منبثين في انحاء العاصمة ، وجنود كايسرلنغ المعسكرة في الجبال الالبية وعلى مسافة ٢٥ كيلومتراً من روما ، فضلاً عن فرقة المانية من فرق «البنتسر» (المدرّعات أو المصفّحات) المشهورة .

آخر ايام النظام الفاشيستي

اجتمعت الى الدوتشي وقتاً طويلاً حاولت في اثنائه اقناعه بأن واجبه كوطني يقضي عليه بالتخلي عن الحكم من تلقائه ليتسنى للشعب الاعراب بحرية عن رأيه .

لم يدهشه كلامي هذا لأنني عرفت في ما بعد ان سكورزا اطلعه على نسخة من قراري . قلت له ان عليه فسح المجال امام البرلمان ليتاح له الافصاح عن رغبته الصريحة والقاء مقاليد القيادة العليا الى الملك .

وزدت على ذلك قولي انني سأدلي بكل هذا امام المجلس الاعلى . فكان جوابه : «سنرى !»

وقبل ان اغادر غرفتي لحضور جلسة المجلس ، كتبت وصيتي ورسالة الى زوجتي واولادي في بولونا .

واتصلت بالملك واوقفته على القرار الذي اتخذته . وكان كل املي ان يتحرك الملك في آخر لحظة لإقالة ايطاليا من عثرتها .

فوجئنا عند وصولنا الى قصر البندقية ، حيث كان مقرراً انعقاد المجلس الاعلى في الساعة الخامسة مساء من يوم السبت ٢٤ تموز سنة ١٩٤٣ ، بفرقة من الميليشيا الفاشيستية المسلحة وقد انتشرت في حدائق القصر وعلى سلالمه وشرفاته وفي دهاليزه . . .

وكان موسوليني بانتظارنا ، فقلت في نفسي : «هذه هي النهاية !» وتمتم بوتاي الواقف بجانبي : «كل هذا من اجل مقابلتك الدوتشي !»

ودخلنا ، وأقفلت الابواب من ورائنا ، وقبع خلفها رجال الميليشيا ، فخيل الينا اننا لن نخرج من القاعة احياء .

جلسة تاريخية

ودخل موسوليني ، وكانت خطواته قوية وثابتة ، فلم يتطلع الى احد بل تابع مسيره الى ان وصل الى «عرشه» فاستوى عليه .

وكان يرتدي بزة القائد العام للميليشيا للتدليل على القوة العسكرية التي تدعمه .

واستهل كلامه بقوله انه لم يدعنا للمناقشة في حالة ايطاليا العامة بل ليطلعنا على حقيقة الموقف في جزيرة صقلية قبل اتخاذ اية تدابير عسكرية . وكان عظيم الثقة بنفسه في ذلك المساء كعادته ، «بارداً» يعرف انه سيلعب بالمجلس على هواه لأنه هو السيد السند ، المطلق التصرف . . .

الا ان مظهر الشدة والعزم هذا الذي حاول موسوليني ان يظهر به لم يكن ليحجب ما كان يساوره من الخجل لاضطراره الى البوح بمضمون «ميثاق فيلتر» المعقود مع هتلر .

وتكلم موسوليني على صقلية ، وجعل ينحي باللائمة على الصقليين الذين استقبلوا الحلفاء كمحررين ويسّروا لهم سبل التقدم ، وشجب احجام الجنود الايطاليين عن محاربة البريطانيين .

وحمل حملة شعواء لا هوادة فيها على القادة الايطاليين الذين سلموا الجزيرة الى العدو ، ثم توجه بكلمة اشاد فيها ببطولة الجنود الالمان الذين يحاربون في تلك الجزيرة .

في هذه الاثناء كنت قد ناولت اسيربو الجالس الى يميني نسخة من قراري الذي لم يكن قد اطّلع عليه من قبل . فقرأها وتمتم : «ولكن هذا معناه . . .» ففهمت وهززت رأسي قليلاً . وتبينت حيرته ، واذا به يقول : «والملك؟» فأجبته : «لست اعلم . . . يجب ان يرضى . . . وانت؟» وبرهن اسيربو عن شجاعة فائقة . فقد وقّع القرار واعاده الي .

وكان موسوليني قد انتهى من حديثه ، فسمح لكل من له سؤال عن صقلية ان يبديه . واردف قائلاً : «وسترفع الجلسة بعد المناقشة على ان اعلن في امر يومي عن المقررات التي ستتخذ بهذا الصدد .»

كانت هذه العادة المتبعة . . . يجتمع المجلس الاعلى فيستمع الى خطبة للدوتشي تتبعها مناقشة ، ثم ترفع الجلسة ويعلن موسوليني امره اليومي الذي يخرجه من جيبه ويزعم انه مبرم بالاجماع دون ان يكون هناك اي تصويت .

وتكلم بعدئذ الماريشال الهرم دو بونو ، «بطل» الحبشة . فادلى بدفاع عن الجيش

الايطالي ، وامّن دو فتيشيو على كلامه .

وهبَّ فاريناتشي ، صديق المانيا ، من مكانه فجأة وراح يتهم القادة الطليان بالخيانة ويطلب الى الجنرال امبروزيو ، رئيس هيئة اركان الحرب ، ان يجيب عن هذه الاتهامات ويدفعها اذا استطاع الى ذلك سبيلاً . وكانت غايته من كل هذا واضحة للجميع . فقد اراد ان يجبر المجلس الاعلى على القبول بمواد «ميثاق فيلتر» الذي فرضه هتلر فرضاً على ايطاليا . وبعد ساعة من ارفضاض الجلسة استقل فاريناتشي الطائرة الى ميونيخ ليرفع خالص تحيته إلى هتلر وليعرب له عن اخلاصه وولائه الى النهاية .

وجاء دوري ، فقلت انني سأردد على مسامع الحضور كل ما سبق ان قلته لموسوليني في الاجتماع الذي ضمنا معاً لثماني واربعين ساعة مضت . وكان قصدي من وراء ذلك تدعيم العزائم الضعيفة . ذلك انني اردت التدليل على بقائي حياً يومين بعد ما قلته لموسوليني .

وتلوت قراري مطالباً بمنح المجلس الاعلى السلطات التي كان يتمتع بها قبلاً وبإعادة الدستور . وكان كثير من الاعضاء يجهلون هذا القرار الخطير .

قلت : «ان ضعف الدكتاتورية هو المسؤول عن كارثة ايطاليا وليس الجيش كما يعتقد البعض ، وان موسوليني قد خدع الشعب الايطالي منذ اللحظة الاولى التي بدأ فيها يتقرب من المانيا النازية الى ان اضطررنا الى الارتماء في احضانها . وهو الذي حاد عن سبيل تعهداتنا السوي ومال بنا عن التعاون مع صديقتنا التقليدية بريطانيا العظمى ، وزجنا في حرب ضروس تتنافى مع شرف الشعب الايطالي ومصالحه الحيوية وعواطفه الحقيقية .»

ولاحظت ان الدوتشي قد دهش واستغرب اكثر مما غضب . وعجب كثير من الحضور لهذه اللهجة فلم يصدقوا آذانهم ، لم يصدقوا ان فرداً من اعضاء المجلس يتوجه بمثل هذه الكلمات ضد الدكتاتور الفاشيستي وعلى مسمع ومرأى منه .

قلت ان املنا الوحيد هو في قلب النظام الفردي المطلق ، وفي تطبيق نصوص الدستور الشرعي ، ومنح المجلس كل سلطاته ، وتخويل التاج ما يتمتع به من السلطة بموجب دستور البلاد . وذكّرت المجلس بكلام موسوليني نفسه الذي القاه في العام

١٩٢٤ : «فلتذهب جميع الاحزاب السياسية ، حتى الحزب الفاشيستي ، اذا اقتضت مصلحة الامة ذلك .»

لزم الدوتشي جانب الصمت مدة ساعة كاملة انفجر بعدها يقاطعني من آن الى آخر بقوله : «غير صحيح .» وجئت على ذكر كافور فاذا به يصيح : «دع كافور وشأنه ، انه لم يفهم ايطاليا حق الفهم لانه لم يأتِ الى روما في حياته !»

وكنت قد اسمعته كلاماً لم يكن ينتظر ان يسمعه يوماً من فم رجل . . . «تظن انك تتمتع بتأيد الشعب . . . كلا ! لقد اضعت ثقة الشعب بك وتأييده لك منذ الساعة الاولى التي ربطت فيها مصير ايطاليا بمصير الرايش . وتظن نفسك جندياً ، فاسمح لي ان اقول ان ايطاليا قد قضي عليها مذ ارتديت بذلة الماريشالية .»

فصاح موسوليني عندئذ : «هذا غير صحيح . لقد طلب الي ان اتقلد زمام القيادة العليا للجيش الايطالي . وماذا يهمني والشعب بأسره بجانبي . ففي الاسبوع الماضي ازدحمت النسوة حولي في فيلتر وتسابقن الى تقبيل يدي .»

قلت : «في الحرب الماضية بكت ستمئة الف ام اولادهن الذين استشهدوا في سبيل الوطن ، وكان عزاؤهن الوحيد ان فلذات اكبادهن ماتوا في سبيل الوطن والملك . اما اليوم فقد خسرت ايطاليا مئة الف قتيل ، والامهات يولولن نائحات : «لقد ذبح موسوليني اولادنا !»

واستشاط الدوتشي غيظاً وصاح : «هذا غير صحيح البتة ، إنه محض كذب وافتراء .»

ونهض فاريناتشي للدفاع عن موسوليني والدكتاتورية ، واتهمنا ، نحن الديمقراطيين ، بالتواطؤ مع الاعداء وعرقلة المجهود الحربي . وانهى كلامه مطالباً بالموافقة على ميثاق فيلتر القاضي بوضع القوات الايطالية كلها بإمرة القيادة الالمانية .

واستوى فيدرزوني قائماً ليؤيد وجهة نظري ، وقد اعقبه في الكلام بوتاي وباستيانيني وسواهما . وحتى الكونت تشيانو فإنه تكلم على خيانة الالمان . وحدّق موسوليني طويلاً في وجه صهره وقال : «انا اعرف من هو الخائن !»

ودقت الساعة الثانية عشرة والجدال ما زال محتدماً . وقد اقترح موسوليني في

الساعة الاولى بعد منتصف الليل رفع الجلسة وتأجيل المناقشة الى اليوم التالي ، رغبة منه في تهدئة الاعصاب وكسب الوقت والانصار . غير اني عارضت في ذلك واصررت على متابعة المناقشة . وقلت : «إن جنودنا يقضون في ساحات الوغى بينما نحن نتكلم ، وان مصير بلادنا ليتوقف علينا نحن وحدنا فينبغي لنا ان نتخذ قراراً ما هذا المساء . . . يجب علينا ان نبقى ونقترع .»

وتردد الدوتشي بعض الشيء ، غير انه ايقن ان في اصراره على التأجيل دليلاً على ضعفه وخوفه من مواجهة المصير . وهو فضلاً عن ذلك واثق من الحصول على اكثرية الاصوات . وفي النهاية قبل بمواصلة المناقشة والاقتراع . ومضى نصف ساعة قبل ان يتم التصويت خرج خلاله موسوليني من القاعة الى مكتبه برفقة سكورزا . وانقسم المجلس الى قسمين ، واختليت بسيواردو ، رئيس مجلس الشيوخ ، للتأكد من اقتراعه . وكان الجميع يشكّون بعودة موسوليني ويخشون هجوم الميليشيا عليهم .

وفُتح الباب ودخل الدوتشي ومعه سكورزا وقد تبدل مظهره تماماً ، وعلت ملامحه علائم الحزن واليأس . واعتلى «عرشه» وقال : «لقد اذنت لكم الليلة بالكلام بكل حرية وكان بوسعي ان اسكتكم جميعاً . ويظهر ان بينكم من يود التخلص مني ومن ظلي .» واعترف موسوليني بأنه المسؤول شخصياً عن الحرب ، وان هذه الحرب كانت «ضرورة قصوى» لايطاليا . ثم راح يشيد بما اتاه في العشرين السنة التي تولى فيها الحكم . وقد باح للمرة الاولى منذ اصبح دكتاتوراً بحقيقة عمره فقال : «اني الآن في العقد السادس من العمر ، ويمكنني اعتبار هذه السنوات العشرين مغامرة جميلة تقترب من نهايتها ، ولكنني لن احتجب عن المسرح السياسي ولن اتوارى ، لان الملك والشعب يشدان ازري .»

وكانت «البلفة» مفضوحة اذ قال : «وغداً عندما انقل الى الملك كل ما دار في هذا الاجتماع سيقول لي :« ان بعض رجالك قد تخلوا عنك ، اما انا ، الملك فلن اتخلى عنك ابداً !»

ولاحظت ان العزائم بدأت تخور شيئاً فشيئاً . ولاحظ ذلك موسوليني فأردف : «لم يكن لي صديق في أي يوم ، ولكن الملك معي ويؤيدني . وانا اتساءل الآن عما

سيحل غداً بهؤلاء الذين يعارضونني الليلة .»

وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة غريبة ، وشاع في وجهه شيء من الغبطة والارتياح . فقد اعتقد خطأ انه استطاع ان يكسب عطف الحضور مرة اخرى ، واعتقدت انا اننا قد خسرنا قضيتنا .

ونهض سكورزا ، بعد ان جلس الدوتشي ، يدافع عنه وكان قبلاً قد وعدنا بتأييدنا الى النهاية . ودس يده في جيبه واخرج منها ورقة كتب فيها قراراً جديداً لا شك انه عرضه على الدوتشي عندما اختلى به .

وتكلم بصفته سكرتير الحزب الفاشيستي فطلب الينا تأكيد ولائنا وتجديده للدوتشي والخضوع ، حكومة وشعباً ، لإرادة الدكتاتور .

وتملّك الحضور شعور بالخيبة غريب ، واكفهرت وجوه أصدقائي . ولم يكن من سيواردو الا ان وقف وسحب تأييده لي ولقراري وانحاز الى صف الدوتشي وسكورزا . واقترح الكونت تشيانو ان يُسحب قراري وقرار سكورزا ، وتتولى لجنة من المجلس الاعلى وضع قرار جديد يوافق عليه الدوتشي . فرضخ سيواردو للأمر وأيده في ذلك شيانتي وزير النقابات .

احتججت بشدة وعارضت في سحب قراري او اجراء اي تبديل او تحريف في ما جاء فيه ، وايدني في ذلك فيدروزني وبوتاي . وحمي وطيس الجدل ، وهدد غالبياتي ، قائد الميليشيا الفاشيستية ، بالتدخل مع رجاله لحسم الخلاف واعادة النظام الى نصابه . وصاح ترينغالي ، رئيس المحكمة السياسية الخاصة : «ستدفع رأسك ثمن هذه الخيانة !»

وحوالى الساعة الثالثة صباحاً اعرب الدوتشي عن رغبته في احالة قراري الى الاقتراع . واغلب الظن ان غريزته ، هذه الغريزة الحيوانية التي كان يعتز بها ، قد الهمته انه هو الرابح في هذا التصويت .

وكان المظنون ان الماريشال دو بونو سيقترع اولاً ويتبعه دو فيتشي وهما من انصاري ومؤيدي قراري . الا ان سكورزا عمد الى التأثير في الحضور واكتساب تأييدهم لموسوليني بالوسيلة السيكولوجية . فقرأ بأعلى صوته قراري ولما جاء على آخره

صاح : «اني اقترع ضدغراندي !» وطلب الى سيواردو ان يحذو حذوه فرفض . وفي الحال قلت انا ودو بونو : «نحن موافقان على القرار» ، فتعالى صوت آخر بالموافقة على القرار ، فثالث ، فرابع ، ولم تمضِ بضع دقائق حتى كانت الاغلبية الساحقة تؤيدني . فقد نلت تسعة عشر صوتاً ضدَ سبعة اصوات لموسوليني . اما سيواردو فقد امتنع عن التصويت .

عندئذ نهض الدوتشي وراح ينقّل نظره في كل وجه من وجوهنا ، ثم ولى وجهه شطر باب الخروج . وفتح سكورزا فاه لترديد الجملة التقليدية : «حيوا الدوتشي» ولكنه لم يستطيع الكلام . . .

نهاية الفاشيستية

وبهذا الاقتراح الاول والاخير الذي جرى في المجلس الفاشيستي الاعلى قضي على الدكتاتورية الفاشيستية ، ولم يبقَ الا التنفيذ ، وكانت السرعة جد ضرورية للحؤول دون رد الفعل الذي يمكن ان يحدثه موسوليني الذي لم ينخذل الا في قاعة المجلس فحسب .

وكنا نتساءَل عما اذا كان رجال الميليشيا سيلقون القبض علينا عند مغادرتنا قصر البندقية . الا ان شيئاً من هذا لم يحدث . فقد خرجنا من القاعة ووصلنا الى السلّم الرئيسية المؤدية الى الخارج دون ان يتنبه لحركتنا احد من الجنود والحرس لأنهم كانوا يغطون في نومهم من شدة الاعياء والسهر . . . وبزغ الفجر ، وخفتت الحركة في الساحة الكبرى التي كثيراً ما شهدت «الانتصارات» الموسولينية ، وكانت روما هاجعة ، وايطاليا هادئة ، كأن لم يحدث شيء .

كان علينا ان نقنع الملك باتخاذ الاجراءات اللازمة بعد ان نطلعه على حقيقة ما جرى . فموسوليني ، بالرغم من ان المجلس الاعلى اقاله ، لا يزال هو القائد الأعلى للجيش ، ورئيس الحكومة والحزب . وهو فضلاً عن هذا كله يتمتع بتأييد المانيا النازية .

وفي الساعة الرابعة صباحاً قابلت الدوق دو أكارون ، وزير البلاط ، واطلعته على

مجرى الحوادث ، ثم ناولته نسخة من قراري وهي تحمل تواقيع جميع اعضاء المجلس الذين اقترعوا معي ضد موسوليني .

وقلت له : «عليك ان تذهب توا لمقابلة الملك وتفضي اليه بكل شيء ، فقد خولناه كل السلطات الدستورية الشرعية ليعمل بصفته رئيساً للدولة . . . الوقت ثمين فلا تضعه اذ من المحتمل ان يحدث هتلر واعوانه انقلاباً سياسياً في ايطاليا من اجل موسوليني .»

وسأل الدوق دو أكارون عن الشخص الذي سيتولى رئاسة الوزارة بعد الدوتشي ، فقلت : «ان الشخص الوحيد الذي سيتولى هذا المنصب الخطير يجب ان يكون حيادياً ومستقلاً ، اي من خارج المجلس الفاشيستي الاعلى ولم يسبق له ان تولى منصباً حكومياً ابان دكتاتورية موسوليني .»

واقترحت على الملك ان يحل المجلس الاعلى والنظام الدكتاتوري ، ويعيد الحياة النيابية الدستورية الى سابق عهدها ، ويدغم الميليشيا الفاشيستية بالجيش الايطالي النظامي ، ويلغي المحاكم السياسية الخاصة ، ويبطل مفعول القوانين ذات الصبغة العنصرية . . . وعلينا ان ننظم جيشنا ونسعى الى الحصول على هدنة من الحلفاء في اقرب وقت ممكن ، ونعود نحارب معهم جنباً الى جنب ضد الالمان .

وسألني الدوق رأيي في تولي منصب رئاسة الوزارة ، فأجبته :

«لقد انتهت مهمتي وعملت واجبي نحو وطني وارضيت ضميري . وها هي حياتي السياسية تنتهي بعد هذا الجهاد الطويل .»

قال الدوق : «يبقى امر واحد ، هو ان نطلب الهدنة من الحلفاء . وسأذهب بنفسي الى مدريد واحاول الاتصال بالمقامات الحليفة والتمهيد لمفاوضات الصلح الذي يجب ان يتبع الهدنة .»

وكانت الساعة السادسة صباحاً من اليوم الخامس والعشرين من تموز عندما تركني الدوق قاصداً القصر الملكي .

دقت الساعة التاسعة وانا جالس في غرفة مكتبي في بناية البرلمان حائراً لا استطيع القيام بأي عمل . وبلغني ان فرق الميليشيا الفاشيستية المرابطة حول العاصمة مستعدة

للزحف ، وان بعض القادة الفاشيست الموالين للالمان أقسموا بأن يقتلوا الاعضاء التسعة عشر الذين صوتوا ضد الدوتشي .

وعند الظهر ارسل موسوليني يطلبني لمقابلته . فأطلعت الملك على ذلك فنصح لي بإغفال الدعوة . فعرفت عندئذ ان الملك قرر الوقوف ضد الدكتاتور المعزول . ولم تمض عشرون دقيقة حتى وصلني نبأ تكليف الملك الماريشال بادوليو تشكيل الوزارة الجديدة .

نهكت هذه الاحداث الخطيرة قوى الدوتشي . وخجل من طلب المعونة من زميله هتلر ، وظن أن بإمكانه السيطرة على الموقف من جديد . فراح يجتمع الى كبار القضاة المتشرعين عله يكتشف نقاط الضعف في قراري .

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر وصل الدوتشي الى القصر الملكي وبيده قراري ليقنع الملك بأنه قرار غير دستوري . فرفض فكتور ايمانويل الاصغاء الى كلامه وقال له انه لم يبقَ رئيس الوزارة .

ودهش الدوتشي عندما ألقي القبض عليه وهو يهم بمغادرة القصر . ولم يحلّ المساء حتى كان قائد الميليشيا واعوان موسوليني من الفاشيست الموالين للرايش قد زُجّوا في غياهب السجون .

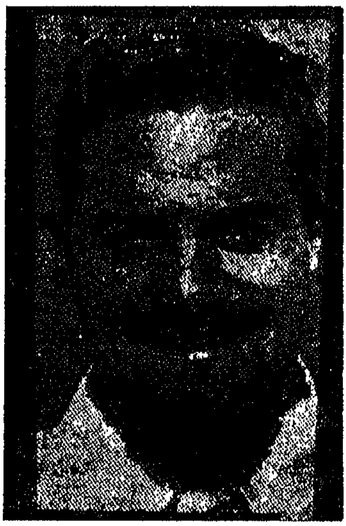
وفي تمام الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين عرف العالم بأسره ان بنيتو موسوليني قد «طار» وأصبح في خبر كان ، وان سقوطه جر الى انهيار النظام الدكتاتوري من اساسه !

ملحق مصوَّر

٣ ـ من التاريخ الايطالي



موسوليني في لباس السباحة (المايو) ، وقد التُقطت له هذه الصورة السنة ١٩٣٧ ، وكان وقتئذ يقوم بمهمة الحكَم في مباراة في السباحة بين أعضاء حكومته ، على سواحل جزيرة صقلّية . وقد ذُعر هتلر لرؤيتها ، لأن من رأيه ان السياسي يفقد الكثير من هيبته إذا شوهد وهو يستحم! . . .



الكونت غراندي .



. . .وعلى صهوة جواده!



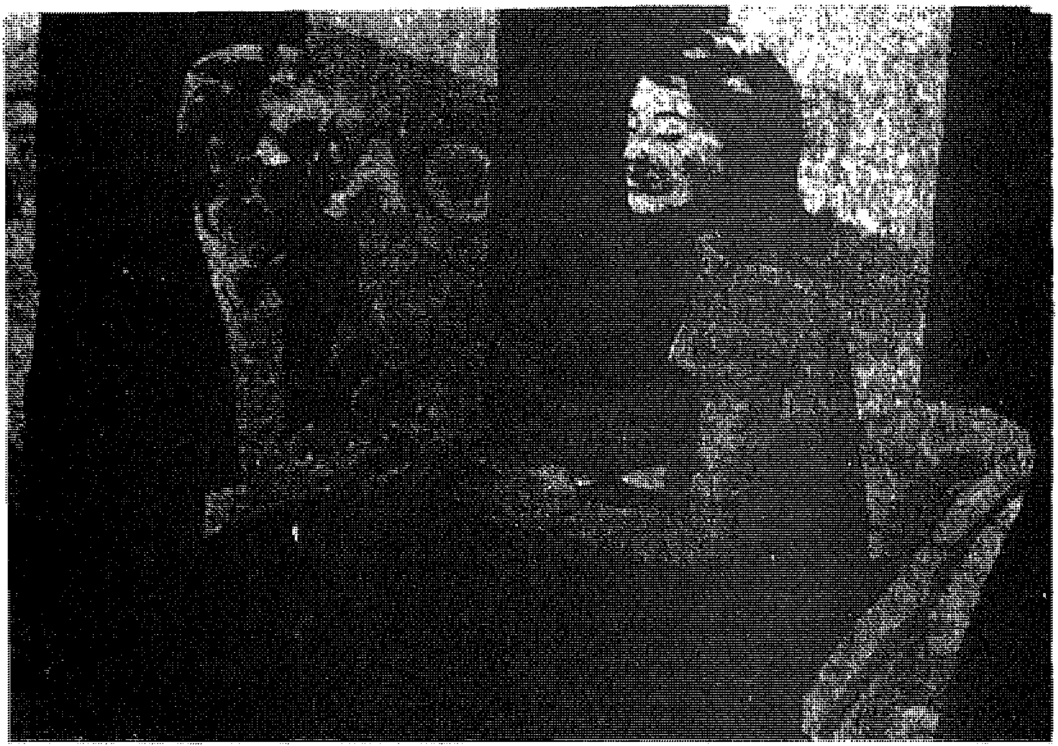
موسوليني يستعرض اركان حزبه .

الكونت كاليوسترو .



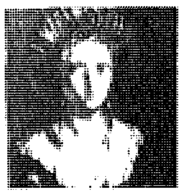


الكونت «يفاجىء» زوجته مع احد الانكليز . . .



نجح النصّاب في إقامة علاقات مع كلارا بيتاتشي ، محظية إلدوتشي (موسوليني) .

لوكريتسيا بورجيا .



سيزاره بورجيا .





تشيانو



ريبنتروب

٤ - من التاريخ الشرقي

- □ كليوباتره! قصتها الحقيقية اكثر إثارة من اسطورتها!
- □ بحثاً عن كنز مالطة: كنوز سفن بونابرت الغارقة في أبوقير.
- □ مارغا داندوران: «ملكة تدمر» أو «ملكة الرمال» الغامضة!
- ■ ملحق مصوَّر

كليوباتره!
قصتها الحقيقية اكثر إثارة
من اسطورتها

غالباً ما نتصوّر كليوباتره في ملامح حورية مصرية ، ومخادعة فاجرة ، انتحرت عن حب من أجل القائد الروماني ماركوس أنطونيوس . هناك قليل من الصحة في هذه الاسطورة . ومع أن كليوباتره كانت ملكة على مملكة مصر القديمة ، فلم يكن يجري في عروقها اي نقطة دم مصرية ، كانت يونانية من مقدونيا . وكانت الاسكندرية ، عاصمة مملكتها ، مدينة يونانية ، وكانوا يتكلمون اليونانية في بلاطها . وقد أسس السلالة المالكة بطلميوس ، احد القادة المقدونيين في جيش الاسكندر الكبير ، الذي استولى على مصر وأعلن نفسه ملكاً عليها بعد وفاة ذي القرنين .

أما ما يزعمونه عن فجور كليوباتره ، فينبغي القول إنه من الرجال الوحيدين الذين نجد لهم أثراً في حياتها هو يوليوس قيصر ، وبعد وفاة الدكتاتور بثلاث سنوات ، القائد ماركوس أنطونيوس . إذاً ، لم يكن هناك اي علاقات غير شرعية ، ولكن اتحاد معقود في وضح النهار ، وموافق عليه ومصدّق من جانب الكهنة ، ومعترف به في مصر على أنه زواج . ومن السخف النظر الى كليوباتره بصورة المغْوية التي تستخدم محاسنها لبلوغ غاياتها . فيوليوس قيصر ، وكان يكبرها بحوالى ثلاثين سنة ، كان له أربع زوجات ، وعدد لا يحصى من العشيقات . وكان جنوده يدعونه «الزاني الاصلع» ، ويترنمون بمقطع غنائي ينصحون فيه للأزواج بالحجر على زوجاتهم عندما يكون يوليوس قيصر في المدينة .

وكان ماركوس أنطونيوس ، ويكبر أيضاً الملكة الشابة بأربع عشرة سنة ، زير نساء

شهيراً . وفي نهاية المطاف ، لم تنتحر كليوباتره حباً به ، ولكن لأنها شاءت أن توفّر على نفسها العار من جرّاء الوقوع بين يديّ محتل آخر .

غيرأنه اذا كانت هذه الاسطورة سادت منذ ألفي سنة ، فإنما ذلك لأن الشعراء والكتّاب المسرحيين ، بمن فيهم شكسبير ، ألحّوا على المحاسن الجسدية لدى الملكة ، وعلى غرامياتها أكثر من إلحاحهم على ذكائها وشجاعتها . سوى أن أعمالها تدلّ على أنها كانت امرأة يضجّ رأسها بالحيل ، وقد قضت حياتها تكافح من اجل الحؤول دون ابتلاع الرومان بلادها .

ولدت كليوباتره في السنة ٦٩ أو ٦٨ ق .م . ، وترعرعت في عالم من العنف ، ووسط مؤامرات البلاط . ولم يكن والدها بطلميوس الثالث عشر ، يفكر في سوى العزف بالناي ، والشراب ، والتعهر . وكانت كليوباتره في الثامنة عشرة لما توفي ، فأصبحت ملكة ، فشاطرت السلطة أخاها بطلميوس الرابع عشر ، وهو بعد في العاشرة من سنيّه . وما هما إلاسنتان حتى أُجبر بطلميوس الشاب ، بتأثير من ثلاثة من المتآمرين ، على النفي الى سوريا . وبالطاقة التي ستميّز حياتها بأسرها ، عبّأت جيشاً من فورها ، وعمدت إلى اجتياز الصحراء مجدداً في محاولة لاستعادة عرشها .

هذه هي كليوباتره التي صادفها يوليوس قيصر خلال خريف السنة ٤٨ ق . م . فلقد هبط مصر مطارداً القائد الروماني بومبيوس ، منافسه الذي كان يحاول العودة الى السلطة . ولم تكن تلك إلأحقبة الاضطرابات التي ستبقي روما تغلي خلال نحو قرن من الزمن .

جسدياً ، كيف كانت كليوباتره؟

إن الاشارات الوحيدة التي لدينا ، هي بعض القطع النقدية التي عليها صورتها ، وتمثال نصفي اكتُشف في الآثار الرومانية عقب وفاتها بـ ١٨٠٠ سنة . ونرى لها أنفاً أقنى ، وفماً مرسوماً جيداً ، وشفتين منحوتتين بدقة . ويذكر عدد قليل من مؤرخي العصور القديمة «جمالها الباهر» ، ولكن أحداً منهم لم يشاهدها لحماً وعظماً . ولعل الوصف الاكثر دقة وصحة هو وصف بلوطرخوس الذي سمع جده أحد الأطباء

يتحدّث عن كليوباتره ، وقد عرف أحد طهاة ملكة وادي النيل . وكتب بلوطرخوس يقول إن جمالها «لم يكن في الحقيقة خارقاً او رائعاً بحيث لا يمكن مقارنة أحد بها .»

غير ان جميع الكتّاب في العصور القديمة يجمعون على الإشادة بحديثها الحلو ، وسحر صوتها ، ونباهتها وآرائها السديدة . وكانت تتكلم ست لغات ، ومتضلّعة من التاريخ ، والأدب ، والفلسفة الإغريقية . وكانت دبلوماسية ماهرة ، وخبيرة بالخطط الحربية من الطراز الأول ، بصورة واضحة ، فضلاً عن حس الاخراج . فعندما طلب اليها قيصر مغادرة جيشها والمثول أمامه في القصر الذي استولى عليه في الاسكندرية ، تسللت الى المدينة ، مع هبوط الليل واختبأت في بالة من الأغطية ، وحُملت هكذا ، متخفية ، الى جناح قيصر على ظهر احد الخدم .

وسواء أكانت الغاية من حيلتها تجنُّب القتلة الذين يعملون لحساب أخيها ، أو التأثير في مخيلة قيصر ، فقد نجحت في تسجيل أحد أروع مشاهد الدخول في التاريخ . وقد اسهمت شجاعتها وسحرها كذلك كثيراً في اقناع مضيفها بانتهاز الفرصة لإعادتها الى العرش . وقد وجدت نفسها حاملاً بعد فترة قصيرة من لقائهما الأول .

وربما سعت كليوباتره الى بهر الفاتح بثروة مصر ، عندما نظّمت في الربيع التالي ، رحلة كبيرة في النيل . فطوال أسابيع ، أبحر قيصر وكليوباتره على متن قادس (سفينة شراعية حربية) ، ترافقها ٤٠٠ سفينة محملة بالجنود وبالمؤن . وفي حزيران ، وضعت كليوباتره طفلاً ذكراً هو « قيصر الصغير » . وكان مولد هذا الطفل ـ وهو الوحيد الذي رُزقه الدكتاتور الروماني ، على ما يبدو ، في أصل مشروع طموح : جمع روما ومصر في امبراطورية يديرها قيصر وكليوباتره وذرّيتهما .

وعقب ولادة وارثه بقليل ، غادر قيصر الاسكندرية لشنّ حملات عسكرية في آسيا الصغرى ، وفي أفريقيا الشمالية ، وسحق كل ما يقاومه بعد . وبعد سنة واحدة ، عاد مظفّراً الى روما ، دكتاتوراً غير منازع ، وكانت كليوباتره هناك مع ابنهما ، وقد أنزلها سيدّها وسلطانها في دارة فخمة .

وبدأت بصفتها السلطانة الحقيقية ، محاطة بحاشيتها ، تمارس نفوذها على الحياة

الرومانية . فاستدعت من الاسكندرية خبراء اختصاصيين في سكّ العملة لتحسين ضرب النقود الرومانية وماليين لتنظيم برنامج قيصر الضريبي . واعاد فلكيّوها اصلاح الروزنامة الرومانية ، منشئين ، ما يقوم نظامنا الحالي على أساسه . ووضع قيصر تمثال كليوباتره في معبد جديد ، شُيّد على شرف فينوس ، وسك نقداً يُظهر فينوس وابنها ايروس على ملامح كليوباتره وقيصر الصغير بين ذراعيها . وبدت سلطة قيصر مطلقة . ولكن بعد مجيء كليوباتره الى روما بعشرين شهراً ، وفي اليوم الخامس عشر من آذار (العيدس) من السنة ٤٤ ق . م . ، اغتيل قيصر .

هل حزنت كليوباتره حزناً عميقاً عليه؟ لا أحد يدري . كل ما هنالك أنها قفلت عائدة الى مصر بعد شهر واحد . وفي ما يتعلّق بالسنوات الثلاث التالية ، يكتفي المؤرخون بالقول ، إنه في المعركة من اجل السلطة التي أغرقت آنذاك روما في الحرب الاهلية ، كان المتنافسون يسعون الى دعمها ، ويبدو أن سياستها كانت تتلخص في الانتظار بحكمة لمعرفة من سيخلف قيصر .

وعندما بدا أن ماركوس أنطونيوس يسيطر على الشرق ، أمر كليوباتره باللحاق به الى طرسوس . فلم تلبِّ من فورها الأمر ، بل لبثت ردحاً من الزمن في الاسكندرية قبل أن تذهب الى هذا اللقاء ، ثم إنها ابحرت في أسطول رائع ، حاملة الذهب ، والعبيد ، والجنود ، والمجوهرات . وفي طرسوس ، وبدلاً من أن تنزل الى اليابسة متوسلة ، ألقت المرساة ، وانتظرت . وناورت بمهارة لاجتذاب انطونيوس الى متن سفينتها ، فقدّمت اليه مشهداً مذهلاً : فالمجاذيف في القادس ـ وقد صُنعت اطرافها من الفضة ـ كانت تتحرك على ايقاع نغمات القيثارات والنايات ، وكانت الحبال تشغّل بواسطة جوار رائعات الحسن يرتدين لباس حوريات الماء بكل أناقة ، وكانت المباخر تنشر الاريج العطر في الاجواء . أما كليوباتره نفسها ، فقد ارتدت لباس فينوس ، وتمدّدت على ظُلّة مذهبة ، في حين كان صبيان يحركون المراوح .

عندما انتهت المأدبة ، قدّمت كليوباتره إلى أنطونيوس الآنية الذهبية ، والأقداح الجميلة المنحوتة ، والأسرّة الفخمة المستخدمة للراحة ، والمطرّزات التي استعملت في المأدبة . وفي مساء اليوم التالي ، استقبلته مجدداً مع ضباطه ، ولدى الوداع أغدقت

أيضاً الهدايا النفيسة الرائعة على كل ضيوفها . ولم تكن غايتها الارتباط بأنطونيوس ، ولكن إقناعه بفن مصر غير المحدود ، وبالتالي ، قيمتها شخصياً كحليفة لروما .

بعد ثلاثة أشهر جاء انطونيوس الى الاسكندرية ، وأمضى فيها الشتاء . وعاد في الربيع . وفي نهاية ستة أشهر وضعت كليوباتره طفلين توأمين . وخلال غياب عشيقها ، عززّت تحصينات بلادها ، وكبّرت أسطولها البحري ، وكدّست الذهب والمؤن . وبعد أربع سنوات ، طلب إليها انطونيوس الذي كان يرغب في مدّ سلطانه في الشرق ، أن توافيه الى سوريا . فذهبت ، مقررة أن تطرح شروطها . وحصلت منه على التعهد بأن يسلّم الى مصر المناطق الفسيحة الأرجاء التي كان يمتلكها الفراعنة قبل ١٤ قرناً من الزمن ، وكانت اضحت ولايات رومانية . ووافق انطونيوس ، كذلك ، على الاقتران بها شرعاً . وللاحتفال بهذا الحدث ، ضُربت نقود عليها صورتهما المزدوجة . ومنذ ذلك اليوم ، دشّنت كليوباتره عصراً جديداً في حكمها .

وكانت آنذاك في الثالثة والثلاثين من العمر ، وقد رافقت انطونيوس لمحاربة الفرس . ولكن ، ما إن بلغت ضفاف الفرات حتى اضطرت الى التوقّف . فقد كانت حاملاً من جديد . وولد الطفل في الخريف . وخلال الشتاء التالي ، ناشد انطونيوس كليوباتره أن تنجده . فلقد تمزّق جيشه ، وبالكاد يستطيع ، بما تبقّى معه من الجنود ، بلوغ الساحل السوري . فتجهزّت كليوباتره بالمال ، والمؤن ، والاسلحة وأبحرت لنجدته .

في السنة التالية ، ٣٥ ق . م . ، اضطرت الى استخدام كل حيلها ومكرها لمنع أنطونيوس الذي كان دماغه مشوشاً من فرط إدمانه الشراب ، من محاولة الهجوم من جديد على بلاد فارس . وعلماً منهما أن عدوّهما الحقيقي هو اوكتافيوس ، نسيب قيصر ووارثه الشرعي ، وكان يسيطر على الشرق من روما ، الحّت على انطونيوس أن يركّز كل جهوده ضده .

وفي السنة ٣٢ ق . م . ، جعلت الحرب محتومة بإقناعها انطونيوس باتخاذ تدبيرين اثنين : إصدار المرسوم الخاص بطلاقه من زوجته الاخرى اوكتافيا (أخت اوكتافيوس الجميلة) وإصدار الأمر الى الجيوش باجتياز بحر إيجة لدخول اليونان .

وكانت كليوبتره آنذاك في اوج سلطانها وقوّتها . وكان الملوك الشرقيون يعتبرونها مليكتهم ، واليونانيون يغمرونها بآيات التكريم ، ويحيّونها باسم أفروديت ، ويضعون تمثالها في الاكروبول .

وفي أكتيوم ، على الساحل الغربي لليونان ، لاقت مصيرها في ٢ أيلول من السنة ٣٢ ق . م . . ولم يتفق قط المؤرخون على هذه المعركة الحاسمة : لماذا سمح انطونيوس ، وكان معه جيش من الطراز الأول ، بأن يُجرّ الى الحرب في البحر؟ لماذا رفعت كليوباتره الاشرعة وأقلعت شطر مصر بسفنها الحربية الستين ، في حين كانت المعركة في البحر ما تزال في كرّ وفرّ وغير معروفة النتائج بعد؟ لماذا تخلّى انطونيوس عن جيشه القوي ، وهرب على متن قادس كليوباتره؟

لدى عودتها الى مصر ، وعندما انتشر نبأ الهزيمة ، عمدت كليوباتره الى قمع كل مظاهر السخط والاستياء . فحاولت تعزيز علاقاتها مع البلدان المجاورة . وشرعت ، أيضاً في تمرير سفن حربية من حوض البحر الابيض المتوسط الى البحر الأحمر ، فكانت تلك مهمة شاقة لأن ذلك يقتضي اجتياز كيلومترات كثيرة وسط الصحراء .

وعندما وصلت قوات اوكتافيوس ، وسقطت حصون الحدود في قبضته ، بقيت كليوباتره في الاسكندرية ، متأهبة إما للمفاوضة مع اوكتافيوس أو لمحاربته . ولكن لما حاصر جيش الغازي المدينة ، فرّت بحرية الملكة وخيّالتها . فانتحر انطونيوس . ووقعت كليوباتره حية بين يديّ العدو ، فأقيمت حراسة مشددة عليها ، وحُذّرت من أن اولادها سيقتلون فيما لو وضعت حدّاً لحياتها .

ومع أن اوكتافيوس وعد بأن يكون متسامحاً ، فقد افترضت كليوباتره ان مصيرها سيكون مشابهاً لمصير المئات من الاسرى الملكيين الذين عرضوهم في شوارع روما مثقلين بالقيود والاغلال قبل تنفيذ حكم الموت فيهم . وظلت جريئة حتى النهاية ، فتظاهرت بأنها تخلّت عن فكرة الانتحار كلياً . واستطاعت الحصول على إذن بزيارة ضريح انطونيوس ، ولعلها إذ ذاك اتصلت ببعض الانصار الاوفياء ، بينما كانت محفتها تجتاز المدينة . فلما عادت الى جناحها ، استحمت ، وتناولت طعام العشاء ، وارتدت ملابس فينوس بمساعدة خدمها . ماذا حدث؟ كل ما نعرفه أن ضباطاً رومان

دخلوا عليها ، فألفوها ميتة . وبحسب الاسطورة ، قضت الملكة بعضّة صلّ (أفعى صغيرة سامة) حُمل اليها خفية في سلّة تين .

وعندما احتُفل في روما باحتلال اوكتافيوس مصر ، جرّوا في الشوارع تمثالاً لكليوباتره مع حيّة تلتف حول ذراعها . أما اولادها الثلاثة الذين رُزقتهم من انطونيوس ـ كان قيصر الصغير قد قُتل من قبل ـ فقد أجبروا على السير في موكب النصر المهين . وهكذا شرع الشعراء الرومان ، بهدف تمجيد المنتصر ، في نشر الخرافة حول ملكة مصرية منحرفة وفاجرة ، وهي خرافة ما تزال سائدة حتى يومنا هذا .

بحثاً عن كنز مالطة!

سفن بونابرت التي أغرقت في أبو قير كانت تحمل كنزاً ما يزال يرقد في الاعماق رغم ٧ سنوات من الجهود لتعويمه

في الأيام الاخيرة من كانون الاول ١٩٥٤ ، ألغت الحكومة المصرية الامتياز الممنوح قبل سبع سنوات (١٩٤٧) الى مجهّز السفن اليوناني في الاسكندرية ديوميدوس دراكوبولوس . وقد حظر عليه من بعد مواصلة البحث والتنقيب في خليج أبو قير لاستعادة بقايا الاسطول الفرنسي الذي غرق فيه في ٢ آب ١٧٩٨ .

ومنذ ذلك الحين لم يتقدّم أي ملتزم جديد للقيام بهذا المشروع . فسفن بونابرت ، او ما تبقّى منها ، تظل تغوص ببطء في الغرين أو الطمي الذي يطرحه على الساحل المصري كل فيضان للنيل .

لم تكن تلك المرة الإولى التي يفكر فيها أحد في ان يسحب من أعماق المياه الحطام المجيد للاسطول الذي أغرقته مدافع القائد البحري الانكليزي نلسون . فبُعيد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) استطاع علماء آركيولوجيون كانوا يستكشفون الساحل المصري بحثاً عن معابد مغمورة بالمياه ، أن يحققوا في صحة روايات الصيادين في أبو قير : فهناك هياكل سفن ضخمة ترقد على عمق يراوح بين ١٨ متراً و٢٠ ، على بعض المسافة من الشاطىء . وأكد ملاّحو الطيران الملكي البريطاني ، وكانت قاعدته قريبة جداً من مسرح المعركة البحرية القديمة ، وجود بقايا وحطام سفن فرنسية ، تُرى بوضوح بين آن وآخر ، تحت مياه الخليج .

وعندها تنبّه البعض الى وجود نقطة ما تزال غامضة في تاريخ الحملة المصرية . ماذا حدث لكنز مالطة؟ فقبل الرسوّ بالقرب من الاسكندرية ، كانت حملة بونابرت

قد استولت على جزيرة مالطة . وقد استولت على كل الأموال المحفوظة في الصناديق العامة في الجزيرة ، فضلاً عن كل الثروات المكدسة في الكنائس ، والأديار والمنازل الخاصة . وقد حُوّل كل الذهب والفضة المنهوبين الى سبائك كدّست على متن سفن الاسطول لتمويلَ المؤن والنفقات الجارية المتعلّقة بالجيش خلال الاشهر الاولى لوجوده في وادي النيل .

هل بقي هذا الكنز على متن سفينة القيادة ، او على متن احدى الفرقاطات المساعدة؟ لم يعثر على شيء ، او بالحري اكتشفت سبيكة ذهبية تحمل دمغة الحملة العسكرية الفرنسية ، وطابع منسقّها العام . . . في المجموعات الخاصة بالملك فاروق ، التي بيعت بالمزاد العلني عقب تنازله عن العرش . وتوجد هذه القطعة الفريدة في نوعها اليوم في جملة المجموعات التاريخية المصرية . وهي تؤكد ، وحدها وجود الكنز ، لأننا نقرأ على السبيكة عبارة «صهرت في مالطة» . وحاول الذين اعتقدوا ان صناديق الحملة الفرنسية تلك بقيت على متن سفن الاسطول ، بالطبع ، العمل على استعادتها .

في السنة ١٩٢٥ ، راحت الاوساط اليونانية في الاسكندرية تهتم مباشرة بالقضية . ولكن لم يتقدم للحصول على الامتياز بالتنقيب الا شخصان في السنة ١٩٣٠ . فقد طلبا من الحكومة المصرية الإذن «بتنظيف مرسى أبو قير من الحطام الذي يسدّه لجعله صالحاً للملاحة .» وأُعلمت الحكومة الفرنسية بواسطة ممثليها في مصر بالأمر فرجت بدورها الحكومة البريطانية أن تتدخّل لكي يُعترف بحقوق فرنسا في هذا الحطام» . فتنصلت وزارة الخارجية قائلة : «لقد فُقدت حقوق فرنسا عقب غياب احتجاجات الحكومة الفرنسية عندما كانت الحكومة المصرية تعقد صفقة لتنظيف مرسى أبو قير .»

ومن حسن الطالع ان الملتزمين اليونانيين تخاصما ، ورفعا خلافهما الى المحاكم . فاغتنم وزير فرنسا المفوض في القاهرة هذه المناسبة وطلب الى الحكومة الاعتراف بأن «الحكومة الفرنسية تبقى مالكة سفن اسطولها ، حتى ولو غرقت في المياه الاقليمية الاجنبية ، وحتى لوكانت قد شُطبت منذ زمن طويل من اللوائح الرسمية في البحرية . . .»

وكان ردّ رجال القانون المصريين التالي : «إن سفناً محطمة ، أغرقت في الحرب ، وظلت منذ ١٥٠ سنة على الأقل في المياه الاقليمية المصرية دون ان تُجرى قط اي خطوة بشأنها ، لا يمكن أن تطالب بها ، قانوناً ، الحكومة الفرنسية .»

حول هذه النقطة القانونية ، دارت حرب كلامية لطيفة . وعبّأ الجانبان خبراء في القانون الدولي . وأُشير الى ان القانون المصري لا يذكر أي شيء عن الحطام ، وكذلك الشّرع الاسلامي . واستنتج أنه يُستحسن اللجوء الى «الطريقة المقارنة لإجلاء القانون الدولي في هذا الأمر» .

وأقبلت السنة ١٩٣٧ ، فقامت «الشركة الفرنسية لاستعادة الحطام» ، المهتمة بالقضية ، بالتفاوض من أجل عقد صفقة . فأبدت مصر استعدادها ، دون أن تأخذ القضية بالعمق ، لتسليم فرنسا «الأشياء المستعادة ذات الطابع الفنّي او التاريخي» . ومن فوره وضع وزير البحرية الفرنسية اللائحة : عشرة مدافع من البرونز من عيارات مختلفة ، رموز الجؤجؤ (مقدّم السفينة) ، ألواح الكوثل (مؤخر السفينة) ، الأجراس البرونزية في السفن والفرقاطات ، الاشياء التي تزيّن وتزخرف جناح الاميرال بروي ، وقائد السفينة «الشرق» وكل الاشياء الشخصية خاصة الضباط البحريين ، الخ . . .

ولم يُشر قط الى كنز مالطة . وكانت الاعمال على وشك البدء عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية التي أوقفت التنقيب عن الحطام في أبو قير .

وفي السنة ١٩٤٧ اقترح مجهّز السفن اليوناني ديوميدوس دراكوبولس الذي سبق أن عوّم عدداً غير قليل من السفن الغارقة في بنغازي والسلّوم خلال حملة ليبيا ، على مصر ان ينظّف مرسى أبو قير . وقد حفظ للحكومة المصرية بعشرين بالمائة من قيمة الاشياء التي يتوصل الى استعادتها . ولم تكن غايته ، وحسب ، تحقيق كسب ضخم ، بل بصفة كونه مؤرخاً في ساعات فراغه ومن المعجبين الكبار بالملحمة النابوليونية ، شاء ان يقرن اسمه باسم سيد الحملة المصرية .

وبدأت العمليات في أيار ١٩٥١ . وكان ينبغي اولاً تحديد موقع السفينة «الشرق» ، سفينة القيادة التي كانت دوماً تحافظ على موقع الوسط في خط المعركة ، ذلك بأن تعيين موقعها من الأعماق يسهل كل اعمال البحث والتنقيب .

عبثاً حاول الغوّاصون طوال ثلاثة أسابيع بذل الجهود للعثور على اي شيء . وفي اليوم الرابع أشاروا الى هيكل سفينة ، كانت ملأى بالأكياس . ولكن لم يكن لها اي صلة باسطول نابوليون . كانت سفينة تجارية محملة طحيناً . وكانت على درجة كبيرة من النتن والفساد بحيث تلوثت أبو قير ومرساها ، وضواحيها جميعاً . واضطرت السلطات الصحية العامة للتدخّل لتخليص المكان من هذه الرائحة الكريهة .

ولم ييأس دراكوبولوس ، مع ذلك . وكان على حق . فبعد بضعة أيام ، عثر على كدسة من ٤٢ مدفعاً ، وكان ذلك ، من دون أدنى ريب ، على متن حطام السفينة «تيموليون» ، التي أحرقها قبطانها قبل إخلائه اياها ظهر يوم ٢ آب ١٧٩٨ .

كان هناك ٧٤ مدفعاً ، ورُفع من الماء قسمٌ كبير ، فضلاً عن عدة مئات من أطنان القذائف وقضبان الصابورة (الثقل الذي يوضع في السفينة لحفظ توازنها) . وكان الهيكل الخشبي مهترئاً الى درجة غير قابلة للترميم .

وكانت المغامرة نفسها تنتظر مجهّز السفن والمؤرخ على سائر حطام السفن النابوليونية ، الواحدة بعد الأخرى ، مما عثر عليه . وبعد «تيموليون» جاء دور السفينة «مركور» ، ثمّ «لورو» (وكل واحدة منها ذات ٧٤ مدفعاً) . وأخيراً كانت الفرقاطة «لا سيريوز» عيار ٣٦ ، وقِلعية (سفينة شراعية بصاريين متعددة القلوع المربعة) ، ربما كانت «لو رايور» .

وكانت الحصيلة الاجمالية ٨٠٠ طن من الحديد المصبوب ، ودزينة أطنان من البرونز والرصاص ، وحوالى ٥٠ طناً من المحاور والداعمات الزاويّة المصنوعة من الحديد . ولم يكن هناك اي اثر ذي قيمة تاريخية : لا نقود ، ولا أسلحة ، ولا قطع من بزّات عسكرية . وحتى لا زرّ واحداً .

ولدى انتهاء مدة الامتياز الذي حصل عليه ديوميدوس دراكوبولوس ، كانت خسارته بلغت ٨٠٠ ليرة استرلينية (٨ ملايين فرنك بعملة ذلك الزمان) . فلقد اشترى حقّ أن يُعتبر اليوم «آخر ضحايا معركة أبو قير» .

والآن ، بوسع سفن أسطول بونابرت العشرين الاخرى ، أن ترقد بسلام . فبعد زمن طويل لن يأتي أحد لإزعاجها !

مغامرة من عصرنا
مارغا داندوران، «ملكة تدمر» أو «ملكة الرمال» الغامضة

منذ أربع و اربعين سنة (في تشرين الثاني ١٩٤٨) اختفت في مرسى طنجة ، الفيكونتيس مارغا داندوران ، المرأة ذات الألف مغامرة ، التي عُرفت بلقبي «كونتيس الصحراء» ، و«ملكة تدمر» ! اتُهمت بإحدى وعشرين جريمة قتل ، وبالتجسس ، وبإدمان المخدّرات السامة ، واعتقلت ، ثم أُفرج عنها بصورة مؤقتة ، وانتهت بالحصول على قرار بانتفاء وجه الدعوى ، لعدم توافر الأدلّة .

ان اسطورة هذه المرأة الفذة وقصتها ، كان يمكن أن تستحق ، على الأقلّ ، ألاّ تكون مجهولة . ومن المناسب ، في الذكرى الرابعة والأربعين لوفاتها ، ان نستحضر بعض تفاصيل هذه الحياة الصاخبة حقاً !

كانت وفاتها في اليوم نفسه الذي احتفل فيه بالذكرى الثالثة لموت ابن أخيها ريمون كليريس ، الذي اتُّهمت الفيكونتيس بدسّ السمّ له في ملبّسة من الشكوكولا .

والغريب في الأمر حقاً ، هو أنه خلال التحقيق في ملابسات وفاة ريمون كليريس ، شُوِّهت الوقائع والتصريحات باستمرار . في البدء ، اعتبر التحقيق انها هي من مزجت في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٥ أملاح الزئبق بملبّسة الشوكولا التي قدّمتها الى ابن أخيها الشاب . حتى ان هذا الأخير كتب على احدى تذاكر المترو : «عمتي أعطتني ملبّسة شوكولا ذات طعم غريب .» ولما حملت اليه الزهور الى المستشفى ، صاح مذعوراً : «أحملوا هذه من غرفتي ، فهي ستحمل إليّ الشؤم» ! ولكن كليريس هذا نفسه ـ حسب شهادة عمّة اخرى ـ صرَّح قبل لفظ أنَفاسه الأخيرة بلحظات بأن عمته لا يمكن الاشتباه بها . وقد ادَّعى والد الشاب مدنياً ، وكذلك كنّة مارغا داندوران التي

لم تخشَ الزعم أن المغامرة أرادت أن تُسمّ ابنها من لحمها ودمها الذي توفي في ألمانيا ؛ غير أن الابن الباقي في قيد الحياة ، جاك ، لم يفتأ يدافع عن أمه بعناد وعنف .

وخلص الأطباء الشرعيون الى النتيجة التالية : «ان ابن أخي السيدة داندوران توفي مسموماً !» عقب اول تحقيق أجري لدى مرض الشاب ووفاته ، كادت مارغا داندوران التي قاومت استجواباً دام ٣٥ ساعة ، الافادة من قرار بانتفاء وجه الدعوى . وكان ذلك حدث لو لم تكن سوابق ماغدا غريبة . وبناء على المرافعة ، أمر بفتح ملحق للتحقيق .

موكب موتى

ثمة أمران مؤكدان : فمن جهة ، كانت مارغا التي اختفت بطريقة غريبة في سن الخامسة والخمسين ، دوماً ، ومنذ طفولتها «جهنمية» . ومن جهة ثانية ، كانت مارغا ، طوال حياتها ، محاطة بموكب من الموتى . فالجثث ، حدّدت ، مثل المعلمات ، مراحل حياتها .

في صباها ، طُردت على التوالي من كل مدرسة داخلية انتظمت فيها ، ولم تجد والدتها سوى علاج وحيد : أن تعزّمها ـ اي أن تطرد الارواح الشريرة منها . ولكن ذلك لم يُجدِ نفعاً . ولم يكن لها من العمر سوى خمس عشرة سنة عندما تنكرت بملابس ملازم في فرقة الهوصار (فرقة الخيّالة) ، واشتركت في المناورات مع ضابط من معارفها . ولكم كان سرور ذويها كبيراً لما «رضي» الفيكونت بيير داندوران الاقتران بجانّ كلير مرغريت كليريس .

ورحل زوجها الى اميركا الجنوبية ، وشاعت اللحاق به . ولكنها تاهت في المجاهل طوال ستة أشهر . وفي ما بعد ، سافر الزوجان الى مصر حيث شاعت مارغا بيع اللآلئ الزائفة ، لآلئ مارغا .

وها هي ذي المغامرة على الطريق التي تربط حيفا بنابلس ، في فلسطين . إنها برفقة ضابط في الاستخبارات البريطانية ، حاكم حيفا ، الميجور سنكلر . وفي الطريق تختفي مارغا ، ويلاحظ سنكلر ان وثائق هامة كانت معه قد اختفت كذلك . ولما

كان امرأ يحرص على الشرف ، فقد انتحر . وقد صرّحت مارغا ، بكل بساطة ، بأن الميجور كان مصاباً بالنوراستينيا (منهك عصبياً) ، وعاشقاً !

ملكة على قبيلة

هذه المرأة ، التي استُقبلت في القاهرة ، في الاوساط القلقة ، من مثيل «نادي سبورتنغ» ، قرَّرت فجأة ان تنفي نفسها في تدمر . لماذا تدمر؟ أنزوة ، أم جمال الطبيعة ، أم تذكار الملكة زنوبيا التي صمدت هناك أمام الجيوش الرومانية؟ هذا هو التوضيح الذي أعطته ، ولكن ثمة ، ولا ريب ، توضيحاً آخر ؛ وإذا كان هذا صحيحاً ، فإن حياة مارغا بأسرها تتضح : فتدمر هي على طريق الرجال الانكليز والفرنسيين الذين كانوا يهتمون آنذاك بالبترول . وهناك افتتحت مارغا فندقاً .

اهتمت بالبدو . فقد رأى هؤلاء في الشتاء السابق (١٩٣٣) قطعان ماشيتهم تنفق . وراحت هذه المرأة الباسكية التي لم تكن ، في الاصل البتة ، غنية ، تبتاع الماشية وتسلّمها الى البدو ، فغدت هكذا ملكة على قبيلة . واسماها أتباعها زينب . وكانوا لها مخلصين ، وقد أعطوها شعاراً هو خنجر مرصع بالذهب والزمرد .

كان الضباط الفرنسيون شديدي الحذر منها ، ومع ذلك ألم يُزعم أنها كانت في خدمة المكتب الثاني؟ وتعرفت الى لورنس العرب ، العميل الانكليزي الشهير في الشرق الاوسط . ولكن قبيلتها و«فندق الملكة زنوبيا» لم يكونا بالنسبة إليها ، أفقاً متسعاً بما فيه الكفاية . كان ينبغي لها دخول نجد في المملكة العربية السعودية . ماذا تبغي؟ الاتجار بالحجارة الكريمة ، على حد قولها .

زوج لقاء ٣٠ ألف فرنك

اعلمت مارغا زوجها بمشروعها القاضي بدخول الاراضي المحرّمة على غير المسلمين ، وبصورة خاصة على النساء غير المسلمات . وقالت لزوجها : «من أجل ذلك ، ليس ثمة سوى سبيل واحد : سيتمّ الطلاق بيننا ، فأشهر إسلامي ، واقترن بمسلم !»

لم يُبدِ الزوج اي اعتراض . وتم الحكم بالطلاق ، ووقع اختيارها على رجل عربي فقير يدعى سليمان كان ، بالفعل ، من نجد ، ويعرف كل معالم الصحراء . وقد ابتاعت هذا الزوج بثلاثين ألف فرنك . ووعدته بدفع كل تكاليف السفر ، واعطائه ، فضلاً عن ذلك ، لدى العودة ، ضعف ما يكون قد أنفق خلال الرحلة . وسرّ سليمان كثيراً . فلقد وجد الجمّال نفسه غنياً منذ تلك اللحظة .

ولم يعد امام الزوجين إلاّ الذهاب الى جدّة ، ميناء مكة المكرمة . ولكن مارغا تبقى فاسدة وغير قابلة للتقويم . فقد نسيت انها مسلمة ، فراحت تراقص البحّارة الانكليز ، وتغازل بكل وقاحة ابن قنصل فرنسا . ويغضب سليمان ، وتشاء «المصادفة» أن يموت في تلك اللحظة !

الحكم عليها بالموت

وسُجنت مارغا على الفور في جدّة . وحُكم عليها بالموت ، ليس بسبب موت زوجها ، بقدر ما هو بسبب الزنا . وقضى الحكم بجلدها حتى الموت . وهنا حدثت معجزة أنقذتها . فلقد تدخّل قنصل فرنسا مع السلطات السعودية ، واستطاع الحصول على العفو عنها . وبات عليها التهرّب من الانتقام الأكيد من أُسرة ابن أخيها . فعادت مجدداً الى موطنها ومسقط رأسها في بلاد الباسك (بايّون) . سوى أنه لم يمضِ طويل وقت حتى عاودها الشوق ـ أو لعلها تلقت المهمة ـ للعودة إلى تدمر . وبعد ردح من الزمن ، وفي كانون الأول ١٩٣٧ ، استعادت ، مع زوجها السابق ، إدارة «فندق الملكة زنوبيا» ، وتزوجت مجدداً زوجها السيد داندوران .

وفي احدى الليالي العاصفة ، طُعن الزوج سبع عشرة طعنة بخنجر أحد البدو . فقُلعت عينه ، وبُضعت يده ، وأصيب بجراح عدة في ظهره . ومرة اخرى ، يتهم سوء النية مارغا بأنها المحرّضة على جريمة القتل . غير أن هواء تدمر سيصبح فاسداً بالنسبة الى «ملكة الصحراء» . فقد ادّعى ضابطان فرنسيان لم يشاءا الاعتراف بأنه لم يكن لها أي ضلع في قتل زوجها ، ان السيدة داندوران حاولت دهسهما بسيارتها . وقضت نساء من حاشية مارغا . وكذلك قضى رجال ، ولكنهم كانوا قليلي الشأن . هل

اشتركت في القضاء على حوالى خمسة عشر عميلاً مزدوجاً؟ ويتردد ذلك . وفي تدمر ، مات احد المستخدمين الفتيان في احد الفنادق مذبوحاً . ومات مسموماً صديق لمارغا هو النقيب جوران .

مؤامرة ضد الجنرال كاترو

وتغادر مارغا الشرق الاوسط . ها هي ذي من جديد في فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية ، وتشاء أن تنتقل الى اسبانيا . وتُسجن في معسكر اوربيناغا دوبيًا ، ولكنها كانت تتمتع بامتيازات . كان معها أربع حقائب ملأى بالملابس ، وتحمل حقيبة يدوية تحتوي ، على مايبدو ، على كنز ، وقد سُرقت منها في القطار . وفي الجزائر ، اتُهمت بأنها ضالعة في مؤامرة ضد الجنرال كاترو . ولكن هذا الأخير يكذّب بنفسه هذا التخيّل . غير أنهُ ، يرفض ،وحسب ، السماح لمارغا بالذهاب الى سوريا ، حيث ارادت أن تعود . هل لأنها ، كانت ، فضلاً عن ذلك ، تُتهم بأنها شيوعية؟

وحدثت وفاة ابن الأخ الشاب . لماذا قتلته؟ من أجل قصة مبهمة تتعلق بمسكن كانت تحتله . السبب لايبدو كافياً مطلقاً .

الى كل الميتات الغريبة والغامضة التي ميّزت قدرها ، يضاف سرّ جديد بالنسبة الى مارغا داندوران : اختفاؤها شخصياً الذي حدث في مرسى طنجة ، منذ ٤٤ سنة ! فما هي تفاصيل هذا الاحتفاء . . .دعونا نتبسط في ذلك . . .

النهاية الغامضة

لما قررت مارغا داندوران مغادرة فرنسا التي لم تعد راغبة في الحياة حيث حاول اعداؤها الوصول اليها والقضاء عليها ، ابتاعت يختاً يرفع العلم البريطاني لقاء بيعها داراتها ، ومفروشاتها ، وكل ذكرياتها .

وفي نهاية تموز ١٩٤٨ رفع اليخت المرساة واتجه شطر عرض البحر . وحملت معها ابنها جاك داندوران . وفي نهاية آب بلغا طنجة في الشمال الافريقي .

وفي هذه المدينة الدولية ، مدينة كل أنواع التهريب ، حيث يباع ويُشرى كل شيء ،

من السلاح ، الى الذهب ، الى المخدّرات ، الى التبغ ، وحتى المعلومات ، سيدور الفصل الأخير في حياة مارغا داندوران .

كان مشروع مارغا لدى هبوطها طنجة يتلخّص بأن تقوم بتجارة مسحوق الذهب بين مصب نهر الكونغو والمدينة الدولية . وقد درست قضية مسحوق الذهب ، وتبيّن لها أن شراء الغرام الواحد منه بـ١٢٥ فرنكاً في الكونغو ، يمكن ان يجلب لها لدى بيعه في طنجة ربحاً كبيراً ، إذا ان بالوسع بيعه بـ ٤٥٠ فرنكاً ، إن العملية مربحة جداً .

ولكن ، خلال مرورها في المياه بين نيس وطنجة ، لاحظت ان اليخت كان في حالة أسوأ مما كانت تتصوَّر . وساءَها الابحار السيّئ على متن سفينة مماثلة ، فتخلّت عن مشروعها . وفوق ذلك ، وبعد بضعة أشهر ، أعلنت عن رغبتها في حوالى نهاية تشرين الاول في التخلّص من اليخت .

وفي ذات يوم حضر شخصان لمقابلة مارغا هما امرؤ يدعى بونتشيني ورفيقته هيلين كولز اللذان ادعيا انهما سويسريان ، وزعما ان ثمة شارياً لليخت .

وكان اليخت قد غدا مصدر قلق متواصل لمارغا ، فقبلت الدخول في مفاوضات مع الشاري ، حتى أنها وظّفت بونتشيني ورفيقته لكي يبقيا على متن اليخت للمحافظة عليه .

وفي ٥ تشرين الثاني ، وفي تمام الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ، غادرت مارغا داندوران منزلها ، قائلة لوصيفتها ولابنها انها ستقوم بزيارة لليخت ، وأضافت : «انتظراني لنتناول طعام الغداء معاً ، فلن أغيب طويلاً .»

لم تكن تدري أن ساعتها ستدق ،ذلك بأنها لم تعد قط !

وظل اختفاؤها سراً طوال شهر كامل . وحدها الشرطة التي أُعلمت بالقضية بفضل جاك داندوران الذي أقلقه غياب والدته الذي طال ، كانت على اطلاع . وأجرت الشرطة في المدينة الدولية تحقيقاً دقيقاً ، ولم يُعلن عن نبأة وفاة مارغا داندوران إلا في ١٥ كانون الاول ١٩٤٨ ، أي بعد أكثر من شهر على اختفائها . ومع ذلك بقيت الظروف غامضة .

واختفى في اليوم نفسه الذي اختفت فيه مارغا داندوران كل من بونتشيني وهيلين كولز ولم يُعثر على هذين الشخصين لاجئين الى الدار البيضاء الا في ١٥ كانون الاول .

واستُجوب بونتشيني مطولاً ، وقد عثر معه على جواز سفر وتبيّن للمحققين أنه مزوّر . ولما كشف عنه القناع اعترف في نهاية المطاف أنه ألماني ، واسمه هانز آبيل .

واتهمت الشرطة آبيل بقتله مارغا داندوران فأنكر كل شيء ، في بادىء الامر بشدة ، ولكن عقب ١٥ ساعة من الاستجواب انتهى الى الاعتراف بجريمته .

وبحسب أقواله ، وصلت الكونتيس الى اليخت يوم الخامس من تشرين الثاني ، بُعيد الساعة الحادية عشرة بقليل . وأعلمت هانز أنها تودّ رفع المرساة مساء اليوم نفسه لتنقل الى اسبانيا ضابطاً فرنسياً محكوماً عليه بالاعدام بتهمة التعاون مع النازيين ، فرفض هانز ، وأعقب ذلك جدل عنيف . وفي تلك اللحظة كان اليخت في عرض ميناء طنجة ، ذلك بأن الكونتيس داندوران كانت طلبت الى آبيل القيام ببعض التجارب . وفي عرض الميناء شرعت في الكشف عن نياتها .

وسرعان ما تطوّر الجدل الى مشاجرة عنيفة ، وذهبت مارغا الى حدّ تهديد من وظّفته بأنها ستفضح أمره أمام الشرطة الدولية في طنجة ، بعد أن اكتشفت أنه يقيم في تلك المدينة بهويّة مزوّرة .

وخشي هانز مغبّة الأمر ، فدفع الكونتيس التي تدحرجت من فوق السلّم . وبسقوطها ، جُرحت جرحاً بليغاً في جمجمتها . وفي أقواله ، زعم هانز آبيل أنه لما رفع مارغا داندوران عن الأرض كانت قد فارقت الحياة . فذعر ، وعمل على ابعاد الجثة عن اليخت قبل العودة إلى الميناء . وقد لفّها بكل عناية بغطاء وجده على الجسر ، وربط الجثمان الملفوف ببعض الاثقال ، وألقى بكل شيء ، من فوق ظهر السفينة الى اليمّ .

ولم يُعرف قط اي شيء اكثر دقة حول الظروف الحقيقية لموت مارغا داندوران . وعلى الرغم من التنقيب الذي تم في عرض ميناء طنجة ، لم يُعثر قط على جثمانها ، الأمر الذي يترك المجال واسعاً امام أصحاب المخيّلات الخصبة الذين زعموا منذ ذلك

الحين ، غير مرة ، ان مارغا داندوران قد اختفت بكل بساطة ، وأن هذه الميتة ليست سوى تمثيلية .

يبقى أن هانز آبيل حوكم ، أما تجريمه بالقتل فقد أُخذ بعين الاعتبار ، وحُكم عليه بالسجن مدة عشرين سنة ، وذلك في ٣٠ آذار ١٩٤٩ .

ومذ ذاك ، عاد هانز آبيل عن اعترافاته . وفي سجنه كان يردد لكل من له اذنان للسمع : «مارغا داندوران لم تمت . أنا لم أقتلها . أنا بريء !»

غير أن مارغا داندوران ، ملكة الرمال ، لم تظهر قط مجدداً . ويبقى السرّ مغلقاً الى الأبد !

ما يكشف خط مارغا داندوران من شخصيتها

عُرضت احدى آخر الرسائل التي كتبتها مارغا داندوران على أحد الخبراء في الخطوط . وهذا ما توصّل اليه الخبير لدى تحليله خط هذه المرأة المغامرة الشهيرة ، (ننشر مقطعاً من الرسالة مع هذا التحليل) : «هذا الخط يدلّ على الكثير من الطاقة والعناد ، موضوعين في خدمة شراهة ، وشهوانية ، وشراسة في الكسب ، لا حدود لها جميعاً .

تسلسل غريب في التفكير ، مقرون بروح نقّادة لاذعة ، رهيبة ، منطقية . . . ولكن باتجاه واحد ، تقوم على نرجسية طاغية .

الذكاء كان كبيراً ، متين البنيان ، صلباً ، ولكنه يكاد يكون نفعياً ، ونظرياً ، وحيث شيطان التحليل والنبذ يمنع حسّ التركيب والتأليف من حمل التصحيحات الضرورية للنيات والأحكام . ليس هناك اي سيكولوجيا .

صحيح أن ثمة ليونة هنا ، ولكنها كانت شديدة الدهاء . روح تقريرية وتنفيذية جدّ سريعة ، وجرأة مذهلة ، يدعمها انعدام كبير للذمة ، وتكالب على التنفيذ والنجاح بأي ثمن .

إذاً ، فالمستوى الاخلاقي لم يكن قط رفيعاً ، فضلاً عن أن الذهنية كانت حادّة ، مستأثرة ، وأحياناً شريرة . وكان طبعها متطلباً ، مطلقاً ، عنيداً ، محرّضاً ، نزقاً .

ولكن ، على الرغم من العصبية الحادة كانت قادرة على السيطرة على نفسها ساعة تشاء ، عندما كان بعض الغايات يتطلّب هذا الجهد ، ذلك بأنه ، بالنسبة إليها «من يرغب في الغاية يرغب في الوسائل» .

كانت تتمتع بقدرة هائلة على العمل ، والجلد ؛ وحاصل الكلام ، كانت تتمتع بالتوازن ، وقوة الارادة . وفضلاً عن ذلك كان لها قدرة شخصية على الإغواء ، وكانت تعرف ذلك ، ومن هنا كانت تنجح في كل مما تنكبّ عليه .

كانت شديدة الفضول ، ودسّاسة ، تجد سهولة جمّة في إخفاء الأمور والكذب . وكانت تجد نفسها في مكانها في كل الظروف الاكثر حراجة ، وتعقيداً ، وخطراً ، ودقة . وكانت دوماً واثقة من نفسها . وعرفت كيف تحتفظ بأفكارها سرية . أما مشاريعها ، فكان يتّفق لها ، على سبيل التبجّح البحت ، ألا تتمكن من ربط لسانها دون التحدّث عنها .كانت تعرف جيداً ماذا تريد ، علاوة على أنها لم تكن لتبدّل من آرائها ومعتقداتها . لم تكن رقيقة ولا محبّة . كان بوسعها أحياناً إظهار الطيبة ، إما على سبيل المنافسة او المصلحة ، ولكنها كانت منتفعة ، بصورة خاصة .

كانت عملية ، أريبة ، عجولاً ، وتحبّ أخذ المبادرات . . . وربما اكثر من اللازم .

وكانت ، على الرغم من حسّ التنظيم لديها ، مهملة كثيراً ولامبالية .

ولم تكن شجاعتها خالية من الحذر ، وهو حذر مموّه جيداً .

وأخيراً ، لإكمال هذه الصورة ، ينبغي القول انها كانت على جانب كبير من الحواسية (متعلقة بالحواس) ، والشهوانية ، والنهم ، والانفعال ، والعنف ، وكانت ذات مزاج مبدع ، مزاج فنان ، قبل اي شيء آخر .

كان في قوسها أوتار كثيرة ، وبخاصة الوتر التجاري . . . والمسرحي» .

وكانت قاسية القلب ومتقلّبة الى حدّ بعيد ، تتجاذبها تيارات متضادة ، ظاهرية التناقض .

ملحق مصوَّر

٤ ـ من التاريخ الشرقي



اكتُشف هذا التمثال الرخامي النصفي للملكة كليوباتره في الآثار الرومانية بعد ٩٨ قرناً من وفاتها ، ولعلّه نُحت وفقاً لنموذج طبيعي . وهو يُعرض حالياً في المتحف البريطاني ، في لندن .

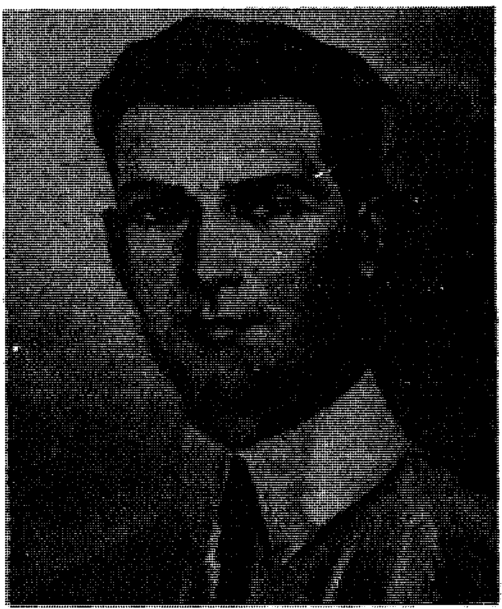


بحثاً عن كنز مالطة .

مارغا داندوران ملكة الصحراء الغامضة



لطالما تولّى جاك داندوران ، حتى في احرج الاوقات ، الدفاع بعنف عن أمه . . .



بيير داندوران ، أيام كان في تدمر . كان مع زوجته مارغا داندوران ، صاحبَي فندق «الملكة زينب» .



بعد وفاة زوجها ، عادت مارغا إلى فرنسا . وخلال الحرب العالمية الثانية دفعتها حاجتها إلى النشاط ، التي لم تخفّ قط ، الى العمل في الدفاع المدني!

٥ ـ متفرّقات

- □ مجهولون وغير مقدّرين صنعوا التاريخ.
- □ مأساة العصر: مصرع كليم صون، أول رجل عصفورا!
- □ أسطورة الـ ٤٧ ساموراي الأوفياء لسيد آكسو.
- □ ميخائيلوفيتش: أخائن هو أم بطل؟
- □ أوطان قومية لليهود مقترحة بديلة عن فلسطين.
- □ ١٥ قضية تاريخية غامضة:

١ – قضية عقد الملكة.
٢ – قضية السموم.
٣ – قضية «طفل اوروبا العجيب».
٤ – قضية حرق العرب مكتبة الاسكندرية.
٥ – بوق رولان يقرع حزناً على اود الجميلة.
٦ – جزيرة الفصح الغريبة.
٧ – حصار تاريخي.
٨ – نابوليون . . . أيضاً وأيضاً.
٩ – من أمر بقتل القيصر نقولا الثاني ولفيف أُسرته؟
١٠ – وفاة امرىء القيس بعد رفضه الصلح مع قاتل أبيه.
١١ – كيف كانت نهاية الطيّارة آميليا إرهارت؟
١٢ – دخل ابن المقفّع دار والي البصرة ولم يخرج منها!
١٣ – قدر الـ ١٥٠٠ امرأة القاسي في حريم السلطان عبد الحميد الثاني.
١٤ – من قتل الفرعون توت عنخ آمون؟
١٥ – كتابات مزوّرة شوّهت التاريخ.

■ ملحق مصوّر.

مجهولون وغير مقدَّرين صنعوا التاريخ

(١)

لم يشنَّع على امرئ اكثر مما شنِّع على فيليب ايغاليته (لوي - فيليب ، جوزف ، دوق أورليان ، ١٧٤٧ - ١٧٩٣) . ففي حياة هذا الرجل لم يشأ أحد أن يرى سوى الجبانة في اقتراعه ، في الكونفونسيون ، على إعدام ابن عمه الملك لويس السادس عشر . وقد مثّل هذا الدوق دوراً كبيراً في الثورة الفرنسية ، التي لم يتأخر في الانضمام إليها الى درجة أنه اقترع على اعدام الملك . ومع ذلك ، فإن دوق اورليان ظل هذا المحقَّر كثيراً ، له بعض الحق في شكران التاريخ له ـ وبخاصة ربَّات المنازل . . . ففي الواقع ، ألا تستعمل هاته النساء لغسيلهن هذه المنتجات التي تتنافس اليوم الشعارات الدعائية في الترويج لها؟ المنتجات المصنوعة في معظمها من كربونات الصوديوم التي تدين بوجودها نوعاً ما لدوق أورليان؟

هذه هي القضيّة : رأى ابن عم الملك لويس السادس عشر ، ذات صباح ، من سنة ١٧٨٩ ، طبيبه وجرّاحه يدخل عليه مكتبه ، وهو يدعى نيكولا لوبلان ، ومولود في بورج قبل ٤٧ سنة . وبعد أن حيّا باحترام سيده ، سأله عما اذا كان يرغب في التوصية به لكي يسمح له بانشاء مختبر يُخصَّص لاكتشاف سرّ صنع كربونات الصوديوم .

ولم يدهش قاتل الملك العتيد ، وعشيق مدام دو جنليس ـ جنيّة التحذلق ـ ذلك بأنه كان يهتم بالعلوم اكثر مما كانت العادة آنذاك .

كان ثمة مأساة حقيقية في فرنسا على عهد الملك لويس السادس عشر : لم يكن هناك سبيل الى غسل الملابس والانسجة . فقد اختفى المنتج الرئيسي للغسيل والتبييض ، وهو كربونات الصوديوم ، المصنوع وحسب من نباتات بحرية . ولم تكن

هذه النباتات ـ ومنها تلك النبتة المسمّاة سلسولا صودا ـ تُحصد ، في الواقع ، إلا من على سواحل آليكانتي او مالقة . وكانت علاقة فرنسا آنذاك باردة نوعاً ما مع اسبانيا ، بحيث أن استيراد هذه الخضر ذات الاساس الصوديومي بات نادراً ، الأمر الذي حمل أكاديمية العلوم في فرنسا على تنظيم مباراة لإيجاد طريقة تسمح بصنع هذا الصوديوم الثمين . . . غير أنه لم يتقدم حتى ذلك الحين أي مخترع .

وسأل لوبلان :

- هل توافق سموكم الاميري على تمويلي؟

فأجاب الأمير :

- إني أرغب كثيراً في معاونتك في تجاريك ، ولكن شرط أن تؤدي طريقتك حقاً إلى نتيجة ما . احرص على اخذ رأي كيميائي رسمي ، أو رأي البروفسور دارسيه ، فإذا كان هذا الرأي مؤيداً ، فبوسعك أن تعتمد عليّ .

ويروي بيير روسو ، أن نيكولا لوبلان ، هرع من فوره لشرح فكرته للاستاذ في الكوليج دو فرانس :

- للحصول على كربونات الصوديوم ، أحتاج إلى كربون ، وصوديوم ، وأوكسجين . الأوكسجين سأتناوله من الهواء ، الكربون من الفحم ، الصوديوم سأحصل عليه من الملح المذاب في مياه البحر . وصحيح أن هذا الملح ما دام ليس سوى كلورور الصوديوم ، فينبغي لي اولاً عزل الكلور والصوديوم ؛ ولكنني سأتوصل إلى ذلك باستعمال حمض الكبريتيك : فيتحوّل كلورور الصوديوم الى سلفات الذي يُنتج لي اذا مُزج بالفحم والحجر الكلسي (الجيري) خليطاً من كربونات الصوديوم وسلفور الكلسيوم . ولا يبقى أمامي سوى فصل هذين المنتجين ، وأقوم بذلك بواسطة الماء : يذوب الكربونات ، فأترك إذ ذاك المجال للتبخّر لكي تتجمّع لديّ البلّورات المنشودة .

ووضع دراسيه مختبره تحت تصرّف لوبلان ، وما هي إلا سنة واحدة حتى وجد في قعر دنّه «البلورات المنشودة» . ولم يبقَ ، مع عون دوق أورليان ، سوى بناء مصنع في سان ـ دوني .

وبعد سنة اخرى كان المصنع ينتج ٣٠٠ كيلوغرام من الصوديوم يومياً . وأُنقذت ربّات البيوت الفرنسيات !

غير أن الحقبة لم تكن قط ملائمة للتجارة . . . ففي ٦ تشرين الثاني ١٧٩٣ ، صعد دوق اورليان إلى خشبة الإعدام ، وصودرت ممتلكاته ، وأصبح مصنع سان ـ دوني ملكاً للدولة . وبدلاً من مواصلة تشغيله ، فضّل المسؤولون إرسال نداء للحصول على كاربونات الصوديوم .

«ليرسل الينا المخترعون حلولهم .»

وسارع لوبلان الى تقديم طريقته التي قُبلت . ولكن ـ والأمر مذهل حقاً ـ لم يطلب الطبيب والجرّاح السابق لدوق اورليان أي شيء بالمقابل . فقد قدّم بدافع الوطنية سرّه الذي أصبح ملكاً للجميع . واستغرق شكر الحكومة لوبلان أربع سنوات ، فأُعيد اليه مصنعه ـ وكان أصبح مبنى خرباً ، وبلا سقف !

كانت كربونات الصوديوم تُصنع في كل مكان ـ ٢٢ ألف كيلوغرام في اليوم الواحد ـ بفضل «طريقة لوبلان» . بيد أن المخترع البائس كان يعاني آنذاك الفقر المدقع . وقد استحال عليه ايجاد الرساميل لإعادة تشغيل مصنعه . وفي ١٦ كانون الثاني ١٨٠٦ ، دخل ما كان في السابق مصنعه ، وسرّح نظره في حطام حلمه ، وغرز خنجراً في قلبه .

وازدهرت «طريقة لوبلان» طوال قرن ـ قبل أن تُستبدل ببلّورات صولفاي ـ ولكن خلال هذا القرن ـ على حد تعبير جاك دوكلو ، فإنه «من بين الـ ٥٠٠ مليون نسمة ، كان مخترع هذه الطريقة الشخص الوحيد الذي لم يستفد أي شيء منها .»

(٢)

في منتصف القرن الماضي اختار الانكليزي هنري بيسيمر (١٨١٣ – ١٨٩٨) ـ واسمه اليوم منسيّ تماماً ـ مهنة غريبة : كان يخترع ! طُلب اليه أن يبتكر ماكنة لتقليد مخمل جنوى لتفضيض المرايا ، او لاستخراج عصير قصب السكّر . فابتكر ذلك . وفي ذات يوم من أيام حرب شبه جزيرة القرم ، خطرت له فكرة تقديم مشروع قنبلة

ذات جنيحات الى دوائر المدفعية الفرنسية ، قائلاً في شرح ذلك :

- إن غاز البارود يعمل عمله على الجنيحات كما على ريش التوربينة ؛ فتجبر هذه القنبلة على الدوران على نفسها ، بحيث ينجم عن ذلك مدى أطول ومسار اكثر ثباتاً للمقذوفة هذه .

وذُهل ضباط المدفعية لدى نابوليون الثالث ، ولكنهم اعترفوا بشكل مثير للشفقة بقولهم :

- ليس لدينا مدفع قادر على إطلاق قنبلة بمثل هذه الروعة !

فأجاب المخترع :

- لا عليكم ، سأخترع لكم مدفعاً !

ولدى عودته الى لندن ، قرّر بيسيمر ، من اجل صنع مدفعه ، ان يحسّن قبلاً الحديد المصبوب المستعمل آنذاك بإضافة الحديد اليه . وبعد شهر واحد ، وأمام مصهره ، اغتبط المخترع . لقد نجح في صنع «معدن قابل للتطريق ولدن» يفوق كثيراً ما كان يتم الحصول عليه عادة .

وفي ذات يوم ، ومن أجل تسريع الانصهار ، قرَّر أن يمرّر دفعة نفثية من الهواء المضغوط عبر السائل . وفجأة ، ولفرط دهشته وحيرته ، شاهد في قعر أتونه غارقاً في المعدن في طور الإسالة ، قطعتان صلبتان لم تشأا الذوبان . فحرّكهما المخترع ، وقلبهما بقضيب حديدي ، وتبيّن ـ بذهول ـ ان القطعتين الصغيرتين ليستا سوى فولاذ .

كيف تُفسَّر هذه الظاهرة؟

هتف قائلاً :

- ليس ثمة من شك في أن دفعة الهواء النفثية حيث تثقب الحديد المصبوب المذاب ، تحمّيه بقوة كبيرة لتخلّصه من فائض الفحم فيه وتحوّله الى فولاذ !

بالطبع ، كان الفولاذ معروفاً قبل بيسيمر ، ولكن كان يستحيل تقريباً صنعه بكميات صناعية . وكان يتم الحصول بواسطة عدد من البوتقات ، على كمية بسيطة من الفولاذ لصنع نوابض (رقّاصات) للساعة أو شفرات للأدوات .

وقال بيسيمر بينه وبين نفسه :

– ولكن ، ما دام هذا الكربون المحترق يرفع الحرارة الى درجة كافية لكي يتحوّل الحديد المصبوب الى فولاذ ، فلا حاجة بي الى تحمية أتوني ! يكفي أن أصبّ فيه الحديد المصبوب السائل : وتتكفّل دفعة الهواء النفثية بالباقي ! وهكذا كان ، ونجح المخترع في صنع الفولاذ «دونما حروق» . بالطبع ـ سيكون ذلك جميلاً ـ . عرف بيسيمر الكثير من خيبات الأمل قبل النجاح النهائي والحاسم الذي بلغه بفضل محوّله الشهير الذي اخترعه ، ومنحه اسمه . ومنذ سنة ١٨٧٠ تجاوز الانتاج العالمي من الفولاذ المليون طن ، وتم التخلّي عندها عن طريقة تسويط الحديد (الإضافة إلى ذائبه عاملاً مؤكسداً ليجعله حديداً طيّعاً) ، التي كانت تقضي على كل العمّال المشتغلين فيها قبل بلوغ سن الخمسين .

وجمع بيسيمر الثروة . فقد كان يحصل على ٢٥ فرنكاً لقاء كل طن من الخطوط الحديدية المصنوعة في العالم . ولكن ، اليوم ، هل يعرف الجمهور بعد اسم «أبي الحديد»؟ ذاك الذي لولاه لما عرفنا السيارات ، ولا الطائرات ، ولا أمواس الحلاقة . . .

(٣)

في مقبرة باسي ، هناك قبر حقير مهجور . وعلى احد الصلبان يمكننا أن نقرأ بعد هذا النقش بالانكليزية :

«تخليداً لذكرى سدني دجيلكرايست توماس
الإبن المحبوب للراحل وليام توماس
وزوجته ميليسنت دجيلكرايست ،
المولود في أول نيسان ١٨٥٠
لقد كافح كفاحاً مبيناً .»

بفضله بات بوسع فرنسا أن تستثمر احتياطي الحديد الأوفر في اوروبا : مناجم متز ـ تيونفيل ، وبربي ـ لونغي ، ونانسي . والواقع ، أنه قبل سدني توماس بقيت هذه الثروة الهائلة ـ ٦ مليارات طن ـ غير مستثمرة نوعاً ما لأنها لم تكن قابلة للاستثمار .

إن ركاز (معدن غير خالص) الحديد الفرنسي ـ «اللورين ، وهو ضرب من الحديد

يُستخرج من اللورين ، او الهيماتيت الاسمر وفيه ٣٢ بالمائة من الحديد» ـ كان لسوء الحظ يوجد ملوّثاً بالفوسفور ؛ وقد تكرّم بسمارك ، في معاهدة فرانكفورت ، بترك هذا الكنز راقداً تحت الثرى ، مردداً :

ـ لن يستطيع الفرنسيون بهذه المناجم أن ينافسوا الصناعة الالمانية والتحضير لحرب الثأر !

وما استخفّ به مستشار الحديد والنار أثار ، بالمقابل ، اهتمام شاب لندني ،كان كاتباً متواضعاً في محكمة الدرجة الاولى في منطقة الثيمز . وكان يتابع صفوفاً حول صناعة الحديد بعد انتهاء عمله . وفي ذات مساء سمع استاذه يعلن :

ـ استبعاد الفوسفور ، تلك هي القضية الرئيسية في صناعة الحديد ! فمن يحلّها يجعل كل المناجم هكذا صالحة وذات فائدة ، مناجم اللورين وسواها ، التي تبقى حالياً عقيمة ، ومن السهل التنبؤ بالثروة الضخمة التي سيجنيها من وراء ذلك .

وطوال سنين ، وفي كل مساء ، كان الكاتب الصغير في محكمة الثيمز يضاعف الاختبارات . وأخيراً ، في ذات يوم من أيلول ١٨٧٨ ، خفّ الى الجلسة العامة لمعهد الحديد والفولاذ الذي يضمّ كبار العلماء والتقنيين في العدانة (صناعة استخراج المعادن وتنقيتها) . وفي نهاية الاجتماع الذي نوقشت فيه مرة اخرى ، دونما أي نتيجة ، قضية وجود الفوسفور المزعجة في ركاز الحديد ، وقف سدني توماس ـ المجهول ـ وقال :

ـ اسمحوا لي ، ايها السادة ، أن أُشير الى انني درست هذه المشكلة التي تزعجكم . . . وحللتها . وتوصّلت الى انتزاع الفوسفور في حدود نسبة تراوح بين ٢٠ بالمائة و٩ ،٩٩ .

واكتفى الرئيس السر لوثاين بل ـ الكاهن الاكبر في صناعة الحديد ـ بالجواب مبتسماً :

ـ في هذه الحالة ، أيها السيد ، ستكون بلا شك المحسن العام الذي ينتظره العالم .

ثم رفع الجلسة دون أن يطرح السؤال :

ـ وماذا تفعل؟

يجيب بيير روسو باسم المخترع :

«وجد توماس مادة كاسرة للأشعة تتمتع بخصائص قاعدية ، لا تدمّرها الحرارة وهي تقوم بامتصاص الفوسفور . إنها ذلك الصخر الألبي المسمّى دولوميت ، ذو الاساس الكلسي والمغنيزي . وقد أشار المخترع في براءته الى طريقة استعماله ووضعه على جدران محوّل بيسيمر .

ومع ذلك ، وعقب اجتماع ثانٍ للجمعية التي عقدت في باريس ، والتي لم يُنظر معها فيه نظرة جدية الى توماس كما سبق أن حدث في لندن ، وقعت وقائع الجلسة بين يديّ مهندس يعمل في مصانع الفولاذ في بولتشو وفون ، سارع الى مقابلة توماس ، وقدّم اليه امكانية اجراء التجارب .

وكانت هذه مقنعة ، وبات بوسع فرنسا ، ثم ألمانيا ، وبلجيكا ، ولوكسمبور أخيراً استخراج الحديد من تحت الثرى . وكان ذلك الثروة بالنسبة الى سدني توماس الذي لم يُفد منها قط ، لأنه توفي في باريس في الاول من شباط ١٨٨٥ .

يقول بيير روسو :

ـ في الوقت الذي احتلت فيه فرنسا مقامها في أسرة الفحم ـ الفولاذ ، وبما ان اكثر من ٥٠ بالمائة من انتاجها تصدر عن معالجة توماس ، فمن نافلة القول الاشارة الى الدين الذي يترتب على هذه البلاد تجاه الرجل الذي تُرك ضريحه للاهمال .

وهل يعلم أحد ، كذلك ، ان الرواسب ـ خبث المعادن الغنية بالكلس والفوسفور التي تنجم عن تحضير الفولاذ ـ يُصنع منها «سماد توماس»؟ كلمتان تطبعان على ملايين الأكياس التي تسلّم الى المزارعين الفرنسيين الذين يجهلون جميعاً أن هذا الاسم الغريب الغامض هو اسم رجل . . .

* * *

عندما نقول «صندوق القمامة» ، كم من الفرنسيين يعلمون ان احد مديري الشرطة الباريسية هو من منح هذا الوعاء النفعي اسمه؟ . . وكذلك ، في كل مكان من العالم يقولون «فولاذ مارتان» و«فرن مارتان» . بالنسبة الى الجميع ، ليست

طريقة مارتان إلا عبارة تقنية ، ويجهل الجميع ، عامةً ، أن هذا الرجل مارتان فرنسي ، وقد أتاح اختراعه حالياً تسليم أربعة اخماس الانتاج العالمي من الفولاذ . كان يدعى بيير مارتان ، ومن مواليد بروج في ١٨ آب ١٨٢٤ . غير أن مخترع أفضل فولاذ في العالم ، قضى فقيراً في الحادية والتسعين من عمره في حين ان «فولاذ مارتان» غطّى ويغطّي كل الكون . . .

(٤)

لنذكر ـ أو لنُعلم البعض . . . ـ أنه خلال سنوات لم يكن بالوسع التوصّل إلى «نقل» الكهرباء الى مسافة . في حين أن هذه «السلعة» ، اليوم ، القابلة للنقل ، تضيع في الطريق ، ولا يمكن استعمالها استعمالاً مفيداً إلا للاضاءة . ولذلك كان في نيويورك في نهاية القرن الماضي ، ما لا يقلّ عن ألفي مركز كهربائي صغير .

وتبدّل كل شيء ابتداءً من ١٥ حزيران ١٨٨٢ . ففي ذلك اليوم ، وفي مدرّج كونسرفا توار الفنون والصنائع ، أعلن البروفسور دوبريز لطلابه والمستمعين اليه :

ـ «ترون على طاولة الاختبارات دارة من سلك نحاسي طوله ٣٠ متراً . أما قطر هذا السلك فهو ١٠/١ من المليمتر ، أي أنه أرفع كثيراً من السلك التلغرافي . ومن هنا ، كانت هذه الامتار الثلاثون تعادل ٨٠ كيلومتراً من الخطوط التلغرافية . من أحد الطرفين ، تتلقّى هذه الدائرة التيّار من دينامو بقوة ١١٠ فولت ؛ والطرف الآخر موصول بمئجّ (مصباح ذي تأجج) . أُشغّل الدينامو . يجري التيار في السلك وفي سلك الاضاءَة في اللمبة ، بالقوة الضرورية لبثّ ضوء خافت . ذلك بأنه ، عقب مسيرة نظرية قدرها ٨٠ كيلومتراً ، لم يتبقّ كمية كبيرة من القوة المُطلقة عند البداية .

«الآن ، تبديل في الديكور . سأدير هذا الدينامو بسرعة تبلغ ثلاثة أضعاف السرعة الأوُلى ، فتغدو القوة المحرّكة إذ ذاك اكبر بثلاثة أضعاف (٣٣٠ فولت) . يا للمفاجأة ! المصباح الكهربائي يتوهّج كما لو كان موصولاً بالدينامو ! بمعنى آخر : لقد نُقلت الطاقة تقريباً بكاملها ؛ وتلك التي فقدت في الطريق باتت كمية مهملة .

الخلاصة : اذا شئنا أن ننقل الطاقة الكهربائية مع تخفيض الهدر الى أدنى حد ،

فلنرفع التوتر عند البداية او نقطة الانطلاق .

وبعد أربع سنوات كاملة ، وبين كريل وباريس ، أُجري الاختبار الحاسم . ارسل سلك تلغرافي طويل طاقة قدرها ١١٦ حصاناً بخارياً بتوتر ٦ آلاف فولت . وقد استخدم العالم أجمع ، بعد ذلك ، اكتشاف مارسيل دوبريز . وقد سمّي المخترع عضواً في أكاديمية العلوم ، ولكن ذلك لم يحل دون نسيانه حتى وهو حيّ يُرزق . ولما توفي ، لم يعد أحد يذكر اسمه ، باستثناء بعض الطلاب القدامى في كونسرفاتوار الفنون والصنائع ! . .

(٥)

في ليل ١٢ ـ ١٣ شباط ١٨٨٨ ، أُوقظ حارس قصر الايليزه في باريس برنين جرس قوي . فنهض وفتح الباب ، وألفى نفسه أمام معتوه ، أعلن :

ـ أنا اللّه ، وأريد السلام العالمي !

ونُقل الرجل المسكين على الفور الى سانت ـ آنّ . وكتب مفوض الشرطة في سجل تقريره :«إنه امرؤ يدعى غولار» .

هذا «المدعو غولار» الذي لم يعد يعرفه أحد ، كان بكل بساطة ، المهندس الفرنسي لوسيان غولار ، مخترع المحوّل الشهير . وقد أتيحت له الفرصة في تورينو ، في ايطاليا ، أن يقوم بعرض اختراعه . وكان المعرض الدولي في سنة ١٨٨٤ قد أنشأ مباراة لمكافأة أفضل نظام لنقل الطاقة الكهربائية . كان ينبغي ، في الواقع ، لدى الانطلاق ، التوصّل الى جعل التيار بقوة ٢٢٠ ألفاً أو ٣٨٠ ألفاً ، ثم لدى الوصول ـ ما دامت الكهرباء باتت الآن تستطيع أن تُنقل دون أن تُفقد في الطريق ـ تخفيض هذا الى ١١٠ فولت .

قرر غولار القيام بما يلي ، بحسب تصريحه شخصياً :

ـ سأضع مولّداً للتيار المتردد بقوة ٢٠٠٠ فولت في محطة السكة الحديدية في تورينو ، ويقوم محوّلي برفع التوتر ، فيُنقل التيار بالخط حتى محطة لانتسو ، على مسافة ٣٠ كيلومتراً . وفي هذه المدينة ، وعقب المرور عبر محوّل ثانٍ ، سيقوم باضاءة

المأدبة التي ستضمّ لجنة التحكيم في ٢٩ أيلول .

في ٢٩ أيلول ، كان غولار في لانتسو ، في القاعة الكبرى التي ستقام فيها المأدبة . وكانت الساعة السابعة ، وقد جلس الوزير والمهندسون ، واعضاء لجنة التحكيم في أماكنهم حول الموائد التي كانت ما تزال بعد مضاءَة بالشموع . وفي السابعة والنصف بالضبط ، كان ينبغي أن يتدفّق التيار ، ويضيء القاعة . وشعر غولار بحبيبات العرق تتصبّب من جبينه . كانت الساعة قد باتت السابعة و٤٥ دقيقة ، وما تزال الشموع تقوم بدورها . وحوله كان الموجودون يمزحون ، وحتى يضحكون هازئين . وعلى حين غرّة ، بعد عشرين دقيقة من التأخير اضاءَت المصابيح الكهربائية ، وتعالى التصفيق .

لقد انتصر لوسيان غولار !

غير ان سوء الحظ سرعان ما هاجمه . لم يستطع الحصول على المساعدات الضرورية ، وانضنى في محاربة اولئك الذين نافسوه براءَة اختراعه في سنة ١٨٨٢ . وقد هتف سنة ١٨٨٧ قائلاً :

ـ اعملوا على ان يصدر الحكم في الدعاوى التي تجرأ على إقامتها عليَّ مقلّدون أجانب خسيسون ، لأنني في الحقيقة ، أقول لكم إنني بعد عام واحد سأقضي وأنا أعمل !

وكانت آخر ضربة سُدّدت اليه ، منح زينوب غرام الذي كان يحيا ميسوراً جائزة فولتا في تلك السنة بالذات . هذه الخمسون ألف فرنك (قيمة الجائزة) كان يمكن أن تنقذ لوسيان غولار . وبعد بضعة أيام اصابه العته الكامل ، واتجه صوب الايليزه . وفي سانت ـ آنّ لم يستعد وعيه إلا ليقول لزوجته :

ـ آن الاوان لتجهيز الحجرة لكي يوضع فيها نعشي !

ومات في ٢٦ تشرين الثاني ، تاركاً زوجته وسط الفقر المدفع والبؤس . وكان في الثامنة والثلاثين من العمر . وبعد عشر سنين ، جمع اكتتاب عام مبلغ ٢٥٠٠ فرنك ، أتاح نقل جثمان غولار من المقبرة العامة ، وذلك في الوقت الذي شرعَ اولئك الذين يحيون من إنجازه بجني المليارات ـ على حدّ قول بيير روسو .

لعل لوسيان غولار هو الوحيد الذي يستحق أن يُعمَّد «مجهول صنع العصر» !

هو واليوغوسلافي نيكولا تسلا ، مبدع الإشعاعات والنشاط الإشعاعي ، الذي كان- بحسب رأي و .هـ .- إيكلس «أعظم مخترع في حقل الكهرباء الصناعية» . فإليه يعود الفضل في الآلات التي تستطيع توليد التيار المتناوب القادر على تشغيل المصانع كهربائياً ، وباختصار استخدام الجنيّة الكهرباء على نطاق واسع وكبير . وهكذا أتاحت محطة شلّالات نياغرا التي ركّبها بتطبيقه مبادئه ،أن تغذّي كل مصانع بفالو .

ومع ذلك ،نُسي هذا المخترع أيضاً . فخلال الحربين العالميتين الاولى والثانية لم يغادر قط حجرته في احد الفنادق النيويوركية حيث كان يصغي الى احد الاصدقاء يغنّي له ألحان موطنه الاصلي . وفي ذات صباح من سنة ١٩٤٣ ، ألفته إحدى الخادمات في الفندق ميتاً في حجرته . ولم يعد أحد يتذكّره . . . حتى كانت سنة ١٩٥٨ ، عندما تم تخليد ذكراه بمنح اسمه ـ مثل اسمَي أمبير وفولتا ، لوحدة قياس هي وحدة الحثّ المغنطيسية (نقل القوة الكهربائية او المغنطيسية الى جسم آخر عن طريق مغنطيس او تيار من غير اتصال مباشر) .

(٦)

من اخترع الاسمنت؟ كم شخصاً يسعه الإجابة عن مثل هذا السؤال؟

هذا المخترع كان اسمه فيكا ، وكان مهندس جسور وطرقات بسيطاً في ظل الامبراطورية الفرنسية الاولى . كُلِّف بانشاء جسر سوياك على نهر دوردون ، فخطرت له فكرة مزج من ١٥ إلى ٢٠ جزءاً من الطبشور مع ١٠٠ جزء من الصلصال ، الملاط الذي كان يحلّ محلّ المالط (مادة تضاف إلى اخرى لتكثّف أجزاءَها المركّبة) الذي كان يستخدمه القدامى .

وفي ذات يوم ، في عهد الملك لوي ـ فيليب ، خطرت ببال امرئ يدعى جوزف لامبو ، يقيم في كارسه في منطقة فار ، فكرة بناء مركب من الاسمنت لاستعماله في بركته . وقال بينه وبين نفسه :

ـ الاسمنت لا يقاوم مقاومة فعّالة إلا قوى الضغط . ومن اجل المساعدة على تحمّل

قوى التمدّد بفعالية أيضاً ، ينبغي لي أن اعزّزه بمادة اخرى . حسناً ! لماذا لا استعمل الحديد ، ما دام هذا المعدن ، على نقيض الاسمنت ، يقاوم مقاومة رائعة التمدّد؟

ما إن قال لامبو ذلك حتى انتقل من فوره الى التنفيذ . وقبل أن يصبّ الإسمنت ، وضع تشبيكاً من الحديد في قالب الإسمنت . واكتُشف الاسمنت المسلّح ، وسارع لامبو الى الحصول على براءة الاختراع .

ولكن كان ينبغي ، مع ذلك ، انتظار الفرنسي هنبيك ، وسنة ١٨٨٠ ، لولادة الاسمنت المسلّح . فقد احترقت مطبعة ، وجاء صاحبها يقول لهنبيك :

ـ أنت من سيعيد بناءَها شرط أن تستخدم مواد غير قابلة للاشتعال .

فكان جوابه :

ـ دعني أقوم بذلك !

في ذلك العهد لم يكن التفكير إلاّ في الحديد . ففكّر هنبيك أن التسليح المعدني للمصنع يمكن أن يجعله غير قابل للاحتراق إذا ما حمته مادة مقاومة .

ـ ولماذا لا يُستخدم الاسمنت؟ إنه سيحمي الحديد ، ويساعده على تحمّل الثقل .

وهكذا كان ، وجاءَت النتيجة رائعة بحيث أن هنبيك راح يبني جسوراً ومستودعات بالاسمنت المسلّح . وقد صبّ سنة ١٩٢٠ في برج الجرس في ساحة سان ـ مارك في مدينة البندقية الايطالية إسمنته المسلح لكي يجعله أبدياً .

وكان عصر الاسمنت في بدايته . وقد شاهدنا إنجازه الأخير في القنطرة الرائعة ، او بالاحرى النقاب المعلّق بين السماء والأرض عند مستديرة وزارة الدفاع الفرنسية . ولدى تأمل هذه المخاطرة المذهلة ، ينبغي ألا يغرب عن البال أسماء كل من لويس فيكا ، وجوزف لامبو ، وفرنسوى هينبيك . فهؤلاء أيضاً كانوا المجهولين الذين صنعوا العصر ! . . .

(٧)

اعترف توماس ألفا إديسون بقوله :

ـ أشك في أنه سيتاح لي أن أرى فونوغرافاً قادراً على نقل كل الخطب بطريقة

مفهومة وواضحة . لذا ، حسبت أنه من الأفضل ، تاركاً للاجيال المقبلة مهمة تحسين الفونوغراف ، أن أهتمّ ، عوضاً عن ذلك ، بالنور الكهربائي .

من المؤكد أن الاصوات الصادرة عن الفونوغراف ذي الاسطوانة (السيلندر) كانت مخنخنة ، وكريهة ، ومتغيّرة . هذا بالنسبة الى الصوت ، ولكن بالنسبة الى الموسيقى التي تشوَّه هكذا ، فإنها كانت تجعل الاسنان تصرّ . وهذا ما قاله سنة ١٨٩٢ ، الشاب فرنسوى دوسو :

– إن فونوغراف إديسون لا يمكن تحسينه البتة . فالتسجيل الميكانيكي من الخشونة والقسوة بحيث أنه لا ينقل كل دقائق الصوت . ينبغي ايجاد طريقة للتسجيل تكون اكثر نعومة ، ودقة ، واكثر ملاءَمة وقدرة على التشبُّه بالتغيرات الصوتية الدقيقة جداً في المقامات . إن التلفون ذا الخيط الذي ابتكره هوكس ، حلّ محلّه التلفون الكهربائي الذي اخترعه غراهام بل . والتسجيل الميكانيكي الذي ابتكره إديسون ، ينبغي ، هو الآخر ، أن يُستبدل بأداة تسجيل كهربائية .

واخترع دوسو «البيك أبّ» !

إنطلاقاً من تلفون بل الذي تمتلك مرسلته (جهاز الإرسال فيه) غشاء يطبع التموجات الصوتية ، ركّب دوسو قطعة صغيرة من المغنطيس الكهربائي مباشرة على هيكل الغشاء ، ووضع على المعدن الذي يشكّل الهيكل لهذا المغنطيس الكهربائي شفرة مرنة تحمل لازوردة (ياقوت أزرق ، أو سفير) . وبالوسع رؤية هذا «البيك أب» الأول في واجهة متحف علم التوجيه (علم يتيح لانسان أو آلة اوتوماتيكية أن يوجِّها وأن يبلغا هدفاً معيناً) ، في الرقم ٤٧ بولفار لاتور ـ موبور ، في باريس ، الذي تسهر عليه السيدة دوسو . وعلى ما ينصح لنا به بيير روسو ، يتعيّن على كل عالم بالإلكترونيات أن يقوم بهذا «الحج الى الينابيع» ، ويقدّم الى الرجل الذي سجّل بهذا الشيء الصغير الذي يُحمل بباطن اليد ، هذا السيل الكبير من الادوات التي ولدت منه في الواقع : الميكروفون ، مكبّر الصوت ، الميكروسيّون (اسطوانة تتيح وقتاً طويلاً للاستماع) ، وتجسيم الصوت (طريقة لتجسيم الاصوات المسجَّلة – ستيريوفوني) . . .

في سنة ١٨٩٤ ، دخل دوسو مدرّج جامعة جينيف ، وبدأ صفّه بهذه الكلمات :
ـ ايها السادة ، لقد بات بالوسع من اليوم الاحتفاظ بالظواهر الكهربائية .

ثم كشف كل اسراره ، رافضاً تسلّم اي براءَة اختراع ، ومثل لوبلان ، من قبل ، الاحتفاظ لنفسه وحده باختراعه الرائع . واكثر من ذلك ، فسخ كل العقود التي كانت تشدّه الى شركات صناعية بصفة مهندس . قرَّر أن يكرّس كل جهوده وحسب للبحوث والعيش هكذا عيشة عادية جداً ، ولكن بشغف .

ومنذ سنة ١٨٩٧ ، وفي قاعة «غران ـ غينيول» ، في شارع شابتال ، قدَّم عرضاً للسينما الناطقة على الطريقة الاميركية التي «ابتكرها» الاميركيون بعد ذلك بثلاثين سنة ، واستُخدمت للمرة الأولى من جانبهم في فيلم «مغنّي الجاز» . ولم يتوقّف فرنسوى دوسو في منتصف الطريق . ففي سنة ١٩٠٠ ، ابتكر تقنية سينمائية جديدة بالألوان ، وفي سنة ١٩٣٣ اخترع ، قبل الاميركيين بزمن طويل ـ سواء سرّهم ذلك أم لا ـ الإنسان الآلي الاول (الروبوت) .

في ٤ نيسان ١٩٣٤ قرأ برانلي في اكاديمية العلوم الفرنسية مذكرة من دوسو «حول المركبات غير المأهولة التي توجَّه وتعمل بحسب أوامر محدّدة سلفاً» . وفي فناء الاكاديمية كان بوسع الاكاديميين مشاهدة عربة تقوم بكل المناورات الممكنة ، المنظّمة من بعد .

وأوضح المخترع :
ـ بالوسع التحكّم بالطريقة نفسها بحركات أي مركبة ، أو دبابة ، مثلاً ؛ فتهاجم العدو ، وتطلق النار من مدفعها ورشّاشاتها ، او تقوم بأي عمل يُحدَّد لها !

وقاطعه أحدهم :
ـ عربتك ممتازة ، ولكن ماذا يحدث فيما لوْ وقفت أمامها؟
ـ انها تسحقك . . .

كيف العمل على جعل الإنسان الآلي ، أمام عقبة غير متوقّعة ، يغيّر الاتجاه؟ تلك كانت قضية اخرى ـ على ما يروي لنا صاحب كتاب «هؤلاء المجهولون صنعوا العصر» ـ حلّها المخترع وهو يلهو . ذلك بأنه في شهر آب التالي ، أمكن السيّاح الذين

كانوا يتنزّهون على ضفاف بحيرة جينيف ، تأمل زورق بخاري ، لم يكن على متنه احد ، يرسم على صفحة المياه خطوطاً منسجمة . وتجاوزت دهشتهم دهشة الاكاديميين على رصيف كونتي لما شاهدوا الزورق ، عقب اصطدامه بقارب آخر ، يسير الى الوراء من تلقائه ، ويقوم بنصف دائرة ليدور حول العقبة ، ثم ينطلق مجدداً في الاتجاه الاساسي .

عندها اقترح المخترع على وزارة الطيران أن تصنع طائرات تستطيع التحليق من دون ملاّحين . فكان الردّ :

– هذا الانجاز لا يبدو لنا ذا أهمية في ما يتعلّق باستخدامه .

كان ذلك في سنة ١٩٣٤ . . . ولكن لما توفي فرنسوى دوسو ، بعد ذلك بعشرين سنة ، من يتذكّر أن في فرنسا أبصر النور البيك أبّ ، والسينما الناطقة ، والانسان الآلي ؟ ! . .

(٨)

كان يقيم في مسكن حقير في فانسين ، وكان من الفقر بحيث لم يكن بوسعه ركوب العربة العامة ، فكان يسير منتعلاً حذاءً قماشياً ليذهب الى عمله لدى صانعي الادوات الفيزيائية ، في شارع فولتير . كان يدعى بو دو روشا ، وبمرتبه الهزيل كان يسعى الى تحويل المحرك الانفجاري المزعج الذي اخترعه لونوار الى محرك مثبت فوق باسنة من الاسمنت ، وكان يستهلك ثلاثة أمتار مكعبة من الغاز لقاء كل حصان بخاري في الساعة مقابل مردود تافه نسبياً ، ذلك بأنه كان يعمل دونما ضغط .

في ١٦ كانون الثاني ١٨٦٢ ، اودع بو دو روشا هذه البراءة المتضمنة سرمحرك الغد ، ذلك الذي جُهزت به في ما بعد السيارة : المحرك ذي الدورات الاربع .

١ – شفط خلال شوط كامل للبستون ؛

٢ – ضغط خلال الشوط التالي ؛

٣ – اشتعال لدى نقطة العطالة (المكان في الآلة ، وبخاصة في السيارة ، الذي لا يتلقى دفعة المحرك) واستراحة خلال الشوط الثالث ؛

٤ - طرد الغازات المحترقة خارج الاسطوانة (السيلندر) في الشوط الرابع والأخير .

ولكن احداً ـ حتى لونوار نفسه ـ لم يهتم باختراع بو دو روشا . وبسبب عدم تسديده الرسم السنوي من اجل تجديد براءة اختراعه اصبحت هذه من الممتلكات العامة في السنة التالية .

عندما أظهر معرض سنة ١٨٨٩ بواسطة النماذج المعروضة ، أن المحرك ذا الدورات الاربع ، هو المحرك الصالح الوحيد ، راحوا يفتشون عن بو دو روشا . وكان كعادته في كوخه في فانسين ، فقدّموا اليه جائزة مقدارها الفا فرنك ـ فأتاح له هذا المبلغ أن يأكل بين آن وآخر ، بانتظار أن يرحل عن هذه الدنيا بعد ذلك بأربع سنوات . . .

(٩)

إرفع سماعة التلفون ، واطلب بوليفار ٩٣ - ٢٩ ، واسمع صوتاً يجيبك : «هنا بوت ـ شومون»

هذا الصوت يصدر في الواقع عن بوت شومون ، حيث تقوم استوديوهات التلفزيون الفرنسي الكبيرة . إلا أن هذا المركزالذي تُبث منه البرامج الاكثر أهمية كان اسمه ، في الحقيقة «رينه بارتيليمي» . ولكن لا أحد يستعمل هذا الاسم للإشارة الى الاستوديوهات في شارع كاردوتشي ، مع أن اسم رينه بارتيليمي يتوهج فوق باب المدخل . ويسمع المرء المخبرين الصحفيين التلفزيونيين يرددون : «اليك ، يا بوت شومون !» واولئك الذين يترددون باستمرار على استوديوهات التلفزيون من أصحاب البرامج ، لا يتلفظون مطلقاً باسم رينه بارتيليمي الذي يدين له التلفزيون الفرنسي بالفضل لكونه ـ من الناحية التقنية اليوم ـ أفضل تلفزيون في العالم .

تبدأ القصة ذات يوم من سنة ١٩٢٥ ، في مكتب شامون ، مدير شركة العدّادات ، الذي قال لرينه بارتيليمي :

ـ أنا آتٍ من لندن ، وقد اتيحت لي فرصة مشاهدة شيء غريب جداً هناك ، تلفزيون دجون بارد . إنه حقاً شأن مستقبلي ، ومن المؤسف ان لا أحد في فرنسا

يجرؤ على الانطلاق في هذا السبيل . ولكن لماذا لا نحاول نحن؟ لديك مختبر للبحوث ، ضع هذه القضية على جدول دراستك .

لم يكن تلفزيون المهندس الاسكتلندي دجون لوغي بارد آنذاك سوى فضول مختبري ، كان الأشخاص يبدون كالخيالات او الصور الظلّية بفضل ما يقارب الألف نقطة موزعة على ثلاثين خطاً .

وعقب ثلاث سنوات من الدراسات ـ وفي ١٤ نيسان ١٩٣١ ـ قدّم رينه بارتيليمي عرضاً عاماً لأعماله ، وقد التُقطت الصورة التي بُثت من مونروج في مالاكوف . وعلى الشاشة ذات الجانب البالغ طوله ٤٠ سنتيمتراً كان بالوسع رؤية وجه امرأة تضع البودرة على وجهها ، وتحرك المروحة .

في السنة التالية ، وكل يوم خميس ، كان رينه بارتيليمي ، من استوديو مونروج ، يبث ساعة كاملة يقدمها فنانون متطوعون . ولم يكن المشاهدون إلا معدّدي الحِرف الهواة الذين صنعوا غالباً ، شخصياً ، جهاز التقاط «من جهاز راديو قديم ، واسطوانة نبكوف ذات الثلاثين دورة ، ولمبة نيون» .

وأوضح رينه بارتيليمي :

ـ ان الصورة الصغيرة الوردية اللون التي تُرى من خلال عدسة كبيرة ، بدت أن لها حجم نصف بطاقة بريدية (كارت بوستال) .

ولكن الصورة كانت تعدّ ، بعد ، ٩٠ خطاً . . . وما لبث بارتيليمي أن جعلها ١٨٠ خطاً . وهذا ما جعل الوزير جورج ماندل يتحمس ذات يوم وقد أقبل لزيارة استوديو مونروج ، ويقول :

ـ هل بوسعك أن تمنح فرنسا ، في غضون ستة أشهر تلفزيوناً من ١٨٠ خطاً؟

فكان جواب بارتيليمي :

ـ إني احتاج الى الامكنة الضرورية .

ـ سيكون لك ذلك .

ـ ولكن ، يا سيدي الوزير ، احتاج ايضاً الى قمة برج إيفل .

ـ اتفقنا .

– وكبل متحد المحور ، وجهاز بث قوي جداً عند أسفل البرج . . .
– سيكون لك كل شيء !

في شهر كانون الاول ١٩٣٥ ، تم تدشين التلفزيون الفرنسي . فكان اول تلفزيون في العالم بخطوطه الـ ١٨٠ ، في حين لم تكن انكلترا تمتلك سوى تلفزيون بثلاثين خطاً .

يقول الكاتب الفرنسي أندريه كاستيلو ، في هذا الصدد :

– أذكر انني شاهدت برنامجاً . فقد كانت البرامج آنذاك تتطلب قوة إضاءة كبيرة بحيث لا يرعب الماكياج الذي تخضع له الممثلات ـ كانت شفاههن سوداء كالحبر ـ فرانكنشتاين نفسه . . . وقد تحولت الطبقات تحت الأرض في الاستوديو الى مصنع للتبريد لكي لا «يشوى» الممثلون والفنيون ! . .

لقد سمحت التحسينات ، والاصلاحات ، والاقتراحات التي قام بها رينه بارتيليمي بأن يحصل على ١٥٠ براءة ، وجعل خطوط الصورة ٤٥٥ ، مقابل ٤٤١ في اميركا ، و٤٠٥ في انكلترا . وقد واصل المخترع عمله طوال فترة الاحتلال الالماني فرنسا على الرغم من اصابته بالمرض واضطراره الى ملازمة منزله .

وعندما جاء الاميركيون عقب تحرير باريس لزيارة محطة مونروج ، دهشوا : فقد نجح بارتيليمي في تلك السنة ١٩٤٤ ، في صنع محلل من ١٠١٥ خطاً ـ ٢٤ مليون نقطة في الثانية الواحدة !

واكتفى التلفزيون الفرنسي بتبنّي وضوحية الـ ٨١٩ خطاً (الوضوحية هي درجة الوضوح المتأتية من عدد ثابت من الخطوط التي تتألف منها الصورة) . ويبقى التلفزيون هذا الأول في العالم ما دامت اميركا ، اليوم ، لا تمتلك إلا تلفزيوناً بـ ٥٢٥ خطاً ، واوروبا بـ ٦٢٥ خطاً ، وانكلترا بـ ٤٠٥ خطوط . يقول بيير روسو :

ـ توفي رينه بارتيليمي في ١٢ شباط ١٩٥٤ ، وسط الآلام المبرحّة التي لا تطاق ، وهو يتمتع بالصحو المذهل . وكان قد مُنح وسام جوقة الشرف من رتبة كوماندور صباح يوم رحيله بالذات ، وكان قبل اربع ساعات ، ما يزال ينصّ ما يجول في فكره . . .

إن اسمه اليوم يغوص اكثر فأكثر في مطاوي النسيان ! . .

مأساة العصر

شاهدة عيان تروي الحقيقة حول مصر كليم صون ، أول رجل عصفور !

كتبت السيدة بواريه ، زوجة الملاّح الجوي روبير بواريه الذي حمل بطائرته الرجل ـ العصفور ، الشاب الاميركي كليم صون (٢٦ سنة) تصف هذه المأساة :

كان يوم أحد من شهر نيسان سنة ١٩٣٧ . وفي فانسين ، احدى ضواحي باريس ، وفي دائرة السين ، كان اللقاء الجوي المرتقب يجري في جو من أجواء حفلات الكرميس : مكبّرات الصوت المعلّقة في الاشجار تنشر ، بإسراف ، آخر منجزات رينا كيتي وانتصاراتها ، وباعة البرتقال يعرضون بأربعين فلساً كل ثلاث برتقالات . وفي السماء الزرقاء ، كان مارسيل بورديه يقوم بعرضه البهلواني بطائرته الشهيرة البيضاء والحمراء : ينقلب بها ، ثم يحلّق بعد أن يقلبها على ظهرها ، ثم يقوم بانقلاب مزدوج ، ثم ينحدر الى مستوى الارض ـ سلسلة كاملة من المناورات البهلوانية الخطرة التي كانت تنتزع الآه خوفاً ، والأوه اعجاباً ، بالتعاقب في صفوف المشاهدين الذين سارعوا الى الاستمتاع بمنظر هذه الاعمال الباهرة .

أعمال مارسيل بورديه ، بالطبع ، وكذلك لكي يشاهدوا ، بانفعال شديد ، عملاً باهراً آخر ، لعله الاول من نوعه : قفزة كليم صون من الطائرة المحلقة .

كان كليم صون ، الرجل ـ العصفور ، سيقفز من طائرة ، من أجل أن يحلّق بجناحيه ، العاديين المصنوعين من القماش .

وزعقت مكبرات الصوت :

ـ سيداتي سادتي ، لقد تأخر اقلاع الطائرة التي ستقل كليم صون . . .

كانت الساعة الرابعة والنصف . وكان على الرجل ـ العصفور ان يكون قد قفز قبل ساعة من الزمن . لقد تأجل العرض الرقم واحد المنتظر بفارغ صبر! وراحت السماء تغيم . وكان حوالى ٢٠٠ ألف شخص في فانسين ، وقد نفد صبرهم ، يتذمرون ، ويرددون :

ـ ستُدق عنقه ، حتماً . . . يخامرني هذا الشعور . . . أتدري . . .

ـ أؤكد لك انه لن يجرؤ على القيام بهذه القفزة . . . انها عملية انتحارية ، وبخاصة في هذا الجو المتلبّد بالغيوم الذي يحجب الرؤية . . .

ـ لقد تكبدنا مشقة المجيء بلا طائل . . . وسيبللنا المطر في طريق العودة . . .

وكان كليم صون ، بعيداً عن فانسين ، قد تنبأ بردود الفعل الشعبية ، ولم يكن يريد ، بالضبط ، ان تكون هذه الجماهير الغفيرة قد تكبدت المشقة «من أجل لا شيء !» .

ـ أنا لا أريد أن أخيب أمل كل هؤلاء القوم الذين أقبلوا ليشاهدوني وأنا أطير !

هذا ما أجاب به ، ووجهه مضطرب ، روبير بواريبه ، ملّاح الطائرة من طراز «فارمان ١٩٠» ، الذي قال له :

ـ اذا لم تكن راغباً في القفز ، فدعك منه !

وقفز ، وتحطم أرضاً !

ولكنه لم يكن «راغباً» في القفز . لقد عرف الملّاح ذلك ، وفهم السبب . ولم يكن للخوف دخل في القضية . لا ! ثمة شيء آخر . . .

كان على روبير بواريبه ـ بحسب رواية زوجته ـ الشاهدة العيان للمأساة الجوية هذه أن يرتفع بطائرته ، وعلى متنها كليم صون ، فوق فانسين ، وعلى ارتفاع معين . وتمضي السيدة بواريبه في قصتها فتقول :

كنا قد تعرّفنا قبل فترة وجيزة الى هذا الشاب الاميركي ، من ولاية متشيغان . ولم يكن لديه اي تخوّف ، بل على النقيض ، كان مسروراً ومرحاً . وقد قمنا معاً بزيارة باريس ، ولكن في يوم اللقاء الجوي هذا فاجأني بكآبته . لقد كان حزيناً حقاً . وتناولنا طعام الغداء معاً ، يحيط بنا كل من ماريز هيلز ، وبولان ، وديتروايا ، وآخرون . . .

ونصح له زوجي ، قبل ذلك بأيام ، بتفحص مظلتيّ الاسعاف او النجدة ، اللتين ينبغي ان يتزوّد بهما في حال فشل محاولته . فكان جوابه ان الثني او الطوي الخاص للمظلتين تمّ في الولايات المتحدة الاميركية ، ولا يودّ أن يمسّ ذلك مطلقاً !

وتمضي السيدة بواريبه فتقول بصوت بهيم :

ـ وكان يخامر كليم تخوّف كبير لأنه كان يعلم ان القماش المطوي هكذا وصل الى فرنسا على متن سفينة . وكان يعلم ان هذه الرحلة الطويلة في الجو الرطب في مخزن السفينة لا بد أن تجعل القماش يلتصق بالدعائم المركّب عليها ، الأمر الذي سيحول ، بالتالي ، دون انفتاح المظلة بصورة طبيعية .

وكان يخشى ألا يستطيع احد في فرنسا التوصل الى ايجاد النظام الصحيح للطيّ ، اذا ما فك القماش ليتفحصه . لقد لاحظ ، في الواقع ، آثار رطوبة ، وأيقن ان مظلتيه لن تنفتحا اذا ما اضطر للجوء اليهما عند الضرورة . ومن هنا كان كئيباً جداً طوال فترة تناول الغداء التي سبقت محاولته الخطرة .

وبعد قليل ، وفي الجو ، التفت روبير بواريبه ، قلقاً الى كليم صون ، وقال له :

ـ اذا لم تكن راغباً في القفز . . .

وكان الجو يتلبد بالغيوم ، بين لحظة ولحظة ، فتكثر ، وتتكاثف ، وتصبح قاتمة . وكانت الطائرة تحوّم وتدور ، ووراء مقودها جلس روبير بواريبه يبحث عن ركن في السماء صافٍ للقفز . كان منقبض الصدر ، وكليم صون ، من جهته ، ساكن لا يبدي اي حركة ، وقد التصق جناحاه بظهره .

وقالت السيدة بواريبه :

ـ ودار جدال عنيف بينه وبين زوجي الذي أراد التخلي عن المغامرة والهبوط بطائرته ، بسبب رداءَة الاحوال الجوية ، ولكن كليم ألحّ . لم يكن يدور في رأسه سوى فكرة واحدة : هي ألا يخيّب أمل الجماهير المنتظرة على الأرض . . .

٢٠٠,٠٠٠ رأس مرفوعة نحو السحب !

وطنّ صوت المذيع في مكبرات الصوت :

ـ انتبهوا ! سيداتي سادتي ، لا تدعوا الطائرة تغيب عن أنظاركم . كليم صون

سيقفز ! إنه يقفز ! هذه النقطة البيضاء الصغيرة التي ترونها فوق ، انها الرجل ـ العصفور ! انه يطير ، يطير . . .

وكان صون ما يزال على ارتفاع ٤٠٠ متر أو ٥٠٠ في الجو . وفتح أولى مظلتيه ، ولكن القماش الابيض بقي كأنه شعلة في السماء بدلاً من أن يُنشر .

وكانت تلك بداية لحظة قلق لا يطاق . وكان كليم صون يهبط بسرعة هائلة . وتخلى المذيع عن موائه التفخيمي ، فجنّ ، وراح يفتش عن الكلمات تفتيشاً .

ـ الأمر مرعب ! ولكن ، ولكن . . . أجل ، ها هو كليم صون يطلق مظلته الثانية ! أوف ! آه ! ولكنها لا تنفتح ايضاً ، وهي تلتف حول الاولى ! انه لأمر مرعب ! آه ! . . .

واختنق صوته . ومن وسط الجماهير ، ارتفعت صيحات الرعب ، وسقط جسد كليم صون أرضاً ـ وتصدّع ـ وكمثل القذيفة المدفعية ، غاص في الأرض على عمق نصف متر !

اسطورة الـ٤٧ ساموراي الاوفياء لسيد آكسو

اليابان سنة ١٧٠١

بينما كان الامبراطور، الميكادو، يعيش منعزلاً في قصره الفخم في كيوتو، كان يحكم البلاد وصي على العرش هو الشوغون، الدكتاتور الذي يتمتع بسلطة مطلقة.

وفي مسكنه في ايدو، القلعة الحصينة المحاطة بحاجز مثلّث من الخنادق، وهو بحق متاهة ذات المخططات السرية التي يحميها مائة الف رجل، كان الشوغون يدير بلاطاً يعجّ بالأسياد.

وهنا كان يقيم رجلان غنيان من الساموراي: كيرا يوشيهيا وأسانو ناغانوري.

كان كيرا من رجال البلاط، ويشغل منصب «الرئيس الاعلى للتشريفات»، في حين كان أسانو سيد قصر آكسو، وارث احدى الاسر النبيلة والثرية في الإقليم. ومن الادلة على ثروته انه كان في إمرته ما لا يقلّ عن ٣٠٠ ساموراي.

كان كل شيء، إذاً، يسير على خير ما يرام، لو لم يقع كيرا في حب زوجة أسانو الصبية الحسناء. فحاول اغواءها، ولكنها ظلت وفية، ودفعته، وصدّته، فتملّك كيرا الغضب الشديد، وساورته فكرة الانتقام من أسانو الذي اعتبره منذ ذلك الحين عدّواً.

ولكن، مثل سائر الاسياد، كان كيرا، بفضل مولده، ساموراي، وهو، لا يجهل انه في اي لحظة من حياته، يخضع لقانون «البوشيدو»، قانون الشرف بالنسبة الى المحارب، هذا القانون الرهيب الذي يحول بينه وبين حرية التصرّف. في هذه الحالات، كيف سيروي غليل الثأر؟ وقد ساعد مكره على ايجاد خدعة: سيكون أسانومن سينتهك «البوشيدو»

وما لبثت الفرصة ان سنحت ، ففي آذار من سنة ١٧٠١ ، استقبل الشوغون في قصره ثلاثة سفراء من قِبل الميكادو ، جاءوا يقدمون اليه ، جرياً على العادة ، تمنيات سيدهم لمناسبة حلول السنة الجديدة .

وكُلّف اسانو تنظيم حفل الاستقبال . وكانت تلك مهنة كيرا ، ولكنه رفض مساعدته ، ولكن ، في يوم الاستقبال الرسمي ، انتقد التنظيم وسخر علناً من اسانو ، وأهانه اهانة شديدة امام كل رجال الحاشية .

وشحبت ملامح اسانو ، ومدّ يده الى سيفه الطويل الذي لا يفارق جنبه الايمن ، ثم تردد لحظة قصيرة ، إنه حقاً امام مأزق خطير . ما العمل؟ اذا هو ردّ على التحدي ، فإنه ينتهك «البوشيدو» الذي يجعل من قصر الشوغون مكاناً مقدساً ، ويحوّل كل خرق للقاعدة اهانة لا تغتفر . واذا ما تجاهل الشتيمة ، سيكون جباناً في نظر الجميع ، ولا يسعه ان يردّ اعتباره الا بالموت . ان الوضع حرج . وسحب اسانو ، حاقداً ، سيفه وجرح كيرا في وجهه .

لقد عملت خدعة كيرا عملها . فألقى حرس القصر القبض على أسانو فوراً . وصدر الحكم مباشرة من الشوغون : «الموت الطوعي» ! الهارا ـ كيري .

وعاد اسانو الى مسكنه بصمت . انه هادئ . هو يعلم ان عمله الشجاع سيُحسب له ، وانه سرعان ما سيحيا حياة افضل . ويرتدي بدقة ملابسه البيضاء الطقسية ، ويكتب قصيدة وداعية ، يذكر فيها «سنواته الست والثلاثين المنتثرة كبتلات الزهور» ثم ، تبعاً للعرف ، يجلس في الجناح المجهز خصيصاً للاحتفال .

وهناك ، ودون ارتعاش ، ينتضي الخنجر الصغير الذي لا يزيد على خمسة سنتمترات ، ذا المقبض المغلّف بالورق الابيض الموضوع هناك ، ويبقر بطنه ، حسب انظمة الهارا ـ كيري ، بحضور كل انسبائه ، وممثلين عن الشوغون ، في حين كان احد الاصدقاء يساعده على مفارقة الحياة بقطع رأسه .

ورثة الانتقام

وصودرت ممتلكات اسانو كلها بصورة آلية ، ووجد الثلاثمائة محارب في قصر آكسو انفسهم بين ليلة وضحاها بلا اي عمل ، اي انهم اصبحوا يُعرفون باسم «اونان» . وعقب مناقشات مملّة عدة ، تشتّتوا ، باستثناء ٤٧ منهم .

ذلك بأنه حسب العادة ، كفّر اسانو عن «خطيئته» ، ولكنه في الوقت نفسه ، اورث محاربيه الاوفياء أمر الانتقام له . فعليهم إما اللحاق به في عالم الأموات ، او غسل الاهانة التي نزلت بالجماعة بأسرها .

وها هم في منزله ، السبعة والأربعون ساموراي الاوفياء وقد سمّرهم الألم ، سبعة وأربعون محارباً نبيلاً ومقداماً ، حوّلهم موت سيدهم الى «أونان دنيئين» ، الجميع عندهم التفكير نفسه . صور مختلفة تمرّ أمام أعينهم : صور اليوم الذي اقسموا فيه بأن يكونوا اوفياء لسيدهم اسانو ، على مدى الحياة . وبعد ظهر ذلك اليوم كتبوا عهدهم على لفيفة من الورق بريشة مغموسة بدمهم ، ثم ذهبوا وأحرقوا الوثيقة امام مذبح الآلهة ، وبعدها شربوا الرماد المذاب في احد السوائل .

واليوم ، خُطّ واجبهم : ينبغي لهم الثأر لسيدهم .

محتقرون من الجميع

غير ان المهمة ليست سهلة . فكيرا يرتاب في انتقام محتمل ، وهو يختبئ في اقصى اعماق القلعة الحصينة ، ويراقب حركات كل شخص ، علماً منه بمدى الخطر المحدق بحياته .

ووجد قائد الساموراي العاطلين عن العمل اويشي كورانوسوكا ، حيلة لتسكين حذره . فقد بُثّت رسالة في مختلف ارجاء المنطقة : «العاطلون عن العمل في آكسو نسوا سيدهم ، وهمُّهم ان يحيوا بدلاً من تكريم ذكرى اسانو» .

وهكذا تفرّقوا ، وراح كل منهم يهتم بشؤونه الخاصة : يعلّمون الفنون الحربية ، والجودو ، والكاراته ، والآيكيدو ، ويعملون كحرس ومرافقين لتجّار اغنياء ، ويحيون على سلاحهم .

وكانوا يلقون اعجاب الفقراء والفلاحين ، ولذا غدوا كوابيس بالنسبة الى رجال الشرطة . وطوال اكثر من عام كامل ، تاهوا في الارياف . واكسبتهم لامبالاتهم الظاهرة العداوة العامة ، وحقد المقربين اليهم وأصدقائهم . وجلبوا العار الى الساموراي . وبقوة ارادة غير مألوفة ، تركوا الجميع يصيحون ساخرين بهم .

ونسي كيرا شيئاً فشيئاً مخاوفه ، وقد خُدع بموقفهم ، وتخلّى عن المراقبة .

اسمهم غدا اسطورة

وفي ذات ليلة من سنة ١٧٠٢ لبّى اوفياء آكسو نداء اويشي . وبينما كان الثلج يتساقط خانقاً جلبة خطاهم ، تجمّعوا بصمت وساروا للانتقام .

وتسلّقوا اسوار القصر وجابوا بكل هدوء متاهة الممرات الغارقة في السبات ، ودخلوا غرفة كيرا و . . . قطعوا رأسه ، عقب معركة قصيرة .

وساروا بعد ذلك في موكب رسمي احتفالي الى معبد سنغاكوجي حيث دُفن سيدهم . وهناك وضعوا على ضريحه رأس كيرا والخنجر الذي احتزّه ، مرفقاً ببطاقة تدّعي حملهم .

ثم إنهم استسلموا الى السلطات ، ومجّدهم الشعب ، والشوغون نفسه ابدى اعجابه بشجاعتهم . ولكن القانون يبقى القانون ، وقد حُكم عليهم بدورهم بالقيام بالهارا ـ كيري في ٤ شباط ١٧٠٣ .

في ذلك اليوم انتحروا بكل سكينة ، وهم راضون لأنهم قاموا بواجبهم ، باستثناء واحد منهم ، كُلّف ابلاغ اسرة اسانو بتنفيذ الانتقام .

وحُفرت أضرحتهم بالقرب من ضريح سيدهم ، وفي ذلك الموضع ايضاً دُفن ، بعد سنوات ، الساموراي العاطل عن العمل الذي بقي في قيد الحياة .

هذه الأضرحة ما تزال تُكرّم الى يومنا هذا في اليابان . وتُدرّس قصتهم في المدارس اليابانية ، كما تُدرَّس ، في فرنسا ، مثلاً ، قصة جانّ ـ دارك او رولان ، نسيب شارلمان الكبير .

ميخائيلوفيتش : أخائن هو أم بطل ؟

ـ ليسقط ميخائيلوفيتش !

ـ ليحيى ميخائيلوفيتش !

منذ اربعة اسابيع والانظار تقع على هاتين الجملتين مكتوبتين على جدران تريستا بالفحم ، والقطران ، والحمّر ، وفي اغلب الاحيان بالدم البشري . فأنصار الماريشال تيتو يعدّون ميخائيلوفيتش الذي تحاكمه اليوم (السنة ١٩٤٦) محكمة الشعب في بلغراد خائناً خطراً ، في حين يرى انصار ميخائيلوفيتش ، والمعادون لتيتو ، انه ضحية مؤامرة جهنمية مدبّرة . وكان أُلقي القبض عليه في ١٣ آذار ١٩٤٦ . ذلك بأن لندن سانلات تيتو الذي اعتبرته اكثر فائدة ، وتخلّى الملك بطرس عن ميخائيلوفيتش في أيار ١٩٤٤ . وعقب تحرير البلاد ، لجأ ميخائيلوفيتش الى التخفّي ، ولكنه وقع بين ايدي اعدائه في التاريخ الذي ذكرنا .

وتذكّر هذه القضية التي يهتم لها العالم أجمع بقضية دريفوس التي شطرت فرنسا شطرين هما : اليمين واليسار . أما الفرق بين القضيتين فهو ان قضية دريفوس لم تشغل سوى فرنسا ، بينما لا يستبعد ان توقد قضية ميخائيلوفيتش النيران من جديد في الكرة الارضية .

كان الكولونيل دراجا ميخائيلوفيتش في السنة ١٩٣٩ ، وقبيل نشوب الحرب ، في الثامنة والاربعين من عمره . وهو رجل فارع الطول ، في وجهه آثار جروح عميقة تشهد له بماض حربي مجيد ، عيناه زرقاوان ، وله ولع شديد باقتناء الاحذية الانكليزية ، وخاصة الاحذية العسكرية منها ، والبزات العسكرية . وقد اشترك في الحرب البلقانية والحرب العالمية الاولى بعد تخرّجه من الاكاديمية الحربية التي تلقّى

فيها دروسه .

ثم مرّت عليه عشرون سنة عاش خلالها عيشة الثكنات المملة المظلمة .

والمأثور عن ميخائيلوفيتش منذ اول عهده بالجندية انه ذو استقلال في الرأي في النظريات والمبادئ العسكرية . وكثيراً ما كان يختصم هو وزملاؤه الضباط ورؤساؤه على الخطط الحربية .

تزوج ميخائيلوفيتش من امرأة مطلّقة لها ولدان ، دون ان يستأذن وزارة الحربية اليوغوسلافية في هذا الزواج . وهو ابن معلّم من كاكاق ، في جبال البوسنة ، ومن عائلة اشتهرت ببلائها الحسن في عهد مقاومة الغزاة المحتلين من الاتراك . وقد حبّب اليه ذلك علمي التاريخ والحساب .

ومن أبرز صفاته شغفه الشديد بالمطالعة . ولديه مكتبة غنية بالمؤلفات التاريخية وخاصة الكتب التي تتناول تاريخ شعب التشتنيك ومجده الحربي . ولا يضارع شغفه بالتاريخ سوى شغفه بحلّ المعضلات الحسابية والهندسية . ويقضي ساعة كل يوم في مثل هذا العمل . وكان اول مقال ظهر في الصحافة اليوغوسلافية عن «الميكانيك المتماوج» موقّعاً بالحرفين الاولين من اسم ميخائيلوفيتش . وكان من اعضاء جمعية أزدهار العلوم . فلما عُيّن مفتشاً عاماً للتحصينات ، أقيمت له مأدبة عشاء فاخرة .

ولم يكد اعضاء الجمعية المؤسسون يدخلون القاعة ـ وهو في جملتهم ـ حتى «انقضّت» عليهم خمسون فتاة من أزهار مرابع بلغراد الليلية يعانقنهم ، ويوسعنهم ضماً وتقبيلاً .

اخذ ميخائيلوفيتش يصرّف مهام منصبه الجديد دون ان يفقد شيئاً من تواضعه وبساطته . وكان أكره شيء اليه ركوب السيارة الرسمية التي ترفرف على مقدمها الراية العسكرية ، وتتقدمها وتتبعها الدراجات البخارية . وكان يفضل السفر بمفرده في القطار الحديدي في تنقلاته المتعددة في طول البلاد وعرضها . وقد أمضى ، قبل انكبابه على عمله الجديد ، اسبوعاً كاملاً في الصيد ، بثيابه المدنية ، البندقية الى كتفه ، وحزام الخرطوش يلتف حول وسطه . . . وما كاد يعود الى مكتبه ويزاول أعماله حتى جعل دأبه انتقاد الضباط على تقصيرهم في شتى الميادين .

كان ذلك قبل اشهر قلائل من مأساة ميونيخ المعروفة . وقد استدعى الجنرال نيديتش ، الذي أصبح في ما بعد كويزلنغ يوغوسلافيا ، مفتش التحصينات العام ليذكّره بأن مهمة المفتش الوحيدة والرئيسية هي التفتيش ، والتفتيش فحسب . الا ان ميخائيلوفيتش لم يبالِ بكلام رئيسه بل هز كتفيه وقال :

ـ ولكن التحصينات لن تغني شيئاً في الحرب المقبلة ، وهي وشيكة الوقوع . . .

فاجاب نيديتش جواب الواثق المقتنع :

ـ ولكنها على اي حال تصد العدو وتجمده وقتاً من الزمن يكفي لانجاز التعبئة العامة اليوغوسلافية .

عندئذ أخرج ميخائيلوفيتش من جيبه تقريراً في أربع صفحات مفاده ان التحصينات اليوغوسلافية لن تستطيع الصمود اكثر من ثمانٍ واربعين دقيقة في وجه قوات التدمير الالمانية البرية والجوية اذا ما عنّ لألمانيا ايقاد نار الحرب ، وان الجيش الالماني سيسحق يوغوسلافيا في مدة لا تتجاوز خمسة عشر يوماً لأن نسبة افراد الجيش اليوغوسلافي الى افراد الجيش الالماني هي واحد الى ستة ، كما ان نسبة الدبابات هي واحدة الى ثمانٍ واربعين . . . واقترح ميخائيلوفيتش في تقريره ان تعمد القيادة ، الى تلافي الهزيمة المنكرة في حال نشوب الحرب وغزو المانيا يوغوسلافيا ، الى بث قواتها في المناطق الجبلية الوعرة التي يستحيل على الدبابات المعادية الوصول اليها او سلوكها .

وهكذا تبدأ هناك حرب عصابات واسعة النطاق تشل حركة الجيوش الالمانية وتنزل بها خسائر فادحة . وختم مفتش التحصينات العامة تقريره بخطة حربية مفصلة بصدد حرب العصابات هذه ، فيما لو قررتها القيادة العليا للجيش اليوغوسلافي .

سوى ان نيديتش لم يبالِ بما سمع ، وكأن ما وقف عليه لا يتعدى كونه خطة لغزو القمر . فلم يكن من ميخائيلوفيتش إلا ان ودعه وانصرف الى مكتبه حيث اخذ نسخاً عن تقريره وبعث بها الى الوصي على العرش ووزرائه وكبار اعضاء هيئة اركان حرب الجيش . فكان جزاؤه السجن ثلاثين يوماً كاملاً لاستهانته بأبسط المبادئ العسكرية

التي توجب على المرؤوس الا يتطاول على رؤسائه ، والإبعاد ردحاً من الزمن الى احدى قرى الهرسك النائية بحجة انه متعب وفي حاجة الى بعض الراحة العقلية والاستجمام . . .

أمتثل ميخائيلوفيتش للأوامر العليا ، ولكن ما هي الا ثلاثة اشهر حتى اندلعت نيران الحرب . وخرّت بولونيا صريعة الجيش الالماني ، ولحقت بها فرنسا دون ان يزعج استراتيجيو بلغراد انفسهم بتبديل خططهم الحربية الموضوعة التي تبيَّن خطلها .

وفي ٦ نيسان ١٩٤١ هاجم الجيش الالماني يوغوسلافيا وكانت القوات الصربية معتصمة في حصونها على استعداد للطوارئ . غير ان طائرات الانقضاض الالمانية (الشتوكا) والدبابات لم تبالِ مطلقاً بالحصون اليوغوسلافية بل دكتها من اساسها . ولم تدم هذه الحملة الا اثني عشر يوماً ـ اي انها استغرقت مدة أقصر من المدة التي حدّدها ميخائيلوفيتش . وقد أسر الالمان ٣٠٠ الف جندي يوغوسلافي واقتادوهم الى المعتقلات الالمانية في الرايش الثالث ، كما حكموا سلوفينيا ، ونصّبوا أنتي بافليتش على رأس حكومة مستقلة في كرواتيا تمتد سلطتها في بلاد البوسنه والهرسك . وليس هذا فحسب ، بل ان ايطاليا ضمت اليها الجزر اليوغوسلافية واحتلت الساحل الدلماسي .

ووُضعت منطقة الجبل الاسود تحت الانتداب المحوري . أما بلغاريا فقد استولت على صربيا الجنوبية ، في حين وضعت المجر يدها على سلافونيا ، واحتلت المانيا سائر الاطراف ، حتى انه لم يبقَ من يوغوسلافيا سوى رمز تجسّد في الملك الفتى المنفي الذي يعيش في انكلترا والذي لم يكن امامه سوى القيام برحلة الى القدس ليجثو أمام ضريح السيد المسيح ويتضرع اليه ان يجترح اعجوبة .

لم يمضِ شهران على ذلك حتى تمت الاعجوبة بانبعاث الجيش الصربي وعلى رأسه دراجا ميخائيلوفيتش . وسرعان ما اندلعت نيران الحرب من جديد من اقصى الجبل الاسود حتى اقصى سلوفينيا ، واخذ الالمان يتراجعون امام ضغط المقاومين اليوغوسلافيين .

كان ميخائيلوفيتش في مسطار من اعمال الهرسك لما بلغه في ١٨ نيسان نبأ استسلام القوات اليوغوسلافية للالمان .

وما هي الا ايام قليلة (٢٢ نيسان) حتى جمع حوله ثلاثمائة متطوع بين جندي مسرّح ومدني ، اقسموا جميعاً على اطلاق لحاهم وشعرهم الى اليوم الذي يعود فيه الملك الشاب الى عاصمته بلغراد . فلما بزغ فجر اليوم الثالث والعشرين من الشهر نفسه ، شن ميخائيلوفيتش ورجاله معركتهم الأولى . وكان هدفهم التصدي لقافلة برية المانية تنقل اسلحة حربية القاها الاسرى اليوغوسلافيون . ويبلغ عدد الالمان في هذه القافلة ١٢٠٠ رجل مسلحين بالرشاشات والمدافع الخفيفة والضخمة . وكان عليهم المرور في منطقة جبلية تقوم بين سلسلتين من المرتفعات كان ميخائيلوفيتش ورجاله يعتصمون فيهما ليتسنى لهم صبّ نيرانهم على الاعداء . ونشبت بينهم معركة دامت ساعتين استسلم على أثرها من بقي من الالمان في قيد الحياة ، واستولى اليوغوسلافيون على ٣٠ الف بندقية وعلى صندوق حديدي كبير يحتوى على جميع اموال القافلة .

جنّ جنون القيادة الالمانية العليا لدى سماعها نبأ هذه الكارثة ، فاوفدت فوراً فرقة من القناصة الالمانية الجبلية لتطهير تلك المنطقة من اليوغوسلافيين الثوّار . ولكنها لم تكد تصل الى المكان المذكور حتى كان ميخائيلوفيتش ورجاله قد تواروا عن الانظار بعد ان انتشروا جماعات جماعات لا تزيد الواحدة منها على عشرة رجال ، لكل منها حريتها في العمل ، ولكنها جميعاً تعمل تحت إمرة ميخائيلوفيتش ، القائد الاعلى .

اعتصم ميخائيلوفيتش في البوسنه ، ليس لأنها مسقط رأسه بل لأنها افضل مكان لحرب العصابات التي يريد شنّها لما فيها من جبال مسنّنة الذرى ، واودية سحيقة متعرّجة ، وكهوف واسعة ، وغابات كثيفة الاشجار . وقد اتخذ له مقرّاً في قمة احد جبال سلسلة رافناغورا . والمقرّ كناية عن كهف مظلم تؤدي اليه طريق وعرة سرية ، وكان يدعوه برشتسغادن تمثلاً بمعتصم الفوهرر . والواقع ان مقرّ ميخائيلوفيتش هذا اصبح قصراً وترسانة وثكنة عسكرية في آنٍ معاً ، كما كان وكر النسر الالماني ، وقد فرشه برياش ثمين مطعّم بالعاج غنمه من الالمان .

حظر ميخائيلوفيتش على رجاله استخدام طريق بلغراد ـ سراييفو الشريان الذي يخترق يوغوسلافيا من الشرق الى الغرب وتقوم عليه حركة المواصلات فيها ، وهو طرفة هندسية من طرف ما قبل الحرب ، اذ يبلغ طوله ٧٢٠ كيلومتراً ومشقوق في سفوح الجبال ويتخلله بضعة جسور وأنفاق ، فاذا بالانصار يخرّبون هذا الطريق ناسفين جسوره وأنفاقه وجاعلين سلوكه متعذراً على الالمان ما لم يضحِّ هؤلاء بإثني عشر الف رجل لاصلاحه . وكيف يتسنى لهم العمل ونيران الانصار اليوغوسلافيين تنصبّ عليهم من كل فجّ عميق ليل نهار؟

كان ميخائيلوفيتش ومعاونوه ، بعد ان تمّ لهم شلّ حركة اعدائهم ، يتنكرون بزي الفلاحين الجبليين ، يجوبون البلاد من اقصاها الى اقصاها ، يجندون السكان وينظمونهم وينفخون فيهم روح المقاومة .

وما كاد شهر كانون الاول يحل حتى كان هؤلاء قد جندوا مائة الف رجل جمعوهم من ربع الارض اليوغوسلافية تقريباً .

خشيت القيادة الالمانية ان تتفاقم الحالة في يوغوسلافيا فوضع الجنرال فون سايدلتز مكافأة قدرها مائتا الف دينار يوغوسلافي لمن يأتيه برأس ميخائيلوفيتش ويأسر زوجه وولديه . فلم يكن من ميخائيلوفيتش الا ان ارسل الى القائد الألماني نسخة من المرسوم الملكي بتعيينه وزيراً للحربية .

في ايار ١٩٤٢ قرر هتلر ان يضرب الانصار اليوغوسلافيين الضربة القاضية ، فأمر بأن تطوق ٣٥ فرقة محورية بينها ١٧ فرقة ايطالية و ٥ كرواتية و ٧ بلغارية و٦ مجرية منطقتي الهرسك والجبل الاسود ، وقد فاته ان الرجال اعجز من ان يأتوا بشيء مذكور مهما بلغ تسلّحهم وتجهيزهم في تلك المناطق الوعرة . وانتهت هذه الحملة المحورية بالفشل الذي كان يتوقعه لها الجميع .

وذات صباح من تموز شهد مقرّ رافناغورا مشهداً فريداً في نوعه في الحرب . فقد أقلّت سيارة من طراز مرسيدس ترفرف على مقدمها راية كبيرة بيضاء اربعة من كبار القادة الالمان جاء بهم رجال ميخائيلوفيتش بعد ان عصبوا عيونهم ليفاوضوا زعيم الانصار . وقد تقدم احدهم ويدعى الجنرال بادير وطلب الى ميخائيلوفيتش باسم

الجنرال فون سايدلتز توقيع الهدنة بينهم . فوضع ميخائيلوفيتش شروطاً قاسية رغبة منه في عدم الوصول الى اتفاق مع الالمان واستمرار المقاومة حتى النصر النهائي .

بلغت هذه الحادثة مختلف اطراف المعمورة ، وكان موريس شومان ، لسان حال فرنسا الحرة ، يذيع من محطة الاذاعة البريطانية هذا الخبر كل ليلة على عدة اسابيع . وفي لندن ، في شوارعها وفي واجهات مخازنها احتلت صورة ميخائيلوفيتش ذي اللحية الكثة مكانها الى جانب صور القادة العسكريين الحلفاء وزعماء الأمم التي تحارب المانيا وعلى رأسهم تشرتشل وروزفلت . وفي نيويورك اكتسب الوزير اليوغوسلافي فوتيتش بين ليلة وضحاها شعبية لم يكن ليحلم بها . فقد استقلّ مع حاكم نيويورك لاغوارديا سيارة رسمية بناء على طلب الحاكم نفسه وسلكا بها شارع برودواي الطويل بين هتافات الجماهير التي احتشدت لتحية ممثل الشعب السلافي الباسل الثائر . وكم كان سرور ميخائيلوفيتش عظيماً عندما اخذ الحلفاء يوفدون اليه البعثات العسكرية السرية تمهيداً لارسال الذخائر والمواد الغذائية والملابس والاموال اليه .

في اواخر العام ١٩٤٣ استطاع احد معاونيه ، بيليتيتش ، احتلال بلدتي بالنكا ويابوكوفاك اللتين تعجان بالعتاد الحربي النازي ، كما استطاع قائد آخر يدعى كيغيروفيتش احتلال وادي مورافيا الشرقي والجنوبي ، وكالينوفيتش وفارديست وغاجايكا في صربيا الغربية ، وروغاتيكا واوستبزاكا وبراكا وماسيك في البوسنه .

واخذ الالمان يتراجعون امام سراييفو . وكان ميخائيلوفيتش ، القائد الاعلى لجيوش الملك بطرس المنفي ، قاب قوسين او ادنى من الانتصار العظيم ، ولكنه اخطأه . فقد وجد نفسه بين نارين بعد قيام عدو جديد له هو الماريشال تيتو .

من هو يوسف بروز ، المدعو تيتو؟

يدّعي سكان تريستا ، دون ان يدعموا ادعاءَهم هذا بأية براهين ، ان اسم تيتو الحقيقي هو شيبا وانه من دمهم . ولكن المعروف ان رئيس الدولة اليوغوسلافية اليوم هو المواطن الوحيد الذي لا تظهر شهادة ولادته في اي سجل رسمي .

يكتنف الغموض حياة تيتو الى اليوم الذي تراه مقيماً في موسكو ، يعمل واعظاً في مدرسة الدعاة الاجانب . ولم تكد نيران الحرب الاهلية الاسبانية تندلع حتى

انخرط في الفرق الدولية التي اشتركت فيها . فلما نزلت الكارثة بيوغوسلافيا في نيسان من العام ١٩٤١ ظهر تيتو على ضفاف نهر الساف حيث نظّم حركة مقاومة على غرار حركة الجنرال ميخائيلوفيتش مستوحياً خططه ومبادئه . . . وكان من الشيوعيين المتحمسين ، فوضع نصب عينيه مشكلة الحكم في البلاد بعد التحرر ، وطالب بتنازل الملك عن العرش ، وادّعى ان الانصار التشتنيك (رجال ميخائيلوفيتش) هم اعداؤه كالألمان ، على حدّ سواء . وهكذا ذرّت الحرب الاهلية قرنها في يوغوسلافيا التي لم تكن بحاجة لسوى حرب قومية ترفع عنها نير الاحتلال الالماني الثقيل .

احتجت موسكو على استخدام ميخائيلوفيتش الاسلحة الانكليزية لمحاربة الالمان وغريمه تيتو الشيوعي . فلم يكن من تشرتشل إلا ان اعلن في مجلس العموم ذات يوم من شباط ١٩٤٤ ان النجدات الانكليزية على اختلافها التي كانت ترسل الى ميخائيلوفيتش ستوقف على تيتو الذي يتمتع بحماية الكرملين وعطفه . ولم يرَ ميخائيلوفيتش بداً من المحاربة بما لديه على هاتين الجبهتين . وفي ربيع العام ١٩٤٤ خفّت وطأة المعارك بينه وبين الالمان فاغتنمها فرصة لشنّ هجوم واسع النطاق على جيش تيتو بعد ان لمّ شتات قواته . وقد كان ، وشتّت جمع فرقتين من فرق تيتو ، وانزل به هزيمة نكراء . ولم يحلّ الصيف حتى تمّ له تطويق هذه القوات المعادية وبات على قيد خطوة من النصر .

ولكن الدهر الذي عانده طويلاً قلب له في اللحظة الاخيرة ظهر المجنّ فقد استطاع الروس المتقدمون في حوض الدانوب بقيادة تولبوخين تحرير المارشال تيتو ، فتربع في دست الحكم في بلغراد ، وطبع النجمة الحمراء على الراية الوطنية اليوغوسلافية ، واعلن ان ميخائيلوفيتش ورجاله التشتنيك هم خونة وخارجون على القانون . . . وقد قضي على بعض قوات ميخائيلوفيتش حتى اصبح عددها ٧٠ الف رجل فقط . واسرت شرطة تيتو السرية المعروفة «اوزنا» ميخائيلوفيتش نفسه في البوسنه ونقلته الى بلغراد بعد ان اعدمت ساعده الايمن كيغيروفيتش رمياً بالرصاص .وأُلقي ميخائيلوفيتش في سجن ليبودوفا ، ولم يستيقظ من «سباته» العميق ودهشته العظيمة الا بعد عشرة ايام من ذلك ليعرف ان محكمة الشعب في العاصمة

اليوغوسلافية تتهمه بالخيانة العظمى ، في تقرير خطير يتألف من ٧٠٠ صفحة و ٨٠٠ وثيقة تثبت خيانته القضية القومية بإهماله محاربة العدو وانصرافه الى منازلة تيتو وقواته .

لنرجع قليلاً الى الوراء . . . فقد تكشفت للاميركيين في بادئ الامر ، ومن ثم للبريطانيين ، لعبة تيتو والسياسة السوفياتية في البلقان . ففي آب ١٩٤٤ وصل الكولونيل الاميركي ماك دوويل الى مقر قيادة ميخائيلوفيتش في الوقت الذي كانت فيه دعاية تيتو تصمه بالخيانة العظمى . وشهد هذا الكولونيل نفسه في ايلول من العام نفسه معارك كان فيها التشتنيك (انصار ميخائيلوفيتش) هدف هجمات قوات تيتو في حين كانوا يبذلون قصاراهم لمحاربة القوات الالمانية ، مما يدل على ان ميخائيلوفيتش كان يحارب على جبهتين في آن معاً في اكثر الاحيان .

وفي تشرين الثاني ١٩٤٤ أرسل ميخائيلوفيتش نداء رسمياً الى الجنرال ولسون ، القائد الاعلى الحليف في الشرق الاوسط ، يعلنه رغبته في وضع نفسه وقواته تحت تصرّفه لان السوفيات يرفضون التعاون معه ولا يقبلون الا بمساعدة تيتو لهم في مهمتهم التحريرية . ولكن هذا النداء لم يجرّ اية ذيول . . .

وهناك كثيرون من الضباط البريطانيين وقفوا على تفاصيل الخلاف بين تيتو وميخائيلوفيتش . فقد جاء في تقرير للكابتن فايتو ما يلي : «أنا ضابط بريطاني ، حاربت في يوغوسلافيا ، ويمكنني التأكيد ، دون تردد ، أن ميخائيلوفيتش بطل قومي وليس خائناً كما يتهمه خصومه . فإذا كان هذا القائد خائناً فإن الشعب الصربي نفسه يكون خائناً ، ويفقد صفته القومية في ظل نظام تيتو !» وقد سمح القائد الاميركي رئيس البعثة العسكرية في يوغوسلافيا لضباطه بنشر تقاريرهم عن ميخائيلوفيتش . فكتب الكولونيل البرت سايتز في ٣ تشرين الاول ١٩٤٥ يقول : «لم يحيى ميخائيلوفيتش الا لوطنه ، ولم اجد ، رغم دقة بحثي وتنقيبي ، اية دلائل تلصق به تهمة التعاون مع العدو . وقد فهم العالم خطأ ، بتأثير الدعايات المغرضة ، قضية هذا البطل اليوغوسلافي المظلوم .» فلما القي القبض على ميخائيلوفيتش تطوّع الكثيرون من ضباط البعثة الاميركية في يوغوسلافيا للدفاع عنه امام محكمة الشعب .

غير ان دلك لم يُجدِ نفعاً ، فقد أُعدم رمياً بالرصاص في بلغراد في ١٧ تموز ١٩٤٦ ! . . .

اوطان قومية لليهود مقترحة بديلة عن فلسطين

(١)

بيروبدجان : وطن قومي لليهود في الاتحاد السوفياتي !

ترجمت هذا المقال سنة ١٩٤٦ ، الذي نشرته آنذاك جريدة «نيويورك تايمز» الاميركية ، وأثبتّه في مجلة «قرأت لك في الصحافة العالميّة» ، الصادرة عن «دار المكشوف» في ذلك الوقت . . .

«تعنى بيروبدجان ، المنطقة اليهودية في الاتحاد السوفياتي ، بتربية ٣٥٠٠ يتيم يهودي من ايتام الحرب اللاجئين اليها . والاستعدادات جارية على قدم وساق لايواء ٣٠ الف طفل آخرين وتربيتهم ، وتعليمهم ، وتدبير مستقبل لهم .

في العام ١٩٢٨ ، ولثماني عشرة سنة خلت ، جعلت الحكومة السوفياتية من منطقة بيروبدجان الواقعة في اقصى الشرق السوفياتي وطناً قومياً لليهود الذين يرغبون في بناء دولة يهودية داخلة ضمن نطاق اتحاد جمهوريات روسيا الاشتراكية السوفياتية . وما هي الا ستة اعوام حتى اصبحت هذه المنطقة صالحة للسكن ، فأخذت الجموع اليهودية تتدفق اليها من مختلف انحاء المعمورة لتستوطنها . وفي ٧ ايار ١٩٣٤ ، اعتبر الدستور السوفياتي بيروبدجان منطقة مستقلة استقلالاً ذاتياً . وهي الآن في طريقها الى درجة جمهورية يهودية مستقلة ذات سيادة .

لم تعتبر بيروبدجان يوماً منافسة لفلسطين او حلاً للمشكلة اليهودية العالمية . غير ان ظروف الحرب وما نزل بأبناء اسرائيل من المحن والاهوال جعلتها تمدّ يد المساعدة الى هؤلاء المشردين الذين اضطهدتهم البلدان التي كانوا يعيشون فيها . ويتمتع يهود الاتحاد السوفياتي بالحقوق الفردية كافة دون اي تمييز عنصري او ديني او قومي . وقد انشئت بيروبدجان لمنح اليهود نوعاً من المساواة لم يعرفوه من قبل .

تقع بيروبدجان على الدرجة نفسها من خط العرض التي تقع عليها كل من دولوف ، من اعمال ولاية مينيسوتا الاميركية ، وبودابست في المجر . أما عاصمتها فهي مدينة بيروبدجان التي تبعد مسافة ثمانية ايام ونصف اليوم من موسكو في القطار السريع عبر سيبيريا ، و١٨ ساعة من ميناء فلاديفوستوك على المحيط الهادئ . ويمر خط القطار الحديدي المذكور عبر بيروبدجان مسافة تزيد على ٢٠٠ ميل ، ويجري نهر آمور على طول حدودها الجنوبية مسافة ٤٠٠ ميل . وتشحن الولايات المتحدة بضائعها الى هذه المنطقة من موانئها الواقعة على الساحل الغربي كبورتلاند ، واوريغون ، وسياتل ، وواشنطن . . . الخ .

تبلغ مساحة بيروبدجان ١٥ الف ميل مربع اي انها ضعفا مساحة ولاية نيو دجيرزي . اما عدد سكانها فقد كان ١٠٩ آلاف نسمة في العام ١٩٣٩ ، ويقدّر اليوم سنة (١٩٤٦) بـ ١٧٥ الفاً ، بينهم ١١٥ الف يهودي . ويجمع الخبراء على انها تستطيع ايواء اربعة ملايين نسمة .

ومناخ بيروبدجان معتدل اعتداله في ولايتي ماين ومينيسوتا . الا انها تختلف عنها بشمسها الحادة في اكثر ايام السنة . اما محاصيلها فهي القمح ، والذرة ، والشوفان ، والبطاطا ، واللوبياء ، والملفوف . وهي مشهورة بعسلها ، وتنتج منه الكميات الوافرة ، كما أنها غنية بالموارد الطبيعية المتنوعة : الفحم الحجري ، الحديد ، الذهب ، الغرافيت ، الرخام ، المانغنيز ، التوتياء . وقد شرعت السلطات المحلية في انشاء مدينة جديدة تتسع لثلاثين الف نسمة حول مناجم التوتياء التي اكتشفت اخيراً . وفيها غابات كثيفة تعيش فيها حيوانات متنوعة ذات الفرو الممتاز . وتستعمل اشجارها لصناعة الرياش والورق . وفيها من البحيرات والانهر ما يجعل الصيد صناعة اهلية عظيمة المورد .»

* * *

(٢)

سورينام : وطن قومي آخر لليهود في اميركا الجنوبية

نشرت «مجلة السيدات» الاميركية ـ وهي مجلة تطبع ثمانية ملايين نسخة شهرياً وتوزع في مختلف انحاء المعمورة ـ في عددها الصادر في ايلول ١٩٤٦ ، مقالاً

عالجت فيه مشكلة يهود اوروبا المشردين وفكرة انشاء وطن قومي لهم خارج فلسطين ، جاء فيه :

«يقول يهودي بولوني شاب من مدينة لودز : «إننا نريد ان نحيا كسائر البشر . . .» ويقول يهودي آخر : «إننا نريد ان تتاح لنا الفرصة لنأتي عملاً مثمراً في ارض جديدة وتحت سموات جديدة . . .» ويردد يهودي ثالث : «إن جل ما نطلبه هو ركن صغير من اركان الكرة الارضية الفسيحة . . .»

وبين المشردين الاوروبيين الذين ذهبت الحرب العالمية الثانية بمساكنهم مليون و٢٥٠ الف يهودي ، منهم ٢٥٠ الفاً يعيشون اليوم في معسكرات المشردين المنتشرة في المانيا والنمسا وايطاليا .

وتتدفق آلاف الالتماسات الشبيهة بما نُشر اعلاه من المشردين اليهود على مقر «عصبة الارض الحرة» في نيويورك ، القائم في شارع برودواي ، رقم ١٨١٩ . فيهود اوروبا جميعاً لا يمكنهم الذهاب الى فلسطين حتى لو كان ذلك ممكناً . . . إنهم يريدون الخروج من المعسكرات التي يقيمون فيها حالياً والابتعاد عن اوروبا جهد المستطاع .

وتمكنت «عصبة الارض الحرة» بفضل جهود الدكتور أ . ن . شتاينبرغ ، من العثور على بقعة من الارض تدعى «سورينام» تتسع لايواء ٣٠ الفاً من يهود اوروبا المشردين . وتبلغ مساحتها ٥٥ الف ميل مربع ، وهي من اعمال غويانا الهولندية ، وتقع في منتصف الطريق بين قناة بناما والرأس الشرقي الاقصى لأميركا الجنوبية . وقد رحّبت الحكومة الهولندية بمجيء المشردين اليهود الى هذه المنطقة القليلة السكان ، ذات المناخ الشبيه بمناخ ميامي في الولايات المتحدة الاميركية .

وسورينام هذه التي تنوي «عصبة الارض الحرة» جعلها وطناً قومياً لليهود كانت لثلاثمائة سنة خلت ملاذاً للاجئين اليهود . فحوالى العام ١٦٦٠ لجأ الى العاصمة باراماريبو مئات العائلات اليهودية التي طُردت من اسبانيا والبرتغال والبرازيل وكايين ، ويعيش اليوم احفاد هذه العائلات في سورينام نفسها .

وهناك عدد كبير من المشردين يرغبون في الذهاب الى سورينام وينتظرون ساعة ذهابهم اليها بشوق زائد ، ذلك بأن حلم الهجرة العامة الى فلسطين قد اصبح في خبر

كان . وقد تشكلت لجنة خاصة قامت بزيارة سورينام لدرس الامكانات التي تساعد على سكنى اليهود في هذه البقعة ، ووضعت تقريراً حبّذت فيه فكرة انشاء وطن يهودي هناك لأن في الوسع تحويل سورينام الى جنة استوائية مثمرة بتنفيذ بعض المشاريع الصحية تنفيذاً صحيحاً . . .»

الى هنا ينتهي مقال الصحيفة الاميركية الذي ترجمته ونشرته آنذاك في مجلة «المكشوف» . وهذه الآن لمحة عن سورينام للتعريف بها . . .

تقع سورينام على الساحل الشمالي لأميركا الجنوبية ، وتحدها كل من غويانا غرباً ، والبرازيل جنوباً ، وغويانا الفرنسية شرقاً . وعاصمتها باراماريبو .

حصلت هولندا على سورينام من بريطانيا العظمى سنة ١٦٦٧ ، مقابل هولندا الجديدة (نيويورك) . وفي سنة ١٩٥٤ ، رفع الدستور هذه المستعمرة الى صعيد المساواة مع كل من هولندا وجزر الأنتيل الهولندية ، وفي السبعينات ضغطت الحكومة من اجل استقلال سورينام الذي تحقق في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٥و على الرغم من الاعتراضات التي ابداها الهنود الحمر الشرقيون وبعض الزنوج من العبيد الفارّين المعروفين بالبُش . وكان حوالى ٤٠ بالمائة من السكان (معظمهم من الهنود الشرقيين) قد هاجروا الى هولندا في الشهور التي سبقت الاستقلال . وقد وعدت هولندا بتقديم مبلغ مليار ونصف المليار من الدولارات كمعونة للعقد الأول من الاستقلال .

وقبل الاستقلال كان السكان يتألفون من الجماعات العرقية التالية : ٣٥ بالمائة من الكريوليين (مواليد جزر الهند الغربية او اميركا اللاتينية) وهم ، عرقياً ، خليط من العبيد المحرّرين ، و٣٠ بالمائة من الجاويين ، و١٥ بالمائة من الزنوج البُش (المتحدرون من عبيد فارّين) ، و١٠ بالمائة من الاوروبيين ، والصينيين ، والهنود الحمر الاميركيين . . .

اما اللغات السائدة في سورينام فهي الهولندية (الرسمية) ، وساران تونغو (كريولية) اللغة العامة ، والانكليزية ، وسواها . وأما الديانات فهي الهندوسية ، والمسيحية ، والاسلام . وتبلغ مساحة سورينام ٦٣ ألفاً و ٢٥١ ميلاً مربعاً ، وهي اكبر قليلاً من ولاية جورجيا الاميركية .

١٥ قضية تاريخية غامضة

١ ـ قضية عقد الملكة

في ٣١ أيار ١٧٨٦ ، انتهت المحاكمة المثيرة أمام البرلمان الفرنسي في باريس بتبرئة الكاردينال دو روهان في قضية عقد الألماس الشهيرة الغامضة التي كان بلاط الملك لويس السادس عشر مسرحاً لها ، وعُرفت بقضية عقد الملكة . وقد أصدر المؤرخ والكاتب الانكليزي الأشهر توماس كارلايل ، كتاباً بعنوان «العقد الألماس» يدور موضوعه حول هذه القضية التي لم تنجلِ حتى الآن غوامضها تماماً . فما هي قصة هذا العقد ، وما هي تفاصيلها باختصار؟

قضى الصائغان الباريسيان بومر وباسانج سنوات عدة يجمعان الحجارة الكريمة لصنع عقد ثمين كانا يأملان في بيعه إلى مدام دو باري ، محظية الملك لويس الخامس عشر ، وبعد وفاتها ، إلى ماري ـ أنطوانيت الملكة آنذاك ، زوجة الملك لويس السادس عشر . وقد وقعا في مأزق حرج لاخفاقهما في هذا المشروع .

وبعد ان صدر العفو عن الكاردينال لويس دو روهان ، استدعي في آذار ١٧٧٤ من فيينا حيث كان أُوفد لاستطلاع ما يجري هناك بالنسبة إلى اقتسام بولونيا ، وتاق إلى مصالحة الملكة ماري ـ انطوانيت التي سبق أن روّج عنها الفضائح انتقاماً من والدتها الامبراطورة ماري تيريز . وتعرّف في باريس إلى امرأة مغامرة تدعى جان دو سان ريمي دو فالوى ، كانت تزوجت شخصاً يزعم انه الكونت دو لاموت . وأصبحت صديقته الحميمة ، وقد أقنعته بأن الملكة استقبلتها ، وهي تنعم برضاها وعطفها .

وقامت بالنيابة عنه بمراسلة مزعومة مع الملكة ، وكانت في سبيل ذلك تريه ردوداً

على تلك الرسائل باسم الملكة . وراحت لهجة الرسائل ونبرتها تصبح أكثر حرارة مع مرور الأيام ، فاقتنع الكاردينال ان الملكة تهيم بحبه حقاً ، وتعلّق بها أكثر فأكثر . وقد تم لقاء سري في آب ١٧٨٤ في ايكة في حديقة في قصر فرساي ، بين دو روهان وسيدة اعتقد الكاردينال انها الملكة نفسها . وقدّم إليها وردة ، ووعدته بأنها ستنسى كل شيء عن الماضي .

واعتقد الصائغان أيضاً ان ثمة علاقات بين الكونتيس دو لاموت والملكة ماري ـ انطوانيت ، فعزما على استخدامها لبيع العقد الألماس ، فوافقت ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى ابتاع دو روهان العقد لقاء مبلغ مليون و٦٠٠ ألف ليرة فرنسية ، يُدفع على أقساط . وقد ذكر انه مخوَّل من الملكة بالشراء ، ووضع أمام الصائغين شروط الصفقة وعليها موافقة بخط ماري ـ انطوانيت . وتمَّ تسليمه العقد ، فحمله إلى منزل الكونتيس حيث تسلّمه رجل اعتقد الكاردينال انه عرف فيه أحد خدم الملكة وقد جاء لتسلُّمه . أما بومر وباسانج ، فقد عمدا ، قبل إجراء صفقة البيع ، إلى ضمان العملية بإرسال علم إلى الملكة حول المفاوضات الجارية باسمها . وسمحت ماري ـ انطوانيت بإتمام الصفقة ، وبعد تسلُّمها رسالة شكر من الصائغين احرقتها .

ولما حان وقت تسديد الثمن ، قدَّمت الكونتيس دو لاموت كمبيالات الكاردينال ولكنها لم تكن كافية ، فرفع بومر الأمر إلى الملكة التي أعلمته أنها لم تتسلم أي عقد ، فضلاً عن أنها لم تطلب قط شراء عقد مثله . وأعقب ذلك حادث مفاجئ ، ففي ١٥ آب ١٧٨٥ الموافق عيد انتقال العذراء ، وبينما كان رجال الحاشية ينتظرون الملك والملكة للانتقال جميعاً إلى الكنيسة ، ألقي القبض على الكاردينال دو روهان الذي كان يستعد لترؤس الصلاة ، وزُج به في سجن قلعة الباستيل . وألقى رجال الشرطة كذلك القبض على الكونتيس دو لاموت ، وبعض شركائها الثانويين . وأجريت محاكمة مثيرة أمام البرلمان في باريس انتهت في ٣١ أيار ١٧٨٦ بتبرئة الكاردينال دو روهان . أما الكونتيس فحُكم عليها بالجلد ووسمت بسمة العار ، وسجنت في سجن لاساليبتريير . وأما زوجها الذي يُزعم انه فرّ إلى لندن حاملاً العقد ، فقد حُكم عليه غيابياً بالسجن مدى الحياة . وقد عززت ظروف مختلفة الاعتقاد العام بأن ماري ـ

انطوانيت في حقدها على الكاردينال دو روهان قد أوقعته عن قصد في الفخ ـ ومنها خيبة أملها في تبرئة ساحته ، وقضية إعفائه من منصبه كوكيل للصدقات ، ونفيه إلى دير الرهبان في شيز ـ ديو وأخيراً هرب الكونتيس دو لاموت من السجن بمساعدة البلاط حسب اقتناع الناس .وقد لجأت إلى الخارج حيث وضعت مذكراتها وفيها تتهم الملكة ماري ـ انطوانيت .

* * *

٢- قضية السموم

كاترين مونفوازان – المعروفة باسم لافوازان ، مشعوذة فرنسية اسمها الاصلي كاترين دوشاي ، كانت احدى الشخصيات الرئيسية في «قضية السموم» التاريخية الشهيرة في فرنسا ـ هذه القضية التي لطّخت بالعار والخزي عهد الملك لويس الرابع عشر .

كان زوجها مونفوازان صائغاً ، وقد مارست مهنة التنجيم وقراءة ملامح الوجه . وأضافت الى ذلك ، تدريجياً ، العرافة التي عاونها فيها كاهن مرتدّ يدعى إتيين غيبور الذي كان دوره الاحتفال بقداس الموتى ، ويعرف أيضاً بالقداس الاسود ، لأن المحتفل به يرتدي ملابس سوداء . ومارست لافوازان أيضاً الطب ، وبخاصة القبالة ، وكانت تقوم بعمليات الإجهاض ، وتوفّر مساحيق الحب والسموم لطالبيها . وكان شريكها الرئيسي احد عشاقها العرّاف لوساج ، واسمه الأصلي آدم كوريه .

وكانت سيدات المجتمع الراقي في باريس يتدفقن على لافوازان التي جمعت من أعمالها المتعددة هذه ثروة طائلة . وكانت من المترددات عليها أولمب مانتشيني ، الكونتيس دو سواسون التي كانت تسعى وراء موت عشيقة الملك الشمس لويز دو لافالبير ، ومدام دومونتسبان ، ومدام دو غرامون ، والحسناء هاملتون ، وكثيرات سواهن . . .

وفي نيسان سنة ١٦٧٩ ، عقدت اللجنة المعيّنة للتحقيق في هذه القضية وملاحقة

المتهمين أولى جلساتها . وقد حُفظت محاضر جلساتها الرسمية ، بما في ذلك المحاضر التي طُمست من السجلات الرسمية ، في المذكرات التي سجّلها احد مقرري الجلسة الرسميين غبريال نيكولا دو لا ريني . وقد جعل فضح نية مدام دو مونتسبان الغادرة لتسميم الملك لويس الرابع عشر ، وجرائم أخرى خطّطتها شخصيات لا يمكن التعرُّض اليها دون إثارة فضيحة تمسّ العرش ، العاهل الفرنسي يُغلق المحكمة الخاصة التي شُكِّلت للنظر في هذه القضية في أول تشرين الاول ١٦٨٠ . غير أنه أُعيد عقدها في ١٩ أيار ١٦٨١ ، وظلت تنظر في القضية حتى ٢١ تموز ١٦٨٢ . وقد نجت من الاحكام كثيرات من المتّهمات والمتهمين بفضل التدخّل والنفوذ الشخصي . فقد نجا حوالى مائة سجين آخرين (وفي جملتهم ، غيبور ولوساج السيّىء السمعة) من حبل المشنقة بفضل طمس الأدلة الذي ألحّ عليه الملك لويس الرابع عشر ووزيره لوفوى . وقد سُجن مدى الحياة بعض الأبرياء ، لأنهم كانوا على علم بالوقائع . أما لا فوازان نفسها ، بطلة هذه القضية الشهيرة فقد أُعدمت في مرحلة مبكرة من الجلسات ، في ٢٠ شباط ١٦٨٠ .

«قضية السموم» هذه التي انتهت جلسات المحكمة الخاصة بها التي تشكلت للنظر فيها ، في ٢١ تموز ١٦٨٢ ، اقترنت بمحظية الملك لويس الرابع عشر المركيزة دو مونتسبان ، التي عرفت بأنها كانت راعية للفنون والآداب .

فقد دخلت فرنسواز ، ابنة غبرييل روششوار ، دوق موغار ـ وهذا اسمها الأصلي - البلاط الملكي كوصيفة للملكة ماري تيريز . وبعد سنتين تزوجت المركيز دو مونتسبان الذي رُزقت منه ولدان . وكانت حسناء وذكية ، فأصبحت خليلة العاهل الفرنسي سنة ١٦٦٧ . أما الابن الأول من الأولاد السبعة الذين انجبتهم من الملك الشمس فقد أبصر النور في آذار سنة ١٦٦٩ ، ووُضع في عهدة السيدة سكارون ، زوجة الشاعر المعروف التي أصبحت في ما بعد مدام دو مانتينون ، وقد أضحت وصيفة ورفيقة لمدام دو مونتسبان الشرعية سنة ١٦٧٣ . ولما شعرت مدام دو مونتسبان ببوادر البرودة في عاطفة الملك نحوها ، لجأت الى السحر والشعوذة . وقد ألقى تردُّد اسم وصيفتها في الشهادة التي أدلت بها أمام المحكمة الخاصة الناظرة في قضية السموم

ظلالاً من الشك حول علاقتها بمدام لا فوازان . غير أن القضية لُفلفت .

وفي سنة ١٦٩١ انسحبت المركيزة دو مونتسبان الى دير سان جوزف بعد أن خُصِّص لها مرتب قدره نصف مليون فرنك ، مع امتيازات وألقاب لأفراد أُسرتها . وكانت صديقة لكل من كورناي ، وراسين ، ولا فونتين ، وراعية كريمة وسخيّة للفنون والآداب . . .

* * *

٣ – قضية «طفل أوروبا العجيب»

وهذه قضية من قضايا التاريخ التي ما يزال الغموض يحيط بها ، وكم في التاريخ من قضايا مثيرة شغلت العالم ، وما تزال تشغله ، ولكن حقيقتها لم تنجلِ تماماً . إنها قضية فتى الماني تكتنف الأسرار أصله ، وحياته التي بدأت في ذلك التاريخ ، وعاش في هذا العالم إحدى وعشرين سنة وحسب . انه كاسبار هاوزر الذي يروي التاريخ انه ظهر ، أول ما ظهر ، في مدينة نورنبرغ الألمانية ، يرتدي ملابس الفلاحين ، فلفت إليه الأنظار بهيئته البائسة وسيمائه المذهلة ، وقد عُثر معه على رسالة كُتبت بيد فلاّح ، وفحواها أن الولد هذا وُضع في رعايته في تشرين الأول ١٨١٢ ، وانه حسب الاتفاق علّمه القراءة والكتابة ، ومبادئ الدين ، ولكنه ابقاه حبيساً ، بعيداً عن الناس . ومع تلك الرسالة أُرفقت رسالة أخرى تفيد انها كُتبت بيد أُمه ، وتذكر أنه ولد في ٣٠ نيسان ١٨١٢ ، وأن اسمه كاسبار ، وان والده الذي كان ضابطاً سابقاً في كتيبة الفرسان السادسة في نورنبرغ ، ميت . وقد أوقف فترةً من الزمن في نورنبرغ كمتشرد ، وعندها تولى داومر رعايته ، وتكفَّل بتعليمه . واهتم ستانهوب بقصته ، فأوفده السنة ١٨٣٢ إلى آنزباخ ، من أعمال بافاريا ، للدراسة ، وقد اصبح كاتباً في مكتب فوارباخ ، رئيس محكمة التمييز . وكادت قصته تُنسى تماماً لو لم يعد الاهتمام يبرز مجدداً عندما توفي نتيجة جرح اصيب به في ١٤ كانون الأول ١٨٣٣ . ولم ينجلِ تماماً سبب ذلك الجرح ، أكان انتحاراً ، أو كما ادّعى أن مجهولاً أنزله به . وقد

استُخدمت قصة كاسبار هاوزر مادةً لروايتين شهيرتين للكاتبين الألمانيين فاسرمان السنة ١٩٠٨ ، وكورت مارتنز الذي سكبها في مسرحية السنة ١٩٠٤ .

تقول نظرية كل من داومر وفوارياخ وسواهما من مؤلفي الكراريس ان هذا الفتى كان ولي عهد دوقية بادن الكبرى والابن الشرعي للغراندوق كارلوس ، حاكم بادن ، وانه اختُطف في مدينة كارلزروهه في تشرين الثاني ١٨١٢ على يد رسل الكونتيس هوشبرغ الزوجة المرغنطية للغراندوق - والمرغنطي يتعلق بزواج غير متكافىء بين شخص من أسرة أوروبية مالكة او نبيلة وشخص من طبقة اجتماعية ادنى مقاماً ، بشرط ان تظل منزلة الفريق الأدنى على حالها ، وان لا يرث الأبناء لقب الفريق الأسمى أو ممتلكاته . وقد عمدت الكونتيس الى اختطاف كاسبار هاوزر لتأمين الإرث لذريتها . غير أن هذه النظرية تمَّ الرد عليها السنة ١٨٧٥ بنشر السجل الرسمي لعمادة الطفل ، وفحص جثة الوارث بعد الوفاة ودفنه . وقد حلل هذه البينة آندرو لانغ في كتابه «أسرار تاريخية» الصادر السنة ١٩٠٠ ، فتوصَّل إلى نتائج في غير مصلحة الصيغة الرومنطيقية للقصة . وتتلخص نظرية لانغ بأن كاسبار هاوزر ربما كان نوعاً من المتجولين اللاإراديين . و ذلك مثل على ظاهرة معروفة من دارسي الشذوذ الجنسي ، ومن أبرز خصائصه مرض التشرد والاصرار على التضليل في ما يتعلق بالهوية ، ولكنه مع ذلك يميل إلى اعتبار كاسبار «دجالاً» . أما «السجلات الصحيحة» التي تؤكد قصة الاختطاف فإن لانغ ينعتها بالسخف والوقاحة .

وتزداد قصة كاسبار هاوزر هذا الذي عُرف بلقب «طفل أوروبا العجيب» إثارة اذا عرفنا انه كان في وسعه رؤية النجوم في وضح النهار . والواقع ان النجوم لا تختفي من كبد السماء ، وقد كانت عيناه من القوة الخارقة بحيث كان يراها في ضوء الشمس ، وتتعذر رؤيتها على سواه .

* * *

٤ – قضية حرق العرب مكتبة الاسكندرية

في ١٨ آذار ١٩٢٣ ، تلا المستشرق الفرنسي كازانوفا رسالة أمام أكاديمية الآثار والآداب في باريس دحض فيها ما رُوِّج حول حرق العرب مكتبةَ الاسكندرية الشهيرة بُعيد فتح مصر على يد القائد عمرو بن العاص ، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب . وكان قد ثار جدل طويل حول هذه الواقعة ؛ وأجاب الدكتور يعقوب صرّوف في عدد تشرين الأول من «المقتطف» السنة ١٨٩٣ ، عن سؤال في هذا الصدد : «إن ما قيل من أن الإمام عمر أمر بإتلاف هذه المكتبة فرواية مطعون فيها ، وعندنا أنها كاذبة .» وفي السنة ١٩٢٨ ، وفي عدد حزيران من مجلة «القِدَم» يقول مؤرخ المكتبات الشهير بوشنل : «هذا الحكم الذي حكم به الدكتور صرّوف كان يجب أن يدرَك عَقلاً ، لأن ديناً يجري على لسان رسوله الكريم «أطلبوا العلم ولو بالصين» لا يمكن أن يستبيح إتلاف ثمرات الحكمة والعلم المجتمعة في مخلّفات العقل البشري .

فما هي هذه الرواية الكاذبة؟

قيل ان يوحنا النحوي جاء إلى عَمْرو بن العاص بعد دخوله الاسكندرية وتوسل إليه أن يعطيه نصيباً من الغنائم . فسأله عمرو أي نصيب يطلب ، فأجاب يوحنا : كتب الفلسفة في خزانة الملوك – أي المكتبة . فقال عَمْرو انه لا يستطيع أن يفصل في ذلك من دون أن يسأل فيه أمير المؤمنين . فكتب إلى أمير المؤمنين في ذلك فجاءه الرد : «أما الكتب التي تشير إليها فإذا كانت محتوياتها توافق كتاب اللّه فلا حاجة إليها ، وإذا كانت على العكس من ذلك تعارضه فلا فائدة في حفظها وأرغب في أن تُدَمَّر .» فأمر عمرو بن العاص بأن تُوَزَّع الكتب في حمّامات الاسكندرية ، وأن تُحرق . ولم يبقَ أثر منها بعد انقضاء ستة أشهر على ذلك .

ويتفق المؤرخون على أن النار شبَّت في مكتبة الاسكندرية غير مرة قبل القرن الثالث للميلاد ، فكيف يسعُ المؤرخ أن يفهم كيف يُعزى أمرُ حرقها إلى العرب بعد فتح مصر؟ !

لم تكن مكتبة الاسكندرية في تاريخ المكتبات أقدمها ، إنما كانت أشهرها على الإطلاق . فقبلها كان ملوك الشرق أنشأوا المكتبات قبل ذلك بقرون ، كما كان

الاغريق قد أنشأوا أول مكتبة للدولة قبل قرن من إنشاء مكتبة الاسكندرية . ويقال ان أرسطو ، معلم الاسكندر وتلميذ أفلاطون ، كان أول من كوّن مكتبة في اليونان ، وأنها هي التي كانت نواة مكتبة الاسكندرية . وكانت كل كتبه فيها . وقد أكثر البطالسة ، حكام مصر الفرعونية ، من جمع الكتب واقتنائها اقتداءً بالمعلم الأول ، وإكراماً لذكره ، لأنه كان معلم الاسكندر ذي القرنين ، ومثقفه في الحكمة والفلسفة .

وكانت مكتبات ذلك العهد تعتمد كلياً على نسخ مكتبة الاسكندرية ، حتى لقد تجاوزت تلك المكتبة كونها خازنة للكتب ومجالاً لمراجعتها إلى أن أصبحت داراً للنشر . وقد بلغ من اهتمام البطالسة بجمع الكتب انهم كانوا يستعيرون المؤلفات من أصحابها ويعهدون بها إلى النسَّاخ ، فينسخونها لهم ، فيحتفظون هم بالأصل ويردّون النسخ إلى أصحابها .

ويُذكر أن أشهر من كان قيّماً على إدارة مكتبة الاسكندرية كاليماخوس الذي يعتبره المعنيّون بعلم المكتبات أعظم أمناء المكتبات في العصر القديم . فعلى زمن توليه إدارة المكتبة وضع فهرساً لها ملأ مائة وعشرين مجلداً فجاء تاماً بحسب المؤلفين وموضوعات الكتب ذات القيمة الخاصة في نظره . وتجدر الإشارة ههنا إلى أن كتب ذلك الزمان كانت مجرّد لفّات من الورق نُسخت عليها المؤلفات ، فكان المطالع يضطر لتناول ما ينوي مراجعته اللفّة بعد الأخرى فيبسطها أمامه ليطالع مضمونها . ونظراً إلى أنَّ مثل هذا العمل يتلف اللفّة بسبب نشرها وطيها ، قسم كاليماخوس المؤلفات الكبيرة كتاريخ هيرودوس مثلاً ، إلى لفّات صغيرة ودعا كل لفّة منها كتاباً .

ويختلف الثقات والمؤرخون في تقدير عدد الكتب أو المجلدات التي كانت تؤلف مكتبة الاسكندرية . وقد راوحت الأرقام التي تركها لنا المؤرخون القدامى من الاغريق والرومان بين مائة ألف كتاب وسبعمائة ألف . ولعلّ السبب في هذا الاختلاف الكبير في التقدير اختلاف الكتّاب في النقل والرواية . فمنهم من يحسب لفّات المؤلّف الواحد كتباً مختلفة ومنهم من يحسبها كتاباً واحداً فقط . فكتاب واحد لأوُفيد كان في خمس عشرة لفّة . وكان كتاب لديدموس في ٧٥٠٠ لفّة .

وفضلاً عن ذلك لم تكن مكتبة الاسكندرية في تقرير الثقات مكتبة واحدة بل

ثلاث مكتبات ، الأولى مكتبة الموزيوم ـ أي ندوة العلماء والأدباء ، وقد احترق منها ٤٠٠ ألف مجلد لما حاصر يوليوس قيصر الاسكندرية ، والثانية مكتبة السيرابيوم ، وقد احترق معظمها في عهد ثيودوسيوس السنة ٣٩١ ، والثالثة مكتبة برغاموس ، وقد أضيفت إلى الثانية واحترقت معها ، وما بقي من محتوياتها تلف على مرّ السنين .

* * *

٥ - بوق رولان يقرع حزناً على اود الجميلة

هل ينبغي أن تنتهي دوماً قصص الحب نهاية سيئة؟ لقد رأى الفرنجة (الشعب الفرنسي) سماءَه تُظلم لدى سماعه نبأ موت رولان الفارس الشجاع ، بعد أن أخذته الحماسة عقب الانتصارات التي حقّقها الامبراطور شارلمان على العرب . . . وفي كل الأكواخ ، بكى الجميع من قصة خطيبته الحسناء أُود ، المدهشة والحزينة . . .

أبصرت اود النور لقدر رائع ، فهي ابنة غانلون ، أحد الأسياد الاغنياء ، وقد منحه الامبرطور قبل سنوات ، دوقية جنوى . فوق سريرها انحنت الجنّيات ومنحتها كل شيء : الجمال ، واللطف ، والثروة ، والشهرة . وفي حياتها القصيرة كفتاة كل رغباتها كانت مقضية ، كان الاشخاص الذين مثلوا دوراً مهماً فيها يُدعون اوليفييه ، ورولان ، وشارلمان . . . بالطبع كان ذلك مزيداً من حسن الطالع بالنسبة الى رأس أشقر دقيق سريع العطب : لقد انتقمت جنّية القدر السيّئ بقسوة .

خلال حصار فيينا ، التي دافع عنها اوليفييه ، شقيقها ، ضد الفرنسيين بقيادة شارلمان ، تعرّفت اود الى الذي سيغدو حبها الأول والوحيد . ففي يوم هدنة ، خرجت مع سيدات أُخريات من فيينا ، من المدينة لمشاهدة مبارزات الأعداء في الفروسية . ولمحها رولان ، فكان الحب من النظرة الأولى . ولم يكن والي ثغور بريتانيا المقدام امرأً يخفي عواطفه . إنه جندي ينطلق مباشرة الى هدفه . وسرعان ما يعلن حبه الملتهب للفتاة ، ويودّ جرّها الى خيمته . فذعرت أود ، وصاحت ، طالبة النجدة . فيهرع اوليفييه الذي لا يقلّ جرأة وبسالة عن رولان ، لدى سماعه صيحاتها ، ويسحب سيفه

من غمده ، ويخلّص شقيقته التي ينجح في حملها الى المدينة المحاصرة . ولكن ، في هذه المغامرة التي جرى فيها كل شيء في دقائق معدودات ، لمست حمّيا رولان شغاف قلب العدوة الصبية ، التي أراد جرّها بالقوة . وها هي لا تفتأ تفكّر فيه . . .

ويطول حصار فيينا ، ويبدو أن لا أحد من الجانبين المتحاربين مستعد للتسليم . عندها تقرَّر أن تُحسم القضية بمعركة مفردة بين رولان واوليفييه . ولكن يا له من يوم يحمل العذاب الى أُود ! ومن فوق أسوار فيينا تشهد ، عاجزة لا حول لها ولا طول ، هذه المبارزة دونما هوادة ولا رحمة بين شقيقها ومن تحبّ . وكان قلبها لدى كل ضربة سيف ، يرتعش فرقاً بالنسبة الى كل منهما . وطوال ساعات ، كان الفارسان يتسايفان بقوة وشجاعة ، دون ان يتغلّب أحد منهما على الآخر . ومع ذلك ، في احدى اللحظات ، بدا أن القدر سيرجّح احدى الكفّتين : تحطم سيف اوليفييه . هل سيغتنم رولان هذه الفرصة السانحة المؤاتية ، ويضرب خصمه الأعزل من كل وسيلة للدفاع؟ لا . إنه يقترح عليه اختيار سلاح آخر ، وينتظر لكي يواصل المعركة . وعندما استؤنفت المبارزة ، فصلت سحابة جشّاء بين الفارسين اللذين كانا قد أُرهقا تماماً .

إزاء مثل هذه الاشارة البارزة من السماء ، تعانق الفارسان وهما يُقسمان على الاخلاص الدائم . كيف يسع اوليفييه الذي حزر سرّ شقيقته ، أن يبارك هذه الصداقة الجديدة بطريقة أفضل من خطبة أود الى رفيقه المقدام؟ واجتمع أخيراً الحبيبان ؛ غير أن سعادتهما كانت قصيرة الأمد . فقبل الاحتفال بزواجهما ، وصل نبأ الى شارلمان : العرب يغزون إسبانيا . رولان واوليفييه ينبغي لهما الذهاب الى ساحة القتال الجديدة . ولم ترهما الفتاة الصبية بعد ذلك ! . .

وعقب صدّ الغزو العربي ، تأهّب جيش شارلمان للعودة . وعندها حدثت المأساة . فقد تملّكت الغيرة غانلون من آيات التكريم التي تلقّاها صهره العتيد خلال الحملة العسكرية ، فتقدَّم من القائد المعادي مرسيل ، وخان الامبراطور . فمن المعابر والشعب المظلمة في ممر رونسوفو الجبلي ، كان معظم الجيش يجتاز الحدود ، ولكن كان هناك من يترصد المؤخرة . ففي هذه المؤخرة كان هناك اوليفييه ورولان ، رمزا المصالحة الفرنسية ـ الالمانية ، وأوروبا متحدة اخيراً ، الفارسان المقدامان اللذان سيحاربان جنباً

إلى جنب حتى الموت . ويسقط اوليفييه أولاً .

إن عديد الخصم لهو أكثر مائة مرة ! وقد أُصيب رولان بدوره ، ولكنه قبل سقوطه ، وجد القوة على النفخ في البوق لتحذير الامبراطور . سوى ان الأوان كان قد فات لما أسرع شارلمان على رأس جيشه .

بلغ النبأ اود وهي في مدينة إيكس لا شابيل ، هذا النبأ الذي سيقضي عليها . وسألت شارلمان الذي لم يجد الشجاعة لاطلاعها على ما حدث : «اين هو رولان الذي أقسم بأن يتخذني زوجة له؟» ولم يستطع الامبراطور أن يحبس دموعه . قال «أنت تطلبين اليّ معرفة أخبار الشجاع الذي مات !» ولم يلبث أن أضاف : «سأعرف كيف استبدل رولان ، سأقدّم ابني شخصياً .» ولم تبكِ اود ، بل إنها غدت شاحبة الملامح ، وقالت : «لاسمح اللّه أن أعيش بعد وفاة رولان !» ثم إنها وقعت أرضاً لا حراك بها ، على حين غرّة . ولما هرعوا لرفعها كانت قد فارقت الحياة !

* * *

٦ – جزيرة الفصح الغريبة

في كتابه الصادر عن دار لافون الفرنسية للنشر «جزيرة الفصح الغريبة» ، قام المستكشف الفرنسي فرنسيس مازيير بدراسة معمقة تجعل كتابه على لائحة الكتب الاكثر رواجاً (بسْت سيلر) . ومازيير كان رئيس حملة توموك ـ هوموك التي ترحلت في بولينيزيا ـ حيث التقى زوجته الحسناء ثيلا . ولدى عودته الى بلاده عكف على وضع كتابه الشيّق حقاً .

اكتشف جزيرة الفصح البحّار الهولندي روغيفن سنة ١٧٢٢ ، وقد اسماها بهذا الاسم لأن اكتشافه لها تمَّ يوم عيد الفصح المجيد في تلك السنة . وجزيرة الفصح هي من الممتلكات التشيلية منذ ايلول ١٨٨٨ . وقبل ذلك بست عشرة سنة ، رست هناك الحرَّاقة «لافلور» . وكان بين الركاب على متنها الروائي الفرنسي الشهير بيير لوتي ، فذهل كثيراً ، مثل سائر رفاقه ، لمشاهدة التماثيل العملاقة المنتشرة في جزيرة الفصح .

فحمل رأساً ضخماً هو اليوم جزء من «متحف الانسان» ، وحمل كذلك وصفاً ، يقول عنه فرنسيس مازيير «إنه نص على جانب كبير من العلم والمعرفة ، بحيث يشكّل بالنسبة اليّ الوثيقة الاكثر روعة التي ألهمها هذا المكان الموصوف بأنه «سرّة العالم» .

تطرح هذه التماثيل سلسلة من الاحاجي ليس حلها وشيكاً . لقد هتف لوتي : «اي جنس بشري تمثّل نوعه ، بأنوفها المرتفعة ارنبتها ، وشفاهها الرقيقة التي تبرز ببرطمة احتقار وسخرية؟ ليس هناك عيون ؛ لا شيء سوى التجاويف العميقة تحت الجبين ، تحت القنطرة الحاجبية الفسيحة والنبيلة ؛ ومع ذلك ، فإنها تبدو وكأنها تنظر وتفكّر . ومن كل جانب من الخدين تهبط نتوءات ربما كانت تمثّل غطاء الرأس من نوع قلنسوة ابي الهول ، او آذاناً مفردة ومسطحة . وتراوح القامة بين ٥ أمتار و ٨ ، وبعضها يحمل عقوداً مصنوعة من تنزيلات صوانية او وسم مرسوم بشكل مُفرغ .

وهناك لا أقلّ من ٢٧٦ من هذه التماثيل الحجرية ، إما منتصبة او ممدّدة ارضاً ، أصغرها يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار وأكبرها ٢٢ متراً ، اي ما يعادل علو منزل من سبع طبقات ـ ولا احد يدري من نحتها . . .

وثمة لغز آخر ، وهو ليس أقلّ الألغاز في شيء : كيف نُقلت هذه التماثيل التي قد يبلغ وزنها عشرين طناً مسافة عدة كيلومترات من المقلع الذي يوجد فيه الحجر الذي قُدّت منه ونحتت؟

كثيرة هي التفسيرات التي قُدّمت . فبعض الكتّاب يؤكد ان صانعيها كانوا يجعلونها تنزلق على «سجادة من البطاطا الحلوة والانسيام» ـ وهذه الاخيرة جنس نباتات معمِّرة ورقاتها نشوية تؤكل . غير ان فرنسيس مازيير لا يعتقد ذلك : «إنهم يفكرون بالعصيدة الغريبة ، وهذا على مسافة كيلومترات .»

وتحدّثوا عن مدرّجات خشبية ، ولكن ليس هناك في الجزيرة سوى شجيرات سريعة العطب . إذاً ، كان هناك زلاّجات او مركبات ، ولكن مِمَّ كانت مصنوعة لكي تتمتع بالصلابة الضرورية؟

ان السكان الاصليين في جزيرة الفصح يقولون ان ناقلي هذه التماثيل العملاقة

انما فعلوا ذلك بفضل قوّتهم الشخصية المركّزة ، وهم يسمون ذلك «مانا» .

ولا يكتفي مازيير بالايضاح والتفسير ، بل يخلص الى القول ، ما دام ليس بوسعه تقديم اي تفسير شخصي ، ان اللغز سيبقى مطبقاً . . .

بالمقابل ، تراه يعرض بكثير من العنف الحقيقة القاسية بالنسبة الى حياة سكان جزيرة الفصح . فيقول : «لا تتصوَّرنَّ السلطات التي تسمح لنفسها بأن تطلب يوم عمل اجباري في الاسبوع ، ولا تمنح هؤلاء «الفصحيين» المساكين اي هوية او جواز سفر ، وتمنعهم من مغادرة جزيرتهم ، والتي تغيظهم في كل لحظة اننا نحن ايضاً ، رضينا ، تحت ضربات الحرمان ، بقانون الصمت . إنك ، أيتها السلطات ، متهمة بأفظع شيء في العالم ، فأنتِ لم تحترمي كرامة اولئك الذين تسمينهم «هنوداً حمراً» ، وحريتهم ، وهم ابناء اولئك الذين اوروثونا الكنز الذي يضمّ التماثيل العملاقة ، والذين قضوا بجُدري الآخرين .»

ان جزيرة الفصح تخضع لسلطة البحرية التشيلية ، الامر الذي لا يعني الحكومة التشيلية ولكن نأمل ان تطلّع هذه الاخيرة على ما ورد في كتاب فرنسيس مازيير «جزيرة الفصح الغريبة» .

* * *

٧ – حصار تاريخي

أغريا مدينة مجرية تأسست سنة ١٠١٠ على يد الملك سانت إتيين ، لدى مدخل جبال ماترا ، في وادٍ ساحر تحيط بها الهضاب المزروعة بالكرمة ، على ضفاف نهر ايجر ، أحد روافد نهر تيجا . واليوم غدا اسمها الذي تحوّل الى إرلاو ، ايجر . وهي تعدّ نحواً من ٤٠ ألف نسمة . وفي سنة ١٥٥٢ ، سنة الحصار الشهير الذي عرفته ، كانت هذه المدينة محمية بكنيسة .

كان الملك سليمان الأول ، الشهير بالقانوني ، وهو احد كبار السلاطين العثمانيين ، يحكم الامبراطورية منذ سنة ١٥٢٠ ،مكان والده السلطان سليم الأول .

وقد لقّبه التاريخ بالكبير او العظيم . وفي خلال حكمه ازدهرت الفنون والعلوم كما لم تزدهر في اي وقت مضى ، وقد حملت انتصاراته الحربية المتواصلة اسمه المرعب بعيداً جداً .

غير أن سليمان القانوني رأى بأُم العين قواته التي لاتُقهر تخفق أمام مدينة صغيرة في المجر . وكان قد أرسل جيوشه منذ سنيّ حكمه الأولى ، لتجتاح النمسا والمجر حيث دارت رحى معارك طاحنة . وسقطت بلغراد بين يديه . وأتاحت معاهدات الصلح المعقودة في البلقان فترة من السلم والتقاط الأنفاس ،بالنسبة الى الطرفين المتنازعين ؛ ولكن سلماً دائماً كان مستحيلاً .

في ٧ أيلول ١٥٥١ ، شنَّ السلطان سليمان حملة عسكرية ثانية ضد المجر ، واجتاز قائد جيوشه الجنرال محمد ، على رأس ٨٠ ألف رجل نهر الدانوب عند نقطة بيترفاردن . وفي ٩ أيلول ، بلغ احمد باشا ، الوزير الثاني مشارف مدينة أغريا ، وطلب الى قائد الموقع أن يستسلم . فألقى القائد دودو دو رونجكا القبض على الرسول وقيّده ، وحضّر للمقاومة . وعلى الفور فتح الاتراك العثمانيون النار ، ملقين على الحصن قذائف ثقلها ٥٠ رطلاً . وارتفعت حول المدينة المتاريس ، وأمست مباني أغريا هدفاً للرماة الأعداء .

ومن اجل الحماية ضد قصف المدافع العثمانية ، غطّى المحاصرون بالجلود والأغطية المبللة مخازن حبوبهم وعلفهم وأهراءاتهم ، ولم يفتأوا يسدّون الثغرات بالبراميل المملوءة رملاً . وكان اول هجوم في ٢٩ أيلول ؛ وقد صُدَّ ثلاث مرات ؛ وبقي ٨ آلاف جندي عثماني في الحفر . وفي ليل ٤ تشرين الأول ، اندلعت النيران في المؤن والبارود المخزونين في الكنيسة ، وسرعان ما انفجرت ، مع الطاحونتين في المدينة . ولم يتبقَّ للدفاع سوى ٢٤ برميلاً من البارود . ورفض دودو ومساعده متسكي الاستسلام .

عندها أمر احمد باشا بملء الحفر بأكياس الرمل ، وإقامة منصّة خشبية على مستوى أسوار أغريا . غير أن مهندساً مجرياً أفشل خططه . فقد أمر بملء الدلاء بالزفت والكبريت والقطران ، ممزوجة بالنجارة والقش المغموسين بالودك (شحم

الامعاء) وجهّزها خارجاً ، فضلاً عن حشو المسدسات . وعندما هبط الليل ، أُوقدت فيها النار ، وأُلقيت في الحفر . واشتعلت القلعة التركية ، وخفَّ الجنود العثمانيون لإطفائها ، غير أن المسدسات التي كانت تطلق العيارات النارية في كل الاتجاهات ، أجبرتهم على الفرار . واستخدم المهندس كل مواهبه العلمية وفكره الخلاّق ، وزرع الرعب والموت في صفوف الأعداء بإطلاقه عليهم آلاته الجهنمية .

في ١٠ تشرين الاول ، شنَّ العثمانيون على جبهات ثلاث ، هجوماً دام طوال اليوم . وجرى يوم ١٢ منه ، هجوم جديد وكبير كان الأخير . فقد قرر أحمد باشا التخلّي عن الحصار إذا لم تؤدِّ جهوده الأخيرة الى اي نتيجة . فدفع بكل جيشه الى المدينة . وارتفع مدّ بشري صائح ، متصلّب ومتعصّب للمساندة لدى المتاريس . واحتشد المحاصرون من كل الأعمار ، ومن الرجال والنساء على السواء ، متحسسين بفعل حضّ قائدهم للدفاع عن مساكنهم . وخفَّت النساء انفسهن الى المتاريس ، وأبلين أحسن البلاء . كنّ يصببن على العدو الدلاء الملأى بالزيت المغلي . وكثيرات منهن سقطن تحت ضربات المحاصرين وهن يحاربن الى جانب أزواجهن أو أبنائهن .

وكان العثمانيون المنهكون والغاضبون يبذلون جهوداً لا طائل منها . كانت المعركة رهيبة ، وطاحنة ، والعثمانيون يهاجمون وهم يطلقون صيحات مرعبة تختلط بحشرجات الجرحى : الآلاف من الاتراك ممدّدون في الحفر وينزفون ، والآلاف من المجريين سقطوا لدى المتاريس وهم يدافعون عنها . وقتل الجنرال محمد في المعركة . ورفض الجنود الانكشاريون (جنود من المشاة) وهم النخبة في الجيش التركي الذين عبثاً حاول قادتهم إثارتهم ، الزحف ، متذرعين بأن لا قوة بشرية تجعلهم يحاربون عدوّاً تحميه العزة الالهية . فاضطر احمد باشا الى إعلان نهاية الحصار والهجوم ، وانسحب جنوده الذين تكبّدوا خسائر فادحة الى معسكرهم . وطوال ستة أيام ، بعد ، أطلق القائد العثماني على المدينة قذائف مدفعية كانت تردّ عليها المدفعية المجرية . وأخيراً ، في ١٨ تشرين الأول ، قدّمت الامطار والثلوج الى القائد العثماني الذريعة لفكّ الحصار . وفي الليل ، تم تفكيك الخيام وحُملت المدافع على العربات ، وفي اليوم التالي ، انسحب العثمانيون ، وقد ناوشهم المجريون في انسحابهم وهربهم .

وكانت فرحة سكان أغريا كبيرة . وقد أقام القائد دودو ، بطل المقاومة في المدينة ، من القذائف المدفعية الإثني عشر ألفاً التي جمعت من أغريا ، نصباً للنصر . وبعد سنوات عدة ، وفي سنة ١٥٩٦ ، عاود الاتراك العثمانيون الهجوم على أغريا ، وعلى الرغم من بسالة سكانها ، نجحوا في احتلالها . وقد ظلت هذه المدينة خاضعة لسلطة العثمانيين حتى ١٤ كانون الأول ١٦٨٧ .

* * *

٨ - نابوليون . . . ايضاً وايضاً!

نابوليون بونابرت أسطورة لا تنتهي ! ففي كل سنة جديد حول هذه الشخصية الفذة حقاً ، وحول الاعمال التي أنجزتها . حتى أنه صدر من الكتب حولها اكثر مما صدر عن أي شخص آخر في التاريخ ، قديماً وحديثاً . واخيراً ، وليس آخراً ، لفّت تاريخ مولد نابوليون المعروف رسمياً بأنه في ١٥ آب ١٧٦٩ هالة التساؤل ، هل صحيح أنه مولود في هذا التاريخ؟ وأثار جدلاً طويلاً إن من حيث تاريخ الولادة ، أو من حيث مكانها ، لأن هذا الحدث كان مقدّراً له أن يغيّر وجه العالم ، إن لم يكن قد غيّره بالفعل . وهو نقطة انطلاق مغامرات حقيقية مبنية حول مهد طفل . فلنتحدث عن ذلك لطرافته .

يزعم البعض أن نابوليون ولد في ٥ شباط ١٧٦٨ ، قبل أن تصبح جزيرة كورسيكا ـ مسقط رأسه ـ فرنسية ، ومن هنا ، وخشية أن تصبح جنسيته موضع جدل ، أُعلن أن تاريخ مولده هو ١٥ آب ١٧٦٩ . ويشيرون إلى أن تاريخ ٥ شباط ١٧٦٨ يبرز بكل أهميته عندما نضعه الى جانب ثلاثة تواريخ أخرى حاسمة : ٧ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، تاريخ تسلُّمه السلطة ، و٥ آب ١٨١٥ ، تاريخ الذهاب الى المنفى ، وفي ٥ أيار ١٨٢١ ، تاريخ وفاته : إن هذه التواريخ الثلاثة جميعاً تقع في وسط الفصول ، غير أن مدلولها الكامل لا يبرز جلياً ألا على محور باريس ، هذا المحور الذي أشار إليه العرّاف الشهير نوستراداموس ويُشكّله اللوفر ، وقوس كاروزيل ،

والمسلّة ، وقوس النجمة .

يوم ٥ شباط أشرقت الشمس على المحور المذكور : من مستديرة الدفاع تُرى محاطة بقوس النصر . يوم ٧ تشرين الثاني تطلع الشمس في النقطة نفسها . وفي يومي ٥ آب و ٥ أيار تغرب الشمس في المحور نفسه . هذا بالنسبة الى الذين يهوون التنجيم .

وزعموا أيضاً ان نابوليون لم يولد في أجاكسيو ، بل في منطقة بريتانيا الفرنسية ، في أحد قصور الكونت دو ماربوف ، مفوّض الملك في جزيرة كورسيكا ، وأن ليتيسيا بونابرت ، أُم نابوليون ، كانت عشيقته ، وقد وصلت قبل موعد الولادة بقليل الى قصر دوكالّاك ، بالقرب من فان التي تخص أُسرة ماربوف ، ووضعت طفلها في قصر باننفيرن الريفي ، وقد أكدّت ذلك روائية من تلك المنطقة الفرنسية تدعى إلفير دو سيرني التي تدّعي أنها شاهدت في القصر الريفي الغرفة التي أبصر فيها الطفل نابوليون النور ، والمهد ، والآنية التي احتوت على ماء العمادة .

وحسب أقوال المؤرخ شارل شاسه ، قبل قيام الامبراطورية الثانية ، كانت المركيزة دو ـ سان ـ بريه تقلّب صفحات سجل الولادات في كنيسة سان ـ سيفيه ، فألفت إشارة إلى ولادة طفل ذكر لليتيسيا بونابرت . وفي ما بعد ، ولما شاءَت ابنتها التثبّت من هذه الواقعة ، تبيّن لها أن عدة صفحات في ذلك السجل قد انتُزعت منه . وبحسب ما ورد في كتاب إلفير دو سيرني ، فإن الامبراطور نابوليون الثالث كلف عميلاً سرياً إخفاء تلك الصفحات المعرّضة للشبهة .

وأخيراً ، حسب زعم العلاّمة لوي دو غينيك ، فإن الطفل الذي أبصر النورفي بريتانيا هو نفسه نابوليون الذي تذكر وثيقة تنصيره أنه مولود في ١٥ آب ١٧٦٩ ، الأمر الذي لم يمنع بونابرت عندما اقترن بجوزفين من التصريح بأنه ولد في ٥ كانون الثاني ١٧٦٨ . غير أن أحد أمناء السرّ أخطأ ، ودوّن التاريخ ٥ شباط ! . . .

* * *

٩ – من أمر بقتل القيصر نقولا الثاني ولفيف أسرته؟

كان القيصر نقولا الثاني (١٨٦٨ – ١٩١٨) ،آخر القياصرة الروس ، وقد حكم بلاداً مساحتها سدس الكرة الارضية مدة ربع قرن من الزمن ، بيد من حديد ، يُعتبر اغنى رجل عرفته اوروبا . فقد قُدِّرت أطيانه وعقاراته بخمسين مليون دولار ، ومجوهراته وحجارته الكريمة ، من ألماس ولؤلؤ وياقوت بمبلغ ثمانين مليوناً ، كما قُدِّر دخله الشهري بمليون دولار ، اي ما يعادل ٢٤ دولاراً في الثانية الواحدة .

الا ان الثروة والعظمة لم تنقذاه من النهاية المؤلمة التي انتهى اليها وافراد أسرته . لقد كانت نهايته من افجع المآسي التي دوّنها التاريخ . فبُعيد منتصف ليل السادس عشر من تموز سنة ١٩١٨ ، اقتيد القيصر نقولا الثاني ولفيف أسرته الى بيت مؤونة قذر مملوء بنسيج العناكب ، فأُطلقت النار عليهم جميعاً ، وكانت مذبحة بشعة وحشية ليس لها مثيل !

كان ابن القيصر إسكندر الثالث ، وخليفتة على عرش القياصرة . ولد في سان بطرسبرج ، وتربع على العرش في السنة ١٨٩٤ . وخلال حكمه جرت الحرب الروسية ـ اليابانية ، وتدشين النظام البرلماني في روسيا (مجلس الدوما) ، والتحالف الفرنسي ـ الرّوسي ، والحرب العالمية الاولى ، ثم الثورة البولشفية .

في سنة ١٩١٧ ، أعلنت القوات الروسية المحاربة العصيان على القيصر نقولا ، ورفضت المضي في الحرب . وتألف وفد من كبار القادة العسكريين ، فقابل القيصر قبل منتصف ليل ١٤ آذار ١٩١٧ ، ببضع دقائق ، في مقصورته في قطاره الحديدي الخاص ، وصارحه بوجوب ترك زمام الحكم والتخلي عن العرش . ووقع عليه هذا النبأ وقع الصاعقة ، فتولاه الشحوب ، وبات مظهره شبيهاً بمظهر الاشباح ، ولم يدرِ ماذا يعمل . وحين انسحب الى مخدعه لم يستطع الرقاد ، فتناول مسرحية «يوليوس قيصر» الشهيرة لشكسبير ، وقطع الليل في مطالعتها .

وفي تمام الساعة الحادية عشرة والربع من صباح اليوم التالي ، وقّع القيصر وثيقة التنازل عن العرش ، بقلم رصاص عادي قائلاً : «شكراً للّه ، فبوسعي الآن ان اعمل

ما كنت اتوق الى عمله دائماً . يمكنني الذهاب الى منزلي في شبه جزيرة القرم ، وزراعة الازهار .»

وقضى القيصر نقولا وأسرته الاشهر الاخيرة من حياتهم في منزل عتيق مؤلف من غرفتين ، في ضواحي احدى المدن الواقعة على سفح جبال الاورال . وكانت حياتهم هذه أشبه بحياة الفلاحين المعدمين . فلم يكن الثوار الذين سجنوهم يقدّمون اليهم من طعام الأحساء الخضر مرتين في اليوم ، وكسر الخبز الاسود الجاف .

ولم يكن يُسمح لهم بفتح النوافذ التي طلي زجاجها كي تحجب عنهم معالم الدنيا . واتفق ذات يوم ان صغرى بنات القيصر ، الاميرة انستازيا ، فتحت النافذة لتتنفس قليلاً ، فاذا بأحد الخفراء يطلق النار عليها ! ولم يكن في وسعهم الا التنزه في حديقة المنزل مدة خمس دقائق يومياً .

وكان الجنود الموكلون بالحراسة يُغلظون القول امام بنات القيصر نقولا ، وينشدون الاغاني القذرة تحت النوافذ ليلاً ، ويقضون سحابة نهارهم نصف عراة على مرأى من افراد العائلة المالكة السابقة . وفي احد الايام انتزع جندي من الحرس مفكرة الامبراطورة وسلبها نقودها قائلاً : « لن تحتاجي الى مال بعد الآن !»

اما القيصر فقد كان امرأً وديعاً ، لطيفاً ، لم تنبس شفتاه بتذمر او شكوى ، على نقيض زوجته المتكبرة التي ما فتئت تتذمر من الحالة التي آلت اليها ، وتعلن انها ستنتقم يوماً ما من سجانيها الوحوش .

الى ان كان ليل ١٦ تموز ١٩١٨ ، فأيقظ قائد الحرس القيصر وأفراد اسرته وقال لهم ان اضطرابات حدثت في المدينة ، وان عليهم ارتداء ملابسهم والنزول الى بيت المؤونة ريثما تصل العربات لتقلهم الى مكان امين . فلما وصلت القيصرة الى بيت المؤونة كانت ترتعد فرقاً ، ولم تستطع الوقوف على قدميها . فجيء لها بكرسي جلست عليه . وما هي الا دقائق حتى تدفّق الجنود على المكان ، وهم يصيحون : «لقد حاول اصدقاؤكم انقاذكم ، ولكنهم لم يفلحوا ، وسنقتلكم جميعاً !» وما كادوا ينهون كلامهم حتى اطلق احدهم رصاصة اصابت القيصر في صدره . وما ان وقع ارضاً حتى كان الرصاص ينهال على بقية الاسرة ، ثم أجهز الجنود عليهم بالحراب

المسنونة . وللحال قطع الجنود الجثث ، ورشوها بالبنزين ، وأضرموا النار فيها . ثم القوا بالرماد والاشلاء في حفرة ، في أحد مناجم الحديد القديمة . وقد عثر الجنود في المكان الذي احرقوا فيه الجثث على عدد كبير من الحلي والمجوهرات كانت القيصرة وبناتها الاميرات قد خبأنها في طيات ملابسهن .

والمعروف ان مقتل الاسرة المالكة الروسية كان عمل نفر من الثوّار المتحمسين ، وان الحكومة السوفياتية قد اعتقلتهم وحاكمتهم بتهمة قتل القيصر وأفراد أسرته ، وقضت على خمسة منهم بالاعدام رمياً بالرصاص .

كان القيصر نقولا الثاني شديد الولع بمطالعة شكسبير ، ولا ريب في انه قرأ العبارة التالية مراراً : «ان الذين يقفون عالياً تهزهم الرياح ، فاذا ما سقطوا كان سقوطهم عظيماً ، وتحطموا ارباً ارباً .»

* * *

١٠ ـ وفاة امرئ القيس بعد رفضه الصلح مع قاتلي أبيه

توفي في أنقره ، في تركيا ، سنة ٥٤٥ ، بصورة غامضة امرؤ القيس ، أحد اكبر الشعراء العرب في الجاهلية وما بعدها ، وأحد «ملوكهم» غير المتوجين ، عن عمر ناهز الخمسين بعد اصابته بمرض جلدي خبيث أدّى الى تقرُّح جسمه واهتراء لحمه .

وتقول رواية غير مؤكدة ان قيصر روما في الامبراطورية الشرقية ، يوستنيانوس ، بعث اليه برداء مسموم قبل وصوله الى أنقره ، فأصابه ما أصابه !

كان امرؤ القيس الذي لقّب «الملك الضلّيل» ، ولي عهد ابيه ملك بني اسد وغطفان بنجد اليمن . ولكنه عاف الملك واتجه الى حياة اللهو والمجون ومغازلة النساء وقرض الشعر ، الامر الذي حمل اباه على طرده من مملكته . فهام على وجهه مع عدد من صحبه لمواصلة حياته كما ارتضاها لنفسه بين الصيد والنساء والشراب . وقد ذاع اسمه في بلاد جزيرة العرب واليمن ، كما ذاعت قصائده الغزلية التي ارّخ فيها حياته .

ويروي بعض رفاقه الذين كانوا معه انه كان في دمون من ارض اليمن ، عندما

جاءه نبأ مقتل ابيه غدراً من بني قومه فقال يومها :

ـ «ضيعني ابي صغيراً ، وحمّلني دمه كبيراً . لا صحو اليوم ، ولا سكر غداً . اليوم خمر ، وغداً امر» .

ويقول هؤلاء انه حلف الا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يُدهن بدهن حتى يقتل من بني أسد مائة رجل ويجزّ نواصي مائة . وبالفعل ذهب إلى أخواله من قبيلتي بني بكر وتغلب ، وهما من القبائل المعروفة ، فأعانوه على محاربة بني أسد وانتصروا عليهم ، الا انه لم يقبل الصلح معهم مقابل فدية مقدارها مائة رجل من كبار القوم ، الأمر الذي حمل قبيلتي اخواله على التخلي عنه .

« . . . وفرّ امرؤ القيس من وجههم ، ونزل على السموأل ، فأودعه دروعه وابنته وكل ما له من متاع» ـ بحسب ما يقول مارون عبود في كتابه «أدب العرب» .

ولم يتراجع امرؤ القيس عن قسمه ، بل عمد الى الاستعانة بوالي الشام ، فأوصله الى يوستنيانوس قيصر الامبراطورية الرومانية في الشرق ، الذي كانت له مطامعه في جزيرة العرب على أمل ان يكون «الملك الضلّيل» عوناً له لامتلاك بلاد العرب . غير ان زعماء بني أسد اوعزوا للقيصر بالتخلي عنه على أن يؤدوا هم ما يطلبه ، ففعل وتخلّى عنه ، فما كان منه الا ان توجه الى أنقره بحثاً عن معين له .

وقال الذين واروه الثرى من رفاقه في جبل عسيب انه ردد قبل وفاته الابيات التالية الموجهة الى يوستيانوس :

لقد طمح الطمـاح من غوارضـه ليلبسني مـن دائـه مـا تلبّسا
وبُدِلّت قرحـاً دامياً بعـد صحة فيـا لـك نُعمى قد تحـولت أبؤسـا
فلـو انهـا نفس تموت سوية ولكنهـا نفس تساقـط أنفسـا

* * *

١١ ـ كيف كانت نهاية الطيَّارة آميليا إرهارت؟

ان كل القراء الذين هم في سنّ تسمح لهم بتذكّرها ، لم ينسوا قط الطيَّارة

الأميركية المدهشة آميليا إرهارت التي عُرفت بلقب «الآنسة لندبرغ» بفضل جرأتها الباسمة ، واحتقارها الخطر ، والسهولة الغريبة التي كانت تكدّس بها الأرقام القياسية . خلال صيف السنة ١٩٣٧ ، تابع العالم بذهول وانفعال محاولتها الاخيرة : جولة حول العالم بالطائرة ، برفقة الميكانيكي فريد نونان ، ولكنها كانت وحدها وراء مقود طائرتها من طراز «لوكهيد ـ إلكترا» . وقد شوهدت الطائرة في ٣٠ حزيران فوق المحيط الهادئ (الباسيفيكي) ، على مسافة ٧ آلاف ميل من الهدف النهائي . ثم فجأة ، توّقف جهاز البث اللاسلكي في الطائرة : إنه الصمت المطبق ، الكامل ، والنهائي .

وطوال شهر ، غرق العالم كله في لجة من القلق . وجنّدت الولايات المتحدة الاميركية ، بناء على أوامر الرئيس فرنكلين ديلانو روزفلت ، بحريّتها وطيرانها اللذين غطّيا بالبحث والتنقب مساحة ٢٦٠ ألف ميل مربع من المحيط . وأخيراً أعلنت الأميرالية رسمياً ان آميليا ونونان «فُقدا في البحر» . ولكن لم تستغرق معرفة حقيقة نهاية آميليا ونونان الحقيقية إلاّ من ثلاثين سنة .

هذه الحقيقة كشفها أحد العاملين في التلفزيون الاميركي فريد غرنر ، في كتابه «نهاية سر آميليا إرهارت» (نُشر السنة ١٩٦٧) الذي نُقل الى الفرنسية في منشورات دار فلاماريون . ولو لم يكن تحقيقه مدعوماً بما يمكن الاعتماد عليه والوثوق به من معلومات وحتى من براهين ثابتة ـ لبدا أبعد ما يمكن عن الحقيقة ، وغير جدير بالتصديق ، ومن صنع الخيال !

باختصار ، نجح فريد غرنر في البرهان على أن طائرة آميليا ، كانت محمّلة فوق طاقتها ، فاضطرت الى الهبوط في جزيرة ميلي المرجانية ، في مجموعة جزر مارشال في الجنوب الشرقي ، وهي أرض تحت الانتداب الياباني . وطوال اثني عشر يوماً انتظرت الطيّارة ورفيقها نجدة تمثّلت أخيراً على صورة زورق صيد ياباني .

كانت آميليا تعرف جيداً ان هذه النجدة كانت ساخرة ، وأن اليابانيين سيعلمون بسهولة ويسر أنها خرقت سرّ مجالهم الجوي ، وأنها لم تفعل ذلك لأنها واجهت صعوبة في الطيران ، ولكن للقيام بمهمة استطلاع واستكشاف اسندتها إليها دوائر الاستخبارات السرية الاميركية ، بغية الاطلاع على طبيعة الاستعدادات العسكرية

اليابانية في الجزر التي كانت تحت الانتداب الياباني .
ماذا جرى لأميليا إرهارت وفريد نونان؟

وفقاً للسكان الاصليين الذين استطاع غرنر أن يستجوبهم ، واجهت الطيَّارة صنوف العذاب ، وقد قضت في سجنها ضحية الديزنطاريا . أما نونان فقد قُطع رأسه بالسيف .

وسرعان ما نُسيت آميليا البائسة ، القليلة الحظ . فزوجها جورج بُتنام ، الذي سبق أن تخلّى عن دار النشر الشهيرة التي كان يديرها ـ وقد ورثها عن أبيه ، لكي يكرّس كل نشاطه للدعاية لمغامرات وأمجاد زوجته ـ تزوج مجدداً السنة ١٩٣٩ ، ثم في السنة ١٩٤٤ ، عقب طلاقه . وأصبح صاحب فندق ، وقد توفي السنة ١٩٥٠ بسبب تبول الدم (تسمّم الدم بالبولة) . وعلى قول فريد غرنر ، لم يكن هذا الزوج رفيقاً مستحباً بالنسبة الى آميليا ، الأمر الذي يوضح لماذا رضيت بسهولة القيام بهذه المهمة التي لم تعد منها ـ هذه المهمة المموهة بامتحان رياضي !

لماذا كان ينبغي انتظار ثلاثين سنة لمعرفة الحقيقة عن نهاية آميليا إرهارت؟

نعلم أن السرّ ، الذي اكتُشف خلال غزو جزر مارشال في شباط ١٩٤٤ ، كان يجب حفظه ، ما دامت حرب المحور دائرة ، ولم تضع بعد أوزارها ، وفضلاً عن ذلك ، كانت انتخابات الرئاسة الاميركية آنذاك وشيكة ، وكان يمكن ان ينتخب المرشح الجمهوري توماس ديوي ، منافس الرئيس روزفلت ، فيما لو اطّلع الشعب الاميركي على التخلّي عن إرهارت ونونان . وانتُخب روزفلت ، ولكنه قضى قبل نهاية ولايته الرابعة ، فلم يشأ خليفته هاري ترومان ان يغامر بتلطيخ ذكراه باعلان تفاصيل هذه القضية . وفي ما بعد ، أجّل تطور العلاقات بين الولايات المتحدة الاميركية المنتصرة واليابان المهزومة التي قذفت بالقنبلة الذرّية ، كذلك ، ساعة الحقيقة .

وما هو اكثر بعثاً على الدهشة ، هو الصمت الذي التزم به البيت الابيض عقب صدور كتاب فريد نونان في الولايات المتحدة الاميركية بسنة كاملة (١٩٦٨) . رسمياً ، ما تزال آميليا إرهارت وفريد نونان يعتبران «مفقودين في البحر . . .» !

* * *

١٢ ـ دخل ابن المقفّع دار والي البصرة ، ولم يخرج منها!

عبد اللّه بن المقفّع ، مصمِّم النثر الفنّي ورائد الإنشاء ، وأحد البلغاء العشرة المعدودين ـ على ما يقول صاحب «الفهرست» ، ابن النديم ـ قُتل قتلة شنعاء على يد سفيان بن معاوية المهلّبي ، والي البصرة ، على عهد الخليفة المنصور . وقد ظل اختفاؤه لغزاً مطبقاً الى الآن ، وسيظل إلى الأبد ، ما دام بقي سرّه معه . وكان اختفاؤه السنة ٧٥٩ ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة . فلقد دخل دار الوالي سليماً ، ولم يخرج منها ، كأنما غاص بين سمع الارض وبصرها ! فكيف قُتل ، ولماذا حلّ به ما حلّ ؟ هذا ما سنحاول روايته في ما يلي .

كان ابن المقفّع كثير الاستخفاف بالوالي سفيان بن معاوية المهلبي ، يوجّه اليه قوارص النكت . ولما كان أنفه ضخماً ، فقد كان إذا ما دخل عليه قال له في التحية : «السلام عليكما !» ذلك بأنه كان يرى واجباً عليه أن لا يسلّم على صاحب الأنف الضخم وحسب ، بل على الأنف أيضاً .

وتمادى كثيراً في الهزء بهذا الوالي الى أبعد الحدود دون أن يخامره اي شك في أن هذا الأخير يمكن أن ينتقم منه لتهكّمه بعد أن يتراكم حقده عليه .

مثال ذلك أنه كان اذا تنحنح الوالي وقال : «ما ندمت على سكوتي قط» ظناً منه بأنه استنبط حكمة عميقة ، عاجله بجوابه المتهكم القاسي : «الخرس زين لك ، فكيف تندم عليه؟ !»

وشاء ابن المقفّع يوماً أن يسخر منه على ملأ من الناس ، فقال له : «ما تقول في شخص مات وخلّف زوجاً وزوجة؟»

كل ذلك جعل سفيان يقول ، بعد أن انفجر مرجل الحقد في نفسه : «واللّه لأقطّعنه إرباً إرباً وعينه تنظر !» وعزم على اغتياله ، في ذات يوم من السنة ٧٥٩ ، عندما دخل دار الوالي ، فكان ذلك آخر العهد بابن المقفّع . . .

لقد بطش به الوالي ، ولكن كيف؟ هل أحرقه بالنار؟ أم هل دفع به الى بئر وردم عليه بالحجارة؟ أم أنه زجّ به في حمّام حُبس دخانه وحُقنت حرارته ، فضاق عليه بالنَفَس حتى اختنق؟ أم أنه قطع جسده عضواً عضواً ، ثم قذف به في تنوُّر وغطّى عليه؟ !

كل هذا يقصّه رواة الأدب ، ولكنهم لا يتفقون على شيء واحد منه ، ولكنهم يتفقون على أنه صرعه صرعة وحشية منكرة . ومن هنا يبقى مصرعه لغزاً ما دام لم تنجلِ الوسيلة التي استُخدمت للانتقام الرهيب ! . . .

والآن ، ما هي تتمة هذه القصة المحزنة حقاً؟ . . . وماذا حدث من ردود فعل على هذا المصرع ، عقب انتشار نبأ دخول ابن المقفّع دار سفيان الوالي في البصرة ، واختفائه .

هاج عمّا الخليفة المنصور سليمان وعيسى ، ورفعا الشكوى على الوالي سفيان الى ابن اخيهما في بغداد . ثم إنهما اعتقلا الوالي وكبّلاه بالقيود وحملاه ووضعاه بين يدي المنصور . وتقدّم ناس فشهدوا أن ابن المقفّع «دخل دار سفيان ، ثم لم يخرج ، فكأن الدار ابتلعته ابتلاعاً .» عندها تفرّس المنصور في الشهود وقال لهم :

ـ «اذا قتلت سفيان ثم طلع ابن المقفع من هذا الباب الخلفي ، فكلّمكم ، فماذا أصنع بكم . . . أألحقكم بسفيان؟»

ويقول الذين حضروا مجلس الخليفة أن الشهود فهموا تهديد المنصور ، فوقعت الرهبة في قلوبهم وتراجعوا عن شهادتهم . فأطلق الخليفة سراح الوالي .

فأما عمّا المنصور فتغاضيا عن ابن المقفّع ، وتركا المطالبة بدمه لأنهما أيقنا ان للمنصور نفسه ضلعاً في سفك دمه .

وأُنزل الستار ، وغسل الوالي يده من الجريمة ، وتنصّل المنصور ، بعد أن دارت الدائرة على صاحب «كليلة ودمنة» ! . .

* * *

١٣ ـ قدر الـ ١٥٠٠ إمرأة القاسي في حريم السلطان الاحمر ، عبد الحميد الثاني

في نهاية القرن الماضي (التاسع عشر) كان حريم آخر سلاطين بني عثمان عبد الحميد ، الثاني الملقب «السلطان الأحمر» بحق وحقيق ، يضمّ ١٥٠٠ إمرأة تقيم ـ كل واحدة منهن ، بالطبع ـ في منازل منفصلة بعضها عن بعض وتدعى اكشاكاً .

ماذا جرى لهذا الحريم ومن كن يشغلنه من النساء عقب خلع السلطان ونفيه من تركيا؟ !

كانت الاكشاك تقع في حدائق بديعة على ضفاف البوسفور الرائعة ، تحيط بها أسوار مرتفعة ، تعزل شاغلاتها عن سائر العالم . وكانت دار الحريم ، خارجاً من المساكن الخاصة والملحقات المخصصة لهيئة المستخدمين ، تتألف من بعض المباني الفخمة ، والحمّامات ، والمكتبات ، ومسرح ، وقاعات للرقص مفردة خصيصاً لمحظيات السلطان .

كانت نساء الحريم من الطبقة الادنى وتتألف من صبايا نجحن في اجتذاب اهتمام السلطان بهن . وكان لكل واحدة من هذه الفئة غرفة خاصة بها في دار الحريم ، واذا لم يعد السلطان يتذكر هذه أو تلك منهن ، فإنها كانت تُزوَّج الى موظف حكومي أو ضابط ، وتُمنح بائنة (دوطة) ويُخصَّص لها دخل ، ويظل يحقّ لها أن تتردد على النساء في دار الحريم ، إلاّ إذا كانت قد نعمت بالحظوة لدى السلطانة ـ الأرملة ، فعندها لا تتوصل الى أن تُقبل نهائياً في الحريم .

وكانت السلطانة ـ الأرملة سيدة الحريم الأولى ، وهي التي كانت موكلة بإدارته .

وعندما كان السلطان يبدي ميله الى احدى الصبايا ، كانت تقدّمها اليه امرأة هي بديلة السلطانة ـ الأرملة .

فتركع الفتاة أمام كرسي السلطان ، وتعانق ذراع مقعده ، وعندما يداعب السلطان شعرها ، تُرقّى الى مرتبة «مقبولة» ـ أي أنها باتت المختارة أو المحبوبة . وكانت هذه المرتبة الثانية تمنحها الحق بكشك ، وفناء صغير ، والحق بالاشتراك في الاعياد والمهرجانات .

وما إن تستقبل «المقبولة» في كشكها السلطان ـ وهذه حظوة لا تخفى طويلاً أبداً ، حتى تُرقّى الى مرتبة المحظية (إقبال) . وعندما تضع هذه المحظية أميراً ـ ذلك بأن ولادة فتاة لا يغيّر شيئاً في وضعها ـ ترتفع مرتبتها ، وتُعرف إذ ذاك باسم «رادين» .

كان السلاطين يتخذون أربع زوجات شرعيات . وعندما تموت أحداهن ، فإن «الرادين» الأقدم عهداً تحلّ محلّها بصورة آلية ، وفي حين أن النساء في مرتبة «إقبال» كان باستطاعتهن الاقتران أحياناً بوزراء ، أو جنرالات ، او دبلوماسيين ، ويعتبرن ذلك

صفقة رابحة ، فإن «الرادين» لا ينبغي لها أن تغادر دار الحريم مطلقاً .

عقب ثورة السنة ١٩٠٨ ، وعندما خُلع السلطان عبد الحميد الثاني ، انخفض عدد القاطنات في دار الحريم الى ٥٠٠ والنساء من مرتبة «الرادين» اللواتي لم يصحبهن السلطان الى منفاه ، عُزلن في السراي السابقة مع زوجاته اللواتي لم يحرص على أن يرافقنه . وعلى الرغم من أن مصيرهن لم يُحسدن عليه ، فقد كان بوسعهن أن يعتبرن أنفسهم سعيدات بالمقارنة مع المحظيات من مرتبة أدنى اللواتي قررت الحكومة الجديدة إعادتهن الى أُسرهن .

كان ذلك ، بالنسبة الى هاته النساء المدلّلات اللواتي أعتدن على الجاه العريض ، كارثة حقيقية . ومن مختلف الانحاء ، من أرمينيا ومن السهوب القفقاسية ، كان يتدفّق الرعاة والفلاحون ، لايواء هذه الاميرات الساقطات اللواتي غالباً ما كنّ يجهلن كل شيء عن أُسرهن .

كان قدرهن قاسياً بصورة خاصة . كثيرات منهن انتحرن ، لأنه لم يعد بوسعهن ان يحتملن ، بعد حياة الحريم ، حياة الأرياف الكئيبة . ومنهن من احترفن إما الرقص في بعض مقاهي المغنى ، أو البغاء . . .

إنها لنهاية محزنة حقاً بالنسبة الى حسان البوسفور الصبايا ، الملكات ليوم واحد ! . .

* * *

١٤ ـ من قتل الفرعون توت عنخ أمون؟

زهرة تحتفظ بنضارتها

إن اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط ١٩٢٢ هو تاريخ لا ينسى في حياة مصر والعالم ، فقد اكتُشف ضريح توت عنخ أمون الذي يعود تاريخه الى ٣٥٠٠ سنة . ويُعتبر هذا الاكتشاف بمثابة انقلاب سيحفز كتّاب التاريخ وعلماء الآثار على تغيير بعض مفاهيمهم بالنسبة الى تأريخ عالم ما قبل الميلاد ، وبالتحديد الحضارة الفرعونية

العريقة . وقد بدأ إمساك الخيط الرفيع في الوصول الى الضريح عندما فُتح احد الاكواخ في الخامس من تشرين الثاني ١٩٢٢ ، حيث تبّين انه ممر لسلّم حجري ومدخل لأحد الدهاليز المؤدية الى القبور .

وخلال الاسابيع التي تلت راح العالمان البريطانيان لورد كارنارفون وهوارد كارتر ، المشرفان على التنقيب ، يكتشفان بالتتابع ، التماثيل ، وقاعة الكنوز واخيراً الناووس الذي هو قمة الاكتشاف .

ووسط دهشة لها ما يبررها بالطبع ، على وجوه العالمين وبعض العمال والصحفيين المحليين ، عمد الى فتح الناووس . فلما رفع غطاؤه بدت مومياء توت عنخ أمون سليمة كانها دفنت يوم امس .

وسئل هوارد كارتر عن شعوره بعد تحقيق هدفه وعمله المتواصل في الاشراف على الحفريات والتنقيب ، وما هو الشيء الذي اثر فيه؟ اجاب : «اكثر شيء اثّر فيّ ذلك العقد الصغير المصنوع من الزهر ، وهو آخر آيات الوداع من الارملة الصبية الى زوجها الملك ، وقد احتفظ الزهر بألوانه الزاهية على الرغم من مرور ٣٥٠٠ سنة عليه .»

ويتألف ناووس توت عنخ أمون من اربع حجرات تضم ٦٠٠ مجموعة من الاشياء ، ومعظمها لم يعرف سابقاً وقد سلّمت جميعها الى المتحف الوطني المصري في القاهرة .

وتوت عنخ أمون من السلالة المصرية الثامنة عشرة ، عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وكانت ولادته في سنة ١٣٥٨ ، ووفاته سنة ١٣٣٥ ، وهو في الثامنة عشرة ، ولم يدم ملكه سوى ست سنوات . بلغ العرش على مذهب اتون وكان جو السياسة في الداخل والخارج يضطرب بمختلف العواصف ، فاعتنق مذهب «أمون» وانتقل الى طيبة ، ومات فيها . ويقع قبره في الجبّانة الملكية في وادي الملوك في طيبة على مقربة من بعض منابع النيل .

والقبر ضيق ليس في عمارته ما يدل على شيء من جمال الصنعة . وليس على جدرانه صور ورسوم كالتي تزدان بها امثالها من قبور الملوك ، عدا حجرة الدفن التي

تفردت بين مثيلاتها بمناظر تمثل تشييع جنازة فرعون ، والطقوس الدينية التي تجرى عند انزال الميت الى قبره وبلوغه رحاب الجنة واستقباله فيها . وهذه المناظر لم يألفها الناس في قبور الملوك في جبّانة طيبة ، والقبر بحد ذاته هو اول قبر ملكي ضل اللصوص السبيل اليه .

تسلّم توت عنخ امون عرش مصر القديمة وهو في سن التاسعة ، وجعل قانونياً حق المطالبة المشكوك فيه بوراثة العرش بفضل زواجه من الابنة الثالثة لسلفه اخناتون ، وبسبب النفوذ الذي كان يتمتع به كهنة امون هذا النفوذ الذي استُعيد على حساب كهنة اتون ابدل هذا الملك اسمه من توت عنخ اتون الى توت عنخ امون ، ونقل بلاطه من تل العمارنة الى طيبة ، المقر الاساسي . وقد سمي الوصي الاول على العرش ، هورمحب الذي خلفه في النهاية ، واسس الاسرة التاسعة عشرة .

والجدير بالذكر ان الحفريات من اجل اظهار تلك الاضرحة والقبور والكنوز التحتية التي تحتويها تحت طبقات كثيفة من الرمل ، كانت قد بدأت في العام ١٩٠٢ باشراف العالم الاميركي دايفس ، واستؤنفت سنة ١٩١٤ باشراف كارنارفون وكارتر ، وتوقفت خلال الحرب العالمية الاولى ثم عادت واستؤنفت بعد انتهائها الى ان تم تحقيق الحلم الكبير والاكتشاف الكبير .

من قتل توت عنخ أمون

قام مؤخراً البروفسور رونالد هاريسون ، من دائرة علم التشريح في جامعة ليفربول ، في إنكلترا ، بعمل جدّ متخصّص على مومياء الفرعون توت عنخ أمون الذي توفي وهو في الثامنة عشرة من سنيه . وتوصّل الى الاستنتاج ان هذا الملك الفتيّ الوسيم ، قضى مقتولاً ، بحسب كل احتمال ، وهو مستغرق في الرقاد ، وفقاً لأفضل «وصفات» المسرح الشكسبيري . يبقى معرفة من قتل توت عنخ أمون .

التقط البروفسور هاريسون نحواً من خمسين صورة بأشعة ايكس ، وبصورة خاصة لرأس مومياء الفرعون الشاب الذي توفي منذ زهاء ٣٨٠٠ سنة . وقد شاء معرفة السبب في وفاته المبكرة . وتقول جريدة الفيغارو الفرنسية في عددها الصادر في

٦ تشرين الثاني ١٩٦٩ ، ان الصور الشعاعية تُظهر أن عظام الفرعون ، عند قاعدة الجمجمة ، تبدو مسترقة «الأمر الذي يمكن ان يحمل على الافتراض أنه تلّقى ضربة .»

ولم يجرؤ البروفسور الاستنتاج بصراحة . غير أن كشفاً مضاداً قام به علماء بيولوجيون آخرون بدوا فيه مؤيدين . فلقد تلقّى الملك الشاب ضربة اولى تحت أُذنه ، وُجِّهت اليه بواسطة أداة غير مستدّقة (ربما كانت مطرقة خشبية حافاتها مستديرة ، شبيهة بتلك المستعملة في قرع الصنج) . ولما لم تكن الضربة مميتة بصورة مباشرة ، فقد استدعت ضربة ثانية ، مميتة .

ومذ ذاك يصبح من الصعب الشك : مات توت عنخ أمون قتلاً ، وسراً ، في قصره ، وفي وسط حياته العائلية ، عقب مؤامرة دقيقة ، وإخراج متقن . ولعله خُدِّر سلفاً ، وكان راقداً ممدّداً على جنبه ، عندما تلّقى الضربة القاتلة . وتحت تأثير الصدمة ، بطل مفعول المخدّر . على أي حال ، نهض الملك وقد دميت عنقه ، محاولاً رؤية قاتله . فمن اكتشف ، عند ذاك ، حاملاً المطرقة الخشبية بيده؟ يُجمع المؤرخون على الجواب : زوجته !

باقة خشخاش ومنثور متواضعة

الزوجة الملكية في السادسة عشرة . إنها تحبّ زوجها . خلال مراسم الجنازة ، تضع على الضريح ، بين الكنوز ، باقة متواضعة من زهور الحقل ، الخشخاش المنثور والترنجان ، عربون حب بسيط ورقيق ! سوى ان الحب شيء ، والهوى السياسي أو الديني شيء آخر .

لم يكن توت عنخ امون يحيا حياة تستحق المشاهدة ، بل كان يعتزل الناس . وكانت مصر خارجة من حرب أهلية ، حرب دينية . ولم يكن الوقت وقت عروض عامة ، ومواكب ، واحتفالات أو مهرجانات في الشوارع . فالحزب المهزوم ـ حزب «التوحيد» بزعامة أخناتون ، لم يكن قد استؤصل . وظل خطر الاغتيال ماثلاً .

وكانت أرملة أخناتون (نفرتيتي) حيّة تُرزق ، على الرغم من أنها كانت مبعدة عن

القصر والعاصمة ، وحولها يتجمّع آخر عابدي «القرص الشمسي» الذين شاءوا ان يُلاشوا قبل الاوان ، ديانة مصر القومية .

حدث مذهل

لم يكن اغتيال توت عنخ أمون ، إذاً ، ممكناً ، إلا بالتواطؤ مع المضجع الملكي . ولكن لماذا يتفق المؤرخون على تجريم زوجته؟

جرى حدث مذهل عقب الجنازة . فقد دخلت الأرملة الملكية التي كان بوسعها ان تحكم بمفردها (كما سبق للملكة الشهيرة حتشبسوت أن فعلت) ، دار الحريم بصفة زوجة ثانية . . . وقد ارتبطت بعلاقة مع عجوز متزوج لم يكن حتى من النبلاء : كاهن من رجال الحاشية ، كان من قبل من أنصار هرطقة أخناتون ، وقد أقرّ بالذنب عندما أعاد توت عنخ أمون الديانة القومية .

إن دخول الحريم في مثل هذه الحالات لهو حتماً ، طريقة ارستقراطية لدخول السجن . ذلك بأنه لم يكن في الوسع محاكمة أرملة ملكية علناً ، لأن الفضيحة كانت تضرم نيران الحقد الشعبي لمصلحة توت عنخ أمون ، مرمم الديانة القومية .

ولا ننسى ان هذه الارملة كانت أيضاً ابنة أخناتون صاحب البدعة (أو الهرطقة) الذي أراد القضاء عليها . ومن جهة اخرى لم يكن بالوسع عدم المعاقبة على مثل هذا الجرم . وكان الحريم السجن الأنيق المناسب لملكة ، قاتلة ملك ! . . .

يزعم مؤرخون يستندون الى محفوظات حثّية (في آسيا الصغرى) ، ويفسّرونها تفسيراً بلا تروٍّ ولا تفكير ، أن الأرملة الملكية فاوضت سرّاً امبراطور الحثّيين ، المنافس التقليدي للفراعنة (الملكان كانا يتنازعان سوريا وفلسطين) . وكانت الملكة تفكر في زواج جديد من أمير حثّي ، وكانت ستحمل مصر على سبيل البائنة (الدوطة) . ولا يذكر النص الحثّي الاسم المصري للأرملة الملكية . ولا يمكن أن تكون المقصودة أرملة أخناتون ، التي تزوجت ثانية في العزلة ، ولكن المقصودة الارملة الملكية الاخرى نفرتيتي ، زوجة اخناتون المتوحّدة . وتوقفت المفاوضات التي كانت على وشك ان تؤدي الى وضع يد الحثّيين على مصر ـ اي إلى استعمار مصر : قُتل الأمير وسط

الصحراء بينما كان يتجه شطر طيبة .

ملكة وزعيمة روحية

عقب إفلاس البدعة والعودة الكاملة للديانة المصرية القومية ، انسحبت نفرتيتي ، الأرملة ، الى جوار طيبة ، وسط آخر المخلصين لها . ولم تعترف قط بملكية توت عنخ أمون ، واشتهرت بسلسلة من الجرائم الفظيعة ذهب ضحيتها كل من زوجها وصهريه !

والواقع أن اخناتون بعد ارتداده ، قضى على حين غرَّة . ومات كذلك فجأة صهراه اللذان تقبّلا ، مثله ، مبدأ العودة الى ديانة أمون ـ رع التقليدية . ولعلّ نفرتيتي العجوز ، بعد أن «زادت سوءاً» ربما ، نوبة الصرع لدى زوجها ، بالسم او بالسحر والشعوذة ، استخدمت ابنتيها «للتخلّص» من صهريها ، على التوالي . وكيف يمكن لابنتين المتعصبتين منذ الطفولة الأولى ، مقاومة فتنة «الزعيمة الشمسية»؟ !

وربّ معترض يقول ان هذا الانتقام لم يُكسب بدقة الحزب الآري المهزوم شيئاً . ولكن الأمر يتعلّق بانتقام امرأة ! إن التعصّب ، سواء أكان دينياً او سياسياً ، قد يبدّل روح المرأة ، ويفسدها الى أبعد مما يتصوره الخيال ، والامثلة التاريخية كثيرة جداً .

كانت نفرتيتي ملكة وزعيمة روحية !

* * *

١٥ – كتابات مزوّرة شوّهت التاريخ

وصف الناقد الاميركي أندرو لانغ روح التزييف او التزوير بأنها «الموزيّة العاشرة» ! وقال انها قد تكون اكثر انهماكاً في العمل واكثر ابتكاراً ، من شقيقاتها التسع . والموزيّة هي احدى الإلاهات التسع الشقيقات اللواتي يحمين الغناء والشعر والفنون العلوم ، في الميثولوجيا الاغريقية .

فتحت سيطرتها ـ سيطرة الموزية العاشرة ـ صنع الفرنسي دنيس فران ـ لوكا ،

اكثر من ٢٧ الف وثيقة مزوّرة مزعومة انها من وضع ارخميدس ، وصافو ، ويهوذا الاسخريوطي ، ويوليوس قيصر ، وشارلمان ، وسواهم كثيرين .

وقد غالى في التزوير عندما وضع رسالة يعزو فيها الى بليز باسكال ، الفضل في اكتشاف قانون الجاذبية بدلاً من اسحق نيوتن .

وابدى دجوزف كوزي ، اكثر الاميركيين انتاجاً في مجال التزوير ، اهتماماً دقيقاً بالتفصيل عندما اضاف مدوَّنات موجودة فعلاً وحالياً الى تاريخ الولايات المتحدة الاميركية ، من آرون بر الى ابراهام لنكولن .

ونجح البريطاني وليام هنري آيرلند في استخراج نسخه مطابقة لمخطوطَي شكسبير «هامليت» و «الملك لير» ، حتى افتضح أمره باضافة «فورتيغرن وروونيا» الى آثار المؤلف الموثوق بها . . .

* * *

غير ان هناك مزَّورات كانت وبالاً على القائمين بها وتركتهم صفر الايدي ، حمر الوجوه ؛ وإحدى هذه القضايا قضت على حياة شعرية كانت تعد بمستقبل لامع . ففي الستينات من القرن السادس عشر ابتكر توماس تشاترتون (مولود في ٢٠ تشرين الثاني ١٧٥٢) وهو فتى من بريستول ، في إنكلترا ، شخصية راهب دعاه توماس رولي ، وكتب مخطوطات شعرية تبدو أنها مكتوبة بأسلوب ولغة القرون الوسطى ، مهرها باسم الراهب . وكان يأمل من وراء ذلك ان يدلل على مهارته بهوية زائفة ، ومن ثَمَّ ، يعمد الى كشف نفسه ، وإنه هو المؤلف عقب اكتسابه اهتمام الجمهور . وقبل ان يتم له ذلك ، اكتُشفت الخدعة ، ودُفنت ميزات الاشعار في الصمت الذي نجم عن ذلك . وقد انتحر تشاترتون في سن السابعة عشرة وتسعة اشهر بتناوله الزرنيخ في ٢٤ آب ١٧٧٠ بعد ان مزّق إرباً إرباً ما كان بين يديه من الآثار الادبية آنذاك .

* * *

وثمة تزوير عجّل في نشوب حرب وفي توحيد المانيا . ففي السنة ١٨٧٠ التقى الملك فلهلم الاول البروسي السفير الفرنسي في إمز ، وارسل تقريراً بما جرى الى رئيس وزرائه اوتو فون بسمارك . وكتب بسمارك هذه الرواية بصيغة جعلتها تبدو مهينة بالنسبة الى الدبلوماسي الفرنسي ، ثم سلّمها الى الصحافة . وكما رجا ، هاجم الفرنسيون الحانقون المانيا متيحين لبسمارك الفرصة لأن يباشر الحرب الفرنسية ـ البروسية التي انتصر فيها ، في النهاية .

* * *

كان الزمان القرن الثامن ، وقد غدت سياسة الامبراطورية البيزنطية بيزنطية حقاً . فالتشريع الصادر من القسطنطينية هدّد بتخفيض أهمية روما والبابوية . وواجهت الكنيسة احتمال ان تبتلعها الدولة . وبطريقة عجائبية ابرز البابا اسطفانوس الثاني في السنة ٧٥٤ وثيقة ساعدت على حمايته وحماية خلفائه من بعده ، والكثلكة طوال ٧٠٠ سنة .

«هبة قسطنطين» جاءت ظاهرياً من يد الامبراطور المبجّل الذي اعتنق المسيحية في السنة ٣١٢ . وقرّر قسطنطين مغادرة روما في السنة ٣٢٤ لأنه اعتقد ، حسب احدى الاساطير ، انه من غير المناسب ان يمارس سلطانه الزمني من المدينة نفسها التي يمارس فيها خليفة بطرس سلطانه الروحي . فانتقل الى بيزنطة التي اصبحت القسطنطينية ، ومركز الامبراطور الجديد . ولكن ، قبل مغادرة روما ، ووفقاً لـ «لهبة» عرض قسطنطين ان يتخلّى عن تاجه وسلطته الامبراطورية للبابا سلفستروس الاول ؛ ومنح الامبراطور ايضاً «البابوية الحكم على روما وكل المقاطعات والاماكن ، والمدن ، في ايطاليا ونصف الكرة الارضية الغربي .» وكانت التوريطات في هذه الوثيقة كبيرة . وعلى الرغم من ان سلفستروس لم يرضَ بدعوة قسطنطين لأن يصبح امبراطوراً ، فقد اثبتت «الهبة» دَيناً يستطيع اي بابا ان يطالب به ساعة يشاء . وشرعاً ، كانت روما من سمح لقسطنطين ان ينجح ، وليس العكس .

ولكن في القرن الخامس عشر بيّن عالمان هما نيكولاس كوزا ولورنزو فالا ، كل على حدة ، ان «هبة قسطنطين» كانت تزويراً ، وربما من عمل واحد من مكتب المحفوظات البابوية خلال ولاية البابا اسطفانوس الثاني . وكان ضرورياً من اجل كشف التزوير اكتشاف صياغة لغوية في الوثيقة لا تنسجم مع اللاتينية في القرن الرابع . وتبيّن ان المصدر الرئيسي لهذه «الهبة» كان رواية نابضة بالحياة تعود الى القرن الخامس ، تتعلق باعتناق قسطنطين النصرانية . ومهما تكن الاخلاقيات في هذه القضية ، فان المكيّف (او المكيّفين) ابتاعوا قروناً ثمينة للكنيسة لحماية سلطانها ، وتوسيعه ، وتعزيزه . وفي السنة ١٥١٧ (السنة التي اصدر فيها مارتن لوثر نقاطه الـ ٩٥) ، وبعد ان كانت بحوث فالا قد انتشرت طوال عقود من الزمن بشكل مخطوطة ، فقد ظهرت في المانيا بفضل الطباعة ، هذه الأداة الجديدة نسبياً آنذاك ، ولم تعد «الهبة» ضرورية لبقاء الكنيسة . غير ان روحها ظلت تتردد في الاحلام البابوية المتعلقة بالسيطرة الزمنية . وقد انتهت كلها أخيراً في السنة ١٨٧٠ ، عندما ضُمَّت الولايات البابوية الى مملكة ايطاليا .

* * *

في السنة ١٧٦٠ ، وفي لندن ، اعلن شاب اسكتلندي ضخم الجسم قوي البنية يدعى دجيمس ماكفرسون ، عن طبع بعض التحف الادبية بعنوان يفسّر نفسه بنفسه : «مقتطفات من شعر قديم ، مجموعة من نجاد اسكتلندا ، ومترجمة من اللغة الغيلية» (هي لغه السلتيين في ايرلندا والمرتفعات الاسكتلندية) ، وجمع بعض المعجبيين بهذا الكتاب ، وفي جملتهم دجيمس بوزويل ، مبلغاً من المال لإيفاد المترجم في جولة لجمع المزيد من الاغاني القديمة . وفي السنة التالية قدّم اليهم ملحمة «فنغال» في ستة كتب معزوة الى اوسيان ، الشاعر الغيلي الذي عاش في القرن الثالث ، وظهرت ترجمات اخرى قام بها ماكفرسون لقصائد اوسيان في السنة ١٧٦٣ ، فلاقت الكثير من التقريظ والجدل معاً .

لقد سرّ الاسكتلنديين ان يعلموا انهم أصحاب تراث ادبي اعرق كثيراً من التراث الانكليزي وأكبر . واستشاط الايرلنديون غضباً لرؤيتهم وهجهم الغيلي يسرقه الكاليدونيون .

وغذّت القصص الاوسيانية الزاخرة بالاعمال البطولية ، فضلاً عن الاهتمامات المغالية في التعصب حداً من المعاداة للمذهب العقلي الذي كان ينمو في انكلترا واوروبا . وقد غلّبت هذه الآثار من التاريخ الوسيط الضبابي الاحساس على الفكر ، والغريزة على التربية . وقد اثبتت ان الحديث الرفيع يمكن ان يصدر عن شعر بدائي ، متواضع . وكتب الشاعر توماس غراي الذي سبق ان رثى «ملتون الصامت المغمور» المدفون في فناء كنيسة في الريف : «لقد اقام الخيال منذ مئات السنين بكل أبّهته فوق جبال اسكتلندا الباردة الجرداء . انه يسود في كل المجتمعات البشرية الناشئة حيث تجبر ضرورات الحياة كل واحد على التفكير والعمل لنفسه شخصياً .»

لقد كان الوقت ملائماً جداً بالنسبة الى القصائد الاوسيانية ، بحيث انه كان ينبغي لشخص ما ايجادها ، فيما لو لم توجد . وقد فعل ذلك ماكفرسون بصورة رئيسية . وقد قرّر صمويل دجونسون ، الوجه الادبي البارز في ذلك العصر ، ساعة قرأها ، ان الترجمات مزوّرة ، ذلك بأنه ظهر واضحاً تماماً انها من عمل عقل معاصر يحلم ببقايا أساطير حقيقية .

وعندما سأله احد المدافعين عن ماكفرسون «عما إذا كان يعتقد ان بوسع اي رجل في عصر حديث كتابة مثل هذه القصائد» ، اجاب دجونسون : «اجل ، يا سيدي ، كثيرون من الرجال ، وكثيرات من النساء ، وكثيرون من الاولاد» . وزعم ماكفرسون ان لديه المخطوطات الاصلية ، ولكنه رفض كل الطلبات لإبرازها .

ولما انكر عليه دجونسون هذه «الجرأة العنيدة» على انه «ملاذ أخير للمجرم» ، بعث اليه ماكفرسون برسالة تهديد . فتسلّح الدكتور ، وكان اذ ذاك في الخامسة والستين من عمره ، بعصا طويلة من السنديان ، كان يبقيها دوماً بجانب سريره ليلاً .

ولم يحدث قط اي هجوم او اعتداء . واستمر ماكفرسون متكتماً على مصدر عمله . وفي نهاية المطاف ابرز ، كدليل ، بعض المقاطع الغيلية تبيّن في ما بعد انها

ترجمات غير ملائمة من وضعه بالانكليزية . غير ان القضية كانت تتطور لتصبح اكثر اكاديمية . فقد الهمت اختراعات ماكفرسون القراء شغفاً لم يخمد طوال ما يقارب القرن من الزمن . ففي القارة الاوروبية ، مدح غوته الاعمال ، وزيّن نابوليون سقف قاعة مكتبه بلوحات مستوحاة من مشاهد من اوسيان . وكان يحمل ترجمة للقصائد معه في كل حملاته العسكرية . ولما توفي ماكفرسون في السنة ١٧٩٦ ، في سن التاسعة والخمسين ، دُفن في كاتدرائية وستمنستر ، مثوى العظماء ، غير بعيد عن ضريح الدكتور صمويل دجونسون .

ملحق مصوَّر

٥ ـ متفرقات



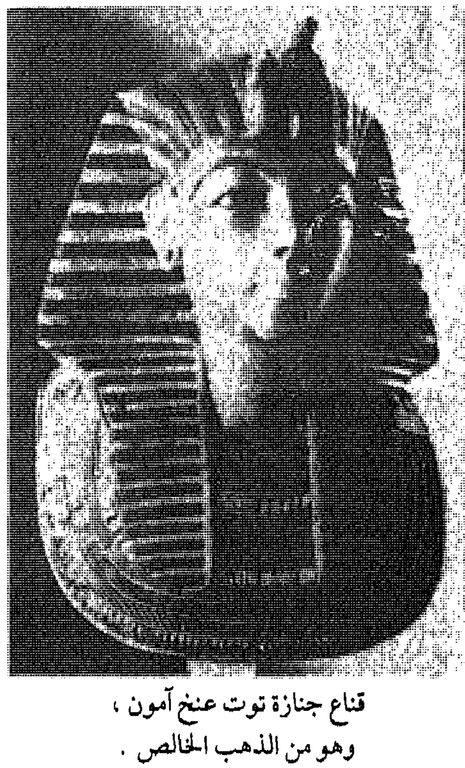
نفرتيتي
(متحف القاهرة)



تمثال نفرتيتي الذي
يباع في الأسواق للهواة .



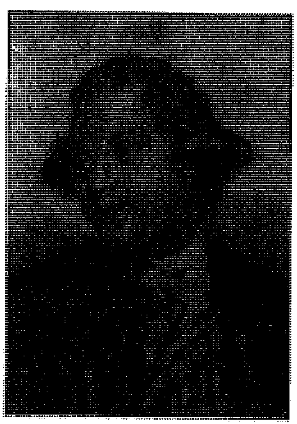
«حميًا رولان أثرّت في العدوَّة الصبية .»



قناع جنازة توت عنخ آمون ،
وهو من الذهب الخالص .



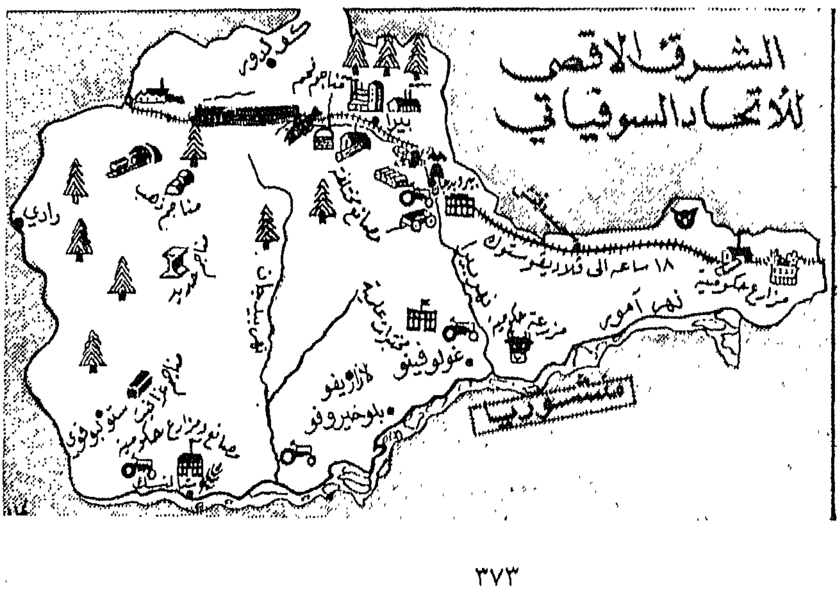
عبد الله بن المقفع .



المترجم ماكفرسون .



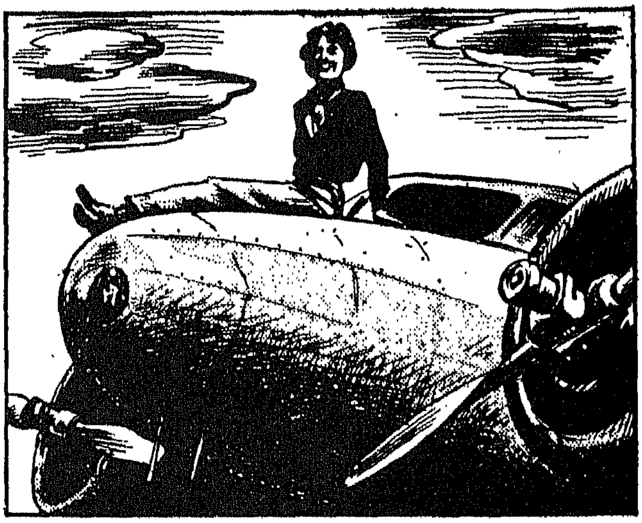
القيصر نقولا الثاني وأفراد أسرته .



خريطة بيروبيدجان



الطيَّارة آميليا إرهارت



الفهرس

المجلد الثاني

١ ـ من التاريخ الالماني والنمساوي

٢ ـ من التاريخ الرّوسي

٣ ـ من التاريخ الايطالي

٤ ـ من التاريخ الشرقي

٥ ـ متفرقات

من كواليس التاريخ
الجزء الثاني

في هذا الجزء الثاني من كتاب «من كواليس التاريخ» حوالى ٥٠ سراً من اسرار التاريخ الغامضة التي لم تنجل اسرارها - وربما لن تنجلي مطلقاً - التي يعج بها التاريخ الألماني، والنمساوي، والروسي، والإيطالي، والشرقي والعربي... فيه :

* مأساة مايرلنغ.
* لودفيغ الثاني البافاري، الملك المجنون.
* جريمة اغتيال في سراييفو : رصاصتان كانتا نهاية السلام في اوروبا.
* الجنرال الذي تحدى هتلر.
* لعبة مذابح حول هتلر.
* لماذا حرر هملر ٢٥٠٠ يهودي؟!
* ماذا حل بمارتن بورمان؟
* هل ماتت أنستازيا السنة ١٩١٨؟
* قضية ابنة كارل ماركس الغريبة.
* لينين : معركة من اجل ميراث.
* اخفاق المحاولة لاغتيال لينين.
* كيف استولى ستالين على الذهب الاسباني؟
* تقاليد آل بورجيا.
* كاليوسترو، الكونت المزيف، يشغل اوروبا بأكاذيبه.
* النشاب الذي اختلس موسوليني بمهارة.
* قطب من أقطاب الفاشيستية يتكلم!
* اوطان قومية يهودية بديلة عن فلسطين.
* قضية حرق العرب مكتبة الاسكندرية.
* من أمر بقتل القيصر نقولا الثاني ولفيف اسرته؟
* وفاة امرئ القيس بعد رفضه الصلح مع قاتل ابيه.
* كيف كانت نهاية الطيارة اميليا إرهارت؟
* دخل ابن المقفع دار والي البصرة ولم يخرج منها.
* من قتل الفرعون توت عنخ أمون؟